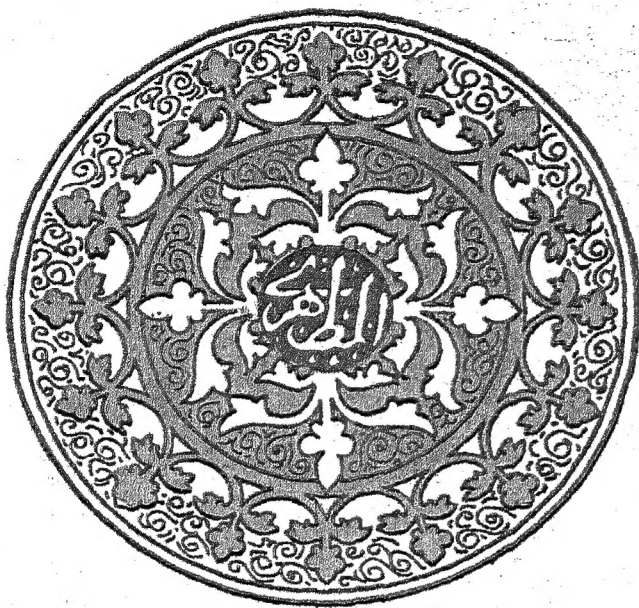


الأستاذ مرتضى المظهرى

المجلد ٢
الحسينية



الدار الإسلامية

0116340



Bibliotheca Alexandrina





الملاحه
الحسينيه

الملحمة الحسينية

الأستاذ مرتضى المطهري

تعريب
السيد محمد صادق الحسيني

الجزء الثالث

الدارالاسلامية

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الثانية

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

كورنش للمزرعة، بساية المحسن سنتر، الطابق الثاني، هاتف: ٨١٦٦٢٧٠
فريع ثاني: حارة حريك، شابع دكاش، هاتف: ٨٣٥٦٧٠
صرب: ١٤٥٦٨ - تليكس: ٢٣٢١٢ - غدير



القسم الأول الجذور التاريخية لواقعة كربلاء

كيف قتلت أمة النبي ابن النبي !

إن واقعة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ، ليست فقط واقعة كارثية ، ومظهراً من مظاهر الفداء العظيم والنادر ، بل إنها أيضاً واقعة عجيبة من زاوية التبرير الروحي للقضية .

وقد حصلت أحداث الواقعة بعد خمسين سنة من وفاة النبي الأكرم ، وعلى أيدي جماعة قالوا بأنهم مسلمون ومن أتباع الرسول الأكرم ومُحِبِّي آل علي ، ولكن تحت راية أولئك الذين ظلوا يُقاتلون النبي حتى خمس سنوات قبل وفاته ، حين أسلم الكثير من جماعات تلك الديار ، الأمر الذي اضطرهم هم كذلك أن يُسلموا بالأمر الواقع ، ويصبحوا مسلمين في الظاهر . (وكما يقول عمار بن ياسر : استسلموا ولم يُسلموا) .

إنّ أبا سفيان قاتل النبي لمدة تناهز العشرين عاماً ، وكان في السنوات الخمس الأخيرة قبل استسلامه ، على رأس الجماعات المحاربة للإسلام ، وكان حزبه أي الحزب الأموي من أعدى أعداء الله ورسوله ، وألدّ خصامه .

ولم تمضِ عشر سنوات ، على وفاة النبي ، حتى صار معاوية بن أبي سفيان ، الذي ظلّ يُقاتل النبي لسنوات عديدة ، كتفاً إلى كتف مع أبيه ، والياً للمسلمين على بلاد الشام وسورية ، وخليفة للنبي ، وأميراً للمؤمنين ، بعد مضي

ثلاثين عاماً على رحلة الرسول الأكرم !

وبعد مضي خمسين عاماً على تلك الرحلة فقد صار يزيد بن معاوية هو الخليفة ، والوصي ، على شؤون المسلمين ، وقام بقتل ابن النبي بذلك الشكل الفجيع وعلى أيدي جماعة من المسلمين ، كانت تنطق بالشهادتين وتُصلي ، وتؤدي مناسك الحج وتدير معاملاتها كافة طبقاً للتعاليم الإسلامية ، وتُزوّج أبناءها ، وتدفن موتاهم في مقابر المسلمين .

وهذه الجماعة لم تكن قد تنكرت للإسلام - وإلا لما كان هناك لغزٌ مُحيرٌ في مسلسل الحدث - ولا كانت تُنكر حرمة مقام الإمام الحسين ، أو اعتقدت - أعوذ بالله - بخروج الحسين على الدين ، بل إنها كانت تعتقد بالتأكيد بأفضلية الإمام الحسين على يزيد .

والآن كيف تمكن حزب أبي سفيان من استلام السلطة أساساً ، ومن ثم ماذا حدث حتى صار المسلمون ، بل وشيعتهم هم قتلة الإمام الحسين (ع) ، بالرغم من عدم اعتقادهم باستحقاقه للقتل ، بل حتى إنهم كانوا يحترمون دمه أكثر من دم أي مسلم آخر ؟!

فمن ناحية استلام السلطة من قبل حزب أبي سفيان ، ينبغي الإشارة هنا إلى أن أحد الأمويين ، ممن لم يكن لهم سابقة سيئة بين المسلمين ، وهو من المسلمين الأوائل ، كان قد وصل إلى سدة الخلافة .

وهذا بدوره أفسح المجال لإيجاد موطيء قدم للأمويين داخل مؤسسات الحكومة الإسلامية ، بحيث إنهم صاروا يُطالبون بملكية الخلافة الإسلامية (وهو ما صرح به مروان بن الحكم أمام الثوار الذين كانوا قد أحاطوا ببيت عثمان) ، هذا بالإضافة إلى أن موطيء القدم هذا كان قد هُيئت الظروف له ، منذ زمن الخليفة عمر ، الذي بدوره ساهم في صعود الأمويين للسلطة ، من خلال تعيينه لمعاوية والياً على بلاد الشام وسورية ، الغنية خصوصاً ، إذ ما أخذنا بعين الاعتبار اللغز الذي لم نجد له حلاً ، لكون عمر كان يجري تعديلات ، وتطهيرات

مستمرة في الولايات الإسلامية كافة ، من دون أن يتعرض لولاية الشام ، وواليها معاوية !

لقد كان الأمويون السبب الرئيسي وراء فساد الأوضاع في أجهزة الخلافة ، أيام عثمان ، مما دفع الناس للقيام ضد الخليفة ، وقتله .

غير أن معاوية الذي كان قد كمن منذ مدة ، وهو ينتظر الفرصة المؤاتية للقفز إلى قمة السلطة ، اعتبر الوقت مناسباً لانتزاع زمام المبادرة من يد الثوار ، فقام بحملة دعائية واسعة ، رفع خلالها شعار المطالبة بدم عثمان ، وطرح نفسه مُدافعاً عن الخليفة الشهيد ، والخليفة المظلوم و . . . واستغل الأمر أشد الاستغلال ، ورفع من درجة مظلومية خليفة النبي ، وصعد الموقف باتجاه حسم الصراع لصالح توليه قمة الهرم السلطوي ، حيث وجه اتهاماته ضد الإمام علي (ع) ، واعتبره قائد الثوار ، والمحرّض على قتل الخليفة ، وبالتالي فإنّ على الناس أن تقوم ضد الخليفة الجديد ، الذي لم يكتف بقتل الخليفة فقط ، بل وآوى الثوار ، وحماهم كما يزعم معاوية وما أكثر دموع التماسيح التي ذرفها في هذا المجال !

وهكذا تمكن معاوية ، من تعبئة القبائل العربية كافة ، التي كانت قد اتخذت من الشام سكناً لها ، بعد فتحها من قبل المسلمين ، وجعلها تُنادي بصوت واحد ، وترفع لواء الانتقام من قتلة عثمان ، ورد الحيف الذي لحق بالخليفة المظلوم ، ومن خلال قميص عثمان ، استطاع معاوية أن يُعبئ ، في الواقع ، قوى الإسلام ضد الإسلام .

الحوادث الغامضة في صدر الإسلام

لقد وقعت حوادث محيرة ونادرة في التاريخ ، يصعبُ ربما على البعض منّا أن يجد المبررات ، أو التفسيرات المناسبة لها ، ومن بين هذه الحوادث موضوع تقدم الإسلام السريع ، وهيمته على أفكار وعقائد الزمان : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أو واقعة الحركة الحسينية ، وملابس ثورة الإمام عليه السلام .

فالذين نصحووا الحسين (ع) بعدم الانطلاق والتحرك في ثورته ، كانوا كثيرين ، ومنهم القريب ، والبعيد والغريب ، وكان منطقتهم جميعاً يتركز على غدر أهل الكوفة ، وسابقتهم في عدم الوفاء بالعهد .

والعجيب أنّ الإمام (ع) لم يكن يردُّ منطقتهم هذا ، لكنه - ومن خلال ردوده عليهم ، ولا سيما تلك الخطب التي ألقاها ، وهو في الطريق بين مكة وكربلاء ، يتضح أنّ الإمام الحسين (ع) كان يتحرك في سياق منطق أوسع من منطقتهم المحدود .

وإذا كان منطق أولئك الناصحين يتركز على محور المحافظة على النفس ، والأولاد ، والسلامة العامة ، فإن منطق الإمام كان يستند إلى ضرورة حفظ الدين ، والإيمان ، والعقيدة .

ففي رد الإمام (ع) على نصيحة مروان له بعدم الخروج تراه يقول : «وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

إنّ استلام معاوية للسلطة ، ومن بعده يزيد ، وتعبئتهما للقوة الإسلامية البشرية ، ضد علي بن أبي طالب ، والحسين بن علي عليهما السلام ، بالرغم من عدم ارتداد الناس عن دينهم ، يُعتبر واحدةً من الحوادث التاريخية الغامضة ، في عصر صدر الإسلام .

ولا بد لنا قبل كل شيء أن نبحث في قضيتين حتى 'نتمكن من اكتشاف الماهية ، والهدف ، والدافع ، من وراء واقعة الثورة الحسينية .

أولاً : سبب محاربة الأمويين الشديدة وعلى رأسهم أبو سفيان للإسلام والقرآن .

وثانياً : أسباب نجاحهم في السيطرة على السلطة والحكومة الإسلامية .

ففيما يخص الموضوع الأول ، يبدو أنه عائدٌ لسبيين :

أحدهما : يتمثل في المنافسة العرقية التي كانت متراكمة على مدى ثلاثة أجيال .

والثاني : وجود الفارق الكبير بين القوانين الإسلامية التي جاءت مع الدين الجديد ، وبين نظام الحياة الاجتماعية الذي كان يتحكم برؤساء قريش ووجهائها ، لا سيما الأمويين منهم ، والذي انقلب رأساً على عقب مع مجيء الإسلام ، وهو ما اعتبره الإسلام مبدأ عاماً لا بد منه .

ولذا نقرأ في سورة سبأ قوله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ، إِلَّا قَالُوا مُتْرَفُوهَا . . . ﴾ وهو الأمر الذي يتكرر في سُور أُخْرَى من القرآن الكريم كالزخرف ، والواقعة ، والمؤمنون ، وهود .

هذا بالإضافة إلى أَنَّ التعليقات الإلهية والربّانية الجديدة ، لا يمكن أن تتلاءم مع الأمزجة الروحية ، والبُنية الأخلاقية ، لبني أُمّية ، القائمة في الأساس على قاعدة عبادة المادة ، والمنفعة المادية .

وهذا أمرٌ لا علاقة له بمدى ذكائهم ، أو غباوتهم ، فالذي يُدْعَن لتلك التعليقات الإلهية ، ويخضع لها ، لا بد وأن يكون يحمل في داخله أساساً إشراقاً ولو بسيطة من الشرف ، وعزة النفس ، وعلوها ، ونوراً ، وحياةً ، وهدايةً ، كامنةً في خيرة نفسه .

قال تعالى : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ .

وهذا أصلٌ ، ومبدأ ، وركن أساسي من أركان الإسلام .

وقصة أبي سفيان مع العباس بعد فتح مكة وقوله له : « لقد صار مُلك ابن أخيك عظيماً » .

وقول العباس له في مكان آخر : « بالله غلبتُك يا أبا سفيان » .

وقول أبي سفيان مرة أخرى لما صار عثمان خليفةً : « تَلَقَّفُوهَا تَلَقُّفَ الكَرَةِ » . ما هي إلا أقوال تدلّ على العمى الباطني لأبي سفيان .

وأما كيف تمكن الحزب الأموي من أن يتحول في العصر الإسلامي إلى

حزب فعال ، ونشيط ، وقادر ، ويمسك بزمام الحكومة الإسلامية ؟ فذلك حديث آخر نعرض له فيما يلي :

قبل كل شيء ، لا بد من القول : إنّ المجتمع الجديد النشأة والوليد ، لا يمكن له أن يحافظ على نسقٍ واحد ، وتركيبية منسجمةً واحدة ، مهما كان عامل الوحدة عاملاً قوياً فيه^(١) .

فهذا المجتمع الإسلامي الوليد والناشئ ، ومهما كان قد اكتسب من وحدة قوية تحت لواء التوحيد ، وراية لا إله إلا الله ، ومهما قيل من تمكّنه من القضاء على الفوارق الشككية ، والعرقية ، بصورة تشبه المعجزة ، لكنه في الوقت نفسه لا يمكن تصوّر إمكانية محو الطباع ، والعادات ، والأخلاق ، والآداب ، والأفكار المتنوعة ، لمجتمع قامت أركانه لفترات طويلة ، وتشكّلت أسسه من أعراق وعناصر مختلفة ، وبالتالي استقبال أفرادها كافة ، للقضايا الدينية ، والتربية الإيمانية الجديدة ، بشكل متساوٍ !

فلا بد أن يظهر بينهم من هو قوي الإيمان ، وآخر ضعيف الإيمان ، وثالث يعيش في حالة من الشك ، والكفر ، والإلحاد الباطني .
ولهذا ليس من السهل إدارة مثل هذا المجتمع على أساس الإسلام ، وضمان بقائه نقياً وسالماً ، لسنوات طويلة ، بل ولعقود متواصلة ، وإبقائه في ظل نظام وحكوميّة معينة .

(١) أليس من حقنا القول هنا بأنّه كان الأفضل للمسلمين الصبر ، وعدم الاستعجال في الفتوحات ، وانتظار رسوخ الإسلام ، وانتشاره إلى المجتمعات الأخرى بشكل طبعي ؟ وإنه لولا الاستعجال لما كانت تلك الانقسامات والخلافات الحادة التي انتشرت فوراً ؟ والجدير ذكره هنا بأنّ النبي (ص) لم يوص بالفتوحات بالرغم من أنه ترك وصايا كثيرة لأصحابه وأنصاره وصحيح أن الفتوحات كان لها أثر حلو وانطباع طيب في الظاهر ، لكنه ليس معلوماً إذا ما كانت موضع تأييد العقل . وليس معلوماً إذا ما كان علي سيوافق على الفتوحات في حال توليه منصب الخلافة منذ البداية . ولهذا تراه ركّز على الإصلاحات الداخلية عندما تولّى منصب الخلافة فيما بعد . بالإضافة إلى أن هذه الفتوحات قد أفسدت أخلاق العرب على ما يبدو . وعليه يمكن القول بأنّ الفتوحات ساهمت في خلق مجتمع لا متجانس من جهة ، وأفسدت العنصر العربي داخل المجتمع الإسلامي من جهة أخرى .

إنَّ القرآن الكريم نفسه يتطرق إلى وجود المنافقين الذين كانوا يُشَوِّشون على المؤمنين في قولهم :

﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ و ﴿ أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ويتضح من خلال اهتمام القرآن الكثير من ظاهرة المنافقين ، وعرضه المتكرر لقضاياهم ، أنه إنما أراد تنبيه المسلمين إلى الخطر المهم الذي يُمثِّلونه في المجتمع ، وضرورة مقارعته^(١) .

وقد كان على رأس أولئك المنافقين في المدينة ، عبد الله بن سلول .

إلى جانب ذلك فقد أتى القرآن الكريم على ذكر (المؤلفة قلوبهم) الذين أصبحوا ، شئنا ذلك أم أبينا ، جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي الوليد ، حيث كان لا بد للمسلمين من رعايتهم ، بل وتخصيص جزء من الميزانية العامة للصدقات والزكاة ، لصرفها عليهم ، من أجل تقوية إيمانهم ، وجذبهم أكثر فأكثر إلى الإسلام ، أو ضمان كسب أجيالهم اللاحقة ، على الأقل ، وصهرهم في بوتقة الإسلام ، من دون أن تسند إليهم بالطبع المناصب الحساسة في الدولة .

إنَّ النبي (ص) كان يشمل بِخُلُقهِ الكريم حتى المنافقين ، والمؤلفة قلوبهم ، لكنه لم يتهاون لحظة في اتخاذ الحيطة والحذر تجاههم .

وطالما أن النبي على قيد الحياة ، لم يتمكن الأمويون من ضعفاء الإيمان ، أو المؤلفة قلوبهم ، أو المنافقون ، من إيجاد موطئ قدم لهم داخل جهاز الحكم الإسلامي ، ولكن للأسف فقد تمكنوا بعد موته (ص) من الإمساك بالمناصب الحساسة ، شيئاً فشيئاً ، لا سيما في عصر الخليفة عثمان .

فبعد أن كان مروان وأبوه طريدي رسول الله (ص) تمكنوا في زمن عثمان من استعادة مواقعهما الاجتماعية ، بل والنفوذ إلى مؤسسات الحكم ، في حين أن كلاً من الخليفة الأول والثاني ، كانا قد رفضا شفاعة عثمان لهما ، وبالتالي لم يوافقا على عودتهما إلى المدينة المنورة ! في حين أن مروان هذا هو المسبب الأصلي للفتن ، ومن جعلتها فتنة. قتل عثمان .

(١) وهذه ظاهرة ملفتة للنظر تُظهر الشجاعة التي يتميز بها الأسلوب القرآني من خلال عكسه لمنطق الكفار والمنافقين دون وجل أو تردد .

لقد تمكن الأمويون من السيطرة على بيت المال ، والمراكز الحساسة للسلطة بعد نهاية عهد حكومة عثمان ، ومع تمكنهم من الثروة ، والمراكز الحساسة ، لم يُعد ينقصهم في الواقع سوى ذلك العامل القوي والأساس ، ألا وهو عامل الدين .

لكن معاوية تمكن بعد قتل عثمان ، ومن خلال حركته الذكية ، وتلفيقه الشيطاني لرواية كيفية مقتل عثمان ، من الإمساك بهذا العامل أيضاً ، واستخدامه في صراعاته السلطوية .

وهكذا تراه قد تمكن من تعبئة جيش عظيم باسم الدين ، وتحت لواء الشريعة الإسلامية ، وتحريضه لقتال شخص مثل علي بن أبي طالب عليه السلام !!

ومن بعد أن تسلّم معاوية السلطة كاملةً ، تمكن من السيطرة على العامل الديني تماماً ، من خلال استئجار عدد من رجال الدين المرتزقة ، أمثال أبي هريرة .

وهكذا يكون قد أضاف عاملاً جديداً إلى عوامل حكمه ، وهو عامل الروحانية وطبقة الروحانيين بعد أن كان لا يملك سوى عناصر السياسة ، والمراكز الحساسة ، والثروة ، والدين .

إنّ تلاعب الأمويين ببيت المال ، واحتكارهم لمراكز السلطة والقرار، في زمن الخليفة عثمان ، كان قد أثار موجةً من الانزعاج والسخط بين عامة الناس ، سواء منهم من كان من أهل الدنيا . أو من أهل الدين .

فأهل الدنيا كانوا قلقين على مستقبلهم ، وهم يرون من ظهر لينافسهم على دُنياهم ، وثرواتهم ، ومُلُكهم ، وهم يتفرجون عليهم ، بينما أهل الدين كانوا يرون من جهتهم ، بأنّ المبادئ الاجتماعية للإسلام ، قد أضحت في خطر شديد .

ولهذا نرى أن جبهة المعارضة كانت تشمل عمراً بن العاص والزبير ، كما أبا ذر وعَمَّار بن ياسر .

فعمرو بن العاص كان يقول : لم أمر على راع إلا وحررته على قتل عثمان ، وما أن سمع نبأ قتل عثمان حتى قال : « أنا عبدُ الله ، ما حككت قرحةً إلا أدميتها » . الأمر الذي يجعل علياً (ع) أيضاً أن يقول للزبير في معركة الجمل : « لعن الله أولانا بقتل عثمان » .

إنّ علياً (ع) كان قد تعامل مع عثمان ، تماماً كما تعامل مع الخلفاء الذين سبقوه ، وهو لم يخل عليه لا بنصيحة ، ولا بإحسان عام ، وعندما حوَّصر عثمان فقد أشار عليه بطريق الصلاح والإصلاح ، كما أوصل إليه المؤن والمساعدة .

بينما ظل معاوية يتفرج على الأحداث من بعيد ، وبالرغم من امتلاكه لتلك القوة العظيمة في الشام ، لكنه فضّل استغلال نتائج الفتنة ، بعد أن استغلّ مقدماتها ، وهكذا رفض كل نداءات المساعدة التي طلبها عثمان منه ، بالرغم من قدرته على القضاء على الثوار^(١) ذلك أنه كان يعرف تماماً أن عثمان مقتولاً أفضل له من عثمان حياً ، فجلس ينتظر خبر مقتل عثمان ، وما أن وصله نبأ القتل حتى اعتلّى منبر السلطة وصار يُنادي واعثماناه ! ورفع قميص عثمان رايةً له ، وصار يُكي الناس على الخليفة المقتول ظُلماً ، وعدواناً ، مُستعيناً كذلك بالآية القرآنية : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً ، فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً ﴾ .

وقد لبّى دعوة معاوية هذه مئات الألوف من الناس ، وكان شعارهم الانتقام للخليفة المظلوم ، وهُنا بالذات كان معاوية قد تمكن من إضافة عنصر الدين إلى عناصر الثروة ، والسياسة في الصراع على السلطة .

وهكذا يكون قد تمكّن من تركيز كل القوى ، والعناصر المهمة ، في شطر هام من البلاد الإسلامية ، والسيطرة عليها^(٢) .

(١) وهما يمكننا إلقاء مزيد من الضوء على سياسته معاوية تجاه عثمان ، من خلال الإشارة إلى إحدى رسائل الإمام علي (ع) إلى معاوية والتي وردت في (نهج البلاغة) حيث جاء فيها : « فأما إكثارك الحجاج في عثمان ، وقتله ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان الصرُّ لك ، وخذلتَه حيث كان النصر له »

(٢) من هنا نضح عدم بضح مجمع ذلك العصر لفكرة انتخاب الخليفة ، وأنّ ولي الأمر كان يجب أن يكون تعييناً وليس انتخاباً . وحتى إذا ما قلنا بأنّ مدّاً الحكومة الإسلامية إنما يقوم على

وبهذه الطريقة استطاع معاوية أن يغتصب موقع الخلافة ، ويستلّط على أمر الروحانية والدين ، وما كان ذلك مُمكناً لبني أمية لولا عوامل ثلاثة أساسية :
أولاً : ذكاء وفطنة أولئك القوم .

وثانياً : سوء تدبير ، وعقم سياسية الخلفاء الذين تركوهم يتسللون إلى المواقع .

وثالثاً : جهل العامة وسذاجتهم^(١) .

لقد سعى معاوية والأمويون كثيراً في سبيل محو مبدأ المساواة العرقية في المجتمع الإسلامي ، والعودة بالأوضاع إلى مبدأ الجاهلية ، الذي كان يُرجّح العرب على العجم . وكذلك محو مبدأ المساواة الاجتماعية ، بين أفراد المجتمع ، والعودة إلى مبدأ التمايز الطبقي ، الذي كان سائداً ما قبل الإسلام ، ولهذا ترى

= الانتخاب ، وليس على التعيين إلا أن ذلك المجتمع بل ولسنوات طويلة بعد النبي ، وحتى ربما لقرون طويلة ، لم يكن قادراً على استيعاب فكرة الانتخاب ، وكان لا بد أن تمر فترة لا بأس بها ، تكون فيها فكرة النص والتعيين هي الدليل ، فالحرية لا تُعطى لمجتمعات غير قادرة على إدراك معنى الانتخاب ، والتدخل في تعيين السلطة الحاكمة . لكن حق سلب هذه الحرية لا يُعطى لأي كان ، ناهيك عن إعطائها لأولئك الذين يخافون ، ويرنعون من مجرد فكرة حرّ الحرية للناس . ومقام النبوة وحده كان هو الكفيل بحل هذا الإشكال ، وسلب هذا الحق من الناس . من هنا يتضح لنا جهل العامة ، وعدم إدراكهم السبب في تمكن بني أمية من استغلال الأوضاع لمصلحتهم ، باستعمال ذكائهم ، وفطنتهم ، ودهائهم . لكن عليا (ع) وهو التجسيم الحي للعدالة ، والفتنة ، والنبؤ استطاع رغم ذلك التنبؤ بالفنسه الأموية التي كانت قد اتخذت لونا إسلامياً ، وقد تسترت بستار الدين ، ولكن لم يكن هناك من هو قادر على إدراك أحداثه على .

(١) وبعبارة أخرى تمكن من ضم سلطة الدين إلى سلطة السياسة ، وسلطة الثروة ، وبالتالي تمكن من الضغط على الناس أي جماعة علي وأنصاره ، ومحاصرتهم روحياً ، ومعنوياً ، بعد أن تمكن من تشديد الخناق مادياً عليهم . وهذا الوضع هو من أخطر الأوضاع التي يمكن لشعب أن يواجهه ، وهو الوضع الذي تنظافر فيه سلطة المادة مع سلطة الروح ، وتتحكمان معاً بمصير الأمة . صحيح أن الدين يقف إلى جانب المظلوم دائماً ، لكن الويل ثم الويل من ذلك اليوم الذي يجتمع فيه جهل العامة ، مع خيانة أولياء الأمور ، ومعنى آخر ينظافر جهل المنتسكين مع خيانة المنتهكين ، وبصبح الدين وسيلة وأداة بيد السياسة والسياسيين . فما أسوأ ذلك اليوم الذي بصح فيه الدين في خدمه السياسة !

صعود أفراد مثل عبد الرحمن بن عوف ، والزُّبير بن العوّام ، وامتلاكهم لآلاف المؤلفة ، وبقاء البعض الآخر فقراء وصعاليك .

وليس من باب الصدفة أن نسمع علياً(ع) يقول : « . . . أن لا يقاروا على كِظّة ظالم ، ولا سغب مظلوم » ، أو يقول : « ألا وإنّ يَلِيَّتْكُمْ قد عادت كهَيْئَتنا يوم بعث الله نبيّه » .

القاعدة الشعبية لعلّي (ع) وأشكال مكافحة معاوية لها

لقد رحل علي (ع) عن هذه الدنيا ، وصار معاوية هو الخليفة ، ولكن الأمور لم تنته كما كان يتوقع لها معاوية بن سفيان أن تنتهي ، فقد بقي ظل علي موجوداً ، كقوة اجتماعية في كل مكان .

ورغم كل مظاهر القوة ، والتوازن التي كانت تطبع حكومة معاوية في الظاهر ، إلّا أن أعماق الرجل كانت لا تزال مرتعبة ، وتتوجس خيفة من آثار شخصية علي .

ولذلك تراه سرعان ما دعا إلى حملة دعائية قوية ، مناهضة لفكر علي (ع) . فأمر قبل كل شيء بسب علي ، ولعنه على المنابر ، وفي خطب الجمعة .

ثم أصدر تعليماته المُشدّدة لرجاله بقمع أنصار علي ، وملاحقتهم ، وقتل كل الخواص من رجاله ، واعتقال كل من له صلة بفكر علي ، حتى وإن كانت العلاقة بحدود التهمة ، وذلك كله منعاً لانتشار فضائل علي ، ونهجه الخير .

ثم شرع بعد ذلك بشراء النفوس ، واستئجار عدد من المرتزقة ممن باعوا ضمائرهم ، وصاروا يَحْتَلِقُونَ الأحاديث بحق معاوية .

وكل ذلك كان من أجل محاربة فكر علي (ع) الذي كان كامناً في أعماق القلوب والصدور . فقتل حجر بن عدي ، وعمر بن الحِقِّق في الشام ، وأمر عُبيد الله بقتل ميثم التمار ، ورُشيد في الكوفة .

لكنه رغم ذلك كله لم يستطع القضاء على كل التجمعات النشطة ، رغم عدم تشكّلها المنظم ، والتي ظلت تعمل باسم التشيع في مواجهة الحكم الأموي .
إن التحقيق في ظاهره صعود بني أمية إلى الحكم بالنسبة لنا ، لا يجوز أن يبقى منحصراً في كونه أمراً مثيراً للعجب فحسب ، فالأمر ليس سطحياً يتعلق بأحداث ما قبل ثلاثة عشر قرناً فقط ، حتى نقول إنه أمرٌ حدث في الماضي وانقضى ، بل إنه الخطر الذي تعرّض له الإسلام منذ ذلك الحين ، وهو مستمر حتى ما شاء الله .

ونحن إذ نريد استرجاع تاريخ معنوياتنا ، وسير حركتنا التاريخية ، لا بد لنا بالتأكيد من دراسة التاريخ الأموي .

فالفكر الأموي ظل يُحارب الفكر الإسلامي باستمرار ، ولكن من تحت الستار ، وبتغطية إسلامية في الظاهر !

وهكذا تم إدخال عناصر الفكر الأموي في مجموعة عناصر الفكر الإسلامي ، وليس بعيداً أبداً ملاحظة وجود بعض عناصر الفكر الأموي في فكر أولئك الذين لا يمر عليهم صباح أو مساء ، إلّا وهم يلعنون بني أمية وفكرهم ، وهو كذلك بالتأكيد^(١) .

وإنك لتجد مثال ذلك في مواضيع مختلفة ، كموضوع رعاية الشؤون وموارد صرف الزكاة ، والخمس ، وموضوع الاستطاعة في تأدية فريضة الحج ، ونفقة الزوجة ، وغيرها الكثير .

لقد كان علي (ع) يولي أهمية بالغة لخطر السلطة الأموية ، وكثيراً ما كان يذق جرس الإنذار في هذا الاتجاه ، ولكن قليلاً ما كان يتم التنبيه لتلك المخاطر في ذلك الوقت ، وعلي (ع) نفسه كان يقول لقومه أيضاً بأنكم إنما سوف تتنبّهون لها

(١) صحيح أن الأمويين قد رحلوا وانتهوا إلّا إن عناصر الفكر الأموي والنظام الأموي للأسف الشديد لا يزال موجوداً بيننا بل وأصبح جزءاً من مبادئ حياتنا . ففي الوقت الراهن أيضاً تتحكم فينا مبادئ معاوية ويتم استخدام عامل الدين ضد الدين ولا نستطيع نحن بالمقابل أن نقول شيئاً ضد أسس الفكر الأموي . لأنهم سرعان ما يبدأون بالبكاء على قميص عثمان أكثر مما بكى عليه معاوية .

في المستقبل : « وعند ذلك تودُّ قُرَيْش - بالدنيا وما فيها - لو يروني مقاماً واحداً ، ولو قدر جزر جزورٍ ، لأقبل منهم ، ما أطلب منهم اليوم بعضه ، ولا يعطوني »^(١) كما أنه يقول أيضاً : « إنَّ الفتن إذا أقبلت شَبَّهت ، وإذا أدبرت نَبَّهت »^(٢) . وكذلك أيضاً « أيها الناس ! سيأتي عليكم زمان ، يُكفأ الإسلام كما يُكفأ الإِناء بما فيه . . . »^(٣) وأيضاً : « فما احلّولت لكم الدنيا في لذتها »^(٤) . وأيضاً : « ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح . . . »^(٥) .

هذه وغيرها من التحذيرات كانت في الواقع دليلاً على أنَّ علياً (ع) كان يتنبأ بوقوع بعض الأحداث التي يمكن الإشارة إلى بعضٍ منها هنا :

١ - ظلم بني أمية ، واستبدادهم ، واستئثارهم بالسلطة ، وضربهم لكل ألوان العدل والمساواة ، واختفاء أي أثر للمفاهيم الإنسانية في زمانهم كمقولة : « لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » . أو مقولة « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ حَتَّى يُؤْخَذَ لِلضَّعِيفِ حَقُّهُ . . . » ، وكذلك : « لا يكونُ انتصارُ أحدِكُم منهم إلَّا كانتصارُ العبد من رَبِّهِ »^(٦) ، وهو ما حدث لأهل المدينة عندما جاء مسلم بن عقبة يُطالبهم بالبيعة بالعبودية ليزيد ، وما رافقها من انتفاضة أهل المدينة في وقعة الحرة ، وبهذا تكون تنبؤات مولى المؤمنين علي (ع) هنا قد تحققت .

٢ - ومن جملة ذلك أنَّ طلائع القوم ، ومثقفهم ، والأخيار ، والصُّلحاء منهم ، سوف لن يكونوا بعيدين عن ظلم بني أمية . بل إنَّ البلاء سينتشر في عهدهم ، وسيصيب كل من له فكر نير ، وقلبٌ مُبصر ، حيث يقول (ع) : « عَمَّتْ خُطَّتُهَا ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا ، وَأَخْطَأَ مِنْ عَمِيَ عَنْهَا »^(٧) .

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤ .

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤ .

(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١ .

(٤) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٤ .

(٥) نهج البلاغة ج ٢ ص ٣٢ - ٣٤ .

(٦ و ٧) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤ .

٣ - القضاء على حرمة أحكام الإسلام ، وأنه لن يبقى هناك حرامٌ إلاّ وسيُحلّله بنو أمية . وهو ما جاء في قوله (ع) : « والله لا يزالون حتى لا يدعوا الله مُحَرِّمًا إلاّ استحلوه ، ولا عقداً إلاّ حلّوه ، وحتى لا يبقى بيتٌ صَدْرٍ ، ولا وَبَرٍ ، إلاّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ ، ونبا به سوء رَعِيَّتِهِمْ »^(١) .

نعم فيها هو عبد الله بن حنظلة يعود من الشام إلى المدينة ، بعد حوادث واقعة كربلاء ليقول : « إنا قادمون من عند مَنْ يَنْكُحُ الْأُمّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ » .

٤ - إنّ الإسلام سيتم تحريفه ، وقلب مفاهيمه ، رأساً على عقب ، وأنه سترد عناصر غير إسلامية ، وتختلط في المفاهيم العامة الإسلامية . وهو ما ورد في قوله عليه السلام : « يُكْفَأُ الْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ »^(٢) أو : « وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ لُبْسُ الْفُرُوقِ »^(٣) .

إنّ وقوع كل هذه الحوادث ، وتحقق هذه النبوءات التي كان علي (ع) يراها في عهده ، كما لو أنها كانت تُعرض أمامه في المرأة ، إضافة إلى سيرته المثالية ، وعدله ، وخلقه ، كانت كافيةً لانبعاث جيلٍ يَعشَقُ علياً (ع) عشقاً لا يوصف .

يعود مرة أخرى ونقول : صحيح أنّ معاوية قد مات ، لكنه مع موته ترك وراءه عدداً من السُّنن السيئة والتي هي :

أ - بدعة لعن علي (ع) وسبه .

ب - بدعة صرف أموال الدولة في شراء ذمم بعض الرجال من الروحانيين المرتزقة ، وأمرهم بتزوير الأحاديث التي تُنقص من قيمة علي (ع) . وبعبارة أخرى استخدام العامل الروحاني ، الذي تمثّل آنذاك بعلماء السوء ضد علي (ع) ، تماماً كما استخدم من قبل العامل الديني في قضية قتل عثمان . (قصة سُمرّة بن جندب مع الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ . . ﴾) .

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢ .

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١ .

(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٣٥ .

ج - قتل الأبرياء بدون حق ، وهي بدعة جديدة أيضاً ، لم يكن لها سابقة في الإسلام ، بالإضافة إلى عدم احترام النفس البشرية ، وقطع الأيدي والأرجل ، وقطع الرؤوس وحملها على الخراب ، وهو ما فعله رجال معاوية وعمرو بن الحمق الخزاعي .

د - تسميم المعارضين ، واعتبار ذلك أمراً عادياً ، وهو الأمر الذي يُخالف كل أوجه المروءة والإنسانية ، لكنه للأسف سرعان ما أصبح سُنّة مُتبعة عند الخلفاء من بعد معاوية . هذا وقد ابتدأ معاوية هذه السُنّة السيئة بتسميم كل من الإمام الحسن (ع) ، ومن ثم أتبعه بمالك الأشتر ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الذي كان من أفضل أنصار الحسن (ع) .

هـ - جعل الخلافة وراثية في بني أمية^(١) . وتعيين ابنه يزيد - الذي لم يكن يحمل كفاءات تذكر - ولياً للعهد من بعده .

و - بعث قضية التمييز العنصري من جديد ، وترجيح العربية على العجمية ، والقرشية على غير القرشية .

ومن بين هذه الأعمال السيئة ، وسوابق السوء ، يمكن اعتبار لعن علي وسبّه ، بل وحتى تزوير الحديث ، وتولية يزيد للخلافة من بعده ، من علامات سوء تدبير معاوية في الحكم .

إن يزيد ليس سوى رجل جاهل وساذج ، وكانت القاعدة تقضي بأن يخضع الخلفاء الذين كانوا يُرشحون للخلافة إلى دورة تعليمية وتربوية ، قبل الترشيح ، حتى يتأهلوا كحد أدنى لمنصب زعامة البلاد (كما كان يعمل العباسيون) .

(١) وهكذا يكون قد تحقق ذلك الأمل القديم الذي كان يحلم به بنو أمية ، والذي عبّر عنه صراحةً أبو سفيان في بيت عثمان عندما قال : « يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ، أما والذي يُجْلِفُ به أبو سفيان ، ما رُلْتُ أرجوها لكم ، ولتصيرنَ إلى صبيانكم وراثّة » . وهو ما لم يكن يتصوره حتى معاوية نفسه . لكن الإمام الحسين (ع) كان يعلم قبل أي شخص آخر حقيقة ما كان يضمّره الحزب الأموي ، وكيف أنهم كانوا يلعبون بالحكم كالكرة ، ويرمون بها إلى أطفالهم وراثّة . وبناءً عليه فإن ثورته عليه السلام كانت تُمثّل في الواقع ثورة ضد تحقيق أفكار الحزب الأموي .

بينما ظل يزيد يُعاني ، حتى' بعد توليه السلطة ، من الجهل الشديد ،
والسذاجة الصحراوية التي كبر فيها ونما . وهو لا يعرف سوى أطباع البادية ،
دون أن يتمكن من اكتساب الخبرات اللازمة التي تنفعه في الدنيا أو الآخرة .

إذا ما اعتبرنا أنّ عهد عثمان كان عهد اغتصاب الثروة والسلطة من قبل بني
أمية ، وأن عهد معاوية كان عهد لعن علي ، وسبّه ، وتزوير الحديث النبوي ،
والكذب على النبي ، وقتل الأبرياء ، وتسميم المعارضة ، وجعل الخلافة وراثية
في العائلة الحاكمة ، وإحياء نزعة التمييز العنصري ، فإننا نستطيع القول بأن
عصر يزيد ، ما هو إلّا عصر العار ، والفضيحة للإسلام والمسلمين .

فسفراء الدول الأخرى ، كانوا يأتون لزيارة مركز الخلافة ، وبدل أن يلتقوا
بممثل النبي ، إذا بهم يلتقون برجل يحمل الخمرة بيد ، ويلاعب قردةً أجلسها
إلى جانبه باليد الأخرى ، وقد ألبسها أفخر الملابس الممكنة ، وهل ستبقى في هذه
الحالة أي كرامة تذكر للإسلام ؟!

فعندما يكون يزيد الغارق حتى' الثالة في الغرور ، والرعوننة ، والسلطة ،
والشراب ، هو الحاكم والخليفة ، عندها يمكننا إدراك معنى' قول سيد الشهداء
عليه السلام : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

نعم فيزيد كان متظاهراً بالفسق ، والفجور ، والكفر ، والردة ، وهو قد
أسقط كل الأقنعة ، ومزّق كل الحُجب من حول فسادهِ ، ولذلك كان لا بد من
القيام والنهضة ، فأية كرامة وأية شخصية بقيت للإسلام بعد كل ذلك ؟!

وعلى هذا الأساس ، فإنّ السؤال عن الدافع وراء الثورة الحسينية يشبه
السؤال عن سبب تحرك النبي الأكرم (ص) في مكة ، وعدم قبوله بمهادنة قريش ؟

أو السؤال عن سبب تحمّل علي (ع) كل تلك المعاناة في سبيل حماية النبي في
بدر ، وحُنين ، وأحد ، والأحزاب ، وليلة المبيت في فراش النبي ؟

أو السؤال عن سبب قيام إبراهيم عليه السلام وحده ، بوجه تلك القوة
العظيمة لنمرود الطاغية ؟

أو السؤال عن سبب ذهاب موسى إلى فرعون ، ما دام لم يكن معه أحد سوى أخيه هارون ؟

إنّ معنى هذا التساؤل ، هو القول بأنّ المبررات لثورة الحسين لم تكن موجودة ، فهو لم يكن يملك من الجُند والعسكر بعدد ما كان تحت سلطة يزيد !!

في حين أنني أقول : إنه لو كان للإمام الحسين (ع) جُند ، وعسكر ، بمقدار ما كان ليزيد ، ولو كان الحسين قد قام والمجتمع مُنقسم إلى جناحين كبيرين ، يقف على رأس أحدهما أبو عبد الله الحسين ، فإن قيام الحسين ونهضته ، لم يكن لينطبق عليها عند ذاك صفة الثورة الخالدة .

إنّ هذه التساؤلات تُطرح في الواقع مع كل الثورات والحركات التاريخية الكبرى ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الثورات المقدّسة في العالم عادةً ما تحمل ميزتين شاخصتين :

الأولى : وهي المتعلقة بهدف الثورة ، والتحرك ، أي إنّ مثل هذه الثورات إنما تهدف في الواقع الوصول إلى الدرجات العليا في سلم الإنسانية ، ومن أجل تحقيق العدل والتوحيد ، ورفع الظلم عن كاهل البشرية ، وتلبية نزعة الإنسان إلى الحرية ، وليس من أجل كسب الجاه ، والسلطان ، أو تحصيل الثروة ، والمال ، أو كما يقول (حنظلة) حباً في اكتساب التفاخر ، والجلال ، والعظمة ، ولا حتى دفاعاً عن التعصب الوطني ، أو القبلي ، أو العرقي .

وأما الميزة الثانية : فهي كونها تشبه الشرارة في وسط الظلمات ، وشعلة من نور تحرق ممارسات الظلم ، والاستبداد ، والقمع ، والاستغلال ، بل نجمة تسطع في ذلك الليل المظلم ، لتبشّر بطلوع صبح سعيد للبشرية جمعاء ، وهي الثورة التي لا يُصادق عليها « عقلاء القوم ! » .

إنّ مما يُعزّز به في النهضة الحسينية ، أنها لم تقع بموافقة عقلاء القوم ! لا لكونها ما دون رأي العقلاء ، بل لكونها ما فوق فكرهم ورؤيتهم ، ولذلك فإنّ العرفاء الذين نظروا إلى النهضة من زاويتها العرفانية ، أو ما فوق العقلية أطلقوا عليها تسمية مدرسة العشق ، وكذلك كان حال منطلق شعراء المراثيات الحسينية

الذين أعطوها بدورهم مسحة مثالية مبالغاً فيها .

فهي صحيح أنها تمثل مدرسةً في العشق الإلهي ، وأنّ علياً (ع) قد قال بشأن مدرسة آل البيت : « مُنَاخُ رِكَابٍ ، وَمِصَارِعُ عُشَّاقٍ » ، ولكن لماذا ظهر هذا العشق ، وتبلور مثل هذا السلوك على مسرح كربلاء ؟

فبالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى ، إلى ذلك المعشوق الأزلي والأبدي ، لا فرق أين يظهر ذلك العشق .

نعم إنّ رضا الله في التضحية في سبيل الدين ، وفي سبيل سعادة البشرية ، وفي سبيل تحقيق العدل والقسط ، والذي هو هدف الأنبياء كافةً .

وإذا كان عرفاؤنا عُرفاء صادقين ، عن حق وحقيقة ، فلماذا يُظهرون عشقهم في مجالس العرفان الكلامي فقط ؟ صحيح أن عشق الحسين عشق إلهي ، وعشق صادق وحقيقي ، لكنه لم يظهر في مجالس العرفان التقليدي ، بل برز وتلألأ في مسرح الحياة .

وإنّه لمن مفاخر الثورة الحسينية أنّ لا يوافق عليها أمثال ابن عباس ، وهذا هو حال الثورات الكبرى القدسية كافة في العالم ، والتي تُعتبر شعلّة مضيئة في وسط بحرٍ من الظلمات .

والشيء نفسه ينطبق على حالتنا الراهنة ، إذ تصوروا لو أن أحداً أراد القيام مثلاً ، بانتقاد القوى الروحانية العلمائية - جماعات العلماء - والتي تصرف جهودها في غير طريق الله ، وبالتالي الاعتراض على الوضع العام ككل ، حيث تُهيمن قوى السُلطة العميقة ، وأراد أن يُطلق نداء التحرك ، والنهضة ، والثورة ، فإنه لا بد وأن يوصم بانحراف في السلوك ، واعوجاج في الذوق والمنهج ! ولكن ما هو معيار هذا السلوك ؟ وأين هي البوصلة التي تُبين الاستقامة من الاعوجاج ؟

وفي هذا المجال ليس أمامنا إلّا العودة إلى منهج الأئمة عليهم السلام ، واعتماد بوصلة القرآن الكريم :

فما أجمل ذلك التعبير الذي يردُّ على لسان أمير المؤمنين علي (ع) بشأن النبي الأكرم (ص) عندما يقول : « أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ . . . » « . . . والدنيا كاسفهُ النور . . . » .

وما أبلغ حديث القرآن عن قيام إبراهيم (ع) وذلك في قوله تعالى : ﴿ . . . وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ . [وحيث يُستنبط هنا من مفهوم كلمة «رُشد» : إن إبراهيم (ع) كان يحس بأمور وأشياء لا يقدر غيره على الإحساس بها] حتى إنهم قالوا عنه : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ .

وكما جاء في ذكره تعالى لأمر موسى (ع) : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا . . . ﴾ ، ومن هنا فإنَّ علياً (ع) يقول حول فتنة بني أمية : « إنها فتنةٌ عمياءُ مُظلمة » .

وبالتالي فالأمر بحاجةٍ إلى شعلةٍ من نور ، شعلة حَقَائِقِةٍ نورانية ، تصد هجمة بني أمية الظلامية ، التي يقول عنها علي (ع) أيضاً : لَتَجِدَنَّ بَنِي أُمِيَّةٍ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ ، ، وأيضاً : « حتى لا يكون انتصارُ أحدكم منهم إلاَّ كانتصار العبد من ربه » .

الإمام الحسين (ع) ، وسائر المصلحين العظام

إنَّ كل الذين قدّموا الخدمات للبشرية لهم حقٌّ عليها ، سواء أكانوا من أهل الصناعة ، أو الفن ، أو أهل الاكتشاف والاختراع ، أو الحكمة والفلسفة ، أو الأدب والأخلاق ، أو أهل أي شيء كان . لكنهم جميعاً لا يصلون إلى مستوى شهداء طريق الحق . ولهذا أيضاً ترى أنَّ رد فعل البشرية ، وتعاطفها مع أولئك الشهداء ، أكثر من تعاطفها مع أية جهةٍ أخرى ، ذلك أنَّ العدل والحرية بالنسبة لمحيط المجتمع البشري ، والروح الإنسانية ، بمثابة الهواء المطلوب للثنتين ، والذي لا يمكن للحياة أن تستمر بدونه .

يقول رسولنا الكريم محمد (ص) : « الْمُلْكُ يَبْقَى مَعَ الْكُفْرِ ، وَلَا يَبْقَى مَعَ الْفُلْمِ » .

إنّ المجتمع مدين للعالم بعلمه ، وللمكتشف باكتشافاته ، وللمعلم أو المربي بتوجيهاته الأخلاقية ، ولحكيم بحكمته ، وللفيلسوف بفلسفته ؛ وكل هؤلاء مدينون للشهداء بأعمالهم ، بينما لا يدين الشهداء لأحد من الناس .
فالشهداء هم الذين كانوا السبب في خلق أجواء الحرية للأخريين حتى يتمكنوا من إظهار نبوغهم ، وإبراز تفوقهم .

والشهداء في الحقيقة هم الشمعة التي تحترق من أجل إضاءة محفل البشرية^(١) . بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ، وَمُبَشِّراً ، وَنَذِيراً . . . وسراجاً مُنيراً ﴾ .

نعم فلولا وجود الظلمات التي سببها انتفاء الوعي الكافي ، والنمو اللازم لدى البشر ، لما كان المحيط بحاجة إلى « سراج » والسراج هنا هو البعث النبوي ، التي جاءت لتُنهي عصر الظلمات .

ومرة أخرى كانت الظلمات قد أحاطت بمجتمع الولايات الإسلامية ، وذلك بعد تسلم يزيد منصب الخلافة ، وهناك كتب يزيد إلى والي المدينة يقول : « خُذْ حُسِيناً . . . بالبيعة أخذاً شديداً » .

ومعلوم هنا بأن يزيد لم يكن يرضى بغير البيعة ، ومعنى هذا أنّ الحسين (ع) كان أمام خيارات ثلاثة :

إمّا أن يبايع يزيد ويستسلم له ، ويُسلم بشروطه .

أو كما عرض عليه البعض ، أن يرفض البيعة ، وينزوي أو يبتعد عن واجهة الأحداث ، إذا ما تطلب الأمر ذلك - وهو الأمر الذي كان لا بد منه - وبالتالي اللجوء إلى أحد الوديان ، أو إحدى الهضاب ، والتصرف كالمتمردين ، أو

(١) في حديث الشهيد والشهادة قلنا : إنّ كل استشهاد يصحبه حالة نورانية . وشبهنا ذلك بالأعمال الفردية الخيرة التي عادةً ما تجلب لصاحبها المُنْصَحِي الصفاء والنورانية لقلبه . وعلى قاعدة هذه النظرة المميزة يمكننا الانطلاق في بحث موسّع ومفيد للغاية .

العُصاة الذين عادةً ما يُعْتَبَرُونَ بأَعْبَاهِمُ عن خَلِيطٍ من أَحَاسِيسِ الخُوفِ المِزْجِ
بالشَّجَاعَةِ .

أو أن يَخْتَارَ خَطَأً ثَالِثاً هُوَ الاسْتِقَامَةُ ، والصُّمُودُ ، حتَّى 'الاسْتِشْهَادُ' .

والخِيارُ الأوَّلُ هُوَ مَا كَانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِهِ أَنْصَارُ الْأُمَوِيِّينَ مِنْ أَمْثَالِ مِرْوَانَ بْنِ
الْحَكَمِ .

والخِيارُ الثَّانِي هُوَ مَا كَانَ يَقْتَرِحُ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ كُلِّ مَنْ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ وَابْنُ
عَبَّاسٍ (حَيْثُ إِنَّ اقْتِرَاحَهُمَا كَانَ يَعْنِي بِالنَّتِيجَةِ هَذَا الْأَمْرَ بِالضَّبْطِ) .

وَأَمَّا الْخِيارُ الثَّالِثُ فَهُوَ مَا قَامَ بِهِ الْحُسَيْنُ بِنَفْسِهِ وَطَبَّقَهُ ، وَكَانَ الْخِيارُ الأوَّلُ
يَتَلَخَّصُ فِي الْوَاقِعِ ، بِأَنْ يَقُومَ الْحُسَيْنُ (ع) بِبَيْعِ دِينِهِ ، وَآخِرَتِهِ ، مُقَابِلَ دُنْيَا
يَزِيدَ ، وَأَنْ يَتْرِكَ الْمُسْلِمِينَ وَشَأْنَهُمْ ، وَيَتَصَالَحَ مَعَ يَزِيدَ ، وَيُهَادِنَهُ ، وَيُبَايِعَهُ أَمَلًا
فِي الْحِفَافِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَيَاتِهِ .

وَهَذَا مَا كَانَتْ تَأْبَاهُ رُوحُ الْحُسَيْنِ الرَّفِيعَةِ الطَّاهِرَةِ حَيْثُ قَالَ : « يَا بِيَّ اللَّهِ
ذَلِكَ لَنَا ، وَرَسُولُهُ ، وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَحُجُورٌ طَابَتْ ، وَطَهَّرَتْ ، وَأَنْوَفٌ حَمِيَّةٌ ،
وَنَفُوسٌ أَيْبَةٌ » .

بَيْنَمَا كَانَ الْخِيارُ الثَّانِي يَتَلَخَّصُ فِي الْوَاقِعِ ، فِي اتِّخَاذِ مَوْقِفٍ سَلْبِيٍّ ، لَا
أَكْثَرَ ، مِنَ الْبَيْعَةِ ، الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ يَتَنَافَى وَشَخْصِيَّةِ الْحُسَيْنِ ، الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ فِي
رُوحِهَا ، وَطَيَّاتِ قَلْبِهَا ، تَكْلِيفًا إِيْجَابِيًّا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ ، عَمَلًا بِقَوْلِ
الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ (ص) : « أَيُّهَا النَّاسُ ! مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحُرْمِ
اللَّهِ . . . » نَاهِيكَ عَنْ عَدَمِ انْسِجَامِ رُوحِ الْحُسَيْنِ الرَّفِيعَةِ الْعَالِيَةِ ، مَعَ رُوحِ
الْفِرَارِ فِي الْهَضَابِ وَالْوُدْيَانِ !

وَلِذَلِكَ تَرَاهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعِدًّا حَتَّى 'وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ ، أَنْ
يَخْتَارَ الطَّرِيقَ الْفَرْعِيَّةَ فِي الْمَسِيرِ ، حَيْثُ إِنَّهُ أَجَابَ عَلَى اقْتِرَاحِ الْبَعْضِ مِنْ رِفَاقِ
دَرَبِهِ ، الْقَاضِي بِالْانْحِرَافِ عَنِ الْجَادَةِ الرَّئِيسِيَّةِ قَائِلًا : « لَا وَاللَّهِ لَا أَفَارِقُهُ حَتَّى
يَقْضِيَ اللَّهُ مَا هُوَ قَاضٍ » .

وهو نفسه القائل (ع) : « لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أُقرّ إقرار العبيد » .

ثم إنه ابن ذلك القائد علي بن أبي طالب (ع) الذي يقول : « والله لو تظاهرت العربُ على قتالي ، لما وليتُ عنها ، ولو أمكنتِ الفُرس من رِقابها ، لسارعتُ إليها » .

ولذلك تراه عليه السلام اختار الطريق الثالث ، طريق الحرية ، والشهادة ، المعروف .

قيمة الشهيد والشهادة في المجتمع

سبق وقلنا إنّ كل شهادة تُسبّب حالة نورانية في المجتمع ، وشبهنا ذلك الأمر بالحالة النورانية التي تحصل في قلب الأفراد من خلال بعض أعمال الخير ، أو أعمال التضحية والإيثار ، التي يقومون بها .

وإنّ القلب الذي يدخل إليه الصفاء ، وتحصل له عملية الجلاء ، ومن ثم الهداية ، فإنّ الظلمات ستزول عنه ، والطريق سيتضح أمامه ، ويصبح جلياً .

وهذا موضوع جوهرى ، رفيع المستوى في باب أبحاث قيمة الشهيد والشهادة ، لا سيما من زاوية دراسة آثار النهضة الحسينية في عالم الإسلام .

وإنّ الإمام (ع) حتى لو كان قد تحرّك أساساً بهدف الشهادة ، فإنّ حركته تلك كانت في إطار منطق صحيح .

والعبارة المروية بهذا الخصوص : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً » . إذا ما ثبت إسنادها الصحيح ، فإنّها عبارة سليمة ، وصحيحة المعنى ، والمرام .

بين منطق المصلحة ومنطق الحقيقة

إنّ المنطق المصلحي والنفعي شيء ، ومنطق الحق والإصلاح شيء

آخر^(١) .

إنَّ عقلاء القوم الذين أرادوا منع أبي عبد الله الحسين من التحرك ، والقيام ، إنما كانت تتمحور نصائحهم حول محور المصلحة الشخصية للحسين (ع) ، وضرورة الحفاظ على الحياة الدنيوية ، وسلامة البدن ، وحفظ الأهل والأولاد .

ويُقال إنَّ أكثر الأقوال شموليةً وتوضيحاً لهذا المنطق ، هو قول ابن عباس وحديثه ، وإذا كان لا بد من التعجب والاستغراب ، فإنه يجب أن تتعجب من قول ابن عباس .

إنَّ الشيء الوحيد الذي يُفتقد في منطق ابن عباس هو الفكر الإسلامي ، ومنطق الإيثار ، والتضحية ، بينما نرى أنَّ الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن نراه مُطلقاً في منطق الحسين (ع) ، هو منطق المنفعة ، والمصلحة الذاتية^(٢) .

إنَّ منطق الحسين هو ذلك المنطق الذي يقول : « خُطَّ الموت على وُلد آدم . . » .

وهو المنطق الذي أجاب به على الحرَّ قائلاً : « أفيالموت تخوفني ؟ . . . » .
وهو نفسه المنطق الذي جاء في بعض أشعاره : « سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى . . . »

الهدف المقدس وحسَّ السموّ والقداسة

إنَّ كلمات الشهيد والشهادة ، من الكلمات الرائجة ، التي لا تستخدم في الواقع إلاَّ بحق بعض الأفراد ، فليس كل قتيل أو ميّت بشهيد !

(١) فعلي (ع) يقول حول أرض كربلاء : « مُنَاخُ رِكَاب ، وَمَصَارِعُ عُشَاق » . ويقول كذلك حول تربتها : « وَاهَا لَكَ أَيْتُهَا التَّرْبَةُ ! لِيُحْشَرَكَ مِنْكَ أَقْوَامٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(٢) يقول هربرت سبنسر : « إنَّ طموح الأخيار والصالحين هو في مشاركتهم في تربية الإنسان ، أي أن يصبحوا مُصلحين » . ويقول نبينا الكريم : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » . ويقول تعالى عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « عَزَّيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » .

فهناك مئات القتلى ، وآلاف الموتى ، يسقطون يومياً في مجتمعاتنا ، لكننا لا نُطلق عليهم صفة الشهيد .

إن كلمة الشهيد تحيط بها هالة من القدسية ، والتعالي والسمو ، وإنما تُطلق كلمة الشهيد على ذلك الفرد الذي ضحى بحياته في سبيل هدف مُقدس ، أو مات وهو سائر على طريق المسيرة المُقدسة .

والشهيد إنما تمتاز حركته بثلاث ميزات :

فهو أولاً يُقتل في سبيل تحقيق هدف مُقدس .

وهو ثانياً يكسب حالة الخلود .

وهو ثالثاً ما ذكرناه آنفاً بأنه يخلق جواً من الصفاء والطهر في المجتمع المحيط به .

ولا بد للهدف من أن يكون مُقدساً ولا يكفي أن يكون عظيماً ، فقد يكون عظيماً ، ومهماً للغاية ، لكنه ليس مُقدساً ، والذي يموت من أجل الأهداف الكبرى ، أو يُقتل في سبيلها ، لا سيما إن كانت تلك الأهداف غير سامية ، فإنه لن ينال حالة القدسية ، واحترام التقديس ، في عيون البشر^(١) .

(١) إن الشهيد هو من يعطي لدمه قيمة أبدية وخالدة . فمن يضع ماله في خدمة أعمال الخير ، إنما يعطي لماله قيمة أبدية ، وكذلك من يضع فكره ، وآثاره العلمية ، فإنه يعطي لفكره مفهوم الخلود ، ومثله من يضع صناعته وفنه ، فهو يعطي لفنه الأثر الخالد ، وكذلك من يُربي ابنه أو يُربي الآخرين ، فإنه يعطي الخلود لأعماله ، بينما الشهيد يعطي لدمه قيمة الأبدية والخلود . وهذا هو الفرق بين الشهيد وغيره : فالشهيد هو ذلك المُضحى بكل ما يملك عن عشق ووفاء للمبدأ السامي ، بينما العالم ، أو المنفق ، أو المعلم ، أو الفنان ، فإن كل واحد منهم يُضحى بقسم مما يملك ، ويُعطي لذلك القسم تلك الأبدية وذلك الخلود . وقد قلنا سابقاً إن الفيلسوف ، والمنفق ، والفنان ، وغيرهم ، مدينون جميعاً للشهيد في أعمالهم ، وإبداعاتهم ، بينما الشهيد غير مدين لأيّ كان . وإن دم الشهيد لا يسقط على الأرض ، بل يصبح مضاعفاً ، ويتم تزريقه للآخرين في عروقهم ، ويظل جارياً إلى الأبد فيهم . وهذا هو معنى خلود دم الشهيد . وهذا هو معنى الحساسية الأبدية للشهيد . ولهذا نرى أن الأولياء والصالحين كانوا يأملون الشهادة على الدوام ، وأن الإسلام بحاجة إلى الشهيد في كل عصر وزمان .

إنّه في الواقع يكون قد وسّع بذلك العمل الكبير من دائرة حُب الذات ،
والدائرة النفعية لديه .

ومثل هذا الشخص لو تمكن من تسخير كل الكواكب السماوية ، فإنه لن
يتمكن من كسب حالة القداسة لأعماله ، فالعمل يكون مُقدساً فقط عندما يخرج
من محيط دائرة حُب الذات ، والمنفعة الشخصية^(١) ، ويكون الهدف فقط
التكليف والوظيفة لا سيما التكليف المطلوبة من البشر تجاه النوع البشري ،
والمجتمع الإنساني .

وعندما يُقال بأن « المقتول دون عياله ، وماله ، شهيد » فإنه في الواقع
كذلك ، بسبب قيامه بالواجب والتكليف اللذين أملاهما عليه وجدانه ،
وكرامته ، وشرفه ، ودينه ، وليس عندما يكون الدافع هو المنفعة المادية .

فما بالك أن يكون المقتول قد قُتل دون العدل والحرية ، ودون التوحيد
والإيمان ، فإنه لا شك أكثر قدسيةً ، وأعلى مرتبةً ، وأرفع درجةً ، بالتأكيد .

إنّ حسّ العالي ، والسمو ، والتقديس ، حسّ أصيل لدى البشر ، وهو
نابع من صميم روح البشر ، فهناك حسّ البحث عن الحقيقة وتقديسها - العلم
وهناك حسّ البحث عن الخير وتقديسه - الأخلاق - وهناك حسّ البحث عن
الجمال وتقديسه وهذا هو أحد الأسرار والألغاز المحيطة بوجود البشر .

فالإنسان على العموم تراه ينظر نظرةً مُقدّسة تجاه الأمور ، والأشياء غير
الحسية ، وهو يُعظّم كل ما هو معنوي غير قابل للمس .

صحيح أن كل ميل إنما هو تعبير عن حاجة عينية ، لكن هذه الحاجات

(١) وهنا لا بد من التحقيق في موضوع المعيار والملاك الأساسي المطروح القدسية ؟ ولماذا حب الذات
والأنانية عملان دينيان ، بينما العمل الذي فيه خدمة الغير ، والقيام بالواجب ، والمسؤولية أو رضا
الله ، يكون عملاً مُقدساً ؟ فهل المعيار هو في المادية والتجرد ؟ أو أن المعيار هو في الوجود والعدم ؟
أو في الحركة والتوفيق ؟ أو أنّ المعيار يكمن في التناسق مع أهداف العالم ، والحركة التكاملية
الكونية ؟ أو إنّ علة القداسة ، كما ورد في الشرح داخل المتن ، هي في الأبدية ، والخلود ،
والنحاة من الموت ؟

العينية ليس مبدؤها الأجهزة البدنية للإنسان ، بل هي تلك الدرجة المستقلة لروح الإنسان .

إنّ مبدأ سلسلة المقدسات عند البشر تكمن في الذات الأحدية ، الذات المقدسة ، الله القدّوس المنزه من كل نقص على الإطلاق ، ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس . . . ﴾

ولهذا ترى أنّ أكثر أعمال البشر قدسية ، هي الكفاح ضد الشرك ، وعبادة الأوثان .

الثورات المقدّسة

إنّ الثورات والحركات المقدّسة ، قد ابتدأت في الحقيقة بالأنبياء العظام ، وقد ورد ذكر تلك الثورات ، والحركات المقدّسة ، وجهاد الأنبياء المقدّس ، باختصار في سورة الشعراء ، حيث يذكر القرآن الكريم قصص موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، ولوط ، وصالح ، وشُعيب ، وخاتم الأنبياء ، بأنهم إنمّا قاموا في سبيل مكافحة عبادة الأصنام ، والنضال ضد الظلم والاستبداد ، والجهل ، والتعصب ، والتقليد ، والإسراف ، والتبذير ، والإفساد في الأرض ، والفحشاء ، والامتيازات الاجتماعية الوهمية .

وهذه هي خلاصة مقدسات الجنس البشري .

وقد سلك الإمام الحسين نفس الطريق الذي سلكه الأنبياء ، لكنه بالطبع واجه ظروفًا غير تلك الظروف التي واجهت الأنبياء .

والاعتراض الذي يوجّه للإمام الحسين ، بسبب إصراره على التضحية ، وعدم الاستسلام ، من أجل حفظ النفس ، هو نفسه يمكن أن يوجّه إلى الأنبياء والأولياء كافة .

وأساس الدين في الواقع هو الإيثار والتضحية ، فمنطق الدين هو منطق الإيثار ، يقول تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ،

وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا ، وَيَتِيمًا ، وَأَسِيرًا ﴿١٠﴾ ، ويقول الرسول الأكرم (ص) : « من أصبح ، ولم يهتم بأمور المسلمين ، فليس بمسلم » .

إنَّ تعلق الجنس البشري بالنفس والحياة ، وكذلك التعلق بالآباء ، والأبناء ، والأمهات ، والزوجات ، أو المال ، والملك ، والشغل ، أو الحرفة ، أو البيت ، إنما هو أمرٌ طبيعي ، وهو ما يظهر في كل فردٍ من أفراد المجتمع .

بل إن كثيراً من هذه التعلقات ، جزء من طبيعة الحيوان أيضاً ، وقد جاء الدين لينقل الإنسان من حالة إلى حالة أرقى ، بحيث يجعله يعشق أموراً أكثر علواً ، ورفعةً ، وليتعلم درساً قيماً من دروس العزة والجلال .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ ، وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ، وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرْبَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وجود الإدراك المتين في النهضة الحسينية

يمكننا أن نُميز بعض الأشياء التي يمكن اعتبارها السبب ، أو الميزان ، الذي يُبين كون هذه النهضة ، أو تلك ، من النهضة المقدسة ، والرفيعة ، أو لا ، والتي إن وجدت جعلت الروحانية تسود على الأفكار ، والعقول الإنسانية .

وهذه الأشياء بالدرجة الأولى عبارة عن طهارة ، ونقاء ، وقدسية الهدف والغاية ، وعدم اختلاط أهداف النهضة بأي نوع من أنواع الأهداف الشخصية ، أو المنفعة المادية ، والمطامع الذاتية ، أو حب الجاه ، والشهوة ، والأنانية . والمحورية الذاتية ، أو أنواع التعصب القومي ، أو الحمية الوطنية .

بل أن تبقى الغاية رضا الله ، والعمل بأوامره سبحانه وتعالى ، وتحقيق العدل والتوحيد ، والقيام بالقسط والحرية ، وحماية المظلوم ، والدفاع عن

سورة التوبة : الآية ٢٤ .

الضعيف ﴿ . . إنَّ فرعونَ علا في الأرض وجعلَ أهلها شيعاً ، يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ . . . ﴾

نعم ، عندما تكون النهضة بسبب الارتعاش ، والحركة التي تحصل في الوجدان والضمير الإنساني ، وعندما يكون القيام من أجل الإنسانية ، والمجتمع البشري ، وأصوله ، ومبادئه المقدسة ، وبعبارة أخرى ، عندما تكون النهضة ذات صفة أصولية ، وليست فردية^(١) ، وهي الأصول السامية للإنسانية ، والتي تُشكِّل في الواقع قوام الحياة الإنسانية ، وروحها .

نعم من أجل روح الحياة ، التي هي أرفع ، وأسمى من وسائل الحياة .
فافتقر الإنسان للوسائل لا يسلب منه أصل الحياة ، لكن غياب المقدسات ، كالعدالة ، والحق ، والحرية ، من قاموس البشرية ، ومحوها ، يكون بمثابة سحب الهواء من الفضاء .

وهناك فرق بين أن يكون الفضاء مفتقراً للقنديل ، أو الفراش ، أو وسائل الصوت والصورة ، أو أن يكون مفتقراً للهواء نفسه .

العامل الثاني من عوامل تقديس أية نهضة ، وسموها ، وتعاليتها ، كونها تأتي في ظل سيطرة الظلمات المتراكمة ، وبعد شيوع موجة اليأس المطلق ، وفي ظروف تعيشها البشرية لا يكون فيها نجمة واحدة مُضيئة في السماوات ، وإذا بالنهضة تأتي كشرارة ، وكبرق لامع ، وشعلة حقانية ، تُضيء الطريق للأدَميين .

وبالتالي سَتُمثِّل حركة في وسط السكون ، ونداء مُلحاً وسط السكوت المميت ، والظلام القاتل ، كالبرق في وسط الظلام ، والقليل مقابل الكثير : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

ولهذا ترى مثل هذه النهضة لا تجدد صدىً عند العقلاء من المُحبِّين

(١) بعبارة أخرى عندما يتم التضحية بالمصلحة الذاتية ، والمنفعة الشخصية ، من أجل المصالح العامة للمجتمع ، والتضحية بكل شيء من أجل الحق والعدالة ، عندها فقط يتحول الأفراد ، وتتحول ثورتهم ، إلى تبلور ، وتجسيد للحق ، والعدالة ، وهكذا يصبحون مُقدَّسين مثل الحق والعدالة .

لذواتهم ، وهي تظل رغم ذلك أشبه بالغيمة التي تُمطر على العطشان في الصحراء ، ومثل المحبوب الذي يصل إلى المحب من دون موعدٍ مُسبق :

وبريدُ يأتي بوصلٍ حبيبٍ وحيبُ يأتي بلا ميعاد

العامل الثالث من عوامل تقديس الثورات والحركات ، هو كون قيادة الحركة تحمل إدراكاً متيناً ، وبصيرةً نافذة ثاقبة ، قادرةً على رؤية ما سيأتي من أحداثٍ خلفها ، فهي إذن ترى ما لا يراه الآخرون خلف الستار .

وهذا ما يتم استنباطه من قراءة الآيات القرآنية المتعلقة بنهضة الأنبياء عليهم السلام كآية ؛ ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ . . . ﴾ ، وآية ﴿ سراج منير . . . ﴾ ، وآية ﴿ يستضعف طائفةً . . . ﴾ حيث يتضح منها جميعاً أنَّ قياداتها تحمل حقاً بصيرةً ، وإحساساً ، قوياً ، نافذاً ، وترى ما لا يراه الآخرون .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ وآية : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ، وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ .

فكلمة « رُشد » لم تستخدم بمعنى النمو ، بل بمعنى العاقل ، والبالغ ، والرشد .

وكذلك معنى « الهدى » .

وهنا لا بد لنا من الاعتراف أيضاً ، بأنَّ نهضة السيد (جمال الدين) هي الأخرى نهضة مُقدسة ، من حيث إنها كانت ذات بصيرة نافذة ، وكانت ترى ما لم يكن يراه أهل عصرها . وهو ما يمكن ملاحظته من رسائل (السيد جمال) التي بعثها إلى العلماء في زمانه .

بالطبع هناك عوامل أخرى لتقديس النهضة ، مثل كونها تحصل في ظل عدم توازن القوى بين طرفي الصراع ، وفقد التجهيزات المادية الظاهرية ، للقائمين عليها ، فموسى ، وإبراهيم ، ومحمد (ص) كانوا وحدهم عندما شرعوا

بالنَهضة ، ولم يكونوا يملكون شيئاً من تلك التجهيزات ، وكذلك كان حال الإمام الحسين (ع) .

والآن ماذا كان يرى الإمام الحسين (ع) من خلف الستار ؟ وكيف كان إدراكه قوياً لخفايا الفكر الأموي المناهض للإسلام ؟

نعم فالنَهضة الحسينية كشفت أنّ الحسين (ع) كان يرى ما لم يكن يراه البسطاء من الناس ، فأبو سفيان قد قال بوضوح في بيت عثمان :

« يا بني أُمّية ! تَلَقَّفوها تَلَقَّف الكُرة ، أما والذي يَحِلُّفُ به أبو سفيان ، لا جَنَّة ولا نار ، وما زِلْتُ أرجوها لكم ولتَصَيِّرَنَّ إلى أبنائكم وراثَةً » .

ثم قام بنو أُمّية بتحويل ذلك الكلام إلى ممارسة فعلية ، عندما سلّموا الخلافة إلى يزيد ، وطالبوا أهل العقد والحل ، وفي مقدمتهم الإمام الحسين (ع) ، بمبايعة الخليفة الجديد ، مما كان يعني الترجمة العملية للفكر السفيفاني الخطير ، وهو الفكر الحزبي الأموي الأساسي .

ولكن رغم ذلك كله فإنّ جمهور العامة ، الذي كان يحمل الأمور على الظاهر ، والذي كانت تخدعه المظاهر والظواهر من السيرة ، لم يُدرك للأسف أخطار مثل هذه التحركات ، التي أشار إليها الإمام الحسين (ع) آنذاك عندما قال : « وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليتْ الأُمة براعٍ مثل يزيد » .

والإمام الحسين (ع) ، كان يُدرك جيداً أن صعود يزيد إلى الخلافة ، يعني تحقيق مبدأ أبي سفيان القائل : « ولتصيرن إلى صبيانكم وراثَةً » ، وأنّ السكوت عليها قد يحمل معه أخطار تحوّل هذه الفكرة إلى تقليد دائم ، وربما يصحب ذلك أيضاً تزوير في الحديث لصالح الأفكار التي تُنادي بصيرورة الخلافة وراثية في بني أُمّية .

إنّ الإمام الحسين (ع) لم يُقتل على يد اليهود ، أو النصارى ، أو المجوس ، أو مشركي العرب ، ولا حتى على يد أهل الردة منهم ، بل إنّه قُتل بأيدي المسلمين ، بل وحتى على يد أصحاب أبيه ، ولم يكن القتلة من أهل الشام ، بل كانوا من أهل الكوفة !!

بالطبع فقد كان الكوفيون مرعوبين ، وكانت العامة منهم تتبع وجهاء القوم ، والقيادات منهم كانت مشبعة بالرشوة :

« أما رؤساؤهم فقد أعظمت رشوتهم ، ومُلئت غرائزهم » .

نعم فلماذا يُنتظر من رؤساء قوم امتلأت جيوبهم بالليرة والدولار ، والرشاوي التي تتقاطر عليهم من كل جانب ، سواء بشكل حوالات بنكية ، أو دفعات نقدية ، لا سيما وإن كانت أحاسيس ومدارك العامة ضعيفة ، ومُصابة بمرض النسيان ؟

لقد قلنا إن أحد الأسباب ، أو العامل الأهم ، والعلّة الأكثر أهميةً ، في شهادة الإمام الحسين (ع) ، أو التفاف العامة حول الأمويين ، يكمن في الواقع في جهل الناس .

ومن جهةٍ أخرى فإننا نعرف أيضاً بأن الإمام الحسين لم يكن يكافح ضد شخص يزيد ، فالحسين (ع) أكبرُ من أن يكون هدفه شخصاً أو فرداً بعينه ، فهدفه كان في الحقيقة كلياً ، وشاملاً ، وأساسياً .

فهو كان يهدف من وراء نهضته ، مقاومة الظلم ، والكفاح ضد الجهل ، وهو ما جاء في الزيارة العامة التي نقرأها بمناسبة ذكرى الحسين (ع) ، تلك الزيارة التي تعلّمنا ، وتلقّنا ، بأن الهدف لتلك النهضة ، وذلك الكفاح ، إنما كان في الواقع للقضاء على الجهل ، والانحراف ، وهو ما جاء ذكره في زيارة الأربعين في قولنا : « وَبَدَلْ مُهْجَتَهُ فَيْكَ ، لِيَسْتَنْقِذَ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ ، وَحِيرَةِ الضَّلَالَةِ » .

وهنا لا بد من التوضيح أن المقصود من الجهل ليس عدم معرفة الناس بالقراءة ، أو الكتابة وأنّ كون الناس أميين ، هو الذي جعلهم يرتكبون مثل ذلك العمل .

وأنّهم لو كانوا أهل درس ، وأهل قراءة ، وكتابة ، وتحصيل ، لما ارتكبوا مثل ما ارتكبه بحق الحسين . لا أبداً ليس كذلك !!

فالجهل في المصطلح الديني ، إنما يتم استخدامه مقابل العقل ،

والإدراك ، والمقصود به الغيب العقلي ، الذي لا بد من وجوده بين الناس .
وبعبارة أخرى القدرة على تحليل الأمور ، والأحداث ، وتفسيرها ، وتطبيق
الكليات على الجزئيات ، وهذا ما ليس له علاقة كثيراً بالأمية ، أو عدمها .

فالمطلوب هنا ، وجود العلم ، وحفظ وتسجيل الكليات والأصول العامة ،
وحيازة العقل بمثابة قوة التحليل ، والتفسير ، والإدراك المتين .

أي إنّ الإمام الحسين (ع) ، قد استشهد ضحية نسيان الناس ، فلو أنّ
الناس قد فكرت جيداً بتاريخ الخمسين ، أو الستين عاماً ، التي مرّت عليها ،
وملكت قوة إدراك ، وتنبه ، واستنتج للأحداث التي مرت عليها ، وأخذت
العبرة من كل ذلك ، والعمل بما عبّر عنه سيد الشهداء (ع) في قوله : « ارجعوا
إلى عُقولكم » . واستذكّار جرائم أبي سفيان ، ومعاوية ، وزياد في الكوفة ،
وعدم نسيان حقيقة بني أمية أساساً ، وعدم انخداعهم بالظاهر الذي كان يبدو
فيه معاوية ، والذي كان يُريد من ورائه خداع الناس ، برفعه راية الدين
والتدين ، في محاولةٍ منه لإخفاء المصالح الشخصية ، التي كان يعمل لها .

ولو أن العامة كانت تُفكّر بعمق ، وتحسّب بدقّة ، مقدار النفع الذي كان
يدرّ عليها في الدنيا والآخرة من وراء تبعيتها للحُسين ، في مقابل تبعيتها وهائها
وراء يزيد ، ومعاوية ، وعبيد الله ، لما كانت وقعت مثل تلك الجريمة بحق آل
البيت أبداً .

إذاً ، فالسبب الرئيسي وراء تصرف أناس معتقدين نسبياً بالإسلام ، بتلك
الصورة ، مع آل بيت النبي ، في الوقت الذي كانوا فيه هم أنفسهم مستعدين
لقتال الكفار ، قربته إلى الله ، إنما يكمن فقط ، وفقط في نسيان أولئك العامة ،
وسذاجتهم ، وسهولة خداعهم ، وبكلمة : عدم قدرتهم على النظر ما وراء
الستار ، وكشف حُجب النفاق .

فهم كانوا يرون ظواهر الشعائر الإسلامية يُعمل بها ، ولكنهم لم يكونوا
يرون ضياع الأصول والمعاني .

بالطبع هناك عوامل أخرى ساهمت في حصول الواقعة المأساة تلك ، والتي

سبق أن ذكرناها ، وهي الرعب ، والخوف ، والتبعية ، الذي كان يُحيط بجمهور العامة ، من جهة فساد أخلاق الرؤساء ، وشيوع الرشوة ، والطمع ، والطاعة العمياء ، في صفوف المجتمع عملاً بالعادات الجاهلية العربية ، حيث كان الصغار في القبيلة يتبعون رؤساء القبائل .

إن واقعة الطف واقعة إسلامية مئة بالمئة ، فالإمام الحسين (ع) وكما يقول ذلك الرجل المعاند قد قُتل بسيف جده ، ولكن السبب يكمن في جهل الناس ، وتمسكهم بالظواهر ، وانخداعهم بالمظاهر العامة ، التي تبرز وجود الشعائر الدينية .

إضافة إلى ذلك فإن أحد عوامل وقوع تلك الفاجعة ، هو كون القائمين ، والمُنَفَّذِينَ لها ، كانوا بالصدفة من أصحاب الجريمة ، وحاملي مواصفات الجُناة الفطريين ، كما جاء وصفهم على لسان العقاد بقوله : « المُسخاء المشوهين أولئك الذين تمتلئ صدورهم بالحقد على أبناء آدم ، ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق ، وحُسن الأحداث ، فإذا بهم يفرغون حقدَهُم لِعِدائِهِ ، وإن لم ينتفعوا بأجرٍ أو غنيمةٍ ... » .

الخلاصة في بحث العوامل المؤثرة في شهادة الإمام

إننا نستطيع في الواقع بحث الموضوع من الناحية التاريخية وعنوانته على الشكل التالي ، فنقول : من هي العناصر ، وما هي الأشياء التي ساهمت في استشهاد الإمام الحسين ؟ ثم نقول : من هي العناصر ، وما هي الأشياء التي وقفت إلى جانبه أو ناصرته ؟

فأما من زاوية الحديث عن العناصر التي ساهمت في استشهاد الحسين ، فهي عناصر معروفة ، ويبقى هنا الإشارة باختصار شديد ، إلى الأشياء التي كانت الباعث وراء قيام تلك العناصر بذلك الدور الإجرامي ، وباختصار يمكن الإشارة أولاً إلى طمع المُلْك - ملك الري - والحصول على المال والثروة . كما يقول « خولي » : « جئتُك غنيّ الدهر » .

أو من خلال رشوة الرؤساء : « أمّا رؤساؤهم فقد أعظمت رَشوتُهُم ومُلئت غرائزهم » .

إلى جانب عوامل الجبن ، والرعب ، التي كانت قد أصابت عامة الناس ، إضافة إلى الميل الباطني الذي كان يُحرِّك ابن زياد ، وإلى جانب الخُبث الذاتي ، الذي كان يطبع أمثال الشمر ، والغرور ، والانحلال الخلقي ، والخفة ، والتعاسة ، التي كانت مهيمنة على شخص يزيد .

وما فوق ذلك كله نسيان الناس لتاريخهم الماضي ، وتجربة الستين عاماً ، التي خاضوها بكل ألوانها ، وأنهم كانوا من المسلمين الذين خاضوا كل تلك التجارب الغنية ، لكنهم رغم ذلك خُدعوا ، وضُللوا بالمظاهر الخدّاعة للخليفة الأرعن الجديد .

تلك العوامل مجتمعةً كانت في الحقيقة هي الخلفية وراء واقعة الطف ، واستشهاد الإمام الحسين (ع) .

وأما ماذا كانت عناوين الأشياء التي وقفت إلى جانب الحسين في المواجهة ، فإننا يمكن الإشارة إليها باختصار ، بأنها عبارة عن الإيمان ، وأخذ العبرة من التاريخ ، وتجربة الستين عاماً منذ صدر الإسلام حتى زمان حدوث الواقعة ، وهي العناوين التي نجد لها صدىً في كلمات زهير بن القين ، بالإضافة إلى حس الفتوة ، والرجولة ، والشجاعة ، والإيمان بالغيب ، وأمثال ذلك من المبادئ التي ناصرت الإمام في معركة المواجهة .

علل تقديس الثورات

تأسيساً على الموضوعات السابقة حيث الحديث عن الأسباب ، وراء تقديس الناس لهذه ما ، دون غيرها ، والنظر إليها نظرة تُحيط بها هالة عظيمة ، وشعور بالتقديس والطهارة ، بحيث إنها تصبح معياراً لسائر الحركات الأخرى ، وميزاناً للسكوت والسكون .

وعندما نقول إنّ حركة ما تصبح « مقدّسة » فإننا نعني أنّ الناس تنظر إليها

باعتبارها حركة ما فوق حركة المادة والطبيعة ، ولذا تراهم ينظرون إليها نظرة احترام وتقدير عاليين ، وبالتالي فإنهم يرون فيها حركة ، أو نهضة غير قابلة للقياس ، أو المقارنة مع أية نهضة أخرى .

كل ما هنالك ربما تكون قابلة للتشبيه ، أو التقليد والتبعية ، من قبل الحركات الأخرى .

وأما بخصوص قداسة ، أو قدسية الحركة الحسينية ، وأهميتها الخارقة للعادة ، رغم مرور ما يناهز الأربعة عشر قرناً على مرورها ، فإنها ترجع إلى ثلاث عوامل أو علل هي :

١ - قدسية^(١) ، وسمو ورفعة الهدف ، الذي من أجله قام الإمام الحسين (ع) ، حيث الهدف المنشود هو الوصول إلى الحقيقة ، وليس كسب المنفعة ، ولذلك تراه يفدي المنفعة ، ويضحى بالمصلحة الشخصية ، في سبيل انتصار الحقيقة ، في سبيل الله .

وبديهي القول هنا إن من يقوم طلباً للحصول على المعاش ، أو للوصول إلى الثروة ، أو السلطة ، أو كما يقول (حنظلة) ، لاكتساب الجلال والعظمة ، أو كما يقول الوطنيون : من أجل الدفاع عن الحقوق الوطنية ، والقومية ، فإن هؤلاء جميعاً لا يمكن اعتبار حركاتهم ، ونهضاتهم ، نهضات مقدسة .

بل ربما لكونهم من إحدى الجهات سيكونون سبباً في استخدام الآخرين وسيلة لتحقيق مآربهم ولذلك فإن حركاتهم تلك ، قد تكون حركات مُدانة ، ولا فرق هنا إن كانت حركاتهم ناجحة أو فاشلة .

فهذه الحركات محكومة بقوانين التجارة والمعاملات ، وقد تأتي بالنفع على

(١) سبق أن أشرنا إلى الفرق بين الهدف المقدس ، والسامي ، وبين الهدف العظيم ، والكبير . فأمثال (الإسكندر) والشاه (إسماعيل الصفوي) و(نادر شاه) كانوا يأملون بتحقيق أهداف كبرى ، لكنهم لم تكن لديهم أهداف مقدسة ينشدون تحقيقها ، وهم كانوا يُمثلون دور أبطال الحركة الذاتية ، وعظماة حب الجاه والسلطة ، ولم يمثلوا رمزاً للأحرار ، وطلّاب الحقيقة ، ولهذا لم يتم اعتبارهم من رجالات الخير أو محبي الإنسانية ، أو الموحدن الكبار ، والعظام .

أصحابها مرةً وقد تأتي بالضرر ، وليس مهماً إن كانت مُربحة أو خاسرة ، ذلك أن مثل هذه النضالات نضالات تدور حول محاور الأشخاص والمنافع الشخصية ، ولهذا فهي حركات لا قيمة لها من الناحية الكُلية ، والشمولية .

من هنا فإنَّ الإمام الحسين (ع) ، وعملاً بسُنَّة أبيه ، ومشياً على سيرته يقول : « اللهم إنك تعلمُ أنَّه لم يكن ما كان مِنّا منافسةً في سلطان . . . » .

نعم ، فحين يكون النضال غير شخصيٍّ ، أي لا يدور في محاور الأشخاص ، ولا دفاعاً عن المصالح الشخصية ، بل إعلان حرب ضد نوعٍ من أنواع العقيدة والنظام ، المبني على الفساد ، والظلم ، والشرك ، وعبادة الأوثان ، ومن أجل تحرير البشرية من كل أنواع العبودية الاجتماعية ، بل الأخطر من ذلك ، وهي العبودية العقائدية ، وبالتالي من أجل إنقاذ البشرية من برائن عفریت الجهل ، والضلال ، وشبح الظلم ، والاستبداد ، والاستغلال ، باختصار عندما يكون النضال نضالاً على الطريقة الحسينية : « وبَذَلْ مُهْجَتَهُ فَيْكَ ، لِيَسْتَنْقِذَ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ ، وَحِيرَةِ الضَّلَالَةِ » .

واستناداً إلى أمر الله ، ومن أجل كسب رضا الله ، وعملاً بمقولة : « إنَّ صَلَاتِي ، وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ ، وَمَمَاتِي ، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

نعم على أساس من التضحية والفداء ، وبكلمة ، عملاً خالصاً لوجه الله ، ليس فيه ذرة من النفع الشخصي ، بل العكس من ذلك ، تعريض كل المنافع الخاصة للأخطار ، من أجل الوصول إلى الحقيقة .

فإنَّ نضالاً من هذا الشكل ، سيكون صورةً من صور تبلور روح تقدیس الحقيقة لدى البشرية ، وصفحة من صفحات نضالها ضد الأنانية ، والذاتية ، وبما أنها ستكون كذلك مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فإنها لا بد ستنال ذلك الطابع القدسي ، ويُنظر إليها نظرة مملوءة بالعلو ، والسمو ، والعظمة . وإن نضالاً وكفاحاً كهذين سيكونان أيضاً مصداقاً للهجرة إلى الله وإلى الرسول ، كما ورد في الحديث الشريف .

، بعبارة أخرى فإنّ احد وجوه قداسة النهضة ، يرتبط بنوع المعاناة ، ونوع الآمال التي يحملها صاحب تلك النهضة ورائدها .

إنّ نهضة الحسين (ع) كانت مصداقاً حقيقياً لوجود مثل هذا العنصر ، ومثل هذه المواصفات ، فقد كان بإمكانه عليه السلام أن يضمن منافعه ، ومصالحه بالكامل ، لكنه مع ذلك فضّل أن يُعرّض حياته ، وماله ، وكل وجوده ، للخطر ، حفاظاً على العالم الإسلامي ، وإنقاذاً للمسلمين من براثن الظلم والاستبداد .

ومن هنا يمكننا القول بكل تأكيد إنّ الإمام الحسين (ع) ، شهيد مئة بالمئة ، وفدائي طاهر السريرة ، بل سيد الشهداء ، وأمير الفداء .

أما العلة الثانية ، والعامل الآخر ، الذي يُعطي صفة القدسية والعلو ، والسمو ، والخلود ، لنهضة ما ، فهي الظروف الخاصة المحيطة بالنهضة^(١) .

فالمصباح في يوم مشرق ، وفي وسط النهار ، ليس له أية قيمة تذكر ، كما أن السراج في الليلة المظلمة ، ذات الساء الصافية ، والمليئة بالنجوم ، له قيمة قليلة ، لكنه مهم جداً ، وذو أهمية بالغة ، عندما يوجد في ليلة حالكة الظلام ، لا ترى فيها العين أي شيء يذكر .

عندها يكون كالماء الذي ينزل على العطشان في وسط الصحراء ، أو كالطرر الذي ينزل مدراراً على الزرع بعد فصلٍ من الجفاف وانقطاع الماء .

وبعبارة أخرى يمكن تقييم العامل الثاني من خلال ملاحظة نوع القوة والسلطة التي يواجهها القائمون على النهضة . هل هي قوة فرعون ، ونمرود ، ومن يدعي أنّه « ربكم الأعلى » ، وأمثاله من المستبدين ، ومصاصي دماء

(١) لقد سبق وقلنا إنّ مثل هذه الثورات والحركات إنما تحصل مثل البرق ، أو الشرارة ، في ظل الظلمات بل أشبه بالشعلة المقدسة . التي تضيء وسط القمع ، وسيطرة الاستبداد ، والظلام الخالك ، بل أشبه بنجمة تضيء بنورها وسط ليل مظلم ، تنير الطريق للضالين بعد طلوعها عليهم ، بل مظهراً من مظاهر العشق والصفاء مقابل العقل والحسابات العقلانية

الشعوب ، الذين تقطر الدماء من سيوفهم ؟ فإن كانت كذلك ، عندها تنطبق عليها مواصفات القدسية المطلوبة .

يقول النبي الأكرم (ص) : « أفضل الأعمال (أو : أفضل الجهاد) كلمة عدل عند إمام جائر » . نعم ففي ظل شيوع أجواء الحرية ، يكون الحديث عن الحرية أمراً عادياً ، ولا يحتاج إلى فن أو جهد معين . لكنه في ظل هيمنة الاستبداد ، وتحكم أجواء الظلم والجور ، حيث الأنفاس محبوسة في الصدور ، والألسنة التي تنطق بالحق تُقطع ، وكل من يتجرأ على معارضة الحكم تُقطع يده ورجلاه ، وتعلق المشائق لكل من تُسأل له نفسه القيام ضد السلطة الحاكمة ، وفي أجواء يُسيطر عليها اليأس المطلق ، وتعبير أمير المؤمنين علي (ع) : « يظنُّ الظانُّ الدنيا معقولةً على بني أُمية » ، نعم في مثل ظروف كهذه ، يصبح الحديث عن الحرية فناً ، وقدرةً ، وشجاعة .

تلك هي ظروف قيام الإمام الحسين (ع) ، والتي تنبأ بها علي (ع) في إحدى خطبه (رقم ٩١) عندما قال :

« ألا وإنَّ أخوفَ الفتنِ عندي عليكم ، فتنة بني أُمية ، فإنها فتنة عمياء مُظلمة : عَمَّتْ خُطُوتُها ، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُها ، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مِنْ أَبْصَرِ فِيها ، وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مِنْ عَمِي عَنْها . وإيْمُ الله ! لَتَجِدَنَّ بني أُمية لكم أرباب سوءٍ بعدي كالناب الضروس : تعزم بغيتها ، وتخبُّط بيدها ، وتزينُ برجلها ، وتمنع درّها ، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم ، أو غير ضائرٍ بهم ، ولا يزالُ بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربّه » .

فمن هذه الزاوية تكبر قيمة النهضة حيث ترى القائمين عليها ، يُظهرون أعلى مراتب الشهامة ، والشجاعة ، ويحتقرون بالمقابل الظلمة ، والمتفرعين ، والمتسلطين على رقاب الناس ، من أصحاب السلطة القمعية ، وهو الأمر الذي نعرفه جيداً في سيرة إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، والرسول محمد (ص) ، حيث كانت حركة كل واحدٍ منهم قيام رجل واحدٍ ، لكنّها بمثابة قيام أمة في مواجهة السلطات الفرعونية الحاكمة ، وما قيامهم في ظل تلك الظروف غير المتكافئة ،

وفي ظل عدم توازن للقوى ، إلا مصداق للآية الكريمة : ﴿ كَم مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهذا هو سر الأهمية البالغة ، والقدسية المحيطة بتلك الحركات الربّانية .

والعجيب هنا أنّ البعض - من أمثال مؤلف كتاب الشهيد الخالد - ومن أجل أن يُبرّر قيام الإمام الحسين (ع) في ظل تلك المواجهة غير المتكافئة ، فإنك تراه يسعى كل جهده ، ليُثبت أن أهل الكوفة كانوا يُمثلون قوة كافية في الميزان ، كان الحسين (ع) يعتمد عليها كثيراً في حسابات المعركة .

في حين أنّ عظمة الحسين ونهضته تتجلى في الواقع في قيامه وهو وحيد .

وما نراه اليوم من أثرٍ باقٍ له ما هو إلا بقية من آثار تلك الروح العالية التوّاقة للسمو والرفعة ، التي هزّت أركان العالم آنذاك ، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم .

العامل الثالث له علاقة في الواقع بدرجة الوعي الاجتماعي ، والرؤية الثاقبة ، والخبرة ، والنظرة الحادة التي يتمتع بها القائمون على النهضة ، فالقائمون على النهضة المقدّسة أشبه ما يكونون بالطبيب الفطين الذي سرعان ما يُشخص المريض في وقت مبكر ، وسرعان ما يجد له العلاج المناسب ، في الوقت المناسب .

فقيادة النهضة كانت قد شخصت نوع الغفلة العامة للناس ، كما شخصت طريقة إيقاظهم ، ولقد كانت نهضة الحسين (ع) حدثاً خارقاً للعادة ، تلازم مع نظرة حادة وواعية ، وإدراك قوي ومتين ، وبصيرة مستنيرة بنور بعيد ، من قبل القيادة التي كانت في الحقيقة ترى وتعلم ما لا يعلمه ويراه الآخرون ، وهي كانت سبّاقة ونبوءة ثورية ، وليس حركة سابقة لأوانها ، بل جرس إنذارٍ لما هو قادم من أخطار التسلّط الأموي .

والموضوع الأساس هنا هو أن الأمويين كانوا يُخفون في ما وراء الستار برنامجهم السلطوي البغيض ، فجاء الحسين (ع) فكشف عنهم الغطاء ، ورفع الستار عمّا كانوا يُعدّون له من مشروع .

فحتى شرب الخمرة من قبل يزيد ، كان أمراً خافياً على جمهور العامة آنذاك ، ولم يكشف عنه إلا فيما بعد .

ثم إن أبا سفيان ، عندما طرح مشروعه في بيت عثمان ، إنما كان قد طرح في الواقع مشروعاً خطيراً للغاية ، وذلك بقوله : « يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ولتصيرنَّ إلى أولادكم وراثته » . مما يعني أنه ربما كان يعدُّ العدة ، ويسعى من خلال تقادم الزمان ، والأحداث أن يُحوّل مشروعه ، ويُترجمه عملياً ، بواسطة خلق خلفية دينية حقيقية ، تقوم على تزوير الحديث وإدخال الأفكار التي تخدم مشروعه الخطير ، الذي كان يقوم على جعل الحكم وراثته ، في سلالة بني أمية .

فهو كان يحلم بتحويل ذلك إلى واقع :

« أما والذي يحلف به أبو سفيان . . . »

ولهذا ترى الإمام الحسين (ع) يُسارع إلى القول في سباق مع الزمن ، والأحداث :

« وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

مما يعني أنه كان يحس ويشعر بأن مشروع أبي سفيان ، قد أصبح قاب قوسين ، أو أدنى من التحقيق بصعود يزيد إلى السلطة .

وعندما يكون الإمام الحسين (ع) واثقاً ، ومتيقناً من نتائج عمله إلى درجة أنه يتنبأ بسقوط بني أمية من بعده ، فإن ذلك دليل آخر على امتلاكه عليه السلام لذلك الإدراك القوي ، والرؤية الثاقبة للأحداث .

لقب « سيد الشهداء »

إن لقب سيد الشهداء ، كان يخصّ في البداية حمزة ، عم النبي الأكرم (ص) ، ولكن ، وبعد استشهاد أبي عبد الله ، انتقل هذا اللقب ، ليصبح خاصاً بالحسين (ع) . فاستشهد الحسين أنسى مَنْ كان قد استشهد من قبله ، وهكذا كان وضع أصحاب أبي عبد الله أيضاً ، فهم بدورهم أيضاً تجاوزوا من سبقوهم من الشهداء ، درجة ومرتبة .

وأبو عبد الله نفسه يقول بشأنهم :

« إني لا أعلم أصحاباً أوفى ، ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أوصل ، ولا أفضل من أهل بيتي » .

فأصحاب أبي عبد الله كانوا أحراراً ، سواء من طرف الصديق ، أم من طرف العدو ، فهم لم يكونوا مُحاصرين ، ولم يكونوا كذلك تحت ضغط معنوي من أبي عبد الله ، فهو نفسه قال لهم : بأنّ الأعداء لا يُريدون سواي ، وإنني أجزى لكم استخدام الليل جلاً ، وركوبه ، وترك ساحة النزال ، والتوجه إلى حيث تشاؤون .

وفوق ذلك كله فقد خفض برأسه إلى الأرض ، حتى لا تقع عيناه على عين من يُريد مغادرة المكان ، فيقع أسير الخجل والحياء ، من أبي عبد الله مثلاً !

إذاً ، لا هم محاصرون من قبل العدو ، كما هي حالة الجند التي وضعهم فيها طارق بن زياد ، عندما لم يبق من الطعام سوى ليوم واحد ، وقام بحرق المراكب من ورائهم .

ولا هم تحت ضغط مطالبة الصديق لهم بضرورة البقاء في ساحة المعركة حتى النهاية ، حتى يكونوا في موقف استحياء وفي حيرة من أمرهم .

بل إنه حتى خفض عينه إلى الأرض عليه السلام حتى لا يترك أي مجال للخجل ، أو الحياء من اتخاذ خطوة التراجع لو أرادوا^(١) .

(١) وخلاصة القول فإن الجملة التي تُنسب ظاهراً إلى ابن أبي الحديد حيث يقول فيها : « آثروا الموت » تنطبق على هؤلاء الأصحاب الأوفياء . وفي الحديث المعروف عن أمير المؤمنين (ع) [الوارد في ص ١١٠ من كتاب نفس المهموم] أنه عليه السلام يقول : « ومصارع عُشاق ، لا يسبقهم من كان قبلهم ، ولا يلحقهم من بعدهم » .

أصحاب الحسين وأهل بدر ، وأهل صفين

وعليه يمكن القول بأن أصحاب الحسين (ع) أفضل درجة من البدرين في عهد النبي (ص) ، وكذلك أفضل من جماعة علي (ع) في صفين ، وفي المقابل فإن جماعة عمر بن سعد ، في معركة الطف ، أكثر شقاوة ، وأسوأ فعلاً من جماعة أبي سفيان في بدر ، ومن جماعة معاوية في صفين .

نعم فهؤلاء لم يُقاتلوا كما دخل البدريون من جماعة أبي سفيان الحرب بناءً على العادة والعقيدة الجاهلية في حرب النبي (ص) .

ولا كانت عندهم مسألة اختلافية كما كانت لدى جماعة معاوية مثل قضية مقتل عثمان .

فهؤلاء كانوا يرتكبون الجرائم ، ونداء قلبهم ، وصوت وجدانهم ، وضميرهم ، كان يقول بخلاف ذلك . [قلوبهم معك وسيوفهم عليك] .

وهم كانوا سيكون الحسين لكنهم كانوا يأمرؤن بقتله في ذات اليوم ، ويذرفون الدموع على آل بيته ، لكنهم ينهبون ممتلكات أهله ، وينتزعون الأقراط من آذان بنات الحسين (ع) ، نعم كانوا يرتجفون ، لكنهم يُرددون في الوقت نفسه نعم قطع رأس الحسين .

النضال ضد الجهل والظلم

لقد شاع مصطلح النضال ضد المرض ، والفقر ، والجهل ، في أيامنا هذه بحيث إنه صار عملاً مقدساً القيام بمثل هذه الأعمال ، لكن أي واحد من هذه النضالات لا يصل في الدرجة والرتبة إلى مستوى النضال المطلوب ، ضد جهل الناس ، وغفلتهم ، وضد الظلم ، وهي الأمور التي تتطلب التضحية والفداء والاستشهاد .

فالقرآن الكريم يذكر الشهداء في عداد الأنبياء ، والصديقين ، كما جاء في

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَالصَّدِيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ ، وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۖ ﴾ .
والشهيد لا يحتاج إلى تغسيل أو كفن ، إذ إن دم الشهيد أكثر نقاءً وطهرًا
من الماء . . .

لماذا خرج الكوفيون لقتال الحسين (ع) ؟

السؤال هو كيف خرج أهل الكوفة لقتال الحسين (ع) بالرغم من جبههم وعلاقتهم العاطفية بالحسين (ع) ؟

والجواب : هو الرعب والخوف الذي كان قد هيمن على أهل الكوفة عموماً ، منذ زمن زياد ومعاوية ، والذي ازداد وتفاقم مع قدوم عبید الله ، الذي قام على الفور ، بقتل ميثم التمار ، ورُشيد ، ومُسلم ، وهاني .
وبعبارة أخرى فإنَّ الناس رجالاً ونساءً كانت قد ضُيعت ، وأصبحت مسلووبة الإرادة ، ولم يكن بمقدورها العمل طبقاً لما يراه عقلها ، ويستسيغه فكرها .

وفي أيام كربلاء أيضاً ما أن أبدى أحد الجنود تباطؤاً حتى قطع عنقه ، فعرف الباقون على الفور ماذا ينتظرهم .

هذا بالإضافة إلى تغلب عامل الطمع ، والحرص على التروة ، والمال ، وجاه الدنيا ، كما كان الحال مع عمر بن سعد نفسه الذي كان يعيش حالةً من عذاب الضمير ، وهو يُردّد : « فوالله ما أدري ، وإني لحائرٌ أفكر في أمري . . . » .

وأما وجهاء القوم ، ورؤساءهم ، فقد أرعبهم ابن زياد ، وأغراهم بالمال ، منذ اليوم الأول الذي دخل فيه إلى الكوفة ، حيث ناداهم جميعاً ، وقال لهم من كان منكم في صفوف المعارضة ، فإنِّي قاطعٌ عنه العطاء .

نعم وهذا عامر بن مجمع العبيدي أو [مجمع بن عامر] يقول : « أمّا

رؤساؤهم ، قد أعظمت رشوتهم ، وملئت غرائزهم » .

رُكنا الفخر والاعتزاز لدى أبي عبد الله

في أيام كربلاء ، وأثناء وقوع الابتلاءات العجيبة التي كانت تزداد يوماً بعد يوم على أبي عبد الله الحسين (ع) .

والأسوأ من كل ذلك تلك الدناءة ، وذلك الكلام الرذيل ، وأنواع التجاسر والوحشية ، التي كان يُعامل بها أهل الكوفة الإمام الحسين (ع) .

رغم كل تلك الظروف الصعبة ، كانت هناك نافذتان مفتوحتين يتنفس منهما أبو عبد الله الهواء الطلق ، ويعتمر قلبه من خلالها بالسعادة والفرح ، وكانت نافذة أصحابه ، ونافذة أهل بيته ، حيث الوفاء ، والصفاء ، والفداء ، والخدمة الطوعية ، التي كان يُقدّمها له أصحابه ، وبعبارة أخرى السرور الذي كان يعمُّ قلبه ، عليه السلام ، من خلال وقفة الأصحاب ، ونصرتهم له ، والسير معه على نفس الطريق والمرام .

وبالنسبة لرجل العقيدة والإيمان والسلوك ، ليس هناك شيء يُدخل السرور إلى قلبه مثل امتلاكه لرفاق دربٍ ، يؤمنون بطريقه ، ومستعدّين للسير إلى جنبه ، كيفما سارت الأمور .

ولذا تراه كان يُكرّر الدعاء لهم ، وطلب التوفيق لهم من أعماق قلبه ، وخير شهادة لهم تلك الشهادة المعروفة وهو يقول عنهم : « إني لا أعلمُ أصحاباً أبرّ ، ولا أهل بيتٍ أَوْصل ، ولا أوفى من أصحابي . . . » ، وهي المقولة التي تُحدّثنا عن الثقة التامة التي كانت لديه فيهم ، والآمال الكبيرة التي كان يعقدها ، عليه السلام ، عليهم .

وبالتأكيد فإنّ طلب (أبو ثمامة الصائدي) من أبي عبد الله الحسين لأداء الصلاة الأخيرة معه ، قد أثلج صدر الحسين ، وجعله يدعو له ذلك الدعاء المعروف .

ثم وأكثر من ذلك مسألة تلك التضحية العجيبة التي أبداهها سعيد بن عبد الله الحنفي تجاه الإمام (ع) ، وقوله بعد كل تلك التضحية عبارة : « أوفيت ؟ » هذه وغيرها الكثير من مواقف الوفاء ، والفداء لأصحابه ، وأهل بيته ، جعلته عليه السلام يخصّ البعض منهم بالدعاء الخاص ، وجميعهم بالدعاء العام .

وأكثر هذه الأدعية حُرقةً للقلب ، ذلك الدعاء المعروف بحق ابنه علي الأكبر ، وهو الدعاء الذي يدعو له فيه من الله سبحانه وتعالى أن يسرع في إلحاقه بركب جده النبي ، حتى يستفيض منه ويروي عطشه .

وهكذا يمكن الإشارة هنا إلى ذلك الموقف السار والمفرح ، الذي واجهه به ابن أخيه القاسم ، وهو يقول له في ليلة عاشوراء ، ردّاً على سؤال عمّه ، عن طبيعة رؤيته للموت ، بأنه : « أحلى من العسل » .

ومن الأدعية المعروفة له عليه السلام ، في أيام كربلاء ، حول أهله وأصحابه ، يمكن الإشارة إلى بعضها في يوم عاشوراء ، والتي وردت على الشكل التالي :

١ - الدعاء بحق أبو ثامة الصائدي .

٢ - الدعاء بحق علي الأكبر .

٣ - دعاؤه إلى العموم في ليلة عاشوراء ، بعد أن ردّوا عليه جميعاً بعدم مفارقتهم له ، حيث ردّ عليهم بدعائه المعروف الذي ورد فيه : « جزاكم الله خيراً »^(١)

بيان القرآن حول فلسفة قيام المُصلحين الربانيين

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ ، يَنْهَوْنَ عَنِ

(١) نفس المهموم ص ١٢٢ .

الفساد في الأرض ، إلا قليلاً يَمُنُّ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ، وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١﴾ .

نفهم من آيات القرآن الكريم أنه ما جاء نبي إلا وكان هناك قوم يخالفونه ، أو بالأحرى ، إلا وكان قد بُعث لمناهضة نظام قوم معينين ، وإنّ بيانات الأنبياء لم تكن اعتباطية هكذا دون سياق معين ، بل مجرد أقوال نزلت من السماء ، دون أن تكون هادفة لتغيير نظام حياة الناس ، ووضعهم الاجتماعي .

ولأنه ليس صحيحاً أيضاً بأنّ المخالفين ما هم إلا جماعة من المعارضين ، الذين ليس لديهم هم في الدنيا إلا مخالفة كل جديد ، ولذلك تراهم وقفوا بوجه الأنبياء .

كلا فالأمر ليس كذلك (وإن كُنَّا لِلْأَسْفِ نَشْرَحُ الْأَمْرَ لِلنَّاسِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَنُبَرِّرُ مَخَالَفَةَ النَّاسِ لَنَا - حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ مَخَالَفَةُ عَادِلَةٍ وَمُحَقَّاةٍ - بِأَنَّهَا مِنْ سُنَّةِ الْكُونَ ، وَأَنَّهُ دِيدَنُ النَّاسِ الْمَخَالَفَةُ ، حَتَّى مَخَالَفَةُ الْأَنْبِيَاءِ) .

فالأنبياء إنما كانوا يُبعثون ، لإعلان النضال والكفاح ضد نظام اجتماعي معين ، يكون حاكماً ومهيمناً على قوم معينين .

والقرآن الكريم بالمناسبة يذكر ويشير بوضوح إلى أسباب مخالفة الناس للأنبياء ، والمنطق الذي يستندون إليه في مخالفتهم ، وكيف أن القائمين على هذه المخالفة إنما هم أقلية متحكمة في رقاب الناس ، هي التي توجّه هذه المعارضه ، وتشوّش أذهان العامة ، التي لم تكن متضررة أساساً من حركة الأنبياء ، بل على العكس من ذلك .

هذه الامور كلها يرد ذكرها في القرآن الكريم في موارد عدة .

والقرآن الكريم يركز على أن المسألة الأساسية التي تدفع بهذه الأقلية

(١) سورة هود : الايتان ١١٦ - ١١٧ .

للمعارضة ، هي حالة الترف التي تُحيط بالمُترفين من القوم ، وبعبارة أخرى النظام الظالم المتحكم في المجتمع .

فقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(١) ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ * قَالَ : أُولَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ^(٢) .

ففي هذه الآية مثلاً ، يُشير القرآن الكريم إلى الابتلاء الذي واجهه خاتم الأنبياء محمد(ص) ، وكيف أنَّ هذا الابتلاء قد أصاب الأنبياء عامةً ، وأنَّ المعاناة المشتركة لهم جميعاً تأتي من الترف ، والإسراف ، والتنعيم ، الذي كان سائداً في ظل الوضع الظالم ، الذي كانت تُعزِّزه تلك الأقلية المتسلطة على رقاب الناس ، والتي ما كانت لتُبَرِّر استنكافها من الإيمان بالدين الجديد ، بحجة أنَّ آباءها وأجدادها كانوا على سيرة أخرى ، إلّا لتضليل الضعفاء ، والمساكين ، وجمهور غير المترفين ، الذين جاء الإسلام لحمايتهم ، وإنقاذهم من سلطة المتجبرين .

٤ ذلك أنَّ التحاق أولئك العامة كان يُهدِّد وضع الأقلية المترفة ، ويُطيح بهكيل المجتمع القديم .

ولذلك تراهم تشبَّثوا بنظرية احترام السُّنن والتقاليد القديمة ، التي لم تكن تساوي عندهم شيئاً قبل ظهور الإسلام .

إنَّ قريش أي أكابرها ووجهاءها ، كانوا يعيرون على النبي أنَّه يأكل ويشرب ، مثله مثل غيره من البشر العاديين ، ثم إنه لا يملك كنزاً من ذهب ، ولا حديقة زاهرة ، مليئة بالفاكهة ، حتى يؤمنوا به !

(١) سورة سبأ : الآية ٣٤ .

(٢) سورة الزخرف : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

فهل كان أمثال أبي سفيان وأبي جهل يُعبران بهذه الأحاديث عن شك أو تردد حقيقي بنبوة محمد (ص) ، أم إنهم كانوا يتوسلون بهذه الأساليب ، لإلقاء الشبهات والشك في قلوب الآخرين ؟ .

ألم يكونوا يؤمنون بنبوة إبراهيم ؟ وهل كانوا يعتقدون مثلاً أنه لم يكن يأكل ولا يمشي بين الناس ، وأنه كان يملك كنزاً من الذهب ، وبستاناً مليئاً بالفاكهة ؟ ! إنه هُراء وحُجج مبتذلة ، أريد من ورائها تضليل المستضعفين وخداعهم .

على كل حال فإن القرآن الكريم يُحدّد هدف الأنبياء بأنه عبارة عن القيام بالقسط كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) .

ولذلك ، فإنه من المحتم رؤية أولئك الذين كانوا السبب في ضرب العدالة الاجتماعية ، والمتنعمين ، والغارقين في الإسراف حتى آذانهم ، يقفون موقف المعارض للدين ، وهذا هو السر الكبير وراء موقف أبي سفيان المعارض للنبي (ص) ، والذي عمّده بالدم وبالتضحية بأفراده .

وعليه يمكننا القول بأن معارضة أكابر قريش ، ومخالفتهم الشديدة لحركة النبي (ص) ، قائمة في الأساس على نفس قواعد الخلاف ، والمعارضة ، التي مثلها فرعون في مواجهة موسى ، ونمرود ، مع إبراهيم ، وأي قوم آخرين ، وقفوا بوجه نبيهم .

أما بشأن قراءة الآية : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾ . فنقول :

إن هناك بعض الموضوعات التي يمكن استنتاجها من هذه الآية وهي :

أ - وجوب النهي عن الفساد وضرورة اجتثاثه من على الأرض .

ب - القلة والكثرة ليستا معياراً في المواجهة .

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

ج - علة العلل تكمن في فساد المترفين .

د - إنَّ الذي يحفظ بقاء آية أمة هو العدل ، وإنَّ أي ملك يمكن له أن يبقى مع الكفر ، لكنه ينهار بمجرد اختلال توازن العدل الاجتماعي . *

يقول (البيضاوي) في شرحه للآية الكريمة : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ . . . ﴾ :

إنَّ المقصود في « أولو بقية » ، هو أولو بقية من الرأي والعقل ، و« يا أولو الفضل » ، أو « أولو الإبقاء » أي أولئك الذين يُبقون على أنفسهم من العلم والمعرفة .

ثم يضيف :

وَأَمَّا ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ . . . ﴾ :

فالمقصود هنا بالظلم هو الشرك .

وعليه يصبح معنى الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يهلك القرى بسبب شركها ، إذا ما كانت أهل صلاح ، وإصلاح ، وترعى شؤون العدالة .

ولذلك نرى (الشهرستاني) يُفسر حوادث التاريخ كلها بإعادتها إلى نُطفة التكوين ، التي يعتقد أنها قد انعقدت جميعاً في القرن الأول للهجرة .

في كتابه « الملل والنحل » في الصفحة الخامسة من « سمو المعنى » يقول :
« كل التبليغات ، التي مرّت بالتاريخ الإسلامي ، سواء في العقيدة ، أو السياسة ، يمكننا أن نجد لها مرتجعاً ، ومردداً ، في حوادث صدر التاريخ » .

ما معنى الرجل العظيم ؟

كلنا سمع بعبارة رجال التاريخ العظماء ، فما هي هذه العظمة وما هو مقياسها ؟

نقول : إنَّ الشخصية الروحية للأفراد هي التي تُعيّن حجم ومقدار عظمة

الأفراد ، وإنه لأمر بدوي القول بأنّ العلامات والمقاييس البدنية ، أو العرقية للأفراد ، لا تُعَيِّن مقياس عظمة البشر .

• ونحن عندما نسبر أعماق التاريخ نسمع بأشخاص وأفراد يمكن تصنيفهم في عداد الأبطال الذين سطوروا ملاحم على صفحات التاريخ ، وكانوا أشبه بالقمم الجبلية الشاهقة ، مقابل الآخرين ممن عاصروهم ، والذين هم أشبه بالحصى الصغيرة المتناثرة .

إنّ الوقوف قليلاً عند هذه النقطة من دراسة التاريخ ، والنظر إليها جيداً ، تجعلنا نرى بوضوح ، شموخ مثل هؤلاء الأشخاص ، إلى جانب صغر البعض الآخر ، من الذين لم يكن بالإمكان رؤيتهم ، لشدة ضمورهم .

١ - فالاسكندر ، ونابليون ، ونادر شاه ، والشاه إسماعيل الصفوي ، وأمثالهم يُعتبرون من رجالات التاريخ وعظمائه ،

٢ - والأنبياء العظام ، والأولياء الصالحون الكبار ، كإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، ومحمد (ص) ، وعلي (ع) هم الآخرون من رجال التاريخ البارزين ، وعظماء البشرية النادرين .

والسؤال الآن هو هل يوجد هناك مجال للمقارنة بين عظماء المجموعة الأولى ، مع عظماء المجموعة الثانية ؟ والجواب بالتأكيد : كلاً .

فصحيح أنّ أولئك الأفراد من المجموعة الأولى قد جاءت عظمتهم ، وظهر بروزهم ، لكونهم أثبتوا أنهم ذووهم عالية ، وإرادات قوية ، وأنّ شعاع دائرة آمالهم ، وطموحاتهم الواسعة ، قد غطى مساحة كبيرة ، ولم يكونوا يقنعون بالقليل ، وبالتالي فإنه من الطبيعي أن يقف الإنسان منهراً ، ومبهوتاً ، لسماعه ببطولاتهم ، وتعرّفه على همّة روحهم ، ونشاطهم المتميز ، حتى إنه ربما انحنى لعظمتهم ، ودخل قلبه نوع من المحبة تجاههم ، بسبب تلك الروح الفعّالة المتألّقة فيهم (وهذا ما تركه من أثر في نفوس الناس قراءة الشاهنامة للشاعر فردوسي مثلاً) .

إلا أنّ عظمة المجموعة الثانية عظمة من نوع آخر ، ونمط مختلف تماماً ،

نوع يفرض علينا منح مقام القدسية لهم ، إلى درجة أن أسماءهم بدورها أيضاً تصبح أسماء مقدسة ، وهو ما نراه بوضوح لدى ذكر أسماء هؤلاء العظام أمثال محمد (ص) ، وعلي (ع) ، والإمام الحسين (ع) ، وكذلك إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، عليهم السلام ، حيث ترى أن هالة من القدسية الخالصة تُحيط بهذه الرموز . لماذا ؟

نقول : صحيح أن المجموعة الأولى عظيمة شاخصة في التاريخ إلا أن عظمتها وتألقها من نوع العظمة والتألق الذاتي .

فكل واحد من أولئك العظام يمكن اعتباره سبباً ، وحيواناً ضخماً ، فليس هناك فرق ، أو تمييز بين الحالتين ، فالإنسان يتعجب كثيراً لرؤية فرد يأكل عشرة أضعاف ما يستطيع أن يأكله الإنسان العادي ، وقد يُلازم هذا التعجب نوع من المديح والتقدير .

نعم فهناك من يطلب القليل من الطعام ، ويقنع به ، وهناك من لا يقنع بالقليل ، كذلك طلاب الجاه ، فمنهم من يكفي بالقليل ، وآخر منهم يطلب المزيد ، ولا يشبع بالنزر اليسير ، تماماً كما هو الفرق بين حاكم يريد الولاية على ناحية من عشرة عوائل ، وتراه يحمل همّة حكومة أولئك العشرة فقط ، فسيكون من أصحاب الجاه الصغار ، وآخر يسعى لكسب الولاية على قسبة من ألف وحدة اجتماعية ، فهو أيضاً من النوع الأول لكنه أكثر طموحاً .

وآخر تراه يسعى للسيطرة على محافظة بأكملها ، أو منطقة ، أو إقليم من أقاليم البلاد ، وصولاً إلى بلد ودولة بأكملها ، . وهكذا دواليك ، إلى أن يظهر من هو طامع وطامح ليرى السيطرة والهيمنة لسلطانه ، قد اتسعت ، وطال شعاعها العالم كله ، فيكون بذلك من أصحاب الجاه ، والسلطان ، ومن العظام في التاريخ .

نعم إن شخصية مثل هؤلاء ، شخصية عظيمة بالتأكيد ، فهم شخصيات عظيمة المهمة الذاتية ، وأشبه ما تكون بسبع الغابة العظيم الشأن ، والجاه ، والاستغلال .

ولا شك في أنّ مثل أولئك الرجال يملكون من سعة الروح ، واتّساع مساحة الشخصية ، وطول شعاع دائرة الطموح ، ما يجعلهم لا يكتفون بالنزول اليسير من الحكم والجاه ، بل يطلبون توسيع حاجاتهم ، وطموحاتهم ، الذاتية لتشمل الدنيا كلها ، وبالتالي يكون جلّ سعيهم مُتمثلاً في الواقع في ابتلاع الكل العام في هاضمتهم الذاتية الكبرى .

إنهم في الواقع من عظماء الذات الذين لا يشبعون ، والذين يُريدون تحويل الدنيا كلها إلى جزء من ذاتهم ، وفناء الشخصيات والرموز كافة في شخصيتهم ورمزهم الأعلى ، وهي الشخصية الطفيلية الكبرى ، التي تتغذى من شخصيات الآخرين .

إذاً صحيح أنّ تلك الفئة عظيمة ، وكبيرة ، ونشطة ، وفعّالة ، لكنها أشبه ما تكون بالغدة السرطانية ، التي تبدأ بالنمو غير المتوازن من داخل إحدى الخلايا ، وهكذا تستمر في غو مطرد ، إلى أن تصل إلى نهايتها الطبيعية ، التي هي فناء البدن ، وهلاكه .

في حين أنّ الفئة الثانية تكبر شخصيتها وتنمو كما تنمو الأم ، وتكبر شخصيتها ، ويكبر معها أبنائها ، وتنمو شخصيتهم المستقلة ، وتلقى الاحترام ، والتقدير ، من قبل الأم ، بل والرعاية الشاملة لتلك الشخصية الوليدة ، تماماً كما هي الرعاية التي توليها الأم لنفسها وربما أكثر .

نعم فهي تسعى إلى هضم تلك الشخصيات الجديدة والوليدة ، وإفنائها في داخل شخصيتها الذاتية ، بل حفظها ، ورعايتها ، وتقديرها ، واحترامها ، على عكس الفئة الأولى التي تتصرف كالغدة السرطانية مع الآخرين .

بينما نرى أنّ الفئة الثانية كما قلنا أشبه ما تكون بالروح القوية التي تسري في جسد المجتمع ، فتنفخ الروح في أبدان الجميع ، وتُشّطهم ، وبالتالي تصبح مصداق الحديث الشريف : « من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين ، فليس بمُسلم » .

إنها الشخصية الإنسانية هي التي تتوسع ، والروح البشرية هي التي تنمو وتكبر

في تلك الفئة ، وليس الروح الحيوانية فيها .

إنه علو النفس ، وسعة الإيمان والوجدان في الأولياء ، والصالحين ، والأنبياء ، ما يميز بين نوعي العظمة .

صحيح ، لماذا ترانا اليوم ندعي بأننا من فدائي الحسين (ع) ؟

الجواب هو : إنَّ ما قاله النبي محمد (ص) عن الحسين (ع) : « حُسين مني وأنا من حُسين » نحس به نحن كذلك أيضاً في أنفسنا ، فحسين منّا ونحن من حُسين ، ذلك أننا لا نرى في الحُسين شخصاً قام من أجل تحقيق مصالحه الذاتية ، بل نرى فيه الرمز والروح الكلّية ، التي قامت ، ونهضت ، وفكّرت بنا ، حتى قبل أن نولد .

وعليه فإنه منّا ونحن منه ، وهو من البشرية ، والبشرية منه .

إنه الرمز الذي اتّحد مع روحنا ، وامتزج مصيره بمصيرنا ، فهو منّا ونحن منه .

إنّ التوسع الإنساني للشخصية يتمثل أيضاً في قول علي (ع) متمثلاً :

وَحَسْبُكَ دَاءٌ ، أَنْ تَبَيْتَ بِبَطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ ، نَحْنُ إِلَى الْقَيْدِ

أو كما جاء في قوله عليه السلام :

« وهذا أخو غامدٍ ، وقد وَرَدَ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ . . . ولو أنّ امرأً مُسْلِمًا مات على هذا أسفًا . . . » .

وعلو النفس ، وسعة الروح ، وتألّق الشخصية ، يتمثل أيضاً في قول الحسين (ع) : « إني لم أخرجُ أشراً ، ولا بَطْراً . . . » أو في قوله عليه السلام : « من رأى سُلطاناً جائِراً ، مُسْتَحِلًّا لِحُرْمِ اللَّهِ . . . » .

الأساس في وقوع الفاجعة

أن الامام أبى أن يبيع رأيه ومعتقده

سواء قبل موت معاوية ، أو بعد موته في عهد يزيد ، وفي الوقت الذي كان فيه لا يزال في المدينة ، أو بعد انتقاله إلى مكة ، أو وهو في الطريق إلى العراق ، أو في أرض كربلاء نفسها ، كل ما كان يُطلب من الإمام ، هو منحه إياهم ذلك الامتياز .

ولو كان عليه السلام قد أعطاهم إياه ليس فقط لم يكونوا قد آذوه في شيء ، بل ولربما كانوا قد دفعوا له بعض الامتيازات المُقابلة ، ولم يكن بحاجة إلى تحمل كل تلك المعاناة واجترأ كل تلك الآلام ، والتضحية بنفسه ، وأهله ، وأعزائه ، واختيار طريق الشهادة .

وذلك الامتياز هو ببيعته لهم رأيه وعقيدته .

ففي ذلك العصر لم يكن بعدُ قد ظهر ما يُسمى بصندوق الانتخابات ، أو ما يسمى بالمعركة الانتخابية والتصويت ، بل كانت الفكرة هي فكرة البيعة .

فالبيعة في ذلك اليوم ، كانت تساوي التصويت الانتخابي اليوم ، وعليه ، لو كان الإمام قد أدلى بصوت لا شرعي ، ولا يُمثل حقيقة الوجدان ، والعقيدة التي يحملها ، لما كان قد أُستشهد ، لكنه فضّل الشهادة على أن يبيع رأيه ، وعقيدته .

أرض كربلاء مسرح للمعنويات والروحانيات ، وليست معرضاً للجنايات البشرية

هناك تقليد متبع في عالم اليوم ، بأن تقيم مختلف البلدان معرضاً للصناعات ، مثلاً ، وأحياناً معرضاً دولياً ، تشترك فيه بلدان العالم كافة .

وكما يبدو فإنّ العالم كله يجتمع مرةً كل ستين عاماً في معرض دولي كبير ، تستضيفه إحدى البلدان ، حيث يُقال إن برج (إيفل) مثلاً ، ما هو إلا تذكّار تاريخي لآخر معرض دولي أقيم قبل حوالي أكثر من ستين عاماً في باريس .

وقد أقيم قبل بضع سنوات مثل هذا المعرض في مدينة (بروكسل) حيث اجتمعت المجموع البشرية القادمة من كل أنحاء العالم الشرقي والغربي .

والهدف من مثل هذه المعارض هو عرض التناجات الفكرية والعملية للبشر ، ومن خلال هذه المعارض ، يستطيع الإنسان أن يلمس عظمة الفكر ، والنشاط البشري ، وحجم التألق الفني ، للجماعات الإنسانية .

فهناك يؤق بكل شيء ، ابتداءً من الإبرة ، وانتهاءً بنموذج لأحد المصانع الكبرى ، ومسرح كربلاء يمكن تشبيهه في الواقع بمعرض تاريخي ، لكنه ليس معرضاً للعلم ، والصناعة ، بل معرضاً للروح المعنوية ، وللمعرفة الإنسانية .

في هذا المعرض (كربلاء) ، يستطيع المرء أن يُدرك عظمة القدرة الأخلاقية ، والروحية ، والمعنوية للبشر .

كما يستطيع أن يفهم ويستوعب حجم المقدرة البشرية على العطاء ، والتضحية ، والظهور بمظهر التحرر ، والدفاع عن الحق ، وعبادة الحق تعالى ، رب العباد .

كما يمكن ملاحظة بروز معاني الصبر ، والرضا ، والتسليم لله ، والشجاعة ، والمروءة ، والكرم ، والنبيل .

إنّ من عادة أهل المنبر تضخيم الجانب الكارثي ، في قضية كربلاء ، وإبراز

جوانب الظلم ، والقساوة ، عندما يُريدون تضخيم القضية ، وبالتالي فإنك تراهم يبحثون عن أي خبر يُفيد في إبراز ذلك الجانب المأساوي ، بل وحتى تزوير وخلق بعض القصص الخيالية ، في هذا الاتجاه ، وعقد بعض المقارنات ، والتشبيهات المأساوية الكبرى ، كل ذلك بهدف تضخيم ذلك الجانب ، كما قلنا إلى أعلى حدٍ ممكن .

في حين أنّ السؤال المطروح أمامنا هو : أين تكمن في الحقيقة عظمة حادثة كربلاء ؟ فهل هي واقعة كبرى بسبب حجمها المأساوي الكبير ؟

بالتأكيد إنها كارثة ومأساة نادرة ، كما يذكر (أبوريحان البيروني) في مؤلفه « الآثار الباقية » نقلاً عن « نفس المهموم » ، إضافة إلى تقارير الآخرين .

لكنها ليست المأساة الوحيدة في التاريخ ، فمثلاً وربما أعظم منها قد حصلت أيضاً في التاريخ ، ويكفي أن نذكر مأساة المدينة^(١) ، فإنها ليست أقل فجاعةً من واقعة الطف ، في كربلاء .

لكن عظمة واقعة كربلاء تكمن في شخصية سيد الشهداء ، وأصحابه ، وأنصاره ، وليس من زاوية ابن زياد ، وابن سعد ، وأتباعهم ، وأشياعهم .

وبالتالي فإن العظمة هي عظمة السعادة ، وليست عظمة الشقاوة ، وكربلاء العظيمة تصلح معرضاً للروحانية ، والمعنوية ، والأخلاق العالية ، والإنسانية ، قبل أن تكون صالحة كمعرض للشقاوة ، والخسة ، والسوء .

لكن أهل المنبر لم يُعطوا هذا الجانب الإيجابي ذلك الاهتمام المطلوب ، بعبارة أخرى ينبغي لنا في هذه القضية أن نُبرز أبا عبد الله ، وأبا الفضل العباس ، وزينب ، باعتبارهم هم أبطال المسرح ، وليس الشمر ، وسانان ، وأمثالهم من مظاهر السلب ، والسوء في القضية .

(١) اعتقد أنّ الأستاذ الشهيد يقصد وقعة الحرة - المرحم - .

لماذا انقلب « الحر » في كربلاء ؟

لقد قيل : إن سبب التحاق « الحر » بسيد الشهداء ، هو معاشرته الطويلة للإمام ، وبالتالي التعرف عليه عن قرب .

لم يلتحق أحد من أصحاب الحسين بالعدو ، والعكس هو ما وقع !

إن أحد مظاهر القوة ، والكمال في النهضة الحسينية ، يتمثل في عدم التحاق أي من أفراد معسكر الحسين بالعدو ، على الرغم من المعاناة الشديدة ، التي مروا بها ، بينما تمكنوا من جلب عدد من أفراد الجيش الغالب لطرفهم ، وهو ما حصل مع الحر بن يزيد الرياحي ، وثلاثين نفرًا من عساكره .

ولعل السبب في إصرار الحسين في ليلة العاشر على أصحابه بحسم مواقفهم النهائية ، قبل الدخول في المعركة الفاصلة ، هو رغبته في أن يكون المعرض صورة كاملة ، ومشهداً متكاملًا ، لا وجود فيه لأي جانب ضعيف إطلاقاً ، قد يؤدي إلى بروز بعض الارتخاء في اللحظات الحاسمة للموقف .

وهذا الجانب لم يكن حساساً في (بدر) و (صفين) ، لكنه في غاية الحساسية في واقعة (كربلاء) ، لأن الأساس في هذه المواجهة ، كان قائماً على فلسفة الفداء ، والعطاء ، والتضحية .

إن القاعدة أن يجذب الجيش الغالب قلوب بعض الأنصار من الجيش المغلوب إلى جانبه ، لكن العكس هو الذي حصل في (كربلاء) ، فجيش المغلوب هو الذي تمكن من جذب قلوب بعض الأنصار من الجيش الغالب ، ذلك أنه تمكن من تحقيق الغلبة الروحية ، وبالتالي إيجاد الانكسار الروحي لدى عساكر العدو .

أكثر الجوانب إيلاماً في شهادة « سيد الشهداء »

إنّ من الجوانب الأكثر مأساوية ، من سائر جوانب المأساة الحسينية ، والتي لا يتم التطرق إليها إلّا قليلاً ، هو جانب ادّعاء الأعداء بأنهم إنّما « يتقربون إلى الله بدمه » .

وبذلك يكونون قد طبعوا حادثة قتل سيد الشهداء بالطابع الديني ، وهناك فرق بين أن يفترس الذئب الغنم ، ويأكله غيلةً وغدراً ، وبين أن يقوم بذلك ، ويدّعي أنه قام بالعملية « قربةً إلى الله » ، ومن أجل المصالح الوطنية ، والقضاء على الخيانة ، والتمرد ضد المصالح العامة .

ويبدو هنا أنّ هذا الجانب كان الأكثر إيلاماً في مأساة كربلاء .

إنّ أكبر الوقائع إجراماً في التاريخ هي تلك الجرائم التي ترتكب باسم الأخلاق والروحانية والصلح والسلام !!



النهضة الحسينية مدرسة لالهام المصلحين ، وليست لافراز المذنبين

الحسين (ع) يستشهد ثلاث مرات !

إنَّ الإمام الحسين (ع) قد مرَّ بثلاث مراحل في استشهاده ، بمعنى آخر إنه استشهد ثلاث مرات :

المرّة الأولى ، استشهد على يد اليزيديين ، بفقدانه لجسده .

والمرّة الثانية ، استشهد من خلال تشويه الأعداء لسمعته ، ومقامته ، واسمه ولا سيما على يد المتوكل العباسي .

والمرّة الثالثة استشهدت أهدافه على يد أهل المنر الحسيني .

والثالثة فقط هي المرحلة العظمى من مراحل الاستشهاد ، والعبارة الشهيرة للعقيلة زينب وهي تخاطب يزيد قائلةً : « كِدْ كَيْدِكَ ، واسع سعيك . . » تنطبق قي الواقع ، وتشمل المراحل الثلاث على حد سواء .

إنَّ فلسفة المدرسة الحسينية ، ليست مبنيةً على أساس تربية جيل من المذنبين ، بل ما هي في الحقيقة إلّا استمرار لمدرسة الأنبياء التي يرد ذكرها في سورة الشعراء .

وإنَّ إحياء هذه الذكرى في كل عام ، إنما يستهدف من ورائها تخليداً لتلك المدرسة النبوية .

فالنبوة قد ختمت بمحمد (ص). فجاءت المدرسة الحسينية بمثابة البديل الدائم لمصدر الوحي ، والإلهام النبوي .

فالأنبياء كانوا يتلقون الوحي من ربهم ، ويُطلب منهم القيام والنهضة ، ومع انقطاع الوحي ، كان لا بد من مصدر آخر مُلهم للنهضات ، والثورات البشرية ، وهكذا كانت المدرسة الحسينية هي المُلهمة الدائمة لرجال التاريخ العظام ، ورجال الإصلاح ، الذين تتطلبهم الحاجات البشرية .

يقول (هربرت سبنسر) : إنّ أرقى ما يأمل الوصول إليه الرجال الصالحون ، هو المشاركة في صناعة الإنسان الآدمي ، أي الاشتراك في خلق جيل صالح . بينما مدرسة الحسين عليه السلام ليست فقط مدرسة تنبذ المذنبين ولا يمكن لها أن تكون من صانعيهم بل إنها لا تكتفي بكونها تسعى لخلق جيل صالح ، إنها مدرسة لتخريج المصلحين (١هـ) .

سمات السياسة الأموية : إثارة العصبية العرقية ، وترويج الشعر

إنّ من جملة ما كان يُروّج له الأمويون ، ويُدافعون عنه بإصرار ، هي فكرة التعصب العرقي .

فقد ورد في كتاب « الإمام الصادق » أن « الحجاج » بعث بكتاب منه إلى عامله على البصرة يقول له فيه :

ما إن يردّك كتابي هذا ، حتى تقوم بإبعاد « النبطية » من حولك ، فإنهم مفسدةٌ للدين والدنيا !

وما كان من عامله - حسب قرينة الكلام - إلّا أن ردّ عليه بتقرير عن الوضع لديه ، بعد أن استثنى المتّقين ، وقراء القرآن ، فرد عليه الحجاج بكتاب آخر طلب منه أن يجمع أطباء ولايته ليفحصوه وهو في المنام ، فإن وجدوا في داخله عرقاً « نبطياً » لزم قطعه على الفور .

السمة الثانية من سمات السياسة الأموية هي ترويجهم للشعر ، لا سيما الشعر الجاهلي .

فإضافةً إلى ترويجهم للشعر ، كشعر وكقيمة جمالية بحد ذاته ، فإنهم كانوا يُريدون الإيحاء إلى الناس بأنّ الحكمة أيضاً إنما تكمن أكثر ما تكمن في الشعر .

ففي المجلد الرابع لـ (ابن خلّكان) في الصفحة (٣٢٨) منه ، وفي سياق شرح سيرة أبي عبيدة النحوي ، ورد :

« وذكر المُبرّد في كتاب (الكامل) أنّ معاوية بن أبي سفيان الأموي قال :

اجعلوا الشعر أكبر همّكم ، وأكثر آدابكم ، فإنّ فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيته يوم الهزيمة ، وقد عزمْتُ على الفرار ، فما ردّني إلّا قولُ ابن الإطنابة الأنصاري :

أبت لي عَفّي ، وأبى بلائي	وأخذي الحمد بالثمن الريح
وإجشامي على المكروه نفسي ،	وضربي هامة البطل المُشبح
وقولي كلّما جشأت وجاشت :	مكانك تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ،	وأحمي بَعْدُ عن عرضٍ صريح

وما عبارات معاوية هنا في الواقع ، سوى تعبير عن مناهضته للمقولة القرآنية : ﴿ الشُّعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . . . ﴾ ، ومحاربته للسنّة النبوية الشريفة ، فكيف لا يأتي معاوية في تلك اللحظات على ذكر آيات الجهاد في القرآن ، بينما تراه يتذكر ، ويذكر مثل هذه الأبيات الشعرية ، الدالة على التعصب والعصبية ؟!

بالطبع ليس هناك مانع من الاستشهاد بشعر الحكمة ، كما فعل أبو عبد الله الحسين (ع) ، وهو في الطريق إلى كربلاء عندما استشهد بشعر أحد الأنصار :

« سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى . . . »

لكن هذا شيء ، وبيان معاوية بقوله : « اجعلوا الشّعر أكبرهمكم . . . » شيء آخر وهو أمرٌ خطيرٌ للغاية .

يقول (جرجي زيدان) في المجلد الرابع من كتابه « حضارة الإسلام » (ص ١٣١) ما مضمونه :

الناس ثلاثة أقسام برأي بني أمية :

فهم إما من الحكام وهم العرب آنذاك .

وإما من الموالي أي العبيد ، وهم المسلمون المحررون .

وإما من الذميين ، أو كما يذكر معاوية في إشارته إلى شعب مصر حيث يقول :

إنّ أهل تلك البلاد على ثلاثة أقسام ، فإما من فئة الناس ، أو من فئة شبيهة بالناس ، أو إنهم من فئة نسناس أو لanas (من الأحياء) .

وإنّ الفئة الأولى هم العرب ، والثانية هم الموالي ، والثالثة هم الذميون من أهل مصر ، أي الأقباط » .

وقد أورد جرجي زيدان فصلاً كاملاً للحديث عن سياسة الدولة في العصر الأموي في المجلد الرابع من مؤلفه .

وهو قد ذكر عن بني أمية بأنهم كانوا يعاملون الذميين معاملة شديدة لأخذ المال منهم ، وما أن يدفع أحدهم المال حتى يصبح محترماً ، ومعزراً لديهم ، وهو يُرجع مصادره في هذا المجال إلى « خطط » المقرئزي .



- مواطن بروز الشجاعة الحسينية (الشجاعة
الجسمانية)
- مواطن بروز المروءة الحسينية
- مواطن بروز الصبر
- مواطن بروز الغيرة والحمية وإيلاء النفس
- التوجه لله (١) .

(١) في النسخة المخطوطة بقلم الأستاذ الشهيد ، وردت هذه العناوين كرؤوس أقلام لمواضيع أراد الكتابة عنها كما يبدو ، وقد وضع لها حيزاً للكتابة حولها ، لكنه لم يتمكن من ذلك كما يبدو ولأسباب غير معروفة .

الرضا والتسليم

إنّ الرضا والتسليم ، بالأمر الإلهي ، لا يعني السكوت ، والسكون ، والتوقف عن الحركة ، بل تغيير كيفية الحركة .

إذ إنّ هناك فرقاً بين حركة الغواص في قعر البحر ، وحركة الإنسان العادي في الشارع على الأرض ، وذلك من أربع جهات :

أولاً : يكون مفتاح الأمر والنهي لدى الغواص المستسلم في قعر البحار بيد الله تعالى مباشرة ، ويكون البرنامج والتخطيط غير تابع لهوى النفس البشرية .

وثانياً : يكون الإقدام على الفعل هناك خطراً يُحدق بالإنسان على الدوام ، ويُعرّضه باستمرار إلى الحيتان ، والأفاعي ، والتماسيح ، التي قد تواجهه في أية لحظة ، وتقضي عليه .

وثالثاً : فإن المرء في حالة التسليم والرضا ، سيكون في الواقع أشبه ما يكون بالجندي المطيع ، الذي لا يتحرك إلّا بأوامر قائده ، فتراه يظل صامتاً لا يفتح فاه ، ولا ينطق ببنت شفة ، وما أن تأتيه الأوامر من القيادة ، حتى يقول سمعاً وطاعة ، وبالتالي يكون في منتهى الانضباط .

وأما رابعاً : فإن المعنى هنا تراه يذهب على رأسه ، وليس بأقدامه أي إنه يذهب بإرادته ، ورغبته الكاملة ، وبعبارة أخرى ، بميل ، وشوق ، وعشق خالص .

وعليه فإن حالة الانقياد ، والطاعة ، والسكوت ، ليست بكافية ، بل المطلوب توافر العشق ، والوازع الذاتي المُحرِّك ، ذلك الوازع العبادي الداخلي اللازم في مثل هذه الحالات ، وهو وازع العبادة ، عبادة الأحرار والعُشاق .

والقرآن الكريم يُشير إلى الفريقين الأول والثالث حيث يقول تعالى في سورة النساء : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾^(١) .

نعم ، عندما يغوص مثل هذا الغوّاص الحامل لمثل تلك المواصفات الأربعة ، فإنه لا بد سيكون قادراً على استخراج الكنوز من قعر البحار .

الشجاعة الروحية ، وقوة القلب ، والمحافظة على التوازن
الروحي في العمل ، والشكل ، واللسان

يقول العقّاد في هذا الشأن : « ملك جأشهُ وكل شيء من حوله يوهن الجأش » .

(١) سورة النساء : الآية ٦٥

المنطق التقليدي لأهل المنبر : الحديث عن شهادة ومظلومية أبي عبد الله

الموت والوفاة أنواع متعددة هي :

١ - الموت الطبيعي (وليس الاخترامي) : أي أن يعيش المرء عمره الطبيعي المُقَدَّر ، وينتهي في الساعة المكتوبة له .

٢ - الموت الاخترامي ، الذي يحصل للمرء بواسطة العوامل الطبيعية : مثل الموت المُبَكَّر لأحد الشباب بسبب ابتلائه بأمراض صعبة ، كالمرض الخبيث ، أو الطاعون ، أو غيرها ، وبالتالي فإن الموت الحاصل هنا نتج عن الإصابة بالأمراض ، والتضرر بالميكروبات .

٣ - الموت الاخترامي ، الذي يحصل للمرء نتيجة وقوع الحوادث ، أو السوانح العامة : مثل الزلزال ، أو الطوفان والسيول ، أو حوادث السيارات ، أو غيرها من الحوادث الطبيعية ، والتي تقع رغماً عن أنف الإنسان ، ولا يكون فيها أي تعمد من أحد ، كما أنَّ المقتول غير مذنب في وقوع الحادث .

٤ - الموت الاخترامي الذي يقع للمرء بواسطة الحوادث والسوانح الطبيعية ، ولكن الذنب يكون فيها على المقتول ، إذ تكون قد حدثت مثلاً بسبب شربه للخمر ، مما عرّضه لحادث سير مُعين ، أودى بحياته .

٥ - الموت الاخترامي الذي يقع للمرء بواسطة الحوادث ، والسوانح الطبيعية ، والتي يكون فيها القاتل والمقتول مشتركين في الذنب ، على حد سواء : كأغلب حوادث القتل التي تحصل بسبب المشاحنات الفردية ، والعائلية وغيرها ، والتي تحصل بسبب اللجاجة ، والجهل ، والتعصب ، والفساد ، والنزاعات القبلية ، أو العشائرية .

٦ - الموت الاخترامي الذي يحصل بواسطة القتل العمدي (المتعمد) ، والذي لا يكون فيه للمقتول أي ذنب يذكر ، بل يقع عليه القتل ، وهوبري ، وبالتالي فإنَّ القتل إنما يحصل لا لسبب إلاّ لبروز صفة الجريمة ، وهيجانها عند

القاتل ، كأن يقتل أحدهم فرداً من أفراد المجتمع بسبب الهوس ، أو بحجة واهية ، أو بسبب الاختلاف والمشاحنات العائلية ، والانتقام من عائلة معينة ، فيتم اختيار أحد أفرادها اعتباراً ، أو لأي سبب من الأسباب الخلافية التي يتعلل بها القاتل ، كأن يشعر بمنافسة الطرف الآخر له ، في مقام ، أو مال ، أو كسب ، أو تجارة ، أو معشوق ، فيقتل بريئاً لا ذنب له من دون حق .

٧ - القتل والموت على طريق التضحية والفداء والشهادة ، حيث يكون للمقتول في العملية إرادة واعية لدى التعرض للقتل ، فهو يكون قد تقدم نحو الموت بهدف الدفاع عن أهداف وعقيدة راسخة في أعماقه ، وهي له ذات أبعاد مقدسة تتطلب التضحية بكل شيء من أجل تحقيقها .

وبعبارة أخرى يكون الموت هنا اختياراً وموتاً واعياً سعياً وراء تحقق الأهداف المرجوة .

٨ - بالطبع هناك نوع آخر من الموت الاختياري الذي يختلف جوهرياً عن النوع السابق إذ إنه يحصل بسبب ضعف الإنسان ، وفراره من حوادث الزمان ، فيأخذ معنى الرمي بالنفس إلى الهلاك ، دون أي هدف يذكر ، وهذا هو الانتحار .

هذه هي أقسام وأنواع الموت والوفاة ، والتي يأسف الإنسان لوقوع البعض منها ، ولا يأسف لبعضها الآخر ؛ أو أن يكون المقتول فيها يستأهل القتل أو لا يكون .

كما يمكن أن يكون المقتول فيها قد وقع ضحية لأطراف أو تعقيدات أخرى ، لا شأن له في حدوثها ، أو وقوعها ، فيكون بريئاً ، وقد لا يكون .

إن موت القسم الأول من الناس يمكن اعتباره موتاً عادياً من الناحية الشخصية ، ولا يؤسف لوقوعه ، عدا أن يكون المتوفى شخصية مرموقة ، ومفيدة للمجتمع ، وبذلك تكون وفاته خسارة للمجتمع بشكل عام .

أما القسم الثاني من الموت فهو الموت المجاني ، الذي يذهب فيه المتوفى

ضحية حوادث الزمان التي يؤسف لوقوعها ، لكنه ليس هناك من مُذنب ، أو مُقصر في حدوث الواقعة .

كذلك الحال مع القسم الثالث ، .

في حين أنّ القسم الرابع يمكن اعتباره نوعاً من الاستحقاق الذي لا بد منه للمقتول ، والشيء نفسه ينطبق على القسم الخامس .

إضافةً إلى وجود طرف آخر مُلام في مثل هذه الحالات .

وعليه فإن الموت بالطريقة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة يمكن اعتباره نوعاً من هدر النفس الموجودة ، وضياعها دون مقابل . بينما يمكن اعتبار الموت على الطريقة الرابعة والخامسة ، إضافةً إلى ما سبق نوعاً من التأسف على الأخلاق العامة التي وصلت إلى تلك الدرجة من الانحطاط .

وأما موت القسم السادس ، فإن الإنسان يأسف من جهة على ضياع نفس المقتول البريء ، ويتأسف في الوقت نفسه على دناءة ، وفساد ، القاتل ، وانحطاط سلوكه ، وأخلاقه .

لكن الوضع بالنسبة إلى طريقة الموت ، وحالة الموت السابعة ، يتحدّد في أنّ المرء وبالرغم من تأثره ، وتأسفه على الحالة ، التي عبّر عنها القاتل ، من دناءة النفس ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط السلوك ، إلّا أنه في الوقت نفسه ينظر إلى المقتول من زاوية الإعجاب والتمجيد وكونه مثلاً أعلى يُحتذى به .

لقد جرت العادة أن يتطرق الذاكرون ، وأصحاب المنبر الحسيني ، لشهادة الإمام الحسين (ع) ، من باب كونها من النوع السادس للموت ، والوفاء ، حيث يكون التركيز في الأمر على إظهار براءة المقتول ، ومظلوميته ، وذهاب نفسه هدرًا ، وضياعها ، في حين أنّ شهادة الإمام هي من القسم السابع للموت والوفاء ، وليس من القسم السادس .

فالغالب على أصحاب المنبر هو ذكر حادثة كربلاء في سياق التأسف على روح سيد الشهداء ، التي ذهبت هدرًا ، وهباءً منثورًا ، في حين أنه من الأخطاء

الفاحشة ، الاعتقاد بذهاب دم الحسين هدرًا ، واعتبار خسارتنا لروحه ونفسه الطاهرة خسارةً وكفى .

فالإمام الحسين (ع) ، على العكس من ذلك ، فهو قد منح قيمةً بالغةً لا يُقدَّر ثمنها بالدنيا كلها ، لكل قطرة دمٍ سالت من جسده الطاهر !

وهل يمكن الاعتقاد بأن الذي زلزل بموته قواعد قصور الظلمة والبطانة ، على مدى قرون ، ولا يزال هو المثل الأعلى لكل حوادث الزمان الفعلية ، إذ ترى أكثر الحوادث الساخنة والمصيرية تقع في شهر محرم الحرام ، إنما مات ميتةً رخيصةً ، وذهب دمه هدرًا؟! وأن الذي أفرز بموته ملايين المصلين ، والصائمين ، والفدائيين ، إنما ذهب دمه هدرًا؟!!

هل تلقى الإمام الحسين (ع) أمرًا خاصًا بالتحرك؟

إن أحد العوامل الذي ساهم في تشويه واقعة كربلاء ، وإخراجها من حيز التوظيف ، في خدمة قضايا العامة ، وجعل بالتالي الاستفادة من تعليقات الأئمة عليهم السلام ، في إحياء الذكرى ، وإقامة العزاء بهذه المناسبة غير كاملة ، هو ذلك التصور الخاطئ القائل بأن حركة سيد الشهداء (ع) ، قد جاءت في الواقع ، نتيجة تلقي الإمام أمرًا خاصًا ، وتعليقات سرية تخصه شخصيًا ، دون غيره ، وتطلب منه القيام بتلك الحركة المعروفة^(١) .

وأن التعليقات الخاصة تلك قد صدرت إلى الإمام في المنام ، أو في اليقظة .

وهذا أمر غير جائز لأنه في هذه الحال ، يصبح من غير الممكن للآخرين أن يتبعوا الإمام ، ويجعلوه قائدًا ، ومرجعاً لهم ، في مثل تلك الحالات ، وبالتالي لا يمكن الحديث عن وجود مدرسة حسينية .

(١) وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذا البحث يختلف عن البحث الحالي المتداول بشأن القضايا الشخصية والخارجية والحقيقية وأنه كما يصطلح عليه المتأخرون بأن جعل الأحكام لا يتم إلا على أساس القضايا الحقيقية .

بينما لو قلنا بأن حركة الإمام الحسين ، قد حصلت في سياق استنباط الإمام نفسه للتعليمات الكلية للإسلام ، وتطبيقه لتلك الأحكام ، نكون قد أعطينا الموضوع حقه ، ولم يبخل الإمام حقه ، في كونه قد تمكن من فهم الأحكام الإسلامية حق فهمها ، من جهة .

ومن خلال الرؤية الثاقبة ، والرأي السديد ، الذي يملكه من جهة أخرى ، فإنه استطاع أن يُطبّق تلك الأحكام على زمانه ، ويتعامل مع الطبقة الحاكمة لذلك الزمان ، بالطريقة المناسبة ، التي تُرضي الله ورسوله ، مما كان يعني ضرورة القيام ، والتحرك الحسيني المعروفين .

من هنا نرى أنه عليه السلام ، إنما يستند فيما يستند إليه في قيامه وتحركه ، إلى ذلك الحديث النبوي الشريف القائل : « من رأى سلطاناً جائراً . . . » ، أو في قوله : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن . . . » .

إذ تراه يؤكد من خلال قوله « المؤمن » أن المسألة ليست خاصة بالإمام وحده ، وإلاّ لقال : « ليرغب الإمام » ، مما يعني أنّ الواجب والتكليف كان تكليفاً كلياً يقع على كاهل المؤمنين كافة ، وما قيام الحسين (ع) به إلاّ لكونه واحداً من عامة المؤمنين .

إلاّ أنّ العادة جرت بالنسبة لأصحاب المنبر الحسيني ، أن يُفسّروا الأمر على أنه قد حصل في سياق تعليمات خاصة ، قد صدرت لشخص الإمام الحسين (ع) ، لمحاربة شخص يزيد ، وشخص ابن زياد ، وهم من أجل أن يرفعوا من مقام الحسين ، أكثر وأكثر ، تراهم يتوسلون بالخيال ، والأحلام ، والقصص الخيالية ما أمكن .

لكنهم بذلك ، وللأسف ، يُخرجون حركة الإمام الحسين من دائرة طاقة العمل البشري العادية ، ويصبح أمر الاقتداء بها ، وتقليدها ، واقتفاء أثرها ، أمراً غير ممكن ، بل ويُخرجون حتى مقولة ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(١)

(١) سورة الأحزاب . الآية ٢١ .

من دائرة الفعل والتطبيق العملي .

وإذا جاز التعبير ، فإنهم بهذا يُخلِّقون بالفعل ، ودائرة الفعل ، إلى السماء ، بعيداً عن الأرض والواقع ، وهكذا يتم طرح مقولات « لا تقس نفسك بأعمال الصالحين ، والأولياء العظام » ، وغيرها من المقولات التعجيزية ، ناسين أنّ كثرة التخييلات ، والإغراق في استخدام الجن ، والملائكة ، والأحلام ، والتعليقات الخاصة ، والسرية ، والمهمات الخصوصية ، وغيرها ، إنما يجعل النهضة الحسينية ، أقل فائدةً ، وعبرةً ، للأجيال .

والآن دعونا نرَ لو أنّ الإمام الحسين (ع) ، كان قد تحرك ونهض ، نتيجة وصول تعليقات خاصة له ، ترفع من مقامه أكثر .

أم أنّه لو كان قد تحرك بناءً على فهمه وقراءته للأحكام الكلية ، ونتيجة تطبيقه للكلي على الجزئي ، وإصابة التطبيق للواقع ، هو الأمر الذي يرفع من مقامه أكثر .

لا سيما وأنّ دُعاة الصحابة ، وكبارهم ، مثل ابن عباس ، وغيره ، كانوا عاجزين عن استيعاب مثل تلك الظروف ، واستنباط مثل تلك الأحكام ؟

نحن الشرقيين على العموم لا نُقدّر الشخص حق قدره في المقام والرفعة ، إلّا من خلال حمله لمواصفات تدلّ على أنه من أهل المكاشفة ، وأنه صاحب مكرمات ، ومن صنّاع المعاجز ، وأنه على اتصال بالجن ، وهو قادر على تسخيرهم ، وأنّ له اتصالاً مباشراً بالملائكة !!

ليس هناك شك في أنّ للإمام الحسين (ع) مقاماً ملكوتياً خاصاً ، لكنه أيضاً صاحب مقام جامع مانع كما يقال .

أي إنه مظهر للإنسان الكامل ، وإن مقام الإنسان لأعلى مرتبةً من مقام الملائكة ، وإنّ الحد الأعلى للكمال الإنساني ، ليس في كونه على اتصال ، أو تماسٍ مع الملائكة ، بل الكمال الإنساني ، هو حصوله على مقام الإنسان الكامل .

ونحن نقول بأن جبرائيل ، قد تخلف عن الحوض في المعراج ، ولو افترضنا أن الإمام الحسين كان قد تحرك بواسطة التوجيه المباشر للملائكة له ، فإن معنى ذلك أنه عليه السلام لم يكن بمقدوره أن يقوم بتكليفه ووظيفته ، من خلال عقله ، وتشخيصه الشخصي !

أما لو قلنا بأنه كان قد شخص التكليف بواسطة عقله ، فإن ذلك يعني : أن عقله ، . وإدراكه ، عليه السلام ، كانا أعلى درجة وأرفع مقاماً من الجميع ، وأنه قد فعل بعقله ما يفعله الإلهام .

إذ إن الإلهام يفعل فعله حيث تكون هداية العقل والشرع غير وافية ، في حين أن هداية العقل والشرع كانت كافية بالنسبة للإمام الحسين (ع) .
وعليه يكون تفسير « إن الله شاء أن يراك قتيلاً » هنا ، بمعنى أن المشيئة الكلية التشريعية هي التي اقتضت القيام من طرف أبي عبد الله ، وليس المشيئة التكوينية ، أو المشيئة التشريعية الخاصة بشخص الحسين .

لقد تناول علماءنا هذا البحث بالتفصيل في الماضي ، وتباحثوا مطوّلاً فيما إذا كان المقصود من عبارة : « إن الله شاء أن يراك قتيلاً » . هو المشيئة التشريعية أم التكوينية ؟

وقد توصلوا في النهاية إلى القناعة القائلة بأن المقصود : هو المشيئة التشريعية ، لكنهم لم يُناقشوا الأمر من زاوية إذا ما كانت هذه المشيئة ، هي المشيئة الكلية ، التي تشمل المسلمين كافة أم إنها جاءت في سياق المشيئة التشريعية ، والتعليقات الخاصة ، التي صدرت بحق الحسين (ع) وحده ، دون غيره ؟

إنّ هذا البحث يمكن تناوله من زاوية أخرى ، وهي الطريقة الأسلم ، والأكثر معقولة فنقول :

هل إنّ الإمام الحسين نهض من باب أنه الإمام ، أم إنّّه قام باعتباره أحد المؤمنين والمسلمين ؟ .

وبعبارة أخرى ، وفي سياق البحث على قاعدة مقولة « إنَّ الله شاء أن يراك قتيلاً » . ينبغي أن نقول :

هل كانت المشيئة تكوينية أم تشريعية ؟

وإذا كانت تشريعية فهل كان التكليف خاصاً وشخصياً أم عاماً و كلياً .

وعلى أساس الاحتمال الثاني ، فهل كان ذلك التكليف الكلي ، موجهاً إلى الإمام ، وقائد المسلمين ، أي إن الوظائف والتكاليف المُشرَّعة ، كانت من النوع الذي خُصص وضعها للأئمة ، أم إنها كانت من النوع الذي تم وضعه لعموم المؤمنين والمسلمين ؟

وعند الحديث في هذا المجال لا بد من ذكر أمثلة توضيحية ، هذا مع العلم ، أنَّ التطرق إلى التكاليف الخاصة ، التي يتم وضعها لأئمة المسلمين ، يتطلب منا التفريق بين التكاليف التي تُناط بالإمام ، وتحوَّل له ، لكونه زعيماً فعلياً للمسلمين ، وبين التكاليف المُناطة به أساساً من زاوية كونه صاحب مقام الوصاية والولاية .

الفرق بين معاوية ويزيد

عندما تولى يزيد الخلافة ، قال الإمام الحسين مخاطباً مروان بن الحكم ، وهو لا يزال في المدينة المنورة : « وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

وهنا لا بد من التأمل جيداً بعبارة « مثل يزيد » ، إذ ما هي الخصوصية التي كانت تتوافر في يزيد ، ولم تكن موجودة حتى في معاوية ؟

لقد سبق لنا أن شرحنا هذا الجانب إلى حد ما ، لكنه لا بأس من إضافة ملاحظتين أخريين ، حول الموضوع :

الأولى : وهي أنه يجب أن لا نتصور أنَّ الناس كانت تعرف يزيد ومعاوية ، تماماً كما كانا عليه بالفعل ، وكما هما مفضوحان تماماً ، بالنسبة إلينا في

عصرنا الراهن . (تماماً كما يعتقد الناس في عصرنا الراهن ، أن بعض الجنّة والمجرمين القدامى ، من أمثال الشاه عباس الصفوي ، هم من القديسين ، لأنه لم يَقم أحد بفضحهم حتى الآن) .

إنّ الإمام الحسين (ع) كان قد عرف يزيد حق المعرفة ، بالرغم من عدم وجود وسائل الارتباط ، والاتصال الجماهيري آنذاك ، كما هو حالها اليوم .

غير أنّ الناس لم تكن قد عرفتّه على حقيقته ، ولذلك فإنّ عبد الله بن حنظلة مثلاً وهو المعروف بغسيل الملائكة ، لم يعرف يزيد على حقيقته ، إلّا بعد أن ذهب إلى الشام على رأس وفد من المدينة ، بعد واقعة كربلاء ، وإذا به قد عاد منها ، وهو يشكر الله تعالى بأنّ السماء لم تُمطر عليهم حجراً ، بسبب غضب السماء لشدة مفاسد يزيد .

وهكذا قدّم نفسه ، وأولاده الثمانية ، على طريق محاربة يزيد وفسق يزيد .

من هنا يمكن القول بأنّ الحسين (ع) ، كان يرى ما لا يراه الآخرون .

الملاحظة الثانية : وتتمثل في ضرورة التفريق بين أن يكون شخص الخليفة ليس برجلٍ صالح ، لكنه على كل حال يُدير أمور المسلمين ، ويُدبّر أمرهم بشكل أو بآخر ، وبين خليفة يكون فيه أصل وجوده نفسه ضد مصالح المسلمين .

من هنا نرى أنّ علياً (ع) ، وفي الوقت الذي تقرر فيه أن يُبايع عثمان ، قال :

« لقد علمتم إنّني أحقُّ الناس بها من غيري ، والله لأسلمن ما سَلِمَتْ أمورُ المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليّ خاصةً ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزُهداً فيها تنافستموه من زُخرفه وزُبرجه »^(١) .

في زمن الإمام الحسين (ع) ، كانت القضية الأساسية ، هي أنّ الخلافة الإسلامية ، قد تحوّلت إلى سلطنة جائرة ، ظالمة ، مترفة ، فاسقة ، ذات طابع

(١) نهج البلاغة الخطبة ٧٢ .

عصبوي عربي ، مع ما كان من سقوط أقنعة النفاق ، وبروز الوقاحة في الفساد ، الأمر الذي يجعلنا نقول ، وكما ذكرنا من قبل ، بأنه لولا قيام الإمام الحسين (ع) ، فإنّ خطر القضاء على الإسلام ، كان أمراً محتتماً ، وذلك من خلال قيام ، وتمرد الشعوب ، التي دخلت الإسلام بعد الفتح ، والتي كانت مهيةً للانقلاب عليه فيما بعد ، فيما لو استمر الوضع على ما كان عليه في عهد يزيد .



لماذا استشهد الامام الحسين (ع) ، ووصايا الأئمة (ع) بإحياء الذكرى

إننا نواجه هذين السؤالين على الدوام ، ولا بأس من الإجابة عنهما ، حتى تتوضح الأمور بالنسبة لنا جيداً ، كما تتوضح لغيرنا .

والسؤال الأول هو : لماذا استشهد الإمام الحسين (ع) ؟ أمّا الثاني فهو : لماذا كانت توصيات الأئمة عليهم السلام تدعو إلى ضرورة إقامة العزاء الحسيني باستمرار ، وبشكل دائم ، وبالتالي ترانا نصرف الكثير من الوقت ، والعمر الطويل أحياناً ، والأموال الطائلة ، والقوى والطاقات الكثيرة ، في كل عام ، وعلى طوال شهري محرم ، وصفر ، وربما في غير هذين الشهرين أيضاً ، في سبيل إقامة المآتم الحسيني ؟

بالنسبة إلى جواب السؤال الأول : لا بد من القول بأنّ الأقوال كثيرة في هذا المجال :

فالأعداء قالوا بأنّ الإمام الحسين (ع) كان يطلب الحكم ، وقصد تسلّم السلطة ، ففشل وقُتل ، وبالتالي فإنه كان يُتابع هدفاً ذاتياً .

أمّا الأصدقاء الجهّال (الجهلة) ، فإنهم قالوا بأنّه قُتل عليه السلام ، ليغفر للمذنبين من أمته ، ويكونون بذلك قد أعطوا للقضية بُعداً سائياً ، وخيالياً ، وقالوا بشأن الحسين ، ما قاله النصاريّ بحق عيسى المسيح عليه السلام .

لكن الحقيقة هي ما نطق به الحسين (ع) ، في مواضع مختلفة ، حيث قال في إحداها : « ما خرجتُ أثيراً ولا بَطْراً . . . » ، « ألا ترون أنَّ الحق لا يُعمل به ، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحَقَّاً . . . » ، و« أيها الناس من رأى سُلطاناً جائراً . . . » .

وأما في جواب السؤال الثاني : لا بد من القول إنَّ التكاليف الشرعية ليست خالية من الحكمة .

فالمقصود من إقامة الشعائر الحسينية ليس تقديم التضامن والسلوى ، لآل بيت النبي عليهم السلام ، وكما يقول أصحاب المنبر الحسيني : إسعاداً للزهراء وإرضاءً لها ، وبالتالي التصور ، بأنه كلما بكينا أكثر على آل البيت ، كلما كان ذلك أكثر عزاءً وسلوى ، للرسول الأكرم (ص) ، وللزهراء (ع) .

فكم نكون بذلك قد حَجَمنا ، وهَمَّشنا من قيمة ، وحجم الرسول ، والزهراء ، وأمير المؤمنين علي ، وهم الذين كانوا يتوقون للشهادة ، ويرون فيها فخراً لهم ، بينما نتخيل أنهم وبعد مضي أكثر من ثلاثة عشر قرناً على رحيلهم ، فإنهم لا يزالون يعيشون حالة من الأسى ، والحزن ، والرعب .

إنَّ الهدف من تعليمات الأئمة في الحقيقة ، يكمن في أنهم كانوا يُريدون لنا أن نصنع من كربلاء مدرسة تعليمية ، وتربوية خالدة ، إلى الأبد .

وفي الواقع فإنَّ الجواب الصحيح عن السؤال الأول ، هو الذي يجعلنا نصل إلى الجواب الصحيح ، عن السؤال الثاني .

في كتاب « اللؤلؤ والمرجان » الصفحة الثالثة من « كامل الزيارة » ، ورد أنَّ الإمام الصادق (ع) قد خاطب عبد الله بن حماد البصري ، قائلاً :

« بلغني أنَّ قوماً يأتونه - يعني الحسين عليه السلام - من نواحي الكوفة ، وناساً من غيرهم ، ونساءً يندُبْنَهُ ، وذلك في النصف من شعبان ، فمن بين قارىءٍ يقرأ ، وقاصٍّ يقصُّ ، ونادٍ يندبُ ، وقائل يقول المراثي .

فقلتُ له : نعم ، جُعِلَتْ فداك قد شهدتُ بعض ما تصف .

فقال : الحمد لله الذي جعل في الناس من يَفِدُ إلينا ، ويمدحنا ، ويرثي علينا ، وجعل عدوَّنَا من يطعنُ عليهم من قرابتنا ، أو من غيرهم يُهددونهم ، ويُقَبِّحون ما يصنعون » .

كما جاء في مكان آخر في الصفحة (٣٨) قوله :

« إنَّ لقتل الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبردُ أبداً » .

وعليه يتضح أن فلسفة هذا العمل ، هو تهديد العدو ، وتقبيح أعماله ، وبالتالي تمجيد وتعظيم أعمال جماعة الحسين ، وبالمقابل تقبيح أعمال المعسكر الآخر ، واستنكار تصرفاته المشينة^(١) .

بالطبع فإنَّ السيدة الزهراء تسعد ، وتسر من ذلك ، لكن من زاوية أنَّ نيتها وهدفها ، كما هي نية وهدف النبي الأكرم ، وأمير المؤمنين علي ، والإمام الحسين جميعاً ، تتمثل في قوله تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

نعم إنها لتسعد حقاً ، وتسر بواسطة إقامة الذكرى لابنها الحسين ، الأمر الذي يجلب سعادة الدنيا والآخرة ، لمن يُقيم تلك الذكرى ، ويُحييها ، والأهم من ذلك كله لمن يمضي على نفس الطريق الذي سلكه ابنها الحسين .

واستطراداً نقول :

بعد موت معاوية ، طُلب من الإمام الحسين (ع) أن يُبايع الخليفة الجديد ، لكن الإمام حضر إلى بيت حاكم المدينة ، ورفض البيعة .

وفي اليوم التالي التقى مروان بن الحكم ، بالإمام وهو في الطريق ، وأراد أن يُقدِّم له النصيحة ، فطلب منه أن يُبايع .

(١) في حاشية هذه العبارة كتب الشهيد مُطهري : هل إنَّ الهدف من إقامة العزاء هو التضامن مع آل البيت ، وتقدير العزاء لهم ؟ أم إنَّ الهدف هو كسب الثواب ؟! في الوقت الذي يكون فيه الثواب والعمل الحسن والمعقول ذا مصلحة ذاتية . إذن ينبغي لنا هنا أن نرى ما هي تلك المصلحة الذاتية والتي تأتي في سياق علل الحكم ، حتى نتمكن بعد ذلك من الوصول إلى الثواب الذي يأتي في سياق معلولات الحكم .

لكن الإمام خاطبه قائلاً : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

ولا بد هنا كما ذكرنا آنفاً من التدقيق جيداً في عبارة : « براعٍ مثل يزيد » ، حيث يُفهم منها أنّ هناك خصوصية توجد في يزيد ، لم تكن توجد حتى في شخص معاوية .

صحيح أنّه ليس هناك فرق لدى عوام الشيعة ، بين يزيد ، وغير يزيد ، ذلك أنّ الجميع عندهم ، باطل ، وغاصب ، لكن الحقيقة هو أن هناك فرقاً بين هذا وذاك من الخلفاء .

فعلى سبيل المثال ، عندما أراد الناس من أمير المؤمنين علي (ع) أن يُبايع عثمان ، قال : « لقد علمتم أنّي أحقُّ الناس بها من غيري ، ووالله لأسلمن ما سلّمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليّ خاصةً ، التماساً لأجر ذلك ، وفضله ، ورُهداً فيما تنافستموه من زخرفته وزبرجه » .

كما أنّه قال (ع) أثناء البيعة لأبي بكر : « شقّوا أمواج الفتن بسُفن النجاة »^(١) .

إذاً ، هناك فرق بين غاصبٍ يحافظ على الشأن العام حتى وإن كان السبب المصلحة الذاتية ، وبين آخر لا يهتم بشيء ، ويزيد هذا كان يختلف تماماً عن أسلافه كافة ، كما ورد في شرح ذلك سابقاً .

وسبق وأن أشرنا سابقاً في سياق شرحنا عن حال ابن زياد ويزيد بأنّ أحد أسباب فاجعة كربلاء ، والنار التي أشعلها هؤلاء ، والتي أول ما أبت عليه ، كان مُلك بني أمية نفسه ، إنّما يكمن في كون كليهما (يزيد وابن زياد) من الشباب الفاقدين لأبسط أنواع التجربة والخبرة ، وكما يقول الشاعر العربي :

إنّ الشباب ، والفراغ ، والجدة مفسدةٌ للمرء أيّ مفسدة

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ٥ .

مسألة البكاء على « سيد الشهداء »

إنَّ إحدى القضايا المتعلقة بحادثة سيد الشهداء هي قضية البكاء :
ولا بأس هنا من استعراض مسألة البكاء ، والضحك ، من عدة زوايا :
فمرةً يمكن تناول هذه القضية من زاوية كونها من أعراض وعلائم الإنسان
الخاصة .
وأخرى يمكن التطرق إليها من زاوية العلل ، والمبادئ الجسمية ،
والروحية .
وثالثة من زاوية آثارها ، وعوارضها الجسمية ، والروحية .
ورابعة من وجهة النظر الأخلاقية والعقيدية لعلماء الأخلاق ، والآداب .
وخامساً يمكن بحثها من زاوية الآثار الاجتماعية المترتبة على الضحك ،
والبكاء .
وسادساً يمكن أيضاً البحث في أنواع الضحك والبكاء ، وهل أنَّ كل
ضحك جيد ، وكلُّ بكاء سيء ، أم أنَّ الأمر ليس كذلك ؟
هذا مع العلم أنَّ نوع البكاء على الحسين ، نوع من البكاء اللذيذ الذي
يُضفي صفاءً ، وإشراقاً خاصاً ، على قلب الإنسان .

وعليه ينبغي المقارنة بين المدرسة الحسينية ، ومدارس الضحك ، والكوميديا ، أو الأفلام الكوميديية ، والتراجيدية المتعددة ، ثم التعرّيج على الشعر ، والتوقف عند شعرائنا ، وما قالوه ، أو نظموه في باب المديح والبكاء .

فالضحك والبكاء ، ما هما في الواقع إلّا مظهر لأشدّ حالات الإنسان حساسيةً ، ومن يتمكن من امتلاك إضحاك الناس ، وإبكائهم ، فإنه في الحقيقة يكون قد امتلك قلوبهم ، وبالتالي تمكن من التحكم والسيطرة على عواطفهم ، وتوجيهها بالاتجاه الذي يُريد .

والأعمال القلبية غير الأعمال العقلية .

لقد تم اللعب بعواطف الناس وقلوبهم حتى الآن ، من خلال قضية البكاء ، على سيد الشهداء ، إذ إنه لم يكن هناك عقل موجه ، أو هدف محدد ، من وراء ذلك البكاء ، هذا مع العلم أنّ وجود الهدف لا يكفي بل إنّ الأمر يتطلب وجود النظام ، والتنظيم ، والترتيب .

في مجلة (راديو ايران ، العدد ٧٠) هناك مقالة بقلم الدكتور (حسن علوي) ، وهي عبارة عن محاضرة له ، تناول فيها موضوع دموع العين ، وهي محاضرة لا بأس بها ، يقول فيها :

إنّ دموع التماسيح كاذبة ، ويضيف : لقد ورد في كتاب دارون حول « بيان إحساسات وآلام ، الإنسان ، والحيوان ١٨٩٠ م » بأنّ الفيل يبكي أيضاً عندما يقع تحت تأثير الإحساسات ، لكن هذا الموضوع لم يمكن التأكد منه بعد .

ويضيف : إنّ الضحك على أنواع وأقسام :

فهناك ضحكة المحبة ، وضحكة السخرية ، وضحكة الفرح والسرور ، وضحكة التأثر والغضب ، كما أن البكاء لا يُعبّر دائماً عن حالات الحزن والكآبة ، وإنه لأمر لا بدّ قد مرّ به الجميع ، وقد ذاق طعمه أيضاً ، وهو ذلك البكاء الناتج عن شدة الشوق ، حيث يمكن القول إنّ منظر دموع الشوق ربما من أجمل ، وأحلى المناظر الطبيعية المُعبّرة .

وقد قيل الكثير في هذا المجال من نظم ونثر ، سواء بالعربية ، أو الفارسية ، وشعر حافظ ، وسعدي ، كما هي أشعار العرب ، لا تخلو من التعبيرات الدقيقة والقيّمة ، في هذا المضمار .

ونكتفي هنا بعبارة واحدة ، وردت على لسان أحد شعراء العرب ، في كتاب (كليلة ودمنة) حيث يقول فيها : « لولا الدموع لا كتوت أرض الوداع بالنار » .

تحريف الكلمة - تحريف واقعة الإمام الحسين

. . . . إن واقعة الإمام الحسين (ع) ، قد شملها في الواقع التحريف الظاهري ، واللفظي ، والهيكلي ، كما شملها التحريف المعنوي ، والباطني ، والجوهري ، على حد سواء .

ويمكن البحث بالتفصيل حول هذا الموضوع^(١) .



(١) وهو ما سيأتي عليه المؤلف ، في فصل ملاحظات « في تحريفات واقعة كربلاء التاريخية » في هذا الكتاب ، وهو ما تطرق إليه الكاتب في محاضرة له ، تحت هذا العنوان في الجزء الأول من هذه المجموعة .

الامام الحسين (ع) ، والحد الفاصل بين القيام والتمرد

أثر النهضة الحسينية

إنَّ إحدى النتائج ، والآثار المهمة ، للنهضة الحسينية ، هو ذلك التفكيك ، وتلك التجزئة التي كرّسها الإمام الحسين (ع) ، بين فعل القيام ضد الخليفة ، وبين فعل التمرد ضد الإسلام .

وكما أشرنا سابقاً فإنه لولا قيام الحسين ، ونهضته ضد يزيد ، لكان احتمال بروز تمردات ، وثورات عديدة مناهضة للإسلام ، كبيراً للغاية ، خاصةً فيما لو استمر الحال على ما كان عليه من سوء تدبير ، وانحراف في أمر الدين والسياسة في عهد يزيد .

أمّا اليوم ونحن ندرس تاريخ الثورات ، والتمردات ، الطويل ، على امتداد العصور الإسلامية ، ونرى قيام هذه الفرقة أو تلك ، وهذه الملة أو تلك ، من الملل التي قامت ضد سلطة الخلفاء ، وأظهرت ، بشكل أو بآخر ، تعلقها بالإسلام ، كقيام الإيرانيين ضد السلطة الأموية فإنَّ الفضل في كل ذلك ، يعود في الواقع ، لثورة الحسين (ع) ونهضته ، وهو القيام الأول من نوعه ، الذي جمع بين كونه قياماً مسلحاً وجماعياً ، في نفس الوقت ، وهو القيام الذي ميّز بشكل دقيق ، بين موقعية الخلفاء والولاة ، وبين موقعية الإسلام والدين الإسلامي .

بل إنه في الواقع هو الذي فتح الباب للثورة والنهضة ، على قاعدة الإسلام ، وصار المثل الأعلى والأنموذج الذي يُحتذى به .

وهكذا سقطت فكرة السلطان ، والخليفة ، باعتبارهما حُماة الإسلام ، على حساب الجماهير ، والفكر الجماهيري الحق ، وفُرز الجمع إلى مُعسكرين : معسكر الإسلام في جهة ، ومعسكر الخليفة والسلطان ، في الجهة المقابلة .

صحيح أنه سبق وأن حصلت بعض الانتفاضات الفردية ، أو الجماعية ، ضد تحكم السلطان ، أو الخليفة في شؤون المسلمين ، قبل انتفاضة الحسين (ع) ، لكن النهضة التي جمعت بين الصفة المسلحة والجماعية للمرة الأولى ، هي نهضة الإمام الحسين (ع) . (قيام الثوار بوجه عثمان كان أيضاً نوعاً من الفصل بين الإسلام والخلافة) .

إنّ مقام الخلافة آنذاك كان يُمثل في الواقع أعلى مقام روحاني وسياسي على الإطلاق ، وكما هو معروف فإنّ الخلفاء العباسيين قد استطاعوا ، رغم كل ما حصل ، الحفاظ على هذا المقام لأنفسهم ، قدر الإمكان .

ولم يتمكن أحد من زعزعته لآخر مرة سوى الخواجة نصير الدين الطوسي ، وهو من علماء الشيعة الكبار .

الوجهان البارزان لحادثة كربلاء

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

إنّ حياة البشر عبارة عن مجموعة متداخلة من أبعاد الظلام والنور ، والقبح والجمال ، والشر والخير .

وما رآه الملائكة من ابن آدم هو ذلك الجانب المظلم منه ، وأما ما كان يُشير

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

إليه رب العالمين في الآية الشريفة ، فهو أجزاء من الجانب المشرق لبني البشر ، وهو الجانب الراجح على الجانب المظلم .

وعند الحديث عن حادثة كربلاء ، يمكننا القول بأن هناك صفحتين في تلك الحادثة : صفحة سوداء ، وأخرى بيضاء :

فهي صفحة سوداء من زاوية كونها قصة جنائية ، قصة مظلمة للغاية ، وخطيرة ، وبربرية ، وهو ما سنلقي الضوء على بعض مظاهره فيما بعد ، وهي مظاهر لإنسانية ، وقاسية ، ودنيئة ، وفاقدة لأي شكل من أشكال الرحمة ، والقصة من هذه الزاوية لها صورة بالغة الحدة في قساوتها ووحشيتها .

وأما الصفحة الأخرى فهي صفحة بيضاء ، تُعبر عن قصة ملكوتية ، وملحمة حماسية إنسانية ، ومظهر من مظاهر الآدمية ، والعظمة ، والصفاء ، والنبيل ، والتضحية ، والفداء .

إنها كارثة من الطراز الأول ، بينما هي قيام مقدس من الطراز الثاني .

وأبطال القصة من الطراز الأول ، هم الشمر ، وابن زياد ، وحرملة ، وعمر بن سعد و

بينما أبطال القصة من الطراز الثاني هم : الإمام الحسين (ع) ، وأبو الفضل العباس ، وعلي الأكبر ، وحبيب بن مظاهر ، وزينب ، وأم كلثوم ، وأم وهب ، وغيرهم .

وهي من الطراز الأول ليست بقضية تستأهل الإحياء ، وإقامة الاحتفالات السنوية لها ، وتجديد ذكراها على الدوام ، بعد مُضي أكثر من ألف وثلاثمئة عامٍ عليها ، مع كل ما يعني ذلك من صرفٍ للأموال ، والجهد ، والدموع ، والإحساسات ، والعواطف .

طبعاً ليس لكون المرء غير قادر على الاستفادة من القصص الجنائية ، وأخذ العبرة منها . (ذلك أنه من الممكن جداً استخلاص الفوائد الجمّة ، من نواحي الحياة البشرية السلبية ، فعندما سُئل لقمان من أين تعلّم الأدب ؟ قال : من غير

المؤدين) ، ولا لكون أنّ هذه الكارثة ليست مهمة من زاويتها الكارثية ،
والجناثية ، أو أنها ليست مُعلّمة لنا ، فنحن سبق لنا وأثبتنا أن هذه القصة مهمة
من هذه الناحية ، وقلنا أيضاً بأنّ مقتل الحسين (ع) على يد المسلمين بل على يد
الشريعة ، بعد مُضي خمسين عاماً فقط على وفاة النبي (ص) ، لأمر مُحير ، ولغز
عجيب ، ومُلّفت للغاية .

بل قلنا إنّ هذه الواقعة ليس لها تلك الأهمية البالغة من ناحيتها الجناثية ،
حتىّ تتطلب كل تلك الاتفاقيات ، ومراسم إحياء الذكر ، ذلك أنّ كثيراً من
القصص الجناثية ، والفواجع التاريخية ، قد حلّت بالبشرية ، وبأشكال متعددة ،
سواء في القرون القديمة ، أو القرون الوسطى ، أو القرون المعاصرة .

فها هي حكاية القنبلة الذرية التي أُلقيت على مدينة (هيروشيما) لم يمضِ
عليها أكثر من عشرين عاماً^(١) ، وهي الكارثة التي أودت بحياة ستين ألفاً من
البشر ، بين صغير ، وكبير ، لا لذنْبٍ اقترفوه ، بل ذهبوا ضحية الصراعات
العالمية .

باختصار يمكن القول إنّ الشرق والغرب مملوءان بعالم الجريمة والجناية ، فهذا
(نادر شاه) الذي يمكن وضعه في سُلّم أبطال الجريمة ، وهكذا أبو مسلم ،
وبابك ، وتلك هي جرائم الحروب الصليبية ، وحروب الأندلس ، وهي
صفحات أخرى من صفحات الجريمة البشرية .

إنّ واقعة كربلاء إنّما تأخذ ذلك الحيّز الهام ، والبالغ الأهمية ، من حياتنا
وحياة البشر ، باعتبار تلك الصفحة البيضاء من القصة ، وذلك من حيث إنّها
صفحة نادرة الوجود ، بل ليس لها مثيل .

صحيح أنه كان من هو أفضل من الإمام الحسين (ع) في الدنيا ، لكنه لم
تتوفر لهم الظروف لأن يلعبوا الدور الذي لعبه الإمام الحسين (ع) .

وهذا هو الإمام الحسين يُعلن رسمياً وبصراحة بأنه ليس هناك في الدنيا

(١) في أوائل الأربعينات وأثناء الحرب العالمية الثانية .

بأهل بيت ، وبأصحاب ، أفضل من أصحابي ، وأهل بيتي ، وأبرّ منهم أداً .
ولهذا أرى أنه لا بد لنا من دراسة هذه الواقعة التاريخية العظيمة ،
والتحقيق حولها ، والتبحر في دراستها ، ولكن من زاوية التركيز على جوانبها
الوضّاءة والمشرقة ، أي من زاوية كونها (مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . . .) .

وليس من زاوية كونها مصداقاً للآية الشريفة : ﴿ مَنْ يُفْسِدْ فِيهَا وَيُسْفِكْ
الدَّمَاءَ . . . ﴾ ، نعم من الصفحة التي يكون فيها أبطال الواقعة ، هم الحسين ،
وزينب ، وأهل البيت ، والأصحاب ، وليس من زاوية الصفحة السوداء ، حيث
أبطال القضية هم أمثال عمر بن سعد ، والشمر ، وحرملة ، وغيرهم^(١) .

عوامل النهضة الحسينية

يجب أن نعرف لماذا قام الحسين (ع) وفي هذا المجال لا بد لنا من معرفة
العوامل المختلفة المؤثرة في النهضة الحسينية والتي هي :
أ - لقد كانوا يُريدون أخذ البيعة منه عليه السلام ، بشأن خلافة يزيد ،
وبالتالي فإنهم كانوا يُريدون منه المصادقة ، وإضفاء الشرعية على حكم يزيد .
فكم كان حجم الآثار ، والتتائج المترتبة على مثل تلك البيعة وتلك
المصادقة ؟

ثم ما هو مقدار الفرق بين هذه البيعة والبيعة التي أخذت من أبيه ، مع كل
من أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، أو صلح أخيه مع معاوية ؟

وكما يقول العقّاد : فإن أول آثار مثل تلك البيعة ، كان يعني المصادقة على
سبب علي (ع) ، ولعنه ، وهو ما كان قد شرّع به في زمن معاوية ، إضافةً إلى
إضفاء المشروعية على مقرلة ولاية العهد ، وتوارث الخلافة .

(١) وهنا أدعوكم لمطالعة كتاب لبنت الشاطئ ، هذا الخصوص ، وهو كتاب بطله كربلاء .

ب - يقول الحسين (ع) نفسه : بأنّ الدافع وراء قيامه ، هو وجود أصل في الإسلام يتطلب منّا عدم السكوت ، مقابل الظلم ، وانتشار الفساد ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ويستند بذلك إلى رواية عن النبي (ص) أنه قال : « من رأى سُلطاناً جائراً مُستَحِلّاً لِحُرْمِ اللهِ . . . » ، بالإضافة إلى قوله عليه السلام : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به . . . »

ج - هناك دعوة أهل الكوفة له ، وكتابتهم الكتب له ، والتي كانت تدعوه للقدوم إلى العراق ، وهي أكثر من ثمانية عشر ألف كتاب ، ومبايعتهم لسفيره مسلم بن عقيل .

وهنا لا بد من التوقف عند هذا الموضوع ، وملاحظة مدى أهمية هذا العامل ، وهل كان عامل الدعوة هذا عاملاً أساسياً في قيام الحسين (ع) ، وأنه لولاه لما كان قد نهض بالثورة ، وأنه كان قد بايع يزيد مثلاً ؟!

لكننا نعرف جيداً أنّ هذا ليس من رأي ، ولا عقيدة الحسين (ع) ، وبالتالي فإنه لم يكن ليبايع يزيد بالتأكيد حتى ولو لم تكن دعوة أهل الكوفة قد وجهت له .

والتاريخ يُثبت لنا بدقة بأنّ دعوة أهل الكوفة ما كانت لتحصل ، لولا وصول خبر امتناع الإمام عن المبايعَة إلى أهلها ، الأمر الذي دعاهم إلى الاجتماع ، والاتفاق على الكتابة إليه عليه السلام ، مُعلنين بيعتهم له ، وعقدتهم العزم على مناصرته .

ومن المعلوم أيضاً أنّ الأمويين قد طالّبوه بالبيعة ، منذ اليوم الأول ، وهو لا يزال في المدينة المنورة ، بل إنّ معاوية قد طالّبه بالبيعة ليزيد ، حتى وهو لا يزال على قيد الحياة ، وهو ما كان يرفضه الحسين (ع) بشكل قاطع .

ذلك أنّ مبايعة يزيد كانت تعني بالنسبة للحسين إضفاء المشروعية على حكم يزيد ، الذي كان يساوي المُصادقة على القضاء على الإسلام : « وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد » .

. وتأسيساً على ذلك نقول : إنَّ الامتناع عن البيعة كان عاملاً أساسياً ،
وأصيلاً في قيام الحسين (ع) .

فالحسين كان مستعداً أن يموت ولا يقبل بالبيعة ليزيد ، ذلك أن خطر
مبايعة مثل ذلك الرجل كان موجهاً للإسلام ، وليس لشخص الحسين (ع) ، أي
إنَّ الخطر كان يُهدد النظام الكلي للإسلام ، وفلسفة قيام الحكم الإسلامي ، وهي
ليست بمسألة جزئية ، أو فرعية تتحمل حكم التقيّة .

وأما العامل الثاني ، فإنه بدوره أيضاً كان قد لعب دوراً أساسياً ، وشكّل
دافعاً أصيلاً من دوافع النهضة الحسينية ، وهو أمرٌ حين ندرسه ، ونُطالعه من
زاوية احتمال حصول الأثر المطلوب ، والنتيجة المُثمرة لمبدأ الأمر بالمعروف ، فإننا
من قرائتنا لأقواله عليه السلام ، بهذا الشأن كما ورد في قوله عليه السلام :

« ثم أيم والله ، لا تلبثون بعدها إلّا كريشاً يُركبُ الفرس ، حتى تدور بكم
دورَ الرحي ، وتقلق بكم قلق المحور » .

أو في ردِّه على أحدهم ، كما جاء نقلاً عن (الرياش) أنه قال :

« إنَّ هؤلاء أخافوني ، وهذه كُتب أهل الكوفة ، وهم قاتلي ، فإذا فعلوا
ذلك ، ولم يدعُوا مُحَرِّماً إلّا انتهكوه ، بعث الله إليهم من يقتلهم ، حتى يكونوا
أذلَّ من قوم الأمة : (فرام الأمة) » .

وكذلك ما ورد في خطبته وهو يودّع أهل بيته للمرة الثانية ، حيث قال :

« استعدوا للبلاء واعلموا أنَّ الله حافظكم ، ومُنْجِكم من شر الأعداء ،
ويُعَذِّبُ أعاديكم بأنواع البلاء » .

كلها أقوال نستطيع من خلالها القول بكل تأكيد بأنه عليه السلام إنما كان
يعرف تماماً مدى أهمية قيامه ، والآثار المترتبة على نزف دمه ، واستشهاده ، وكيف
أنَّ ذلك سيكون داعياً ، وسبباً لنهضة الناس ، وبقظتهم ، وقيامهم .

بينما حال العامل الثالث لم يكن مؤثراً إلّا من زاوية أنّه كان سبباً في توجه
الإمام إلى الكوفة بالتحديد ، وإلّا هل كان في أمنٍ وأمانٍ لو لم يذهب إلى الكوفة ؟

والجواب هو : إنه حتى لو بقي في مكة ، أو المدينة ، لم يكن بمأمن من ملاحقة الحكم له ، ذلك أنه امتنع عن البيعة ليزيد ، إضافةً إلى وقوفه موقف المعارضة ، من تولي يزيد لمنصب الخلافة أساساً .

لكنه كان يأبى أن يُقتل في حرم الله المكي ، وربما أيضاً في حرم رسول الله في المدينة ، وهو بقوله لأصحاب الحر ، الذين واجههم في الطريق إلى كربلاء ، والذي يبدو أنه أعاده على عمر بن سعد نفسه في كربلاء نفسها ، الأمر الذي يفهم من رسالة عمر بن سعد إلى ابن زياد ، أنه :

إذا كنتم لا تريدوني فإنني أعود من حيث أتيت .

إنما كان يُريد فقط توضيح سبب قدومه إلى العراق ، وليس سبب قيامه ضد يزيد ، ومن ثم عدوله عن القدوم إلى العراق ، وليس عدوله عن النهضة .

فالحسين عليه السلام ، لم يقل هناك بأنه الآن ، وقد نقض أهل الكوفة عهدهم معي ، فأنا على استعداد للبيعة ، وإنني أسحب اعتراضي على حكم يزيد وخلافته ، وأتعهد بالسكوت ، والامتناع عن المعارضة !

وهنا لا بد من ذكر بعض الملاحظات :

أ - إن مسألة امتناع أهل المدينة عن مبايعة يزيد ، وبالأخص الحسين بن علي (ع) ، كانت مطروحة قبل موت معاوية ، وقد ردّ الإمام الحسين (ع) على هذا الموضوع بشكل عنيف ، في رسالته الجوابية ، التي بعث بها إلى معاوية ، حيث انتقد فيها بشدة وعنف ، فكرة طرح يزيد لولاية العهد^(١) .

ب - إن مسألة ولاية العهد - ليزيد - بدعة كبيرة في الإسلام ، ومخطط كان يعدُّ له الأمويون منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

فأبو سفيان نفسه هو صاحب القول الشهير في بيت عثمان : « تلقفوها تلقف الكرة ولتصيرن » . أما والذي يحلف به أبو سفيان لاجنة ولا نار .

(١) يرجى العودة هنا إلى كتب العقد بهذا الخصوص والذي منها (أبو الشهداء) .

وهي مسألة مهمة للغاية، إذ إنها مقولة لاهي شورية، ولا هي قائمة على قاعدة الانتخابات العامة - الرأي العام - ولا هي قائمة على التعيين والنص الإلهي ، بل إنها ملكية وراثية ، يرثها الابن عن أبيه .

ج - إن التسليم بخلافة أحدهم إنما يتم ، ويصبح مقبولاً ، عندما يدور الأمر حول صلاحية فرد آخر للخلافة ، ولكن الخليفة الذي يُسلم له بالخلافة ، على الرغم من وجود من هو أصلح منه ، لكنه رغم ذلك ، يُدير الأمور في إطار المحور الإسلامي العام .

فها هو علي (ع) يقول :

« والله لأسلمنّ ، ما سلّمتُ أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلّا عليّ خاصةً » .

د - إن البيعة كانت عقداً يشبه عقد البيع والإجارة والنكاح ، وبالتالي ففيه تعهد على الالتزام به ، وهو غير قابل للنقض ، يقول علي (ع) : إن العهد لا يجوز نقضه حتى مع الكفار ، وإلّا لما بقي أمان .

هـ - إن مسألة الاعتراض على أعمال الخليفة ، حتى ولو أدى الأمر إلى عزله في حال انحرافه ، هي في الواقع مسألة هامة في الإسلام ، تقع تحت باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وقد استند الإمام الحسين (ع) مراراً إلى هذا المبدأ الإسلامي الهام ، في قيامه ونهضته ، وليس هناك شرط في هذا الباب ، يتضمن عدم حصول سيل للدماء ، بل إن الشرط هو أن تكون النتيجة النهائية للتحرك ، لمصلحة الإسلام ، وهو أمر يشبه أمر الجهاد ضد الكفار .

و - إن موضوع دغوة أهل الكوفة للإمام ، وإتمامهم الحجة عليه ، هو الآخر موضوع هام بحد ذاته .

وقد تعامل الإمام بكل عقل وتدبير مع هذا العامل .

فقد أجاب قبل كل شيء على كتبهم ، وأخذ يبعث الرسل الواحد تلو

الآخر إليهم ، حيث أرسل في أول الأمر سفيراً خاصاً من طرفه إليهم ، وهو مسلم بن عقيل ، الذي تعامل بدوره مع القضية ، وأهل الدعوة ، بالأسلوب العلوي الأصيل ، أي دون استخدام أنواع الحيلة ، والخدعة ، أو الشطارة ، بل إنه تعامل مع الناس بكل صراحة وصدق ، فهو لم يأخذ مالا من الناس ، ولم يوزع عليهم بالمقابل الأموال التي تُغريهم ، أي إنه لم يكن على استعداد لاستخدام أسلوب (الغاية تبرر الوسيلة) .

وقد تأمل الإمام أولاً في رسائل الدعوة ، وبعد أن قطع نهائياً بضرورة الاستمرار في نهج المعارضة ، وعدم الرضوخ للبيعة نهائياً ، أرسل إليهم بكتابه الإيجابي .

والسبب في أنه تحرك إليهم في ذلك الوقت المُحدّد بالذات ، تاركاً مكة وراءه ، هو أنه كان يرى أولاً ، وقبل كل شيء ، أن الفرصة كانت مؤاتية جداً للحركة في تلك الأوضاع بالذات ، فالفرصة التاريخية كانت في اليوم الثامن من ذي الحجة ، حيث الاجتماع العظيم للناس ، لأداء مناسك الحج ، والذهاب إلى عرفات .

وعليه فإن جموع الناس لا بد وأن يلفت نظرها تخلف ابن بنت النبي عن المشاركة في مثل تلك المراسم ، وأنه لا بد وأن يكون الأمر هاماً للغاية حتى يدفعه للاستغناء عن المشاركة في مثل تلك المناسك .

وهذا التحرك الحسيني يمكن اعتباره مناورة مُحَنكة ، وذكية للغاية ، لكنه في المقابل فإن التحرك السريع هذا كانت قد أملت على الإمام شروط وظروف صعبة جداً ، حيث كان يتهدد الإمام الحسين (ع) خطر القتل في تلك الساعات بالذات - ساعات أداء مناسك الحج - .

فكما ورد في كتاب العقاد [رأسمال الحديث] ، فإن عمرو بن سعيد بن العاص ، كان قد توجه في حينه على رأس قوة عسكرية إلى مكة ، بهدف قتل الحسين (ع) .

والإمام الحسين نفسه أعرب عن مثل هذا الاحتمال عندما تحدّث إلى
الفرزدق قائلاً :

لولا ما أخرج من مكة لكنت قد قُتلت .

وقد ورد مثل هذا في (منتخب الطريحي) الذي يُشير إلى توجه ثلاثين نفرًا
في الخفاء ، في مهمة لقتل الحسين (ع) ، أثناء أداء مناسك الحج .

«إضاعة دم الحسين من خلال عرضه القضية على أنها نزاع شخصي بين عددٍ من
الأفراد ، أو تحريف القضية بشكل آخر ، كما حصل في مقتل سعد بن عُبادة ،
فيُقال إنه قد قُتل بوسيلة الجن مثلاً » .

وعليه فإنه حتى لو لم تكن قضية دعوة أهل العراق مطروحة ، فإنّ موسم
الحج ، وازدحام الحجاج ، كان يحمل معه خطر مقتل الإمام الحسين ، مما جعل
الإمام مُصمماً على عدم البقاء في مكة .

فهو لم يكن بمقدوره حماية نفسه بالسلاح ، وهو في لباس الإحرام ، إضافة
إلى كون مقتله ، وهو ابن بنت رسول الله (ص) في محيط « من دخله كان
آمناً » ، بعد مُضي خمسين عاماً فقط على رحلة الرسول الأكرم (ص) ، كان
يُشكل إهانة كبرى لبيت الله الحرام .

من هنا فإنّ حركة الإمام الحسين في ذلك الوقت ، من مكة إلى مكان
آخر ، كانت مطلوبة وضرورية ، ولو أننا صرفنا النظر عن دعوة أهل العراق له ،
فإنه لم يكن لديه في الحقيقة موقع أفضل من موقع العراق .

ز - إنّ الإمام الحسين (ع) كان يرى أنّ مقتله ، وهو يُطبّق المبدأ الثاني ،
أي تنفيذ واجب تحقيق الإصلاح في الأمة الإسلامية ، أمرٌ مفيد ، فهو كان يحسُّ
تماماً بأنّ الحالة العامة كانت بحيث إنه لو استشهد فسوف لن يذهب دمه سُدىً .

نستطيع أن نوضح القضايا الآنفة الذكر ، بشكل أكثر شمولاً ، وأكمل صورةً فنقول :

إن واقعة كربلاء كان لها وجوهٌ عدة :

١ - لقد كان الإمام الحسين ، الشخصية الوحيدة الجديرة ، والمنصوص عليها ، والوارثة الطبيعية للخلافة ، بينما كان يزيد في موقع الغاصب ، وغير الكفو لها .

ومن هذه الناحية كان هناك وجه تشابه بين وضعية الإمام ، والوضع الذي كان عليه أبوه ، وأبنائوه مع الخلفاء في العصور المختلفة .

ولذلك لا بد لنا من النظر هنا أنّ مجرد وجود هذه الناحية لدى الإمام ، ماذا كانت تُلقي عليه من واجبات ؟!

٢ - لقد كانوا يُريدون البيعة من الإمام ، ولم يكونوا على استعداد للتخلي عن مثل هذا المطلب ، بأي شكل من الأشكال ، وهنا لابد أن نرى ما هي البيعة ، وما هي آثارها ، وماذا يتطلب موضوع التكليف بالبيعة من أعمال على الإمام ؟

٣ - إنّ أوضاع ، وأحوال المسلمين ، كانت قد وصلت إلى أسوأ حالاتها الممكنة ، من زاوية إجراء الحدود ، والموازن الشرعية ، حتى صارت تُهدد جذور الدين والنظام الإسلامي .

وهنا لا بد من رؤية ماذا كان يوجب على الإمام تكليف مثل تكليف الأمر بالمعروف ، وهو المبدأ الذي كان يستند الإمام إليه في أحاديثه ؟

٤ - قام أهل الكوفة بدعوة الإمام ، وأتموا الحجة عليه بشكل ، أو بآخر ، وهنا لا بد أن نرى ماذا كان يتوجب على الإمام نتيجة هذه الدعوة ؟

٥ - السلطة الحاكمة بالمقابل ، كانت قد خيّرتَه أخيراً ، بين خيار التسليم ، وبين خيار القتل ، فماذا يجب على الإمام عمله في مثل هذه الحالة ؟

فأمّا مسألة الأحقية بالخلافة ، فإنها إن كانت غير متلازمة مع موضوع آخر ،

أي إن المسألة تتراوح بين خيار الأشخاص ، واختيار الأكفأ ، فإنه ومهما كان الفرق بين الكفاءات ، فإن اللازمة القهرية ، والإجبارية ، لتولي الأصلح للحكم ، في الظاهر ، لا تُكَلَّف الإمام ، ولا توجب عليه أكثر من المطالبة بحقه في الموضوع ، فإن كان له أعوان ، وأنصار ، بالقدر الكافي ، أقدم على الإمساك بزمام الأمور ، وإلا فلينتظر ، ويصبر كما فعل الإمام علي (ع) في موقع خلافة أبي بكر ، إذ صبر وقال : « أفلح من نهض بجناح ، واستسلم فأراح »^(١) .

أو كما قال في موقع خلافة عثمان : « والله لأسلِّمن ما سلِّمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصة » .

وعلي (ع) كان يتعاون مع خلفاء عصره ، على مختلف الصُّعد القضائية ، والسياسية ، والعلمية ، ويُشير عليهم في كل حين ، ويدعمهم ويُساندهم ، وقضاء علي وأجوبته العلمية في هذا المجال مشهورة .

وفي هذه الناحية ، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار ، موقف الناس ، ونظرتهم ، وحكمهم على مثل هذا الموضوع .

فإن كان الرأي العام لا يُريد الإمام الحق ، لجهة جهلهم ، وعدم تشخيصهم الحق ، من غير الحق ، فإن الإمام لا يحق له عندئذٍ أن يُجبر الناس ، ويفرض عليهم أمر الله ، ومن هنا يأتي لزوم البيعة ووجوبها .

أما موضوع البيعة : لنر أولاً ما معنى البيعة ؟

والتعريف الذي نفهمه نحن للبيعة ، هو نفسه ما ورد في كتاب (النهاية) لابن الأثير تحت مادة البيع ، فيقول :

« وفي الحديث : ألا تُبايعوني على الإسلام ، هو عبارة عن المُعاهدة عليه ، والمُعاهدة ، كأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما باع ما عنده من صاحبه ، وأعطاه خالصة نفسه ، وطاعته ودخيلة أمره » .

فالبيعة حكم يخص الحاكم والسلطان فقط ، وعهد الصداقة والأخوة بين

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥ .

صديقين ، لا يُقال له بيعة ، أي إنّ البيعة تعني تسليم أحد الطرفين للآخر ، تسليماً تاماً^(١) .

لقد جاء ذكر البيعة في القرآن أيضاً في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . . إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ وَلَا يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ .

والنبي (ص) بدوره أيضاً ، قد أخذ البيعة لعلي (ع) في يوم (غدیر خم) ، عندما بايعه أهل المدينة على ذلك في « ليلة العقبة » .

في سقيفة بني ساعدة كانوا قد أخذوا البيعة من الناس على الخلافة ، وبفضلها كانت الخلافة قد تمت لأبي بكر دون منازع ، ورغم أنّ الناس كانت قد كشفت زيف تلك البيعة فيما بعد ، إلّا أنها لم تنقض البيعة .

وعلي (ع) أيضاً بدوره كان قد أخذ البيعة له من الناس حتى صار خليفةً ، وعندما حاول الزبير بن العوام التملص من البيعة لعلي ، وهو الذي كان فيمن بايعه عليها ، لكنه ادّعى بالبيعة الظاهرية ، فقد ردّ عليه الإمام علي (ع) كما ورد في (نهج البلاغة) في الخطبة (٨) ، إذ قال :

« يزعمُ أنه قد بايع بيده ، ولم يُبايع بقلبه ، فقد أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليجة ، فليأت عليها بأمرٍ يُعرفُ ، وإلّا فليدخل فيما خرج منه » .

ويلاحظ هنا بوضوح ، إنّ الإمام يُحاجُّ الزبير قضائياً بشأن البيعة .

على أية حال فإنّ الإمام يذكر البيعة هنا على أنها معاهدة مُلزمة لصاحبها ، وفي خطبة أخرى له عليه السلام وهو ما ورد في (نهج البلاغة الخطبة ٣٤) إنه عليه السلام قال :

« إنّ لي عليكم حقاً ، ولكم عليّ حقٌّ . فأما حقُّكم عليّ فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجلّھوا ، وتأديبكم كيما تعلموا

(١) راجع الكشف ، ومجمع البيان .

(تعملوا) (١). وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد والمغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين أمرُكم .

كما أنّ أصحاب الجمل ، إنما نُعتوا بالناكثين ، لأنهم نكثوا العهد ، ونقضوا البيعة مع الإمام .

هذا بالإضافة إلى أن هناك حديثاً يقول : إنّ الإمام الحجة المنتظر صاحب الزمان (عج) إنما اختفى وغاب حتى لا يُلزم الناس بالبيعة له .

هذا كما أنّ أولاد الأئمة عليهم السلام كافة ، وكل من كانت له نية في الثورة على الخلفاء ، كانوا يطلبون البيعة لأنفسهم ، من أتباعهم ، وهو ما فعله محمد بن النفس الزكية ، وزيد بن علي .

وقد أفتى (أبو حنيفة) بعدم صلاحية بيعة أهل المدينة مع العباسيين ، لأنّ لهم في رقبتهم بيعةً مع محمد بن النفس الزكية .

والإمام الصادق (ع) قال : إنه على استعداد لمبايعة محمد بن النفس الزكية ، إذا كانت نهضته نهضة الأمر بالمعروف ، وليست نهضةً مهدوية .

والإمام الحسين نفسه كان قد أخذ البيعة من أصحابه ، وأراد في ليلة عاشوراء أن يُحررهم منها ، عندما عرض عليهم خيار تركه بقوله لهم : « أنتم في حلٍّ من بيعتي » .

ومسلم بن عقيل ، هو الآخر ، كان قد أخذ البيعة لإمامه من أهل الكوفة .

وعندما كتب معاوية إلى أمير المؤمنين (ع) يقول له : « وكنت تُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش » . فقد ردّ عليه أمير المؤمنين (ع) قائلاً :

« وقلت : إني كنتُ أقاد كما يُقاد الجمل المخشوش ، حتى أباع ، ولعمري الله ! لقد أردت أن تَدُمَ فمدحت ، وأن تفضح فافتضحت ! وما على المسلم من

(١) وهو ما ورد في شرح ابن ميثم وهو الأصح .

غضاضة في أن يكون مظلوماً ، ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مُرتاباً بيقينه ، وهذه حُجتي إلى غيرك قصدها ، ولكني أطلّقت لك منها ، بقدر ما سَنَحَ من ذكرها .

وهنا تُطرح الأسئلة التالية ، وهي :

ما هي ضرورة أخذ البيعة بالنسبة للنبي والإمام ؟

ومن ثم ما هو الأثر الإلزامي المترتب على البيعة من الناحية الشرعية ؟

وبعد فهل إنَّ عدم مبايعة الناس لنبيهم ، تعني أن طاعة النبي ليست واجبة ؟!

ثم لماذا كان أمير المؤمنين علي (ع) يستند إلى مفهوم البيعة في مجادلاته ، ومحاجّاته ؟

وكما يبدو فإن البيعة يكون لها في بعض الموارد معنى الاعتراف وإبراز الاستعداد للطاعة ، أي تعبير وجداني .

والبيعة التي كان يأخذها النبي من الناس ، كانت من هذه الزاوية ، لا سيما وأنَّ مثل هذه الأخلاق كانت سائدة بين العرب ، والتي كانت تُتميّزهم عن غيرهم بالوفاء بالعهد ، والالتزام بالعهود ، والمواثيق ، التي يقطعونها على أنفسهم . وهو أمرٌ أشبه ما يكون بالقَسَم الذي يُقسمه العسكريون ، ونوَّاب الشعب مثلاً ، في مثل هذه الأيام ، وهو قَسَم الوفاء ، وعدم خيانة أوطانهم ، والذي هو من الأخلاق العامة المطلوبة من الجميع ، لكنه على كل حال إنما يؤكّد الفرد بالقسم تقديمه وجدانه أمانةً ، ورهنًا لدى الوطن .

كذلك الأمر بالنسبة إلى البيعة ، فما لم يُبايع الفرد ، فإن في عنقه تلك الوظيفة العامة ، والواجب الكلي المترتب على الجميع ، والذي لا يقبل التفسير والتأويل ، لكنه بالبيعة يكون قد شهد شخصياً ، واعترف بشخصه ، وألزم نفسه على رؤوس الأشهاد ، بالالتزام بطاعة الحاكم ، وبذلك يكون قد أخرج الموضوع من دائرة الإبهام ، ووضع وجدانه وضميره في الميزان .

وليس بعيداً أن يكون بذلك قد أوجد لنفسه ، من الناحية الشرعية ، إلزاماً

ما فوق الإلزام الأول الكلي ، لكن البيعة قد تكون في موارد أخرى بمثابة العقد ، الذي لم يكن يسبقه أي إلزام للطاعة بين الطرفين ، قبل توقيع العقد .

فعندما كانت الخلافة شوروية مثلاً ، ولم تكن بالنص ، فإن زمن ما قبل البيعة ، لم يكن مُلزماً لأحد بطاعة ذلك المرشح للخلافة ، بينما يصبح مُلزماً للجميع في حال منحهم البيعة له .

وعندما يستند أمير المؤمنين علي(ع) إلى مفهوم البيعة في محاجّته للزبير، وغير الزبير ، فإنّه في الحقيقة ، يتجاوز مسألة النص النبوي له بالخلافة ، والذي أسقطته خلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ويأخذ في قواعد العمل بالمبدأ الشرعي الآخر وهو البيعة ، تماماً كما فعل الخلفاء الثلاثة ، عندما تجاوزوا مقولة النص النبوي على علي(ع) ، وعملوا بالمبدأ الشرعي الآخر ، والذي هو بدوره أيضاً مبدأ جدير بالالتزام والاحترام ، وهو مبدأ الشورى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ .

على أية حال فإن البيعة تختلف قليلاً عن مسألة التصويت الانتخابي في زماننا .

إذ إنها أكثر إلزاماً من التصويت في الانتخابات الرأئسية ، فالتصويت اليوم لا يعدو كونه انتخاباً للشخص ، بينما كانت البيعة تعني الانتخاب ، والتسليم بالطاعة للشخص المنتخب .

والآن لنر إذا ما كان الإمام الحسين(ع) قد بايع ، ماذا كانت تعني مثل تلك البيعة ؟

وأما في مرحلة الامتناع عن البيعة ، فإن تكليف الإمام الحسين سيكون نوعاً من التكليف السلبي . (وهو ما ينطبق على المراحل الرابعة والخامسة) ، وبالتالي فإنّ عدم البيعة يختلف عن موقف المُبايع في المرحلة الأولى والثالثة ، حيث يكون التكليف هناك تكليفاً إيجابياً .

من هنا فإنّ الإمام الحسين(ع) تراه يقول « لا » ، وبالتالي فإنه يرفع الغطاء عن الحاكم الجديد ، ويسحب يد الدعم والمساندة عنه .

وفي حدود هذا التكليف الإلهي ، فإنّ خروج الإمام من البلاد كان كافياً للقيام بالواجب المترتب عليه نتيجة ذلك ، وكذلك أيضاً لو أنه اختار صعود الجبال ، والاختفاء عن الأنظار (كما اقترح عليه ابن عباس ، بأنّ يذهب إلى شعاب الجبال) .

وإذا ما افترضنا أنّه كان قد اختار الاختفاء عن الأنظار في أحد البيوت ، فإنه يكون بذلك قد قام بواجبه أيضاً .

لكنه لم يكن معذوراً فيما لورضخ للبيعة الإكراهية . فتقبل الإكراه من وجهة نظر الإسلام لا يشمل مثل هذه الحالات .

وقاعدة : « رُفِعَ ما استكروهوا عليه ، ولا ضرر ولا ضرار » . لا يجوز تطبيقها عندما يكون المتضرر هو الإسلام ، كأن يُجبر الإنسان أو يُكره على كتابة كتاب ضد الإسلام أو مُعانِد لأهل القرآن الكريم .

وهنا لابد من التعليق على قول البعض ، وتساؤلهم عن سبب عدم قيام الحسين (ع) في زمن معاوية ، وجواب البعض الآخر بأنّ ما كان يمنعه من ذلك هو وجود معاهدة الصلح . بين أخيه وبين معاوية ، وأنّ الإمام الحسين (ع) لم يكن يُريد التحرك خلافاً لمعاهدة أخيه أو نقضها .

ونقول : بأنّ هذا ليس صحيحاً ، فمعاوية نفسه كان قد أخلّ بالمعاهدة ونقضها ، والقرآن الكريم إنّما يأمرنا باحترام العهود وعدم نقضها ، في حالة احترامها من قبل الطرف الآخر .

والقرآن لم يُطالبنا بالبقاء على العهد حتّى وإنْ نُقض من قبل الطرف الآخر ، وإنّما يقول تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ ، فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ .

طبعاً الوفاء بالعهد حتّى مع الكافر ، ينبغي احترامه ، والالتزام بمواثيقه ، والنبي محمد (ص) كان قد عقد اتفاقاً للصلح مع قريش في (الحديبية) ، ولكنهم ما أنْ نقضوا العهد ، حتّى اعتبره عليه الصلاة والسلام حبراً على ورق .

وعودةً إلى عدم قيام سيد الشهداء في ظل حكم معاوية نقول :

إنّ سر ذلك يكمن في الحقيقة في سياسة أبي عبد الله الحسين (ع) ، التي كانت تقوم على انتظار الفرصة الأفضل ، والأكبر في الثورة ، وهنا لا بد من القول إنّ الإسلام ليس فقط يجوز تكتيك الانتظار ، والصبر لاختيار الفرصة الأفضل ، بل يعتبر ذلك واجباً من الواجبات .
وإنه لأمر مؤكد أن تكون الفرصة بعد موت معاوية ، أفضل منها في زمن معاوية نفسه .

والإمام لم يكن ساكتاً رغم ذلك في زمن معاوية ، بل كان معترضاً ، ومقاوماً على الدوام ، وهو ما يمكن استفادته من رسالته الشهيرة إلى معاوية^(١) ، وهو يحتاجه فيها شخصياً .

هذا بالإضافة إلى دعوته لأكابر المسلمين ، والحديث إليهم بشأن الأوضاع السيئة في زمن معاوية .

لكنه عليه السلام كان يرى أنّ أفضل الأوقات للقيام بالسيف ، هو بعد موت معاوية ، لا سيما وأنّ الإمام كان متيقناً من أنّ معاوية قد نصب يزيداً خليفة له بعد موته ، وأنّ الأمويين سوف يدعون الناس بالتأكيد إلى إطاعة الخليفة الجديد .

وعليه فإنّ موضوع خلافة يزيد لم يكن أمراً مفاجئاً للإمام على الإطلاق .

(١) يرجى العودة في هذا المضمار إلى كتاب « راسمال الحديث » و« دراسة تاريخ عاشوراء »؟؟

الحسين وأصحابه في ليلة عاشوراء

درس في التوحيد ، والإيمان ، والعظمة ، ومثال في الأسطورة
التي لا تقهر ، (كل ذلك في ظل توافر كل الشروط ،
والظروف غير المساعدة)

إن من مظاهر الإشراق في واقعة كربلاء ، ومن تجليات الله الكبرى فيها ،
هو موضوع جمع الإمام (ع) لأصحابه في ليلة عاشوراء ، وخطبته الشهيرة فيهم .

في مثل تلك الليلة العصيبة ، حيث اجتمعت كل الظروف والعوامل ، التي
تبعث على اليأس ، والوهن ، والضعف ، لم يكن باستطاعة أي قائد ، ولا رائد
تقويم حركته ، على أساس المادة والحسابات المادية ، سوى أن يُبدي حسرته على
ما فاتته من فرص الحكم ، والجاء ، والسلطة ، ولم يكن لسان حاله سيوحي إلا
بفشل حركته وكنت تراه لا ينطق بغير الشكوى ، ولا يُبدي سوى التملل من
الأوضاع المحيطة ، ولا يتفوّه إلا بمنطق الكافر بالدهر ، وساعته السوداء ، التي
أتت عليه بتلك الأوضاع السيئة ، تماماً كما فعل نابوليون عندما اشتدت عليه
الظروف حيث قال قوله الشهير :

« إن الطبيعة لم تُساعدني » .

بعد أن كان يلعن الدهر ، وهو في أشد حالات اليأس . فتصوروا إذاً ،

حالة الحسين (ع) ، وهو يُفكر بمصير زوجه ، وأبنائه ، وأخواته ، الذين سيصبحون أسرى بيد العدو ، بعد أقل من (٢٤ ساعة) .

إنه لأمر في غاية المرارة ، لرجل غيور ، وصاحب شهامة ، كشهامة أبي عبد الله الحسين (ع) .

فإذا فعل الآخرون عندما ، واجهوا مثل هذه الظروف ؟

إننا نقرأ في التاريخ أنّ « المقنّع » عندما حوَّص ، وواجه ظروفاً صعبة يائسة ، فإنّ أول ما قام به ، هو قتل عائلته ، ومن ثم الاستسلام والانتحار . وكذلك فعل أحد الخلفاء الأمويين ، عندما واجهته ظروف مشابهة .

وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ من هذا القبيل .

لكن الإمام الحسين بن علي (ع) تراه يبدأ خطبته في مثل هذه الظروف بروح مختلفة تماماً فيقول : « أثني على الله أحسن الثناء ، وأحمدُه على السراء والضراء . اللهم إني أحمّدك . . . »

إذاً ، في ظل كل تلك الظروف الصعبة والعسيرة ، ترى الحسين (ع) ينطق بالرضا والتسليم للظروف والعوامل الموضوعية ! لماذا ؟

لأنه يعيش ظروفاً معنوية قوية وعالية ، إنه موحد بالله عقيدياً وعملياً ، وعابد وساجد لله ، إضافةً لكونه واعياً وعارفاً بالنتيجة النهائية لعمله .

إنه لم يكن يسغي مثل نابوليون والإسكندر ، السيطرة على العالم ، حتى يرى نفسه مهزوماً ، وهو يقترب من ساعة الحسم في كربلاء .

إنه كان يحمل هدف إعلاء كلمة الحق ، ولذلك تراه ينظر إلى نتائج أعماله بعين الرضا والقبول ، في كل الأحوال .

موضوعات حول النهضة الحسينية

- ١ - إن الواقعة حصلت بسبب عدم استعداد رائدها لبيع عقيدته ورأيه . .
- ٢ - إن عبارة « آثروا الموت . . . » تصدق على أصحاب كربلاء حقيقة وحقاً . « قارن بين أصحاب كربلاء ، وبين أهل بدر وصفين ، وأصحاب طارق بن زياد » .
- ٣ - إن الدرس المهم في حادثة عاشوراء هو إدراك ما إذا كان الدين قوة أم ضعفاً ؟ قيداً أم حرية ؟ أفيوناً للشعوب . أم قوة دافعة لها ؟

معاوية ، وقميص عثمان ، واغتصاب الخلافة

يقول (العقاد) في كتابه (أبو الشهداء) الصفحة ١٢ :

« إن الذين انخدعوا أو تخادعوا . . والآجام » ومن خلال نظرة سريعة على هذا الموضوع يمكن تسجيل الملاحظات التالية (لا سيما بخصوص الفرق بين أصحاب معاوية ، وأصحاب ابن زياد) .

ألف - هناك فرق كبير بين الأجواء التي حارب فيها أصحاب معاوية في صفين ، والأجواء التي حارب فيها أصحاب يزيد في كربلاء ، فمعاوية كان قد خدع جمهوره ، وصوّر لهم أنّ المعركة مع علي (ع) إنما تهدف للانتقام لدم الخليفة المظلوم عثمان ، ولم يكن الرأي العام يعرف مآرب معاوية ، وأهدافه الحقيقية من وراء تلك المعركة .

بينما لم يكن الحال كذلك بالنسبة لأصحاب يزيد ، ولذلك ترى أنّ موقف النفاق في المواجهة التي كانت دائرة بين معاوية ، وكل من الإمام علي (ع) ، ومن ثم الحسن (ع) ، لم يكن واضحاً كما كان لحظة المواجهة ، بين يزيد ، والإمام الحسين (ع) .

لكن الناس يبدو أنها كانت قد تراجعَت في وعيها ، وتخلّفت كثيراً عن

الموقف الإسلامي ، خلال فترة العشرين سنة التي أعقبت حكم الإمام علي (ع) ، حتى إنه يمكن القول بأنّ من الصعب التصور بأنّ الناس كانت ستقف إلى جانب بني أمية ، فيما لو كانت واقعة كربلاء ، قد حصلت ، في عصر معاوية .

ب - إنّ ما حصل في قضية معاوية ، لا شك أنه كان يقوم على قاعدة الثأر ، وطلب الانتقام ، وهي الروح العصبية ، والجاهلية ، والميل الباطني ، الذي كان قد حرّك الناس للمطالبة بالدم ، وهو نفس الميل الذي كان متأصلاً في العصر الجاهلي ، ألا أنه ظهر هذه المرة بلون إسلامي ، وتحت شعارات إسلامية !

ج - لقد ارتكب معاوية في عهده حماقة كبرى هي التي أدّت في الواقع إلى زوال حكومة بني أمية ، وهي أنّه عين يزيداً ولياً للعهد من بعده ، وتلك فعلة لا تُغتفر .

أولاً : لأنّ يزيد كان أسوأ خيار ممكن لمنصب الخلافة .

وثانياً : لأن فكرة ولاية العهد كانت تعني تحويل الخلافة إلى لعبة سياسية سُلطانية ، مضادة لروح الخلافة تماماً .

ثم إنه أضاف إلى ذلك أنه قام بأخذ البيعة لابنه ، في زمن حكمه هو ، وكان معاوية قد حوّل في الأساس منهج الحكم في عصره إلى منهج سُلطاني برز في المجالات كافة وسائر مستويات الحكم وهو الأمر الذي كان يستعدّ له بنو أمية منذ عهد عثمان عندما كانوا يُصوّرون الخلافة بأنها ملك خاص لهم .

د - إنّ عمل أعوان بني أمية في واقعة كربلاء ، كان يُمثل قمة الدناءة ، ومنتهى التقهقر ، والانحطاط الأخلاقي ، للأمة الإسلامية ، وإن وقفة كربلاء الشجاعة ، بقيادة الحسين بن علي (ع) ، هي التي شكّلت الشرارة ، والمبدأ اللذين أشعلا نور المعرفة ، والوعي ، والحرية ، لدى الأجيال المتتابة بعد تلك الواقعة .

وما قيام المدينة ، وثورات الكوفة ، لا سيما ثورة (عبد الله بن عفيف الأزدي) ، إلّا مثلاً لتلك التجليات الروحية الإسلامية ، التي انبعثت من معركة الطف .

صحيح أن أعوان بني أمية لم يكتفوا بدناءتهم في واقعة كربلاء ، بل استمروا في إبراز تلك الخسبة والدناءة بعد الواقعة أيضاً ، إلا أن شرارة الوعي والانطلاق كانت قد أشعلت في ضمير الأمة ، على يد الحسين بن علي (ع) .

أصحاب بني أمية يُحاربون دينهم في كربلاء

إنَّ الأمر العجيب الذي يلفت النظر في كل من واقعة كربلاء ، ووقعة الحرة في المدينة ، هو أن أعوان يزيد قد أظهروا دناءة وخسةً نادرتين في كِلَا الواقعتين .

فهُم كانوا يُمارسون تلك الجرائم ، في الوقت الذي لم يكونوا فيه ينطلقون من موقع الكفر المطلق ، إذ كانوا يُقيمون الصلاة ، وينطقون بالشهادتين .

يقول العقّاد في كتابه الأنف الذكر :

« بَلْ حَسْبُكَ مِنْ خِسَّةٍ ناصريه (يزيد) أنهم كانوا يُرعدون من مواجهة الحسين بالضرب في كربلاء ، لاعتقادهم بكرامته وحقّه ، ثم ينتزعون لباسه ، ولباس نسائه فيما انتزعه من أسلاب ، ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه ، وبرسالة جدّه ، لكانوا في شريعة المروءة أقلَّ خِسَّةٍ من ذلك » .

ومن هنا يتضح أن حرب أصحاب ابن زياد مع الحسين بن علي (ع) لم تكن حرباً عقائدية ، بل حرباً ضد العقيدة .

أي إنهم أعلنوا الحرب ضد دينهم وعقيدتهم من أجل إشباع بطونهم ، وأنفسهم ، بالشهوات ، والجاه ، والسلطان ، ولهذا فإنهم من هذه الناحية أسوأ من كُفّار بدر وأحد ، وأحقّر ، ذلك أن حرب أولئك كانت على الأقل حرباً من أجل العقيدة .

كرامة آل علي (ع) في استخدامهم لأدوات النصر

كما يختلف آل علي مع مخالفيهم في الغاية والهدف ، فإنهم يختلفون معهم أيضاً في استخدام وسائل ، وأدوات الحرب والمواجهة .

فهم لم يكونوا على استعداد لاستخدام أية وسيلة كانت بغرض الوصول إلى تحقيق أهدافهم .

بينما كان معاوية يستخدم وسيلة السم ، وهي من الأعمال الجبائنة ، ومن أدوات الغدر ، والخديعة ، في محاربة الأعداء ، فتراه يسمّم الإمام الحسن (ع) ، والأشتر النخعي ، وسعد بن أبي وقاص ، بل وحتى عبد الرحمن بن خالد ، وهو الصديق والنصير المفضل لديه ، لا لسبب ، إلاّ لأنه فكّر في تولي الخلافة من بعده ، فسّمه وهو يقول : « إنّ لله جنوداً من عسل » .

لكن آل علي امتنعوا عن استخدام مثل هذه الطرق والأساليب ، لأنها كانت تتناقض وأهدافهم السامية ، التي كانت تتمثل في إشاعة الفضيلة ، خلافاً لمعاوية ، الذي لم يكن يحملهما ، سوى هم الحفاظ على السلطة ، وتوريثها لبني أمية من بعده .

هذا في حين أنّ آل علي كلهم لم يكونوا على استعداد لاستخدام طرق الغدر ، وأساليب الخداع ، للقضاء على عدوهم .
وها هو مسلم بن عقيل يرفض قتل ابن زياد غيلةً وغدراً ، عندما حانت له تلك الفرصة في بيت هاني إذ قال : « إنّنا أهل بيت نكره الغدر »^(١) ، أو عندما قال : « تذكرت قول رسول الله (ص) : « الإيمان قيد الفتك »^(٢) .

تحليل روحية قتلة « سيد الشهداء »

إنّ تحليل روحية أعوان ابن زياد ليس بالعمل السهل ، فهل كان هؤلاء غير مؤمنين بأصول الإسلام حقاً ؟ أم إنهم كانوا مؤمنين بالإسلام ، وكانوا يتصورون أنّ الإمام الحسين ما هو إلاّ فرد طاغٍ ، و متمرد ، خارج على إمام زمانه ، وإنه يجب إعلان الجهاد عليه حسب حكم الإسلام ؟ وهو ما جاء في ظاهر حديث عمر بن سعد إذ قال : « يا خيل الله اركبي ، وبالجنة أبشري ! » .

(١) العقاد ص ١٨ .

(٢) رأسمال الحديث الجزء الثاني للعقاد .

أو إنّ الأمر لم يكن يتجاوز الطمع ، والحرص على الدنيا ، أو لمخض الجهل ، وعدم وجود الوعي الكافي ، والتشخيص غير الدقيق ؟ .

في الظاهر يبدو أنّ أكثرهم كان يحمل نوعاً من الإيمان التقليدي السطحي ، أي إنهم لم يكونوا منكرين للإسلام ، ولا للإمام الحسين في باطنهم ، وفي ضمايرهم ، لكن رؤساءهم كانوا غارقين حتى أذانهم ، ومعمية أبصارهم بسبب الرشوة ، وحُب الجاه والمقام ، تماماً كما وصفهم ذلك الرجل للإمام الحسين (ع) إذ قال :

« أمّا رؤساؤهم ، فقد أعظمت رشوتهم ، ومُلثت غرائزهم » . وهذا بدوره لغز عجيب ، وسر من أسرار ابن آدم ، إذ ترى المرء يُقاتل ضد عقيدته ، ودينه ، وفطرته ، طمعاً بالدنيا ، وحرصاً على المال والثروة ، وهو أمر لا ينسجم مع غريزة الإيمان لدى بني البشر .

وهناك اليوم في زمننا من تراه يُصلي ، ويصوم عن قناعة ، ويُبدي نوعاً من العلاقة والرغبة بتعاليم القرآن الحكيم ، لكنه في نفس الوقت تراه خادماً للأجانب ، وصانعاً لحوادث أشبه ما تكون بواقعة الحرة في المدينة المنورة ، أو حملات المغول .

كأن هناك انفصاماً قد وقع بين دينهم وعملهم ، أو بعبارة أخرى كأن هناك انفصاماً في الشخصية يطبع سلوكهم .

وأما أولئك المرؤوسون منهم ، فإنهم مثال التابع الذي تُحرّكه روح التقليد الأعمى ، والتبعية العمياء ، للرؤساء ، وكأن لسان حالهم يقول : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ﴾^(١)

باختصار يمكن القول إنّ : « قُلُوبُهُمْ مَعَكَ ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك » نبوءة صدقت في كربلاء ، وهي لغز كبير .

وكما يرى (العقّاد) فإنّ كلا الطرفين كانا يؤمنان بالعقيدة وبالأخرة ، مع

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٧ .

الفرق في أنّ العقيدة والإيمان في أحدهما كانتا تسريان في روح كريمة ونبيلة ، بينما العقيدة والإيمان في الطرف الآخر كانتا تسريان في روحٍ لئيمةٍ ودنيئةٍ .
فكانت الروح الأولى بالضرورة ، روحاً رفيعةً ، وساميةً ، وصاحبة مبدأ ،
وعقيدة ، بينما ظلت الثانية في وحل النفعية ، والمصالح المادية .

منشأ الخلاف بين آل علي (ع) وآل معاوية

إنّ الأسباب والدوافع التاريخية التي حكمت الصراع والخصومة بين آل علي (ع) ، وآل معاوية كانت كثيرة .

بالطبع يمكن الاختصار والقول : بأنّ السبب الأصلي إنما يكمن في الحقيقة في اختلاف الخليقة والفطرة . فهما من طينتين مختلفتين ، ولهذا ترى آل علي (ع) يُعرفون بالإيمان ، والخُلُق ، والفضيلة ، بينما آل معاوية يشتهرون بحب الدنيا ، والجاه ، والمقام ، والثروة ، والمال .

ولكن مع ذلك ؛ يمكن القول بأنّ عدداً من الأسباب والدوافع المُحدّدة ، كانت وراء الخصومة الفعلية بين الطرفين ، والتي يمكن عنونها بالاختلافات العرقية ، وعقلية المطالبة بالثأر ، والتنافس السياسي ، والعداوة الشخصية والاختلاف في وجهات النظر ، ومنطق التفكير والإدراك ، والعواطف المتفاوتة .

بالطبع ينبغي تنزيه آل علي (ع) عن بعض هذه الأمور ، لكن آل معاوية كانت تُحرّكهم كُل تلك العوامل مجتمعةً ، إضافةً إلى حس الحسد والغيرة من موقع الكرامة ، التي امتاز بها آل علي (ع) ، والشرف الشعبي الذي تمتعوا به أمام أعين الجميع ، الأمر الذي جعل أعداءهم يحسدونهم عليه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١) .

والعقّاد يصف موقعية الطرفين في كتابه حول واقعة الطف فيقول :

(١) سورة النساء : الآية ٥٤ .

« وكان هذا التنافس بينها (الحسين(ع) ويزيد) يرجع إلى كل سبب يوجب
النفرة بين رجلين من العصبية إلى التراث الموروث ، إلى السياسة ، إلى العاطفة
الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة ، والنشأة ، والتفكير » .

نعم فعنصر آل علي إن من ناحية أصل الفطرة ، أو طبيعة النشأة والتربية ،
أو الحُجُور التي ترعرع فيها أبناؤهم ، يختلف تماماً عن عنصر آل معاوية ، وبني
أمية .

ثم إن قبيلتي أمية وهاشم ، كانتا تتصارعان على الزعامة منذ القدم ،
وكانت قبيلة أمية في حينها ، قد خسرت الرهان وانتقلت إلى الشام .

وعندما ظهر الإسلام ، فإنّ أبا سفيان الذي كان يُمثل العنصر الأدهي في
رجالات قريش ، ظل يُقاتل بكل حقد النبي محمداً(ص) ، ويصدّه حتى فتح مكة ،
حيث قرّر في حينها ، بناءً على تكتيك العقل ، وحكمة الدهاء والفطنة ، الرضوخ
مؤقتاً للسلطة الجديدة ، بانتظار الفرصة المناسبة .

وأبو لهب الذي وقف بشدة بوجه النبي (ص) هو في الواقع صهر أبي
سفيان^(١) .

ورد أنّ أبا سفيان لمح يوماً النبي محمداً(ص) وهو يمشي بعد فتح مكة ،
فقال بينه وبين نفسه : « ليت شعري بأيّ شيء غلبني ؟ ! » فما كان من
الرسول (ص) الذي سمع قوله هذا ، أو قرأ مكنونه ، إلا أن اقترب منه وبعد أن
ربت على كتفه قال له : « بالله غلبتُك يا أبا سفيان ! » .

عداء أبي سفيان للإسلام

في غزوة (حُنين) ما أن رأى أبو سفيان هزيمة المسلمين وانكسارهم ، حتى
فَرح وقال : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » .

وفي حرب الشام حينما كان الروميون يتقدمون كان يقول : « إيه بني

(١) راجع بهذا الخصوص قضية أبي سفيان والعباس ، وفتح مكة .

الأصفر ! » وعندما كانوا يتراجعون كان يقول : « ويلٌ لبني الأصفر ! » ، وهذا منتهى الكفر والحقْد على أن يحب أبو سفيان نصره الشيطان !

صحيح أنَّ النبي (ص) الذي كان يُريد تأليف القلوب ، أقدم على تزويج ابنته ، وجعل بيته آمناً ، واعتبره على رأس جماعة المؤلفة قلوبهم (لكنه لم يولِّه ، ولم يولِّ أولاده على الحكم أبداً . بل اكتفى بجعلهم من المؤلفة قلوبهم ، وهذا أمرٌ يختلف عن تسليم السلطة لهم) .

ومع ذلك فإنَّ المسلمين كانوا يتجنبون مجالستهم ، ويحذرونهم ما أمكن ، حتى أنَّ أبا سفيان تعب من هذه المعاملة فطلب يوماً من رسول الله (ص) أن يجعل ابنه معاوية كاتباً لديه (وليس كاتباً للوحي) .

وفي جملة ما يذكره (العقَّاد) في كتبه أنه - أي أبو سفيان - أقر بباب علي (ع) والعباس ، بعد رحلة الرسول الأكرم (ص) ، فردَّ عليه علي (ع) : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خَلَيْنَاهُ ، وإيَّاه » . [وهذه الجملة - العبارة - بغض النظر عن كل شيء تتنافى مع عبارته عليه السلام ، التي وردت في (نهج البلاغة) في باب هذه القضية بالذات حيث قال (ع) : شقُّوا أمواج الفتن . . .] .

أوما قاله معاوية لأبيه وقد ورد كالتالي : « . . . ثم ابنه قائلاً يا أبا سفيان ! إنَّ المؤمنين قوم نصيحة بعضهم لبعض ، وإنَّ المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ، تتخاذلون وإنَّ قُربت ديارهم ، وأبدانهم » .

نعم فهو ذاك أبو سفيان الذي قالها صراحةً في اليوم الأول لتسلُّم عثمان الخلافة : « يا بني أُمِية ! تلقفوها تلقف الكرة . . . » .

مقدمات ولاية عهد يزيد

يقول (العقَّاد) في كتابه « أبو الشهداء » في الصفحات (٢٩ - ٣١) .

إنَّ معاوية كان يسعى لتحويل الخلافة إلى مُلك أموي ، وكان يعمل لإيجاد الأرضية اللازمة ، لتولية ابنه يزيد من بعده .

ولما رأى نفسه ربما سيموت قبل أن يُحقّق هذه الأمنية ، بسبب كبر سنه ، فقد كتب إلى مروان بن الحكم ، ليطلب البيعة لابنه من الناس .

لكن مروان الذي كان يطمع بالخلافة لنفسه ، أبى ذلك ، وصار يُحرّض الآخرين ضد يزيد ، فما كان من معاوية إلّا أن عزل مروان ، وعيّن بدلاً عنه ، سعيد بن العاص ، ثم كتب إليه بهذا الخصوص .

بالطبع لم يُلب أحدٌ طلب معاوية ، وكان معاوية قد حلّ سعيد بن العاص هذا رسائل إلى كل من الإمام الحسين (ع) ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، وطلب إليه أن يحمل رسائل جوابية منهم بهذا الخصوص . (وكما يبدو فما من أحدٍ منهم ردّ على معاوية) .

وكتب يومها إلى سعد بن العاص يقول :

« ولتشدّ عزيمتك ، وتُحسن نيتك ، وعليك بالرفق ، وانظر حُسِيناً خاصةً ، فلا يناله منك مكروه ، فإنّ له قرابةً وحقاً عظيماً ، لا ينكره مُسلم ولا مُسلمة . . . وهوليث عرين ، ولستُ آمنك إنّ ساورته ألاّ تقوى عليه » .

وقد عانى كثيراً سعيد بن العاص من أجل إقناع الناس ، ولا سيما أولئك النفر الذين كتب إليهم معاوية بالذات لكنه لم يوفق .

وهكذا توجه معاوية بنفسه إلى المدينة عازماً إليها من مكة ، ولما وصلها دعا أولئك النفر من وجهائها ، وخاطبهم بلطف قائلاً : إنني أرغب أن تُبايعوا ليزيد بالخلافة ، وهو أخوكم وابن عمكم .

وبالطبع فإنّ صلاحيات العزل والنصب ، ستبقى معكم ، وكذلك أمر الجباية ، وتقسيم المال ، لكن اسم الخلافة هو الذي أريده منكم ليزيد ! .

فرّد عليه ابن الزبير يومها قائلاً : من الأفضل لك أن تفعل كما فعل النبي حيث لم يُعيّن أحداً ، أو تفعل ما فعله أبو بكر عندما انتخب شخصاً للخلافة لم يكن من ولده أو ولد أبيه ، أو أن تقوم بما قام به عمر إذ تركها للشورى .

فتضايق معاوية من كلامه وقال له :

وهل عندك شيء آخر تقوله ؟ .

فقال ابن الزبير : كلاً .

فسأل معاوية الآخرين قائلاً : وأنتم ما عندكم ؟

فردّ عليه جميعهم لا شيء آخر .

فقال : عجباً لأمركم ! إنكم تستغلون حلمي ، فأحياناً تراني أصعد المنبر ، فأخطب بالناس ، وإذا ينهض أحدكم فيكذبني ، وأنا أسكت عليه . « والله لئن ردّ عليّ أحدكم في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها ، حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه » .

ثم أمر رئيس شرطته أن يضع رقيبين من الحرس على رأس كل واحدٍ منهم ، وأمرهم بقطع رأس كل واحد منهم يتجرأ من بعد ذلك أن يردّ ، أو يفند قولاً ، وهو جالس تحت منبر معاوية^(١) .

بعد هذه المقدمة صعد معاوية إلى المنبر ، وبعد أن حمد الله ! قال : « هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين ، وخيارهم ، لا يُبرم أمر دونهم ، ولا يُقضى إلا على مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوه على اسم الله فبايع الناس »^(٢) .

(١) أبو الشهداء للعقاد ص ٣٢ .

(٢) هذه البيعة وهذا الانتخاب أشبه ما تكون بالانتخابات الحرة في بلادنا^(*) . فمعاوية هنا كان يُريد تنصيب يزيد ولياً للعهد ، وخليفة من بعده ، كما كان يُريد في نفس الوقت أن يُعطي هذا التنصيب مشروعية شعبية ، من خلال إدخال عنصر انتخاب الناس له . ولم يكن يومها يوجد قانون يقضي بأن من ينصب ولياً للعهد ، في زمن الخليفة يصبح خليفة بعد موت الأول - عدا حالة الاستثناء التي حصلت في قضية عمر - ولهذا كان معاوية مصطراً لاستخدام رأي الناس في المعادلة ، وأخذ البيعة منهم . والبيعة في ذلك اليوم تشبه ممارسة حق الانتخاب في العصر الراهن عندنا . ومعاوية على أية حال ، كان يُريد فرض الموضوع على الناس فرضاً ، تماماً كما هو الوضع اليوم في بلادنا حيث القانون حسب الثورة الدستورية التي حصلت في بلادنا يقول بالانتخابات الحرة النيابية ، لكن الناخب تُفرض عليه أجواء التهديد ، والرعب ، التي تجعله مضطراً لانتخاب من تريده الحكومة . ولما كانت الحالة العميقة اليوم مدنية وحضارية ! أكثر من الماضي ، والمسألة =

ولما كان معاوية يعرف أنّ مثل هذه البيعة لا أساس لها فإنه أوصى يزيد بأخذ البيعة من هؤلاء الرهط بعد موته مجدداً - بالصورة التي ورد فيها في كتاب « نفس المهموم » - .

لكن يزيد الشاب الغرور ، والذي يفتقد خبرة أبيه الداهية ، وكذلك المستشارين الذّهاء من أمثال عمرو بن العاص ، والمغيرة ، وزيد ، قام بتنفيذ وصية أبيه ، لكن بخشونة خاصة ، وقساوة غير معهودة .

فكتب إلى والي المدينة في عهده الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، يقول له فيها : « خُذْ حُسِيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذاً شديداً » .

وما كان من الوليد إلا أن بعث خلف مروان بن الحكم للتشاور وإيّاه ، في كيفية تنفيذ أمر يزيد إلى آخر القصة المعروفة .

استغلال الأمويين لفكرة إلغاء العصبية في الإسلام

وهو الموضوع الذي يُشير إليه (العقّاد) في كتابه بقوله بأنّه من عجائب النفس البشرية ، والغريزة الآدمية حقاً ، أن يقوم الأمويون بعد ظهور الإسلام بشن حرب شعواء ، ضد بني هاشم ، وذلك من أجل الدفاع عن مصالح بني أمية ، لكن هذه المرة تحت لواء محاربة العصبية ، والقضاء على التفرقة القبلية ، وضرب الامتيازات العرقية وهي المقولات التي جاء بها الدين الجديد .

الحرب الإعلامية لمعاوية ضد العلويين

وكما يقول (العقّاد) في كتابه أيضاً (ص ٣٧) فإنّ معاوية كان يعرف بأنّه

= فيها صندوق انتخابات ، وأوراق انتخابية ، فإنّ الفرض والتزوير يتم بسرقة الصندوق الانتخابي - أي أن الروحية هي هي نفسها ، لكن أدوات الفرض والقمع تغيرت فقط - وتُبدّل النتائج الانتخابية ، كما تشاء الحكومة .

(*) يرجى الملاحظة هنا أن هذه الحواشي قد أعدت في زمن النظام البائد .

غالب لعلي (ع) في ساحة المال ، والسلاح ، لكنه مغلوب أمامه في الشهرة ، والسمعة ، والعواطف القلبية .

وحتى يتمكن من جذب آل علي ، وتحييدهم قدر الإمكان ، لم يتوان عن تقديم الهدايا ، والتحف ، والهبات ، إليهم كما لم يبخل عليهم بمال أو عطاء .

كل ذلك بهدف إزالة عائق إحساسات الناس التي كانت تصب لصالح علي ، وحتى يُخرج حكومة علي (ع) من قلوب الناس استعان بالإضافة إلى ذلك بالحرب الإعلامية ، ونوع من الحرب الباردة ضد علي (ع) ، فأمر بسبه ، ولعنه على المنابر وبعد الصلوات .

لكن هذا الجانب أساء إلى معاوية أكثر مما أفاده ، وساهم في انقلاب الرأي ضده ، ولم يكتف معاوية بذلك ، بل عمل على تزوير الحديث على لسان رسول الله (ص) ، وجعل ذلك جزءاً من حربته الدعائية ضد علي (ع) .

قصة زينب بنت إسحق

يقول العقاد أيضاً بأنه إذا ما صدقت قصة زينب بنت إسحق فعلاً وهي القصة التي ينقلها كثير من المؤرخين ، فإن سبباً آخر يُضاف إلى أسباب الخلاف بين الحسين (ع) وبين يزيد .

التربية الهاشمية ، والتربية الأموية

يقول العقاد في كتابه (ص ٤٩) : « كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة ، أو الرئاسة السياسية ، وهما ما هما في الجاهلية من الربا ، والمأكسة ، والغبن ، والتطفيف ، والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة ، وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الإيمان ، ووسائل الحيلة على النجاح » .

ثم يضيف بعد ذلك بقوله :

إنَّ الرئاسة الدينية عند بني هاشم لم تكن تشبه الرئاسة الكهنوتية عند المسيحيين الذين لا إيمان لهم بما يعملون به ، بل مجرد وظيفة كنسية . كلاً بل كان بنو هاشم أكثر الناس احتراماً وتقديراً للكعبة ، وأكثرهم إيماناً بها وبالله سبحانه وتعالى ، وما قصة ذبح عبد المطلب لابنه إلا الدليل الواضح على ما نقول .

ثم يضيف قائلاً : بأنَّ هذه الأخلاق الهاشمية الرفيعة ازدادت رفعةً وسمواً بعد نبوة محمد (ص) ، واكتملت مع الإسلام ، حتى صار آل علي (ع) نموذجاً ومثالاً أعلى للخلق الرفيع إلى قرون متبادية ، بحيث إنك ما إن تطالع شخصية من شخصيات آل علي (ع) في التاريخ ، إلا وتجد نفسك أمام صورة مصغرة لـ علي (ع) نفسه . ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ .

وهو ما استند إليه أبو عبد الله الحسين (ع) في عاشوراء بقوله : « حُجُور طابَتْ وَظَهَرَتْ » . وذلك عند حديثه عن علي الأكبر (ع) ، ومن ثم يتطرق العقاد إلى قصة يحيى بن عمر العلوي فيذكرها كنموذج على ما يقول^(١) .

الخلق الهاشمي والخلق الأموي

يقول (العقاد) في الصفحة (٥٦) من كتابه المذكور ، بعد أن يذكر بني هاشم ويُعدّد شمائلهم وفضائلهم :

ولم يكن لبني أمية في المقابل نصيبٌ يذكر من تلك الأخلاق المثالية الفاضلة ، والشمائل الدينية ، كما أنه لم يخرج من بين قوم بني أمية نبي ، كما حصل لبني هاشم ، حتى يتمكنوا من الافتحار والمباهاة بمناقبه ، كما فعل أولاد بني هاشم .

أو على الأقل أن يرفع من مقامهم ، ويدفعهم شيئاً فشيئاً باتجاه اكتساب مزيدٍ من المزايا والشمائل ، التي كان يتمتع بها بنو هاشم قبل النبوة .

ولذلك ترى أنَّ هيمنة الخلق والسلوك النفعي كان مسيطراً عليهم ، سواء

(١) العقاد أبو الشهداء ص ٥٢ .

قبل ظهور النبوة أو بعدها ، وذلك بسبب بحثهم وسعيهم الدائم للحصول على المكاسب التجارية ، والمطامع السياسية .

من هنا ظهر في بني هاشم من الوجهاء المعروفين بالخلق الشريف ، والأخلاق الفاضلة ، . بينما تميز بنو أمية في ظهور رموز عُرفت بأخلاق السوء والرذيلة .

وانتشرت بين أولئك (بني هاشم) صفات المقاومة ، والصمود ، والصبر ، والمثابرة ، وحدة الذكاء ، والخلق الحسن .

بينما شاعت بين نقيضهم (بنو أمية) صفات الخيلة ، والخداع ، والنفاق ، والبحث عن مناعم الحياة .

ويمضي العقاد في الحديث حتى يصل إلى المقارنة بين الحسين (ع) ويزيد فيقول : إنَّ الحسين (ع) ويزيد كانا مثلاً بارزاً لقومين مع فارق أنَّ الحسين (ع) كان يحمل كل فضائل بني هاشم ، بينما كان يزيد يفتقد حتى إلى أية صفة حسنة في بني أمية .

أخلاق معاوية لم تكن من الفضيلة على شيء

وهنا لا بد من توضيح هذه المسألة ، وهي : إنَّ الحلم ، والصبر ، سواء في ميزان الشرع ، أم من زاوية العقل ، إنما يتم اعتبارهما من الفضائل ، عندما لا يكونان أداة ، أو وسيلة من وسائل خوض المعترك الاجتماعي .

ويبرزان باعتبارهما نتاجاً طبيعياً على طريق النزوع نحو الفضيلة ، والكمال ، والشرف الإنساني .

وما الصبر والحلم الذي يُبديه التاجر ، أو السياسي ، بهدف الوصول إلى تحقيق مآربه الدنيوية ، إلّا وسيلة من وسائل العيش ، ولا تملك من قيمة ، إلّا بحدود قيمتها كوسيلة وأداة .

ولا يمكن حسابها في إطار الكمال ، والرفعة ، والسمو الإنساني ، وقيمة

الذات البشرية ، والمقام الإنساني الرفيع ، لخليفة الله في الأرض .

وهذه نقطة مهمة للغاية ، وعليه فإننا عندما نشير إلى وجود بعض الصفات الجيدة في بني أمية ، فالمقصود هو الصفات المادية الجيدة ، وهي أشبه ما تكون بالأخلاق اليومية ، والسياسية ، التي يعيشها رجال السياسة ، في عصرنا الراهن ، وهي نفسها الأخلاق (الماكيافيلية)^(١) المعروفة ، بل وحتى أخلاق « ديل كارنجي » يمكن وضعها في نفس الإطار .

وهذه الأخلاق ليست وليدة الالتزام بالمبادئ الربّانية الرفيعة ، بل وليدة الحاجة التجارية ، والسياسية ، والضرورة الحياتية .

في مجلة (دليل العلماء ، الجزء الأول) ، ورد تحت عنوان « حيص بيص » (شهاب الدين ، أبو الفوارس ، سعد بن محمد ، بن سعد ، بن صيفي ، المعروف بابن الصيفي ، والذي يعتبر من فقهاء الشافعية) نقلاً عن (ابن خلكان) : أنَّ نصر الله المحلي (أو المجلي) قال :

رأيت علي بن أبي طالب في المنام وقلتُ له : أنتم فتحتُم مكة ، وقلتم من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، ثم رأينا كيف فعل آل أبي سفيان ، ما فعلوه بالحسين (ع) ؟

فردَّ عليّ قائلاً : أو لم تسمع بأشعار ابن الصيفي ؟

قلت : لا .

قال : اسمعها منه .

وما أن استيقظت حتى نهضت على الفور وتوجهت إلى منزل (حيص بيص) ، فرويت له منامي هذا ، وإذا بصوته يلعلعُ باكياً وهو يقول لي بأنه قد نظم هذه الأبيات ليلة أمس ، ويُقسم أنه لم يقرأها على أحدٍ من قبل ثم قرأ لي :

(١) نسبة إلى ميكافيلي الإيطالي صاحب كتاب (الأمير) ، وهو كتاب في فن السياسة الكاذبة ، للوصول إلى تسلط على الشعب .

ملكنّا فكان العفو منّا سجيّةً ، فلما ملكتم ، سال بالدم أبطح
وحلّلتهم قتل الأسارى فطالما غدونا على الأسرى ، فنعفو ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ، وكلّ إناء بالذي فيه ينضح

النسب الشريف للإمام الحسين (ع) وأثره في واقعة عاشوراء

بقول العقّاد : إنّ موضوع نسب الإمام الحسين ، وحب النبي الأكرم محمد (ص) الزائد للوصف له ، ينبغي أن لا يغيب عن بالنا ، ونحن نحلّل قضية كربلاء .

إننا من خلال هذا المقياس ، نستطيع أن نفهم تماماً ، كيف كان جنود يزيد عبارة عن جمهور من العامة ، يفتقد إلى المثل العليا ، ومستغرق في النفعيّة ، ومستعدّ للقيام بكلّ تلك الأعمال الشريرة ، على الرغم مما كان يحمله من تقدير ، واحترام قلبي للإمام الحسين (ع) .

وهذه السمة الخصوصية كانت كافية لأن تجعلهم في عداد الناس النفعيين واللاأخلاقين .

وهناك قصص وروايات كثيرة يمكن الاستدلال من خلالها على محبة النبي محمد (ص) للإمام الحسين (ع) ، كما يمكن العودة إلى استدلال الحسين نفسه بمحبة النبي (ص) له وهو ما ورد في أحاديث مسندة .

بلاغة الإمام الحسين (ع) في حديثه لأبي ذر رضي الله تعالى عنه

يذكر (العقّاد) في باب ذكر فصاحة الإمام الحسين (ع) ، في كتابه (أبو الشهداء ص ٦٤) أنه قال (ع) مخاطباً أبا ذر : « يا عمّاه إنّ الله قادرٌ أن يُغيّر ما قد ترى والله كلّ يومٍ في شأن ، وقد منعك القوم دُنياهم ، ومنعتهم دينك ، وما أغناك عمّا منعوك ! وما أحوجهم إلى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبرَ والنّصر ،

واستعذ به من الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لا يُقدّم رزقاً ، والجزع لا يؤخر أجلاً » .

ثم يضيف العقّاد قائلاً :

« وكان يومئذٍ في نحو الثلاثين من عمره ، فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقتها في مصرع كربلاء » .

هذا وهناك من ينسب هذه الأشعار إلى أبي عبد الله عليه السلام وهي :
أغن عن المخلوق بالخالق تَغْنِ عن الكاذب بالصادق
واسترزق الرحمن من فضله ، فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يُغنونه فليس بالرحمن بالواثق



نشأة يزيد ، وصفاته الروحية ، وخلفيته التربوية ، والأخلاقية^(١)

أم يزيد هي بنت مجدل الكلبية ، التي لم تحتل حياة المدينة مع معاوية ، بل كرهتها وقالت قولتها الشهيرة بشأنها :

أحب إلي من لبس الشُفوف	لبس عباءة وتقر عيني
أحب إلي من قصر منيف	وبيت تخفق الأرياح فيه
أحب إلي من علجٍ عنيف	وخرق من بني عمي فقير

كان هذا الموقف هو الذي دفع بمعاوية إلى أن يُرسل زوجته مع ابنها يزيد إلى البادية ليعيشا هناك ، وهكذا يكون يزيد قد كبر ونما في البادية ، وبالتالي فإنه يكون قد تخلّق بأخلاق الصحراء ، فصار لسانه فصيحاً ، وأصبح صاحب ديوان شعري خاص به .

وابن خلكان ، كما يذكر المؤرخون ، يُعتبر من المرادين لفصاحة يزيد ، وكان يزيد بالطبع صاحب هوايات كثيرة من أهمها هواية الصيد التي كان متعلقاً فيها أشد التعلق إلى جانب هواية ركوب الخيل ، وتربية الحيوانات ، ولا سيما تربية الكلاب التي كان مولعاً بها أشد الولع .

(١) الإمام الحسين (ع) قال عن يزيد فور تسلّمه السلطة : « وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد » . « والآن لنر من هو يزيد هذا الذي قال عنه الحسين (ع) مثل ذلك الكلام .

وهذه الصفات إذا ما وجدت في شخصية الرجل القوي ، والمقتدر ، وصاحب الملكات الفاضلة ، فإنها تزيد كمالاً ورُقياً ، لكنها إذا ما ظهرت في أبناء الأمراء ، والنبلاء والمترفين ، وأولاد العشائر ، فإنها تكون سبباً لبطالتهم ، واستغراقهم في الترف ، والتنعيم والإسراف .

ونتيجةً للخلق البدوي الفصيح الذي كان يتمتع به يزيد ، فإنه كان يميل ميلاً شديداً ، لمعاشرة الشعراء ، ومنادمة أهل اللغو ، والأباطيل ، ممن كان ينهى الإسلام عن معاشرتهم : (لأن يُملأ بطن الرَّجل قِيحاً خيراً من أن يُملأ شعراً) .

وهذا الغرق ، والاستغراق الشديد ، في الشعر والخيال فيه أضرار شديدة ، والشعر بحد ذاته مظهر من مظاهر الجمال ، ويمكنه أن يحمل بعض الآثار الاجتماعية المفيدة ، لكنه في نفس الوقت قد يحمل معه بعض النتائج السلبية للمجتمع .

وهناك بعض القصص التي تُشير إلى ذلك ، فكم من قصور ، وبلاط للأمراء ، اشتهرت بالفساد ، بسبب شيوع الشعر ، واللغو ، والخلاعة ، بين ثناياها !

والتاريخ الأموي وحده ، فيه الكثير من الأمثلة التي تؤكد تقرب عدد كبير من المتملقين ، إلى البلاط الأموي ، عن طريق الشعر . (وقصة الوليد الأموي وابن عائشة المذكورة في مؤلف (مدرسة التشيع ص ٧٥) مثال بارز على ذلك الموضوع) .

على أية حال يمكن القول باختصار: إنَّ الشعراء ، وأهل اللغو والأباطيل ، على العموم ، كانت لديهم حظوة خاصة في بلاط يزيد ، ويزيد بالذات كان هو الآخر مولعاً بالشعر ونظمه ، وله في باب وصف الخمر ، وسائر اللغويات ، أبيات من الشعر نذكر هنا بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر .

فمن شعره :

شميسة كرم ، برجها قعردتها ،	ومشرقها الساقى ، ومغربها فمي
فإن حُرمت يوماً على دين أحمد ،	فخذها على دين المسيح بن مريم .

ومن شعره أيضاً :

دع المساجد للعباد تسكنها ، واجلس على دكة الخمار ، واسقينا
إنّ الذي شربا في سكره طربّ وللمصلين لا ديناً ولا ديناً
ما قال ربك ويل للآلى سكروا لكنه قال : « ويل للمصلين .. »

وله أيضاً :

لما بدت تلك الرؤوس ، وأشرقت تلك الشمس ، على ربي جيرون
صاح الغراب ، فقلتُ صح أو لا تصح ، فلقد قضيت من النبي ديوني

إلى جانب تلك الأشعار التي ألحقت بأشعار ابن الزبيري ، وهي كثيرة .

إنّ ولع يزيد الشديد بالصيد ، واللهو ، واللعب ، كان يمنعه من متابعة
أمر العباد ، أو القيام بمهما السياسة ، وإدارة شؤون البلاد ، وبالنتيجة كان
يضطر لإيكال هذه الشؤون إلى غيره من الحواشي .

وأما تعلقه الشديد بتربية الحيوانات ، واصطحابه لها في كل مكان وزمان ،
فقد أظهرته بمظهر يشمئزله الخلق الإنساني الرفيع ، ويسخر منه العقلاء . فهو لم
يكتف بتربية الأحصنة ، وركوب الخيل (والذي هو أمرٌ ممدوح في الإسلام) ، بل
إنه كان قد تمادى كثيراً في هذا المجال ، حتى صار نديمه الدائم قرد كان قد رباه هو
شخصياً ، وصار يصطحبه في كل الجلسات الرسمية ، والعامّة ، في بلاطه ،
وصار يُلقب هذا القرد وغيره من القردة بالألقاب اعتادت العرب أن تُلقب
الحيوانات بها ، ويستمتع في مثل هذه الأمور ، وينظم الشعر حولها كقوله :

من ذاك أم عريق للعقرب وهكذا تُعالَة للشعلب

وقد تُعطى بعض الألقاب ، التي عادةً ما تُعطى للإنسان ، إلى بعض
الحيوانات المرافقة .

وهكذا فعل يزيد عندما كنى قرده المفضل بأبي قيس ، وكان يُلبس هذا
الحيوان لباس الحرير المُرصع بالجواهر ، وكل أنواع الخلى ، والذهب ، ويُحضره
على الدوام في مجلس شرابه ، ويُجلسه إلى جانبه بحضور الأعداد الغفيرة من

الندباء ، والأمراء ، ورؤوس الحكم ، الذين لم يكونوا ينجلون من أنفسهم ،
وهم يُعاشرون القردة في البلاط !!

وكان يزيد فوق ذلك يملك حمارةً تعزُّ عليه ، يستخدمها لركوب قردته ،
وأحياناً كان يفرض مشاركتها في سباق الخيل ، فتشارك تلك الحمارة ، ويكون
الفارس قرده المفضل أبو قيس .

وقد كان يرغب كثيراً في أن تكون حمارته تلك هي الرابحة ، أو الفائزة في
المسابقات ، التي كانت تجري (وربما كان بعض الفرسان يدفعون بالحجارة إلى
الأمم حتى ينالوا رضئ سيدهم من وراء ذلك) بإشراف البلاط .

وهناك بعض الأبيات الشعرية التي تُنسب إلى يزيد في هذا المجال (لكن
بعضهم كان قد نسبها إلى شخص آخر كما جاء في (تنمة المنتهى) وعلى أية حال
يُرجى الرجوع إلى سيرة يزيد في هذا الكتاب) وهذان البيتان من الشعر يُبينان ما
ذكرناه :

تَمَسَّكَ أبا قيس بفضلِ عِناها ، فليس عليها إن سقطت ضمانُ
ألا من رأى القرد الذي سبقت به جِياد أمير المؤمنين أتانُ

كانت هذه نبذة مختصرة عن أخلاق يزيد الذي أراد معاوية أن يُسلطه على
رقاب المسلمين .

إنّ وضع حكومة يزيد لم يكن بالصورة التي يمكن تحملها ، أو عقد أية
معاهدة صلح ، أو تفاهم ، بأي شكل من الأشكال معها .

صحيح أنّ الإمام المجتبيّ الحسن (ع) كان قد عقد معاهدة صلح مع
معاوية ، إلا أنّ معاوية كان رجلاً ذا عقل وخلق ، يستطيع إلى حد ما المحافظة
على الظواهر العامة ، عدا الأمور التي ترتبط بملكه وسياسته مباشرة .

بينما كان وضع يزيد في المقابل ، يُشكّل نموذجاً للتظاهر بالفسق
والفجور ، والرذيلة ، والدناءة والانفلات .

ولو لم تقم نهضة الإمام الحسين (ع) ، باسم الإسلام ، والقرآن ، وتُنهي

حكم يزيد بعد أقل من أربع سنوات على تربيته على العرش ، فإنَّ خطر قيام تمردات عديدة ضد يزيد ، تحت شعارات ، ورايات غير إسلامية ، كان أمراً محتملاً ، جداً ، الأمر الذي كان سيُهدد مصير العالم الإسلامي في الصميم .

نعم يكفي أن تتصور أنَّ يزيد هذا قد مات كما تنقل بعض الروايات أثناء اشتراكه في مسابقة مع أحد القروء - وربما أبي قيس قرده المفضل - .

إنَّ قيام أهل المدينة ، وثورتهم ضد يزيد ، لم يكن سببهُ ثورة الحسين فقط ، بل إنَّ الحالة المتردية التي كان يعيشها يزيد في بلاطه ، كانت سبباً آخر لذلك القيام .

فبعد الله بن حنظلة عندما يتوجه إلى الشام ، ومعه عدد من أهل المدينة ، كممثلين لأهلها ، تراه يرى العجب هناك بحيث إنه لما سُئل عما رآه هناك قال :

« والله ما خرجنا من عند يزيد ، حتى خِفنا أن نُرْمى بالحجارة من السماء ! إنَّ رجلاً يَنكحُ الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، ويشرب الخمرة ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً ! » .

البعض الآخر يقول : إنَّ يزيد قد مات بداء « ذات الجنب » ، وهو في سن السابعة والثلاثين^(١) ، ويبدو أنَّ إفراطه في شرب الخمر ، والغرق في الملذات ، قد تكون سبباً وراء تلف كبده ، كما ويقال إنَّ يزيد كان قد أُصيب بمرض الطاعون ، وهو لا يزال طفلاً في البادية .

يقول العقاد : إنَّ يزيد فتىٌ وسيم ، طويل القامة ، يُحبُّ السباق ، والركض ، والمطاردة كثيراً ، لكن يبدو أنَّ تلك الصفات كانت نوعاً من الهواية ، واللهو ، واللعب لديه ، ولم يكن لها لون جدِّي ، أو تعبير عن شجاعة ، ورجولة ، فيزيد لم يكن شخصية تحمل مواصفات الشجاعة ، والجسارة ، والبطولة العربية ، التي كان يتمتع بها بعض أبناء عشيرته ، من أمه مثل عتبة ، وعمه الوليد ، وشيبة ، بل كان رجلاً مهملاً ، وصاحب لهو ولعب ، وشخصية مبتذلة للغاية .

(١) العقاد ص ٧٨ .

ولهذا تراه يتناقل مثلاً عن الحرب ، وهو ما حصل مرة عندما أرسل معاوية جيش سفيان بن عوف لفتح القسطنطينية ، أيام حكمه ، فما كان من يزيد إلا أن تمارض ، وتناقل حتى تحرك الجند ، وانطلقوا .

ومن المعروف أنه كان قد أشيع فيما بعد أن الجيش قد أصابه المرض والقحط ، فلما وصل خبر ذلك إلى يزيد ، الذي كان يعيش حالة الابتذال التامة ، أنشد يقول :

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مران عندي أم كلثوم

وما أن سمع معاوية بذلك ، حتى أقسم على أن يلحق يزيد بالجيش ، لرفع عار الشئاة عنه .

وهنا يتضح لنا أمران :

أ - إن صعود يزيد إلى السلطة ، وهو الرجل الذي لم يكن يملك أية كفاءة ، لا في مجال الخلافة ، ولا في مجال الملك والسياسة ، إنما جاء في سياق حصول الفساد التدريجي في أخلاق المسلمين ، في ذلك العهد . وإذا كان معاوية غير حائز على كفاءة الخلافة ، وجدارتها ، لكنه كان يملك كفاءة السياسة ، والمُلك .

ب - هناك فرق ظاهري تميّز به عمر عن معاوية ، وهو أن عمر لم يكن على استعداد لتنصيب ابنه عبد الله للخلافة ، ولا أن يكون عضواً في مجلس الشورى ، الذي اقترحه ، إذ قال يومها : إن عبد الله عاجز عن إدارة شؤون منزله .

بينما عمل معاوية على تنصيب ابنه يزيد بالرغم من معرفته بعدم جدارته وكفاءته لذلك .

« قُلُوبُهُمْ مَعَكَ وَسَيُوفُهُمْ عَلَيْكَ ! »

لقد قال الفرزدق للإمام : « قُلُوبُ النَّاسِ مَعَكَ ، وَسَيُوفُهُمْ مَعَ بَنِي أُمِيَّة ،

والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء»^(١) وأما مجمع بن عبيد العامري^(٢) فقد قال :

«أما أشراف الناس ، فقد أعظمت رشوتهم ، ومُلئت غرائزهم ، فهم إلبّ واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم ، فإن قلوبهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورةٌ عليك » . وهو ما ورد عن بشر بن غالب في - ذات العرق - نقلاً عن (نفس المهموم ص : ٩٣) .

والفرزدق هنا إنما يُبين ويُشير إلى نظر العامة الذين كانوا محكومين من قبل رؤسائهم وكبرائهم ، ولا يملكون إرادة من أنفسهم ، في حين حاول مجمع بن عبيد أن يفصل بين رأي الأشراف ، غير المؤمنين ، ورأي العامة من المؤمنين الضعفاء ، التابعين ، والمقلّدين ، في سلوكهم ، لسلوك الأشراف ، والذين هم مأواهم النار أيضاً مثل أسيادهم الأشراف ، حسب المنطق القرآني الشريف .

وفي الحقيقة ، فإنّ معنى جملة الفرزدق هي أنّ قلوب العامة معك ، لكن قلوبهم هذه ليس بوسعها أن تفعل شيئاً لك ، وصحيح أنّ الحاكم معزول لكن بطون هؤلاء مع أعدائك ، وهم عبيد بطونهم ، وتراهم على استعداد لمحاربة قلوبهم تنفيذاً لأوامر بطونهم ؟ وإن كان مثل هذا الأمر جارحاً لضمائرهم .

وفي الإجمال يمكن القول : إنّ البشري قد يهوى الحق ، ويتمناه ، لكنه في الوقت نفسه تراه يسعى لضرب محبوبه بالخنجر ، رغم محبته له ، وتعلّقه به .

يُقال إنّ المأمون كان يقتل شيعة الإمام - وهو يدعي حبه لهم ! -

إنّ عامة الناس تُريد الحق ، وتهوي إليه ، لكنها تُعبر في الغالب عن نوع من الحب الكاذب ، أي الحب الفاقد للجذور ، وهو أشبه ما يكون بالشهية الكاذبة ، مقابل الشهية الصادقة والحقيقية ، أو الصبح الكاذب ، والصبح الصادق .

تعصي الإله ، وأنت تظهرُ حبهُ هذا لعمرُك في الفعال شنيعُ

(١) نفس المهموم ص ٩١ .

(٢) أو عامر بن مجمع عبيدي ، أو مجمع بن عامر .

الفرق بين أنصار معاوية ومستشاريه وأنصار يزيد ومستشاريه^(١)

يصف العقّاد أعوان معاوية الذين كانوا من العقلاء ، بأنصلر الدول ،
وَبُناة العروش ، في حين يصف أنصار يزيد بالجلّادين ، فيقول :
« فكان أعوان معاوية ساسة ، وذوي مشورة ، وكان أعوان يزيد جلّادين ،
وكلاب طراد ، في صيدٍ كبيرٍ »^(٢) .

نعم فالعقّاد هنا لا يجد في وصف أعوان يزيد بالدنيويين ، وعُباد الدنيا ،
بالأمر الكافي ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويعتبر أنهم أناسٌ قد مُسخت
فطرتهم البشرية تماماً .

بينما أعوان معاوية أمثال عمرو بن العاص ، وسائر ذُهاة المستشارين من
حوله ، هم الذين تنطبق عليهم مواصفات الدنيويين ، وعُباد الدنيا .

أمّا أخلاق وصفات الشمر وعبيد الله ومسلم بن عقبة : فإنّ كل واحد من
هؤلاء ، فيه عاهةٌ في جسمه ، أو في نسبه .

وبناءً على القاعدة النفسية المعروفة ، بأنّ كل ذي عاهةٍ ، يحاول بأي شكل

(١) من باب تعرف الأشياء بأضدادها . إذ إنّ معرفة ساسة ذلك الزمان وحكامه تمكّنتنا من معرفة الإمام
الحسين (ع) ، وسر نهضته وقيامه .

(٢) العقّاد ص ٨٨ .

من الأشكال ، أن يسدّ النقص الحاصل فيه ، من خلال نشاط ، أو عمل خاص يقوم به^(١) .

وأحياناً يكون ذلك التعويض من خلال احتقار الآخرين ، أو إحلال الكوارث بهم ، من أجل حفظ التوازن المفقود لديه .

فبالنسبة إلى شمر بن ذي الجوشن فقد قالوا فيه : « كان أبرص ، كرية المنظر ، قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجي ، (ذلك أنه في ظل مثل هذا المذهب يمكن الانتقام من المجتمع بشكل أفضل) ، يُحارب به علياً وأبناءه ، ولكن لا يتخذه حجةً ليحارب به معاوية وأبناءه » .

وأما عن مسلم بن عقبة ، فقد ورد عنه أنه : « كان أعور أمغر ، ثائر الرأس ، كأثما يقلع رجله من وحلٍ إذا مشى » .

وأما حول عبید الله فقد قالوا : « كان متهم النسب في قريش (ومن المعروف أن العربي يفتخر كثيراً بنسبه ، بغض النظر عن مسألة كونه ابن حلال) ، لأنّ أباه زياداً كان مجهول النسب ، فكانوا يُسمونه زياد بن أبيه ، ثم ألحقه معاوية بأبي سفيان - القصة . . . وكانت أم عبید الله جارية مجوسية تُدعى مرجانة ، وربما كان قد تعرّف عليها أثناء ولايته لفارس) ، فكانوا يُعيرونه بها ، وينسبونه إليها ، وكان ألكن اللسان ، لا يقيم نطق الحروف العربية ، فكان إذا غاب الحروري من الخوارج قال « هروري » ، فيضحك سامعوه ، وأراد مرةً أن يقول : أشهروا سيوفكم فقال : افتحوا سيوفكم فهجاه يزيد بن مفرغ قائلاً^(٢) :

ويوم فتحت سيفك من بعيدٍ أضعت وكلّ أمرك للضياع

(١) وهو موضوع اصطلاح عليه بتعبير ميكانيكية التعويض في علم النفس الجديد .

(٢) راجع عشرون مقالة للقرظيني (ص ٣٩) قصة يزيد بن مفرغ ، وعباد بن زياد والشعر المعروف :

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فتعلفها حيول المسلمينا

كما يطلب الرجوع إلى (الجزء ١٧ من الأغاني ص ٥٦) والطبري (المجلد الثاني ص ١٩٢ - ١٩٣) و(طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠) وفي مختصر العشرين مقالة ، كما يمكن الرجوع إلى (المجلد الخامس لابن خلكان ص ٣٨٤) .

وأما مسلم بن عقيل (ع) فقد قال عن ابن زياد : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلها ، على الغضب ، والعداوة ، وسوء الظن ، وهويلهو ، ويلعب ، كأنه لم يصنع شيئاً » (موت وجدان) .

وكان عبيد الله في سن لا يتجاوز (٢٨ سنة) أثناء واقعة كربلاء .

إن يزيد كان مستاءً من زياد ، وابنه ، لأن زياداً كان قد رفض أخذ البيعة من أهل البصرة ليزيد ، عندما كان والياً عليها^(١) .

ومن هنا يمكننا إضافة سبب آخر لسعي عبيد الله ، ورغبته الشديدة في خدمة يزيد ، وإظهار الإخلاص والطاعة له .

بينما لم تكن الحال عند عمر بن سعد كذلك ، إذ إن عمر بن سعد لم تكن تُحرّكه سوى غريزة حب المال ، واللذة ، وحب الجاه ، والطمع في الدنيا .



(١) في المجلد الأول لكتاب (ضحى الإسلام) لأحمد أمين (ص ١٧٥) ورد ما يلي على لسان يزيد : « قال يزيد بن معاوية يُعَدُّ فضل بيته على زياد بن أبيه : لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قُريش ، ومن عبيد إلى أبي سفيان ، ومن القلم إلى المنابر .

رفض الحسين لسلوك الطريق الفرعية

جاء في (نفس المهموم ص ٤٠) : « فقال له أهل بيته : لم تنكبت الطريق الأعظم إنما فعل ابن الزبير ، كيلا يلحقك الطلبُ ، فقال : لا والله لا أفارقهُ حتى يقضي الله ما هو قاضٍ » .

وهذا مثال آخر يُشير إلى روح الشجاعة ، والفروسية ، والرجولة ، لآل فاطمة .

وجاء أيضاً أنه بعد أن بقي مسلم بن عقيل وحيداً في الكوفة ، قرر ابن زياد أن يُصلي في المسجد وقال : « برئت الذمة من رجل في الشرطة ، والعرفاء ، والمناكب - رؤوس العرفاء - والمقاتلة ، صلي العشاء إلا في المسجد » .

ومعنى « مقاتل » : هو الجندي وشرطة : شرطي ، والجمع شرط : وهم الطائفة من خيار أعوان الولاة ، وفي زماننا هم رؤساء الضابطة (المنجد) . و« العرفاء » جمع عريف : القيم بأمر القوم . ومناكب جمع منكب وهو بمعنى عريف وهنا معناها رؤوس العرفاء .

كراهة أبي عبد الله للشروع بالقتال والحرب

عندما وصل الإمام الحسين (ع) ،، والحُر إلى (نينوى) ، وجاء كتاب عبيد الله بن زياد إلى الحر ، يقول له فيه : « أمّا بعدُ : فجمع جمع بالحسين حتى

يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تُنزلهُ إلا بالعراء ، في غير حصن ، وعلى غير ماء » .

عندها اقترح زهير بن القين على الحسين أن يُباشر في قتالهم ، لكن أبا عبد الله قال : « إني أكره أن أبدأهم بالقتال » .

فالإمام الحسين (ع) كان ممن يؤمنون بمبدأ عدم الشروع بمقاتلة عدوه . (ولا بأس هنا من تذكر قصة علي (ع) إبان مقتل كريب بن الصباح ، وقراءة الآية الشريفة يومها : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ وقوله : « لو لم تبدأونا ما بدأناكم » .

تولي عمر بن سعد المهمة

المقصود في كتاب (نفس المهموم ص ١١٤) على الظاهر وقد ورد ما يلي :
« وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية ، واستولوا على (دسقي) بأرض (همدان) ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشاً . . . »
وكما يبدو فإن قيادة الحملة ضد « الديلم » التي كانت بإمرة عبيد الله بن زياد ، أيام ولايته للبصرة ، كان قد أوكلها إلى عمر بن سعد ، قبل انتقاله إلى الكوفة .

كراهة الناس الباطنية للخروج إلى حرب الحسين (ع)

كما جاء في الصفحة (١١٦) : « وكان جنود الجيش (وكما يبدو فإن نواة الجيش التي رافقت عمر بن سعد إلى كربلاء ، كانت هي نفسها التي أعدت في الأساس لغزو الديلم) ، يتسللون منه ، ويتخلفون بالكوفة ، فندب عبيد الله رجلاً من أعوانه - هو سعد بن عبد الرحمن المنقري - ليطوف بها ، ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجلٍ جيء به ، وقيل إنه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم إلى المسير » .

فلو أنّ هذه الأعداد من القتلى ، قدّمها أهل الكوفة على طريق معارضة ابن زياد ، بل عُشر ما قدموه فقط ، على طريق تأييدهم له ، والتبعية لحكمه ، لنجحوا في الوصول إلى أهدافهم المرجوة ، وتحقيق رغباتهم القلبية ، المتمثلة بسقوط بني أمية .

لكنهم يبدو أنهم كانوا مقهورين ، ومستسلمين ، ولا حول ولا قوة لديهم ، يستطيعون بها عمل أي شيء يُساعدهم في تجميع قواهم .

وقد ورد في التواريخ أنّ « هاني بن عروة » كان يملك عشرات الألوف من المسلحين المؤيدين له ، لكن العجيب أنّ حملة جسوره واحدة من قبل ابن زياد كانت قد جعلتهم مرعوبين جميعاً ، مع العلم أنّ ابن زياد لم يأت بجيش يُسانده ، لا من الشام ، ولا من البصرة .



فلسفة النهضة الحسينية

يقول العقّاد : « . . إنما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين ، لا يختلفان باختلاف الزمان ، وأصحاب السلطان ، والبواعث النفسية التي تدور على طبيعة الإنسان الباقية ، والتتائج المقررة ، التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال . . . » .

ويوضح العقّاد العلل والبواعث النفسية على الشكل التالي فيقول :

أولاً : يبدو أنّ ملك يزيد ، لم يكن ثابتاً ومُحكماً - كما كان ملك معاوية - ذلك أنّ الشخص الوحيد الذي كان متحمساً لولاية عهد يزيد هو المغيرة بن شعبة ، الذي لم يكن أحد يتقبل اقتراحه يومها ، حتى معاوية نفسه . وعندما تشاور مع زياد ، لم يكن رأي زياد موافقاً لاقتراح المغيرة (على الأقل في ذلك الحين) .

وأما مروان بن الحكم ، فقد كان يقف بشدة ضد فكرة تولية يزيد ، لأنه كان هو يسعى إلى مثل ذلك المنصب ، بل وحتى كان يستعد للتمرد على الخليفة ، إلا أنه قبل بالأمر الواقع من خلال رشوة قدرها (١٠٠٠ دينار) شهرياً له و (١٠٠ دينار) لأصحابه .

وأما سعيد بن عثمان ، فإنه خاطب معاوية يومها ، وقال له بأن أباه وأمه ، أفضل من أم يزيد وأبيه ، لكنه رضي بالتالي بولاية خراسان .

نستنتج من ذلك أن حكومة يزيد لم تكن حكومة مستقرة في ذاتها .

وثانياً : فإن حكم يزيد قام في الواقع على قاعدة سب علي (ع) ، وآل علي ، وأيبيعة من الحسين (ع) ، كانت تعني وجوب وفائه بالعهد ، وعقد البيعة ، وهذا كان يعني قطعاً إضفاء الشرعية على هذه السنة السيئة ، جيلًا بعد جيل . (إن حكومة يزيد كانت أسوأ من حكومة معاوية مئة بالمئة ، لأنها كانت حكومة مفضوحة العداء للإسلام) .

وأما حول نتائج التحرك الحسيني :

أولاً : وقبل كل شيء يمكن القول : إن يزيد نفسه لم يهنا بالحكم ، ولم ير الاستقرار للحظة واحدة بعد اندلاع الثورة الحسينية .

فبعد واقعة كربلاء ، واجهته واقعة المدينة المنورة ، ثم بدأ عبد الله بن الزبير من بعد ذلك حربه الدعائية ضد يزيد ، وجاءت قضية مكة ، ثم تنالت على الحكم الأموي سلسلة تمردات يا «لثارات الحسين» التي استمرت لستين عاماً من حكم بني أمية ، وهي تزلزل عرش تلال العائلة .

ولهذا ترى البعض أمثال (مارتن) الألماني ، يعتقدون أن السياسة الحسينية كانت في الواقع قد وضعت مثل هذه الأهداف نصب عينها من الأساس .

وأما بشأن حركة النساء والأطفال في القافلة ، فإن العقاد يقول :

« . . إنما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين تنظر إليها من زاوية واحدة ضيقة المجال ، قريبة المرمى ، وهي زاوية العمل الفردي ، الذي يراض بأساليب المعيشة اليومية ، ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين إليه . . . »^(١) .

(١) نعم فنحن نستطيع أن ننظر إلى الإمام الحسين (ع) مرة من زاوية كونه شخصاً عادياً ، مثله مثل سائر الأشخاص العاديين ، وبالتالي فإنه بحاجة إلى الملابس ، والمأكل ، والمشرب ، والراحة ، والسيادة اللازمة ، وتوفير سائر احتياجات الراحة ، والرفاه ، التي يتمتع بها الأفراد العاديون ، وبالتالي نقول إن مصلحة هذا الشخص ، مقابل شخص آخر ، مثل ابن زياد هي في كذا وكذا . الخ . لكننا إذا ما نظرنا إلى الإمام الحسين (ع) من زاوية أخرى مختلفة ، باعتباره شخصية أخرى مختلفة تماماً عن سائر الأفراد العاديين للمجتمع ، فهو شخصية عظيمة نادرة ، في =

ويضيف العقاد قائلاً بأنّ مسلم بن عقيل إنّما كان يقدر في الحقيقة على فعل الكثير مما كان يفعله ابن زياد .

إذ كان باستطاعته أن يأخذ الأموال ، ويُعطيها ويوزعها ، لكن مثل هذه الأعمال كانت تعني مخالفةً للمبادئ التي كان يُمثّلها مسلم ، فمسلم الذي كان يستعد لاستقبال الموت تراه كان يُفكر في أداء دينه فيوصي ببيع درعه ، وسيفه من بعده ، حتى يُدفع الدين الذي كان عليه وهو (٧٠٠ درهم) ! إذاً لم يكن مسلم يُفكر في كيفية جمع الأموال من الناس ، والاستغناء بأموالهم ، حتى مع تهيؤ ظروف الحكم المؤقت له ، هذا على الرغم من توكيل الحسين (ع) له كان يحمل معه معنى الممثل المالي !

ملاحظة : يُقال إن كلمة كربلاء قد جاءت من الأصل (كور بابل) .

المعنويات العالية لأصحاب الإمام الحسين (ع) ، وعشقهم الصادق وكيفية انتخابهم خيار الموت والإيثار

إنها في الحقيقة من خصوصيات شهداء كربلاء كافة ، ذلك أنهم « آثروا الموت . . . » أي إنهم فضلوا الموت بعزةٍ على حياة العار .

ولم يكن أحد منهم مضطراً لهذا الخيار أو إنّ طرق الخلاص كانت مسدودة أمامه ، فقد تقع أحياناً حوادث في التاريخ كأن يُحاصر جمع من النساء ، والأطفال ، والرجال في مكان ما ، ويتم القضاء عليهم بشكل وحشي للغاية .

لكن خصوصية واقعة كربلاء ، بالمقارنة مع حوادث الكوارث ، والفواجع التاريخية العالمية الأخرى ، هي في كون أنّ جماعة كربلاء ، قد فتحت طريق الخلاص أمامهم ، لكنهم رفضوا ذلك الخلاص الذليل ، والخنوع ، وفضلوا طريق الإيمان ، والفداء ، والإيثار عليه ، في سبيل تمجيد الحق .

= زمانه ، وفي غير زمانه أيضاً . وإن وجوده إنّما كان يُعبر عن وجود سلسلة من المادى والأصول ، أي إنه كان يُمثّل العدل ، والحق ، كما يُمثّل التوحيد ، والصداقة ، والصراحة ، كما الصلاة ، والعبودية ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ . . . ﴾

فهم قد أدركوا إذاً، جمال الأخلاق ، وحُسن الشهادة ، وكمال العبودية .

وما قضية الأمان الذي أُعطي للعباس بن علي (ع) ، وقصة محمد بن بشر الحضرمي ، وتحرير الإمام رقاب أصحابه من حل البيعة ، وقضية القاسم ، والغلام الأسود ، إلّا شهادات دامغة على انتخاب أصحاب الإمام للموت ، طوعاً واختياراً .

الخصوصية الأخرى لأصحاب أبي عبد الله أنهم اخناروا الموت قبل استشهاد أبي عبد الله ، وقبل استشهاد أفراد بني هاشم ، وهذا دليلٌ على إيمانهم المطلق بقائدهم .

إنّ أصحاب أبي عبد الله ، لم يكونوا يُقاتلون من أجل الأجر ، ولا خوفاً من شيءٍ ، أو أحديّ ، بل يُقاتلون دفاعاً عن الإيمان ، والعقيدة ، والحرية .

ومن العجائب أنه لم يبدر منهم أي تراجع خلال المراحل كافة التي مروا بها مع الإمام القائد .

يقول العقاد حول هذا الموضوع في كتابه المعروف (ص ١٥٧) : « ولم يخطر لأحدٍ منهم أن يزّين له العدول عن رأيه ، إيثاراً لنجاتهم ونجاته ، ولو خادعوا أنفسهم قليلاً ، لزيّنوا له التسليم ، وسمّوه نصيحةً مُخلصين يُريدون له الحياة » .

وهو ما فعله ابن عباس وآخرون مع الإمام . « ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ورأوا صدق النصيحة له أن يجنّبوه التسليم ، ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعاً على ذلك » .

هذا بالرغم أنهم كانوا يرون العيال ، والأطفال ، وعاقبتهم المُحتمة ، التي كانوا يعرفونها ، وهو لأمر عجيب حقاً ، مما يدلُّ بالفعل أنّ مدرسة الحسين ، مدرسة العشق الخالص للرسالة : « مُناخ رُكّابٍ ومنازل عُشّاق » .

منطق ابن عباس ومنطق الإمام الحسين (ع)

إنَّ منطق ابن عباس ، هو منطق السياسة ، واللعبة السياسية ، وهو منطق العقل ، والدهاء ، ورعاية المصالح الذاتية ، وحسب قواعد المنطق العقلي ، يكون كلامه صحيحاً ، حيث يقول : « إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك ، إنَّ أهل العراق قوم غُدر » ، وعليه فإنه يقترح عليه الغدر بهم أيضاً فيقول : « أقم بهذا البلد ، فإنَّك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فلينفوا عدوهم » .

انظروا لهذا المنطق : فليقاتل أهل الكوفة عدوهم لوحدهم ، فإن خسروا المعركة فإلى جهنم وبئس المصير، وإن غلبوا فقد أصبحت الطريق مُهيأةً لك للحكم !

نعم إنه منطق السياسيين النفعيين بعينه ، وليس منطق الشهداء . نعم : « ثم أقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإنَّ لها حصوناً ، وشعاباً ، ولأبيك بها شيعة » .

ومعنى كلام ابن عباس هنا ، واضح ، فهو يريد القول إن كان أهل العراق ليسوا بأهل جهاد ، ولم يطردها حاكمهم ، فدعهم وشأنهم .

إنه المنطق (البراغماتي) ، منطق المعاملة السياسية . بينما منطق الإمام لا هو بمنطق الغدر والكبر ، ولا هو بالمنطق النفعي (البراغماتي) ، بل كان محض إثارة وعقيدة ، وشهادة ، في سبيل الرسالة .

والبشر عموماً أمام هذه الخيارات على الدوام ، فإمّا أن يكونوا أصحاب منطق المكر والغدر ، مثل أغلب ساسة الدنيا ، أو أصحاب منطق نفعي وهو منطق الأحزاب السياسية الراهنة ، أو أصحاب منطق الفداء والعقيدة ، وهم من نوادر الجنس البشري ، مثل الإمام الحسين (ع) :

« فقال له الحسين : يا بن عمّ إني أعلم أنك ناصحٌ مُشفقٌ ، ولكنني قد أزمعت ، وأجمعتُ على المسير » .

ولم يرد الحسين (ع) بكلامه هذا القول لابن عباس ، بأن كلامك هذا يدل على حُسن نية منك ، ولكنني لا أقبل بهذه المقدمات ، وهذه النتائج ، بل قصد بأن هذه المقدمات والنتائج التي تتبعها إنما هي صحيحة لمن هو راغبٌ للسير بهذا الطريق : طريق المعاملة ، والسياسة النفعية ، ولكن طريقي غير هذا الطريق ، ومنطقي هو غير هذا المنطق فمنطقي هو منطق من يُعاني حُب الخير والعقيدة ، ومنطق الطبيب الذي يُعاني هموم المريض ، وأحزانه ، وآلامه : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ .

وطريقي هو طريق الشهادة ، ومنطق الشهيد هو منطق آخر ، يختلف عن منطق العقل النفعي العملي (البراغماتي) . . وما معنى : « إنَّ الله شاء أن يراك قتيلاً » . إلّا تصديقاً لهذا المنطق الحسيني . أي إنَّ الله يُريد أن يرى روح الشهادة فيك . نعم « إنَّ لك درجةً ، لن تنالها ، إلّا بالشهادة » .

الصفات التي برزت من أبي عبد الله في كربلاء

إنَّ الصفات التي برزت من أبي عبد الله الحسين (ع) في كربلاء هي :

- ١ - الشجاعة البدنية .
- ٢ - قوة القلب ، والشجاعة الروحية (المعنوية) .
- ٣ - الإيمان التام الكامل بالله ، وبالنبي والإسلام .
- ٤ - الصبر ، والتحمل العجيبان .
- ٥ - الرضا والتسليم .
- ٦ - المحافظة على التعادل ، وموازنة الحركة والمواقف ، وعدم بروز أي موقف مُتسرّع ، لا من قبله ، ولا من قبل أصحابه .
- ٧ - الكرم ، والنبل ، والسماحة .
- ٨ - التضحية ، والفداء ، والإيثار .

فلسفة الحرب بين النور والظلام بين البشر

يقول العقاد في الصفحة (١٦٢) من كتابه : « فجيرة كربلاء كانت قديماً من معاهد الإيمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أور مزد ، وأهرمان (وهما رمزا السواد والبياض) ، ولكنه كان في الحقيقة ضرباً من المجاز ، وفناً من الخيال . وتشاء مصادفات التاريخ أن لا ترى هذه البقاع التي آمنت بأور مزد ، وأهرمان ، حرباً هي أولى أن تسمى حرب النور والظلام ، من حرب الحسين ومقاتليه . وهي عندنا أولى بهذا الاسم من حرب الإسلام والمجوسية في تلك البقاع ، وما وراءها من الأرض الفارسية ، لأن المجوسي كان يدافع شيئاً ينكره ، ففي دفاعه شيء من الإيمان بالواجب ، كما تخيله ورآه . [كان الشاميون يُقاتلون آل علي مقاتلة عقائدية نوعاً ما وقصة عصام بن المصطلق خير شاهد على هذه الدعوى] ولكن الجيش ، الذي أرسله عبید الله بن زياد ، لحرب الحسين ، كان جيشاً يُحارب قلبه لأجل بطنه ، أو يُحارب ربه لأجل واليه » . [كما أن مشركي بدرٍ وأحد كانوا يقاتلون الرسول (ص) قتال عقيدة - بالطبع عدا رؤسائهم] .



روحية أصحاب ابن زياد ومعنوياتهم

يقول التاريخ : « وَرَكِبَ أَناساً مِنْهُمْ ، الْفَزَعُ ، الدَّائِمُ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِمْ » .
ذلك أن عقيدته ، ووجدانه كانا يوحيان له بشيء مخالف لأعماله ، وبذلك يكون
في حالة عذاب دائم للضمير ، مثله مثل كل الذين يؤنبهم ضميرهم على
أعمالهم ، إذ ترى وجدانه يُنادي من الأعماق : اقتلوني ! واقضوا على هذا الوجود
العار بين جنبي ! وما جنون (بسر بن أرطأة) في آخر حياته إلا نوعاً من تأنيب
الضمير ، وعذاب الوجدان .

وما الملك المخصص لعذاب مثل هؤلاء الأفراد إلا عبارة عن وجدان هؤلاء
الأفراد لأنهم عرفوا الإثم فيما اقترفوه عرفاناً لا تسعهم المغالطة فيه . . . » .

الخبث الباطني لأصحاب عمر بن سعد

إن الجبن والطمع ، لا يمكنهما أن يكونا السبب وراء أحداث فاجعة كربلاء
الجنائية ، ولا حتى العداوة الشخصية ، فأية عداوة شخصية ، كانت لأحد مع
الحسين (ع) !

والإمام الحسين (ع) نفسه قال في كربلاء وهو يُحاطب القتلة : ماذا فعلت
حتى تُقاتلوني قتال عقيدة ، هل تُراي حللت حراماً أو حرمت حلالاً ؟ !! أو هل
تراي أخذت مالاً ، أو تسببت في هدر دم ، حتى تُقاتلوني لعداوة شخصية ؟

نعم فالجن ، والطمع ، لا يُمكنهما أن يُبررا أعمال التمثيل ، والتنكيل ،
وقتل الأطفال ، ومنع الماء ، ووطء الخيول على ظهر الحسين .

إنّ مثل هذه الأعمال في الواقع لا تخرج إلّا من مثل (شمر بن ذي
الجوشن) ، ذلك الشخص الذي يحمل طينة خبيثة في أصل ذاته ، وحقداً أعمى
على كل ما هو خير ، وكل ما هو من أعمال المروءة والإنسانية .



النظام والانضباط لدى أصحاب « سيد الشهداء »

طبقاً لما ينقله العقّاد في كتابه (الصفحة ١٨٤) فإنّ هناك نظماً خاصاً كان يحكم تحركات وأفعال أصحاب سيد الشهداء ، ومن هنا فإن الواحد منهم كان يجعل من نفسه درعاً ، لوقاية الحسين (ع) ، وحمایته ، وما أن يقع الواحد منهم ، حتى ترى الآخر قد ملأ الفراغ ، وأخذ محل رفيقه .

وهذا المعنى تراه أحياناً يظهر في تعبير الشعراء ، إذ تراهم يُعبرون عن آمالهم ، ورغباتهم في وصل المحبوب ، فيقولون : يا ليتنا نصل الحبيب ولو للحظة ، ثم نموت ! فعند البعض تكون هذه اللحظة جميلةً وعظيمةً إلى الحد الذي تراه فيه ، على استعداد لجمع شمل حياته كلها ، بل الزمان كله على امتداده الأبدي لو يُجمع له في لحظة واحدة ، من أجل وصل ذلك المحبوب ، ولكن بالكيفية التي هو يُريد .

إنّ مثل هؤلاء يُريدون الحياة بكيفيتها لا بكميتها ، وهكذا هو شأن أصحاب أبي عبد الله ، فهم قد ضحوا بالكمية من أجل الكيفية .

نعم فأنت تراهم قد جمعوا كل لحظات حياتهم ، وكل سعادات الحياة التي لا يُدركها إلّا العدد الضئيل من أصحاب الروحية العظيمة في نصف نهار وليلة .

والله وحده يعلم كم هي درجة تلك العظمة ، ومقدار ذلك الجلال ، والجمال المتألى ، من أعمال التضحية ، والفداء ، والسقوط ، فوق التراب ! أن

يعيش الإنسان نصف يوم مستغرقاً في تلك الحالة المعنوية العظيمة ، أفضل له من أن يعيش ألف عام حياة حيوانية ، لا يصدر منه سوى أعمال الأكل ، والشرب ، والنوم .

البعض قال : إنه يطلب عرض العمر ، وليس طوله ، وعرض العمر يعني كيفية العمر ، وعرض العمر هو الآخر يختلف مفهومه من شخص لآخر ، فعند البعض لا يتعدى ملء البطون ، والسكر ، والقمار .

بينما يكون معناه عند الآخرين ، الحرية ، والاستقلال ، وعدم الخضوع لأجواء القمع ، والاستغلال ، ويكون همه فقط العشق الرباني .

فهذا « موسوليني » يقول : بأن عاماً من عمر الإنسان ، وهو يعيش كالأسد ، أفضل من مئة عام ، وهو يعيش كالخروف ، فهو يريد عرض العمر وكيفيته .

لكنه يرى كيفية الحياة في استسباع الناس ، وتحويل أجسادها إلى أشلاء بيد وحش كاسر ، بينما الإمام علي (ع) يرى كيفية الحياة في العبادة وخدمة الحقيقة .

شجاعة أصحاب أبي عبد الله وتراجع جند عمر بن سعد

لقد برزت بعض مظاهر التراجع والتردد ، لدى جند عمر بن سعد في كربلاء ، وإن دلّت على شيء فإنها تدلّ في الواقع على عجز جيشه أمام ذلك النفر القليل من جنود أبي عبد الله الحسين (ع) ، ومن الأمثلة على ذلك :

١ - امتناع جند عمر بن سعد عن مقاتلة جنود الحسين (ع) ، وجهاً لوجه ، والاستعانة برمي الرماح والنبال من بعيد .

٢ - مهاجمة معسكر الحسين (ع) من الخلف ، إمّا لحرق الخيم ، أو للطعن من الخلف ، والغدر بالجند في غير ساحة الوغى .

٣ - تهرب عمر بن سعد وجماعته من مقاتلة شخص الحسين (ع) ، وقوله المعروف عن سيد الشهداء : « هذا ابن قتال العرب » ، وتعليقاته بإشاعة جو

من الضجيج والضوضاء ، من أجل منع وصول فحوى خطبة الحسين (ع) إلى جُنده ، حتى لا يتأثر الجُند بذلك ، وينقلبوا عليه .

قائمة بالأعمال الدنيئة التي صدرت عن جيش عمر بن سعد

فيما يلي قائمة بالأعمال الدنيئة التي قام بها أصحاب يزيد ، والتي لا يقبل بها قانون الحرب والفروسية ، وتأبأها روح المروءة وهي :

- ١ - قطع المياه (ليس فقط عن المقاتلين بل عن الأطفال ، والنساء) .
- ٢ - قتل الأطفال ، لا سيما أمام أعين أمهاتهم ، وأخواتهم ، وعماتهم ، مثل قضية ذلك الطفل الذي ورد ذكره في التاريخ بعبارة « ولهُ قُرطان » .
- ٣ - تعرية جسد الحسين (ع) ، بعد مقتله ، من رداءه ، وملابسه ، طمعاً بالغنيمة بكل شيء .
- ٤ - الهجوم على النساء ، والفتيات ، ونهب الحلى ، والأقراط ، عن أبدانهن .
- ٥ - إعداد الحملات البربرية على ذلك العدد القليل من الأصحاب بواسطة الحجارة والنبال .
- ٦ - الشتمة اللاذعة .
- ٧ - تعليق رؤوس الشهداء برقاب الخيل .
- ٨ - السب والشتم .
- ٩ - وطء الخيل لظهر الحسين (ع) .
- ١٠ - محاصرة الأسرى ، والتضييق عليهم ، وضربهم ، ومن ثم نقلهم على جمال غير مُجهَّزة بالسروج .
- ١١ - تقييد المرضى من الأسرى بالأغلال (الإمام السَّجَّاد (ع)) .
- ١٢ - تعليق رؤوس الضحايا أمام الأسرى .

- ١٣ - وضع الأسرى في ظروف إقامة سيئة للغاية .
- ١٤ - الشّاتة بالأسرى المفجوعين .
- ١٥ - التجاسر على رأس الحسين الطاهر ، والعبث بأسنانه الطاهرة .
- ١٦ - قتل النساء (أم وهب) .
- ١٧ - تسير قافلة الأسرى من أمام ساحة الوغى ، وأبدان القتلى ، مُلقاة في العراء (إذا كان ذلك بغير طلب الأسرى أنفسهم لغرض الوداع) .
- ١٨ - حرق الخيام في الوقت الذي كان فيه على الأسرى أن يمضوا تلك الليلة فيها .
- ١٩ - منع الخبز ، والطعام ، عن الأطفال الأسرى ، حتى صارت الناس ترمي إليهم بالخبز ، والتمر ، بينما صارت أم كلثوم تمنع الأطفال الأبرياء من أخذ تلك المساعدات .

ثلاثة أعمال ليزيد سبّبت زوال مُلك بني أمية (أهمها الأثر العظيم لواقعة كربلاء)

يقول العقّاد في كتابه ص ٢١٦ : « لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم ، وثبتت بنيانهم ، وتغليب ملكهم على المنكرين والمُنازعين ، فلم ينتصر عليهم المنكرون ، والمُنازعون ، بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضارين حقيقةً حتى ذهبوا بها مضروبين إلى آخر الزمان ، وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء ، فإذا بالدولة العريضة تذهبُ في عمر رجل واحد مديد الأيام » .

[نعم : فلولا حادثة كربلاء لطال مُلك بني أمية بمقدار ما طال مُلك بني العباس] . .

مكافأة « سيد الشهداء » في الدنيا ، وفلسفة تعظيم شعائر عاشوراء

وأما في الصفحة (٢٢٤) فيقول العقاد : « وتسديد العطف الإنساني منّا فرض من أقدم الفروض على الناظرين في سير الغابرين . (إن فلسفة تعظيم شعائر عزاء سيد الشهداء ، مكافأة يُقدّمها التاريخ لأبطال عاشوراء) لأنّ العطف الإنساني هو كل ما يملك التاريخ من جزاء وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود » . (إنّ فلسفة إحياء ذكر سيد الشهداء ترتبط بنا من إحدى الجهات باعتبار أنّ هذه الذكرى عبارة عن نبع من الفيض الربّاني الذي يمكننا الاستفادة منه ، وهي من جهة أخرى تقدير منّا للشهداء والشهادة ، ومن جهة ثالثة تعبير عن الواجب التاريخي ، والفريضة الاجتماعية ، الملقاة على عاتقنا أمام المجتمع) .

إنّ المنفعة الفردية عبارة عن عامل تنازع ، وتضارب ، وقبض ، واستخدام للمجتمع .

بينما حس المنفعة العامة ، أو بعبارة أخرى المبادئ الأخلاقية الإنسانية السامية ، تُشكّل في الواقع عامل حفظ ، وتعاون ، وإفاضة ، وإعانة للمجتمع . وعليه فإنّ أصحاب الخير العام هم الخُدام الواقعيون للأصول والمبادئ والنواميس الاجتماعية ، ومن هنا وجب على المجتمع تقديرهم ، وإجلالهم ، وإحياء ذكرهم ، على مرّ الدهور .

القسم الثاني ملاحظات حول ماهية النهضة الحسينية

ملاحظات في ماهية النهضة الحسينية

١ - إنَّ البحث هنا يدور حول نوع واقعة عاشوراء ، وعن أي مفهوم أو مقولة تُعبّر ؟ فهل هي نوع من الانفجار غير الهادف من الناحية الاجتماعية ، مثلها مثل كثير من الانفجارات التي نحصل على أثر تفشي الظلم ، وتشديد القمع ، وربما يساهم بحركتها الانفجارية تلك الأوضاع والحالات السائدة ، أم إنها خيارٌ واعٍ ، وتصميم يقظ ، تجاه الأوضاع ، والأحوال الموجودة آنذاك ، وتجاه الآثار والنتائج المترتبة على مثل ذلك التصميم ؟

وفي الحالة الثانية فهل هي نهضة وثورة مُقدسة ، أم خطة دفاع مشرّفة طاهرة ؟

بعبارة أخرى هل هي تعبير عن هجوم أم دفاع ؟

وهل هي بالتالي عمل شرع به الإمام وأرادت السلطة القائمة آنذاك ، صدّه ، والقضاء عليه أم أنّ الذي حصل هو أنّ الإمام قد تعرّض للعدوان من قبل السلطة الحاكمة آنذاك ، الأمر الذي دفع الإمام للدفاع المشرف عن نفسه ، بدلاً من التسليم ، والسكوت ، والركون إلى الأمر الواقع ؟

بعبارة أخرى هل كان شيء من سنخ التقوى موجوداً في المجتمع ، وكان الإمام هو المظهر الكبير لمثل تلك التقوائية ، إلى الحد الذي يتم فيه التضحية

بالنفس ، أم أنّ الإمام لم يكن إلاّ تعبيراً عن نوعٍ من الإحسان ، والعصيان ، والقيام أو النهضة المقدسة ؟

أم أنّ حركته كانت نوعاً من عمل المحافظة على الذات ، وإثبات وجودها ، أو نوعاً من نفي الآخرين ، وإنكار جبهه المعارضين ^(١) ؟

وتأسيساً على الاحتمال ، أو الفرضية الأولى ، فإن المطروح هو الأهداف والمبادئ الاجتماعية ، في حين أنّ التأسيس على الاحتمال الثاني لا يكون عندها للإمام سوى هدف المحافظة على شرفه ، وكرامته الإنسانية ، وإذا ما قلنا بأنّه نوع من التحرك الابتدائي ، والثورة الواعية فماذا ستكون هذه الثورة ؟

هل هي محض تجاوب مع دعوة أهل الكوفة ، وأنّه لو لم تكن تلك الدعوة قائمة لما قام الإمام ، وثار ضد السلطات ، (وبالتالي فإنّ مسألة كمسألة تراجع أهل الكوفة عن دعوتهم ، كانت سنعي له العودة عن ثورته ، والسكوت ، والتراجع أيضاً) أم أنّ أساساً آخر كان وراء التحرك الحسيني غير دعوة أهل الكوفة ؟

وإنه حتى لو لم تكن دعوة أهل الكوفة قائمة فإنه كان عليه السلام ينوي الاعتراض ، ومجابهة السلطات حتى لو أدى ذلك إلى بذل نفسه ، ومهيجته في هذا السبيل ؟

الحقيقة أنّ هناك عوامل متعددة ساهمت في خلق وإيجاد واقعة كربلاء ^(٢) ، أي إنّ البواعث المحركة للإمام كانت متعددة ، ولذلك ترى وجود صعوبة واضحة

(١) بل يمكن القول بإمكانية فرض ثلاثة أنواع من الماهية : الماهية التقوائية ، والماهية الهجومية والثورية ، والماهية التجاوبية ، أي التجاوب مع نداء مقدس ، وهي الماهية التعاوبية . وحركة الإمام هنا شكلت تعبيراً عن ردة فعل من النوع السلبي إذا نظر إلى العمل من ناحية عامل البيعة ، وفيما يخص عامل الدعوة أيضاً يمكن القول بأنّ الحركة كانت عبارة عن ردة فعل لكنها هذه المرة إيجابية . بنينا لو نظر إلى العمل من ناحية عامل الأمر بالمعروف ، فإنّ الإمام حينها يكون هو المهاجم والباديء بالحركة .

(٢) كما سبق لنا وأشرنا في محاضراتنا في كليه الآداب بطهران ، وجامعة الأهواز ، في محرم من العام (١٣٩٢) والتي تم طرحها تحت عنوان « تحليل حول قيام عاشوراء » نقول إن معرفة الحوادث الاجتماعية ، كها الحوادث الطبيعية والمادية ، إنما تتطلب نوعاً من التحليل والتركيب للعناصر =

في أمر شرح ماهية هذه الثورة ، وتوضيحها من حيث إن ما كان يبدو ، ويظهر من أعمال للإمام ، كان يرتبط مرة بهذا العامل ، وأخرى بذلك العامل الآخر المؤثر في النهضة ، الأمر الذي يسبب حيرة ، وغموضاً ، وتناقضاً ، من قبل المحللين ، والمُفسرين التاريخيين ، للحادثة .

= الأولية المكونة لتلك الحادثة ، يبقى أن الظواهر المادية تقلل التحليل والتركيب مرة أخرى ، في أحد المحتررات ، بينما الظواهر التاريخية لا يمكن تحليلها وتركيبها ، إلا بقوة المطلق ، وفي المختبرات المطلقية . وتحليل حادثة مثل حادثة عاشوراء يتطلب منا القول بتأثير ثلاثة عناصر أولية فيها هي : أولاً : البواعث أو العوامل التي حصلت في ذلك المحيط آنذاك ، والتي كانت كافية ، لإحداث نهضة ، أو تحمّل بالقوة إمكانية نشوء ثورة ، أو نوع من التمرد ، ومن هذه الزاوية لا بد لنا من دراسة عوامل المحيط من الناحية الأخلاقية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وسائر السواحي الأخرى ، وكذلك الأجواء الإنسانية الخاصة لذلك المحيط . وثانياً : رد فعل بطل تلك الحادثة ، أو النهضة ، وهو الإمام الحسين(ع) ، وذلك تجاه كل واحد من تلك العوامل المذكورة ، وهذا بدوره أمر يرتبط بشخصية الإمام نفسه ، وأي تغيير في تلك الشخصية ، أو إمكانية ظهور خليفة لها ، كان يمكن أن يُغيّر مسار الحدث عن شكله المعروف لدينا . وفي هذه المرحلة ، لا بد لنا من دراسة أهداف الإمام ، والتي ترتبط بشدة ، بشخصيته المعنوية . وثالثاً : هناك مسألة أسلوب ونهج الإمام المتبع في ردة الفعل المذكورة ، وردة الفعل هنا عبارة عن الأهداف المحددة للإمام ، مقابل تلك الواقعة . وعليه يكون معنى أسلوب الإمام ، أو نهجه ، هو بالبحث مثلاً عن طريقة الإمام ، وأسلوبه في الامتناع عن البيعة ، مثلاً ، وإلى أي حد كان على استعداد للمقاومة في هذا المجال ، وعند أي حد كان على استعداد للتسليم مثلاً ، أو عدم التسليم أصلاً ، وهو ما يظهر من حديث الإمام نفسه ؟ ثم ما هو أسلوبه في التجاوب مع دعوة أهل الكوفة ، وتسلم شؤون الحكم ؟ وإلى أي حد كان ذلك مطروحاً ؟ وهل كان ذلك يشبه أسلوب التعامل مع قضية البيعة ، أي التضحية بآخر قطرة من دمه ، من أجل هذا الأمر ؟ أم أن مجرد انتفاء الموضوع كان يعني تخليه عن هذا الهدف ، والشق الثاني هو الذي ثبتت صحته بالطبع هنا .

وأما نهجه في التعامل مع العامل الثالث ، فإنه كان أشد حتى من نهج التعامل مع العامل الأول فالأمر تجاوز حتى مجرد القتل دون الهدف ، بل تعداه إلى حدود توسيع رقعة الثورة ، ودائرة الدم ، حتى الإمكان . فهذا كان منطق الشهيد والشهادة منطق أحد الثوار ، نعم فمنطقه في التعامل مع عامل البيعة ، والامتناع عنها ، كان يتمثل بمنطق الإنسان الحر الشريف ، وليس أكثر من ذلك . بينما ظل منطق في التعامل مع عامل دعوة أهل الكوفة ، يدور في دائرة رجل السياسة الصالح والحاقد ، في حين تميّز منطق في التعامل مع العامل الثالث ، وهو عامل الأمر بالمعروف ، بكونه ارتفع إلى منطق الشهيد والشهادة .

هذا إلى جانب إضفاء طابع التعددية في الوجوه ، والأبعاد المكوّنة لهذه الحادثة ، وكون كل بُعد يملك ماهية خاصة به (ليس هناك أي مانع في امتلاك الشيء لماهيات متعددة ، إذا كان الأمر يتعلق بالظواهر الاجتماعية ، والمركبة ، وهو أمر أثبتناه ، وبرهنا على صحته بالذات ، في دروس فلسفة التاريخ) .
إنّ العوامل التي كان من الممكن أن تؤثر ، أو أثرت بالفعل في واقعة عاشوراء ، يمكن تلخيصها على الشكل الآتي :

أ - كون الإمام الحسين (ع) الشخصية الوحيدة الجديرة ، والمنصوص عليها ، والوارثة عن حق أمر الخلافة ، والتي تملك مقام الإمامة المعنوية .
ومن هذه الناحية ، لم يكن هناك فرق بينه وبين أبيه أو أخيه ، كما لم يكن هناك فرق من هذه الناحية بين حكومة كل من يزيد ، ومعاوية ، والخلفاء الثلاثة .

وهذا الجانب لوحده ، لم يكن يوجب أية وظيفة خاصة ، أو يُحمّله أي تكليف خاص ، فإذا ما شخصت الناس صلاحيته وبياعته ، وفي الحقيقة إذا ما أعلنت من خلال البيعة له عن صلاحيتها ، وجدارتها ، واستعدادها لقبول حكم هذا الإمام ، فإنه كان سيقبل أيضاً مثل هذه البيعة .

ولكن إذا ما كان الناس ليسوا على استعداد من جهة ، وكانت الأوضاع والأحوال ، تسيّر ضمن سياق المصالح العامة للمسلمين ، فإن الإمام وطبقاً لحكم هذين العاملين ، لا تكون لديه مهمة المخالفة والمعارضة ، بل عندها تكون مهمته التعاون ، والترافق مع المسيرة العامة ، وهو ما فعله أمير المؤمنين (ع) . كما ساهم بدوره في الاستشارات السياسية ، والقضائية ، وحضر صلوات الجماعة ، وهو القائل : « لقد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي ، وَوَاللَّهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً »^(١) .

في قضية كربلاء لم يكن لهذا العامل دورٌ بحد ذاته ، بل إنه يمكن أن يؤخذ

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ٧٢ .

بعين الاعتبار فقط عندما يوضع إلى جانب العامل الآخر ، وهو عامل دعوة أهل الكوفة للإمام الحسين (ع) ، ذلك أنّ عامل دعوة أهل الكوفة ، كان يقصد استلام الحكم ، ولم يكن له معنى آخر .

وعليه ، فلا تأثير لهذا العامل وحده ، بل فقط عندما يأتي في سياق عامل الدعوة الكوفية .

ب - إنهم كانوا يريدون البيعة من الإمام ، ولم تكن هناك رخصة في الأمر ، فيزيد قد كتب بكل وضوح لعامله : « خذ الحسين بالبيعة أخذاً شديداً ، ليس فيه رخصة » . والبيعة هنا كانت تعني المصادقة والقبول ، وإضفاء الشرعية على حكم يزيد^(٢) .

ج - لقد قام أهل الكوفة بعد أن امتنع الإمام عن المبايعة ليزيد بدعوته إليهم ، وأعلنوا عن استعدادهم لنصرته ، وتسهيل أمر استلام الحكم ، والزعامة ، والخلافة له ، وهو ما ظهر في رسائلهم ، وكتبهم المتعددة ، والمستمرة له ، وهو الأمر الذي آتاه ، وصادق عليه تقرير سفير الإمام المُرسَل إلى أهل الكوفة .

د - العمل بالمبدأ المعروف في الإسلام باسم أصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا سيما إذا ما كان الأمر يتعدى الأمور الجزئية ، وتصبح القضية قضية تحليل حرام الله ، أو تحريم حلاله ، أو ظهور البدع ، أو تهديد المصالح العامة وحقوقها ، أو انتشار الظلم وشيوعه . ففي مكان ما ورد عنه عليه السلام : « إني لم أخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهي عن المنكر^(١) وأسير بسيرة جدي وأبي » .

(٢) إن البيعة التي يُراد تحميلها للإمام الحسين (ع) هنا ، كانت تعني إضفاء الشرعية على فكرة ولاية العهد اليزيدية ، وهي بيعة تختلف عن بيعة علي (ع) ، والأئمة الآخرين من بعده ، والتي كانت تعبيراً عن نزول الأئمة (ع) ، عند رأي الأكثرية .

(١) ستتطرق فيما بعد إلى موضوع المنكرات التي أوجبت تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لكن عبارة : « وأسير بسيرة جدي وأبي » إنما تأتي في سياق ما حصل في أيام الإمام =

وفي مكان آخر يقول : « سمعت جدي رسول الله يقول : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله . . . »

أو كما جاء في مكان آخر : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحَقّاً ، إني لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا بَرَمًا »

كيف تعامل الإمام الحسين (ع) مع عامل البيعة

إنّ الإمام كان مستعداً لأن يتحمل القتل على أن يُبايع يزيد بأيّ شكل من الأشكال ، وتكليف الإمام من هذه الناحية كان الامتناع عن البيعة فقط .

وهذا التكليف كان يمكن القيام به ، من خلال الخروج من البلاد ، أو التحصن بشعاب الجبال (كما اقترح عليه ابن عباس) ، أو اللجوء إلى أحد المخايء السرية ، بعيداً عن أنظار السلطات .

بعبارة أخرى فإنّ أسلوب الإمام في تنفيذ هذه المهمة ، كان يتركز في عدم

= علي (ع) ، حيث طُلب منه العمل بسيرة الشيخين فرفض ، ومن ثم سار آل علي على هجته أيضاً والحقيقة أن الأمر يتعلق بالانحرافات التي كان شروعا قد بدأ في عهد الشيخين ، والتي يمكن الإشارة إليها من قبيل تقسيم بيت المال على غير سوية ، أو تحقير فكرة « حي على خير العمل » التي تعني عدم تقدير الصلاة ، بمثابة نوع من الأعمال الخيرة ، إصافه إلى اجتهادات عمر المعروفة بالاجتهادات المنوارة ، والحقيقة أن الانحرافات التي حصلت آنذاك كانت على نوعين : انحرافات عمرية ، وانحرافات عبد الله العمرية ، والانحرافات العمرية كانت تتلخص بالإقبال على أمر الجهاد ، وإغفال دور العبادة . أي تغليب كفة الفتوحات على كفة المعسويات . وأما الانحراف المتعلق بتيار عبد الله بن عمر ، فقد كان على العكس من ذلك ، إذ كانت الكفة الغالبة هي العبادة ، مقابل إغفال جانب الأعمال الدنيوية ، والجهادية .

وبالتالي فإن الحالة القائمة كانت تفقد الجهاد معناه ، كما تفقد الصلاة معناها . بينما كان الإمام الحسين (ع) في ليلة عاشوراء يصف أصحابه وهم يستعدون للقتال بقوله : « لهم دويّ كدوي النحل » . وفي يوم عاشوراء عندما يُشير أحدهم إلى الصلاة يقول له : « ذكرت الصلاة ، جعلك الله من المصلين » .

الرضوخ للبيعة ، تحت كل الظروف ، حتى ولو أدى ذلك إلى ترك البلاد ، أو حتى مواجهة القتل .

أي إنّ سعي الإمام ، وعمله هنا ، لم يكن باتجاه استلام السلطة والحكم ، كما أنّه ليس محدوداً بعدم التعرض للقتل ، لكنه في الوقت نفسه لم يحمل مهمة توسيع رقعة الثورة ، أو حجم الدعوة ، كل ما هنالك كان الوقوف بوجه هدر دماء الآخرين .

ومن هنا كان على الإمام تكليف مركزي ، هو الامتناع عن قبول المبايعة أي رفضها رفضاً حاسماً .

إنّ مبايعة الإمام ليزيد في ذلك الوقت كانت ستأخذ بكل جدية شكل الموافقة الحسينية وبالتالي تعني حقيقة إضفاء المشروعية على خلافة يزيد .

وهناك دلائل وقرائن تاريخية تشير إلى أن الإمام لم يكن على استعداد للمبايعة ، بأي شكل من الأشكال . فضيلة الشيخ الصالح ينقل في كتابه عن «مقتل» الخوارزمي أنه ورد في الروايات التاريخية بأن الإمام الحسين (ع) قد كتب إلى محمد بن الحنفية يقول له : « لو لم يكن في الدنيا ملجأ ، ولا مأوى ، لما بايعت يزيد بن معاوية » .

كيف تعامل الامام مع موضوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟

وهنا لابد من النظر إلى الأوضاع الخاصة التي بدأت بالبروز في زمن معاوية وعلى أثر خلافة يزيد .

قبل كل شيء ، لا بد من الإشارة إلى موضوع الخلافة الوراثية التي بتحقيقها ، يكون أبو سفيان قد حقق آماله القديمة ، التي سبق وأن عبّر عنها أيام عثمان بقوله : « تَلَقُّوْهَا تَلَقُّفَ الْكَرَةِ ، وَلْتَصَيِّرَنَّ إِلَى أَوْلَادِكُمْ وَرَاثَةً ، أَمَا وَالَّذِي يَحِلُّفُ بِهِ أَبُو سَفِيَانَ لَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ . . . » .

لقد وقف الإمام معترضاً على هذا الموضوع ، في زمن معاوية نفسه ، إضافة إلى رفضه لسياسات أخرى كانت قد صدرت من معاوية آنذاك . حتى إنه كتب إلى معاوية ، في إحدى الرسائل ، يقول له فيها :

« ما أردتُ حرباً ، ولا خلافاً ، وإني لأخشى الله في ترك ذلك » .

لكنه كان يُقدم على بعض الأعمال في زمن معاوية مما يدلُّ على أنه كان يتحين فرص التمرد عليه^(١) .

ولا بد لنا في هذا المجال من الإشارة إلى أنَّ مثل هذه الحركات ، بل مطلق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليست من الأعمال التي تأتي في سياق الواجب التعبدية ، بحيث إنَّ الواجب يأمرنا بالنهي عن المنكر كلما رأيناه ، وإنه ليس من واجبنا النظر إلى الآثار أو حساب النتائج المترتبة على أفعالنا في هذا الاتجاه .

بل إنَّ المطلوب منا أن نحتمل حصول الأثر الإيجابي ، أو نتيقن من حصول نتائج مثمرة ، أي إنَّ مثل هذا العمل (أي النهي عن المنكر) يفرض على المكلف أن يحسب بدقة النتائج المترتبة على قيامه بمثل هذا الواجب ، وإلاَّ يكون قد أهدر جهداً ضائعاً وانتهى الأمر .

(إن قضية اعتقاد الإمام ومعرفته بنتائج عمله يرتبط بما قلناه سابقاً ، من أنَّ الإمام من وجهة نظر عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما كان يُمارس منطق الثورة ، ومنطق الشهيد ، وصاحب مشروع توسيع رقعة الثورة والدم ، وهو بذلك صاحب رسالة أراد أن يكتبها بحبر لا يجف أبداً ، وهو الدم) .

فهل كان الإمام يعتقد ويؤمن بنتيجة وثمرة عمله الجهادي ، وأنَّ دمه المراق لن يذهب هدراً أم لا ؟

(١) إن ما ذكرناه لاحقاً من ملاحظات حول كتاب فضيلة الشيخ الصالحى حيث نقل عن « رجال الكشي » و« الإمامة والسياسة » بأن الإمام قد كتب إلى معاوية يقول له : ما أردتُ حرباً ، ولا خلافاً » هو في الواقع ما يتعلق بوجهة نظر الإمام ، في زمن معاوية بالطبع ، وهذا صحيح بدوره إذ إنَّ الإمام لم تكن لديه برامج حرب ، أو خروج على معاوية بالتاكيد .

نحن نقول إنه كان يعرف ذلك جيداً ، ويؤمن به ، وهذه أدلتنا على ذلك :

أ - في إحدى الرسائل الخاصة ، التي ينقلها « الرياشي » يقول الإمام :
« إن هؤلاء أخافوني ، وهذه كتب أهل الكوفة ، وهم قاتلي ، فإذا فعلوا ذلك ،
ولم يدعوا لله محرماً إلا انتهكوه ، بعث الله إليهم من يقتلهم ، حتى يكونوا أذل من
فرام المرأة »^(١) .

ب - وأما في خطبته إلى الناس في يوم عاشوراء ، فقد ورد أنه قال : « ثم
أيّم الله ، لا تلبثون بعدها إلا كريثاً يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرّحى ،
وتقلق بكم قلق المحور »^(٢) .

ج - وفي خطاب له مع أهل بيته في يوم عاشوراء ، قال : « استعدوا
للبلأ ، واعلموا إن الله حافظكم ، ومنجّيكم من شرّ الأعداء ، ويُعذب أعاديكم
بأنواع البلاء » .

د - كما قال لعمر بن سعد مخاطباً : والله إن مُلك ري لن يدوم لك ، وإني
لأرى فتیان الكوفة يرمون الحجارة على رأسك ، كما يرمون ثمار الشجرة بها .

وأما كيفية تعامل الإمام مع موضوع دعوة أهل الكوفة

ماذا أريد من وراء هذه الدعوة ؟

بالتأكيد جاءت هذه الدعوة لعرض الزعامة ، واستلام السلطة على
الإمام ، ومن أجل جعل الكوفة مركزاً للحكم الإسلامي .

وقد كانت الكوفة بمثابة معسكر للعالم الإسلامي ، والكتب التي وجهها
أشراف الكوفة ، وزعمائها ، كانت كتباً موثقة ، ومبدئية ، لا غبار عليها ، وقد
ورد مضمونها في الملاحظة رقم ١٦ في مكان آخر من هذا الكتاب تحت عنوان
ملاحظات حول « النهضة الحسينية » . جاء فيها : « أما بعد : فالحمد لله الذي

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ .

(٢) اللهوف : ص ٤٢ .

قصم عدوك الجبار العنيد ، الذي انتزى على هذه الأمة ، فابتزها أمرها ، وغضبها فيأها ، وتأمر عليها بغير رضى منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها ، فبعداً له كما بعدت ثمود ! إنه ليس علينا إمام ، فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق » .

وقد ردّ عليهم الإمام ضمن تعيين مسلم بن عقيل سفيراً إليهم بقوله : « إني بعثت إليكم أخي ، وابن عمي ، وثقتي في أهل بيتي . . . ولعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، القائم بالقسط الدائن بدين الله »^(١) .

ومن خلال هذه الرسالة يتضح لنا رأي الإمام الخاص بالحكم ، والسلطة ، كما يتبين أيضاً مدى الاهتمام الذي يوليه الإمام لمسألة القيادة ، وبأن المنكر الأكبر هو شخص يزيد ، والموقع الذي احتله .

وفي هذا السياق يكون وضع الحسين (ع) تماماً كوضع أبيه علي (ع) بعد مقتل عثمان ، حيث اعتبر عليه السلام إجماع الأمة على مبايعته ، إتماماً للحجة عليه ، بالرغم من عدم رغبته الباطنية في تسلّم مقام الخلافة ، من حيث إنه كان يرى المستقبل غامضاً . وهو ما يتضح من قوله : « فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان »^(٢) . . . أو كما ورد في قوله : « لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها »^(٣) .

وإتمام الحجة هنا ليس بمعنى إتمام حجة الله ، عالم السر والخفيات ، على الناس : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »^(٤) ، بل بمعنى إتمام حجة الإمام على الناس في الحاضر والمستقبل ، ذلك أنه لو لم يتجاوب الإمام مع تلك الدعوة ، لقال عنه جمهور ذلك العصر ، والعصور المستقبلية أيضاً ، بأنه قد ضيع فرصة تاريخية مناسبة .

(١) ورد هذا النص في إرشاد المفيد ص ٢١٤ مع اختلاف بسيط .

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ٩٠ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة الثالثة .

(٤) سورة الأنفال . الآية ٤٢ .

الشيء نفسه ينطبق على الإمام الحسين (ع) في النهضة الحسينية ، إذ إن دعوة أهل الكوفة تأتي كحجة تاريخية على الإمام ، وما يتطلب عملاً مقابلاً من الإمام ، يُتم فيه حجته على الناس أمام التاريخ .
وهنا لا بد من الإشارة إلى بعض المسائل :

أ - إن حركة الإمام من مكة إلى الكوفة ، لم تكن بسبب دعوة أهل الكوفة فقط ، بل إن هناك دلائل قطعية ، تشير إلى أن الإمام لم يكن بمقدوره بأي حال البقاء في مكة والقرائن التي تشير إلى ذلك هي :

أولاً : لم يُكمل الإمام حجه في تلك السنة ، ونحن نعرف أن حج التمتع إذا ما شرع به الشخص وجب عليه إتمامه ، ولا يجوز له تركه ناقصاً ما لم تكن هناك ضرورة قصوى ، تستدعي ذلك ، كالخوف من القتل ، إلّا إذا افترضنا أن الإمام لم يكن قد أتى عمرة التمتع إلى ذلك الحين ، وأنه كان قصد العمرة المفردة من الأساس ، لأن الإمام كان قد دخل الإحرام بالتأكيد في تلك الأيام ، وبحركته تلك خرج من طور الإحرام .

ثانياً : حينما خرج الإمام من مكة ، شبّه حاله بحالة موسى بن عمران وهو يعبر صحراء سيناء متجهاً من مصر إلى فلسطين لأنه قرأ في حينه هذه الآية الكريمة : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ، قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

وتأتي حركة موسى (ع) هنا بعد أن أخبروه : ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَأَخْرَجَ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢) .

ثالثاً : في رده على أبي هرة الأزدي ، يقول الإمام : « إن بني أمية قد أخذوا مالي ، فصبرت ، وشتّموا عِرْضِي فصبرت ، وطلبوا دمي فهربت » (٣) .

(١) سورة القصص : الآيتان ٢١ - ٢٢ .

(٢) نفس السورة : الآية ٢٠ .

(٣) اللهوف ص ٢٩ .

كما أنه جواباً على الفرزدق قال : « لو لم أعجل لأخذت » .

كما يقول الشيخ المفيد : « ولم يتمكن من إتمام الحج ، مخافة أن يُقضى عليه بمكة ، فيُنفذ به إلى يزيد بن معاوية »^(١) .

ويذكر العقّاد أيضاً في كتابه (رأسمال الحديث) أنّ عمرو بن سعيد بن العاص ، كان قد توجه مع جماعة ، وهم يحملون أمراً بقتل الإمام .

كما ورد في كتاب « الطريحي » أيضاً بأن ثلاثين شخصاً من بني أمية ، كانوا قد تلقوا الأوامر لتنفيذ مهمة اغتيال الإمام .

وقد أوردت في هذا الكتاب ، في فصل ملاحظات حول « النهضة الحسينية » مزيداً من الأدلة بهذا الاتجاه أرجو مراجعة الملاحظتين (١٠ و ١١) بهذا الخصوص .

ب - كم كانت قيمة وأهمية هذه العوامل من وجهة نظر الإمام ؟ وأي منها كان هو العامل المهم ، والهدف الأساسي في النهضة ؟

نقول : إنّ العاملين الأولين لم يكونا تابعين لبعضهما البعض بالتأكيد ، أي إنّنا إذا ما افترضنا جدلاً ، أنّ الإمام لم يكن مُطالباً بالبيعة ، فإنه قد يكون معترضاً من باب العمل بالأمر بالمعروف .

ولو أنه لم يكن معترضاً على الحكم من هذا الباب ، لكنه ليس في عداد المبايعين أيضاً ، إذن فالبحث ينحصر في مدى أهمية وأصالة العامل الثالث .

من الممكن أن يتصور البعض أنّ العامل الأساس هنا كان في رغبة الإمام لاستلام السلطة ، وأنّ العاملين الآخرين وهما : الامتناع عن البيعة ، والمعارضة والنقد تحت شعار الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هما إلّا مقدّمة لذلك .

ومن ثم فإنه يصبح من الطبيعي لمن يرى أنّ الأوضاع تميل لصالحه ، وقد

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢١٨ .

وضع نصب عينيه استلام السلطة ، أن لا يبايع ، حتى لا يُخرب الأرضية اللازمة لمخططه ، وأن يبحث في الوقت نفسه عن عنوان دعائي ، يستند إليه في معارضة السلطة ، وإنَّ أفضل يافطة يمكن التوصل بها في ذلك العصر تتمثل في المبدأ الإسلامي المعروف بمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

باختصار فإن الامتناع عن البيعة ، ورفع لواء المعارضة ، تحت يافطة الأمر بالمعروف ، كانتا المقدمة الطبيعية للتوجه إلى الكوفة .

وبالتالي فإنَّ النتيجة ستكون العودة عن التمسك بذي النيك العاملين ، أو اليا فطتين ، في اللحظة التي يشعر فيها الإمام بأنَّ الأوضاع لم تُعد مناسبة لمخططه في الكوفة ، أي إنه يصبح مستعداً للبيعة كما هو على استعداد لوقف المعارضة ، ونقد أوضاع السلطة الحاكمة .

هذا هو الانطباع الذي يُعطيه كتاب فضيلة الشيخ الصالح . في حين أنَّ المسألة ليست بهذه الصورة أبداً . وهذا هو الخطأ المركزي الذي يرتكبه الصالح في تحليله للواقعة .

فالإمام لم يكن مستعداً للتسليم بالأمر الواقع لحكومة يزيد ، ولم يكن على استعداد لمبايعته تحت كل الظروف ، وهو القائل : « . . . ولو لم يكن ملجأ ، ولا مأوى » . أي سواء كانت الكوفة مهيأة لاستقبالي ، أم غير مهيأة ، ففي الحالتين لن أبايع .

كما أنه لم يراجع عن نقده ، واعتراضه على الأوضاع العامة ، حتى بعد أن يثس من مناصرة الكوفيين له .

فخطبه الحماسية إنما ألقاها بعد أن واجه جيش الحر ، واطَّلَعَ على أوضاع الكوفة من قُرب ، وعندما وصله نبأ استشهاد سفيره « مُسلم بن عقيل » أو « قيس بن مُسهر » ، أو « عبد الله بن يقطر » ، تراه يقرأ الآية الشريفة : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ . . . ﴾ (١) .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .

وقد يكون أحد أسباب إصرار الإمام ، وصموده حتى النهاية ، بعد أن انقلب الوضع في الكوفة لغير صالحه ، هو محاولته لإفهام الرأي العام بأن الامتناع عن البيعة ، ونقد الحكم لم يكونا مقدمة لاستلام السلطة ، والسيطرة على الكوفة .

وأما ما يُنقل عن انصراف الإمام وطلبه تغيير مسيره ، فهو الانصراف عن التوجه إلى الكوفة ، وليس التراجع عن موقفه القاضي بعدم المبايعة ، أو نقد الحكم والحكومة ، والعمل بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وخلافاً لوجهة نظر الصالحى فإنّ الامتناع عن البيعة ، وإعلان النقد والمعارضة ، ليسا الأرضية المرجوة للوصول إلى الكوفة ، حتى يكون تغيير أوضاع الكوفة سبباً في تراجع الإمام ، واستعداده للبيعة ، أو التوقف عن المعارضة والنقد .

نعم فهو كان يعرف تماماً خطر النقد ، والاعتراض ، وآثاره الدموية المترتبة عليه ، بل إنه كان يُريد تسجيل مثل هذا الاعتراض بالدم حتى لا يمحو أثره مُطلقاً .

ثم إنه لم ينتخب طريقاً يُجنّبه على الأقل ، مقتل أبنائه وأنصاره ، إذا افترضنا أنه كان يعلم بأنّ الخطر مُحْدِق به لا محالة ، لكنه كان يعرف أيضاً بأنّ الخطر لم يكن مُحْدَقاً تماماً بأصحابه ، وبأهل بيته .

وعليه فكيف تساهل إذاً ، في مقتل هؤلاء ؟!

أضف إلى ذلك ، فإنه ، وحتى بعد اصطدامه بجيش الحر بن يزيد الرياحي ، تراه يطلب المزيد من الدعم ، والنصرة ، من أهالي المنطقة ، لا سيما من بني أسد ، وبالذات في ليلة العاشر من مُحَرَّم ، من خلال إرساله عبيد الله بن حر الجعفي ، والضحاك بن عبد الله المشرفي (راجع التواريخ ، وستجد أنّ هذا الأمر قد حصل بعد المواجهة مع الحر) .

ج - هل إنّ الإمام كان قد وضع ثقته الكاملة في أهل الكوفة ، وحسّن ظنه بهم ، وبعبارة أخرى كان يحسب حساباً لأهل الكوفة ، أم لا ؟

إنَّ البعض أمثال « ابن خلدون » و« القاضي ابن العربي » ، والبعض الآخر ، ومنهم الشيخ الصالحى ، اعتبروا أنَّ العامل الأساس فى نهضة الإمام ، هو فى الوضع الكوفى ، ودعوة أهل الكوفة ، للإمام ، وبالتأكيد فإنهم يكونون قد فرضوا حصول الثقة والاطمئنان لدى الإمام ، تجاه الوضع الكوفى .

ولذا تراهم قد عابوا على الإمام حُسن ظنه بأهل الكوفة ، الذى لم يأت فى الموقع والوقت المناسب ! أو كما اعتقد الصالحى بأنَّ حُسن الظن ، والثقة ، وتقدير الموقف لدى الإمام ، كانت سليمة ، لكن تغيير الأوضاع الفجائية هناك ، والتى لم يكن بالإمكان التنبؤ بها من خلال القنوات العادية ، والسُّبل الطبيعية كان هو السبب فى وقوع الهزيمة ، تماماً كما حصل للرسول (ص) فى (غزوة أحد) حيث سبب خطأ رُماة الجبل ، تلك الهزيمة المعروفة .

وبديهي القول هنا إنَّه لو كان العامل الأساس فى نهضة الإمام ، هو الدعوة الكوفية بالفعل ، لوجب على الإمام اتخاذ مزيدٍ من الحيطة والحذر ، قبل التوجه إلى هناك ، ولكان قد وجب عليه العمل بنصيحة ابن عباس ، وعدم الثقة بأهل الكوفة ، لا سيما وأنَّ الناصحين بذلك كانوا كثيرين ، وهم يقولون : « قلوبهم معك ، وسيوفهم عليك » .

وكان الإمام نفسه يقول : « لا يخفى عليَّ الأمر » ، وفى ردِّه على الفرزدق تراهُ يقول : « إننا نشكر الله أن جاءت النتائج وفق مُرادنا ولكن » وإنَّ حال القضاء دون الرِّجاء ، فلن يتعدَّ (يعتد) من كان الحقُّ نيَّته ، والتقوى سريره » .

هذا بالإضافة إلى أنَّ حُطبا كثيرة تُروى عن الإمام ، أنه قد أوردھا ، وهو فى طريق العراق ، والتى تُشير جميعاً إلى أنَّ الإمام ، لم يكن يعتبر رحلته رحلة آمنة بعيدة عن المخاطر ، بل على العكس من ذلك .

فإذا أخذنا خطبة : « حُطَّ الموت على ولد ابن آدم . . » .
وعبارة : « وإنَّ من هوان الدنيا أنَّ رأس يحيى بن زكريا ، أهدي إلى بغىٍّ من بغايا بني إسرائيل » .

وكذلك منامه المعروف : « إنَّ الله شاء أن يراك قتيلاً » .

وأيضاً مقولة : « إنَّ لك درجةً عند الله لن تنالها إلّا بالشهادة » .

مع هذه النصوص التاريخية باعتبارها وثائق صحيحة ، ومُسندة فإن الموضوع يصبح واضحاً للغاية .

د - هل إنَّ الإمام قد تحرك قاصداً كربلاء منذ البداية أم لا ؟ وإذا افترضنا بأنه لم يكن يقصد كربلاء ، فهل كان يستهدف القتل من حركته تلك ، وبعلمٍ مسبقٍ بأنه سيُقتل في هذه الرحلة أم لا ؟

ليس هناك دليل تاريخي يُثبت لنا أنَّ الإمام كان ينوي التوجه إلى كربلاء في رحلته من مكة نحو العراق ، كما أنه ليس من الممكن إثبات كونه كان عالماً بمقتله منذ البداية .

كل ما هنالك يمكن القول من الناحية التاريخية ، وبالاستناد إلى ظواهر الأمور ، إنه قد تحرك بقصد التوجه إلى الكوفة ، ولما كان قد اصطدم بجيش « الحر » ، وعدم سماح الحر له بالخروج من الأراضي العراقية مرة أخرى ، ورفض الإمام كذلك لاقتراح الحر أن يذهب مخفوراً إلى الكوفة ، الأمر الذي دفع بالحر أن يجتمع بالإمام غرباً ، وبمحاذاة الجادة الرئيسية ، حتى وصوله إلى كربلاء .

وعندها وصل كتاب ابن زياد ، الذي أمر بإيقاف القافلة هناك . هذا من الناحية الأولى .

وأما من الناحية الثانية فإنَّ التاريخ لا يؤكد لنا سوى أمر خطورة الرحلة ، وعدم الاطمئنان لها .

في الوقت نفسه فإنَّ هذا الأمر لا يتناقض ولا يتعارض مع فكرة أنَّ الإمام ومن خلال البعد الآخر لشخصية الإمام ، وهو البعد المعنوي للإمامة ، أن يكون عارفاً بأنه سيحل بكربلاء في النهاية ، وأنه سيستشهد هناك .

هـ - ماذا يعني قرار الإمام بالانسحاب لعدة مرات سواء بعد اصطدامه بجيش الحر مباشرة أو بعد وصوله كربلاء أيضاً ؟

لقد سبق وقلنا إنَّ قرار الإمام هذا ما هو إلّا عبارة عن تراجع الإمام عن

هدف التوجه إلى الكوفة ، وإعلان الحكومة هناك ، وليس قراراً بالتراجع عن فكرة عدم مبايعة يزيد ، ولا قراراً بالتراجع عن مبدأ النقد والاعتراض على الحكم في سياق مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وخلافاً لوجهة نظر الصالحى فإن الإمام لم يتراجع عن هدفه الآخرين بعد سقوط الكوفة ، إذ إنه لم يكن يرى في مقولة عدم المبايعة ، ومبدأ النقد والاعتراض على الحكم ، كسلاح تكتيكي ، من أجل الوصول إلى الزعامة ، كما إنه كان عالماً بخطور تحركه ذلك تماماً .

كل ما هنالك فإنه كان يُريد إعلان رفضه للمبايعة ، ونقده للحكم وللأوضاع الفاسدة ، وإيصال رسالته وصوته إلى الرأي العام بالدم ، الذي لا يمكن محوه أبداً .

و- من البديهي القول إن انتفاضة الإمام من زاوية عامل الدعوة الكوفية تعتبر نوعاً من الثورة الابتدائية ، بل وحتى نوعاً من التحرك الذي يستهدف الإمساك بالسلطة ، ولا يقتصر الأمر على كونه نوعاً من التمرد ضد الحكم الذي يستهدف إضعافه ، أو إصلاحه ، في حين أن المسألة من زاوية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يمكن اعتبارها حركة تستهدف الإصلاح ، سواء حصل ذلك الإصلاح من خلال إضعاف الحكم ، أو بسقوطه ، أو من خلال إصلاحه فقط .

ز- يتضح مما سبق أن الإمام كان يحمل تكليفاً خاصاً ، بموجب كل عاملٍ من تلك العوامل .

كما يتضح أيضاً بأن أهمية النهضة الحسينية تكتسب بُعداً وقيمة خاصة ، من خلال كل عامل من تلك العوامل .

فمن خلال عامل الدعوة الكوفية ، واحتمال نجاحها الذي لم يكن يبلغ أكثر من (٥٠ ٪) فإن أهمية النهضة الحسينية لا تتجاوز أكثر من بروز فرصة مناسبة للإمام للتحرك ، وفي إطار ذلك أيضاً يتبين نهج الإمام الخاص بالحكم ، والذي يظهر بوضوح من خلال رسالته إلى أهل الكوفة ، والتي حملها إليهم مسلم بن عقيل ، وخطبته المعروفة بالبيضة .

وأما من زاوية عامل البيعة، فإن أهمية عمل الإمام، من هذه الناحية، وحتى قبل إعلان النصرة من جانب أهل الكوفة، ينحصر في الواقع في رفض الإمام لطلب الحكومة القمعية والدموية وهي المبايعة، واستعداده أن يموت على أن يبايع تلك الحكومة.

واستناداً إلى هذا العامل، فإن الحكومة لو لم تطلب منه شيئاً، وكانت قد تركته وشأنه، فإنه لم يكن يُريد منها شيئاً.

وأما من ناحية العامل الأول فإن عدم دعوة أهل الكوفة له، وعدم إعلانهم الاستعداد لنصرته، ربما كان يعني عدم تمرد الإمام على الحكم، بل وحتى مبايعته كذلك.

على كل حال نقول: إن عامل الامتناع عن المبايعة، أكثر أهمية من عامل قبول دعوة أهل الكوفة، ذلك أن عامل قبول الدعوة الكوفية كان يحمل معه احتمال النجاة والفرار بالجلد، إضافة إلى احتمال النجاح والموقفية، في إسقاط الحكم، واستلام السلطة، في حين أن عامل الامتناع عن المبايعة، لا سيما في الأيام الأولى من طلب البيعة، كان يحمل معه نسبة عالية من الخطر، بل إن احتمال الموت المحقق كان عالياً جداً.

وأما عامل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والذي يستند إليه الإمام كثيراً في خطبه، ويذكره منفصلاً عن أية إشارة إلى عامل الامتناع عن المبايعة، أو عامل الدعوة الكوفية، فإنه في الواقع العامل الأكثر أهمية وقيمة، من كلا العاملين الآخرين، ذلك لأن الإمام في هذه الحالة، هو الذي يتخذ قرار المواجهة مع الحكم الراهن آنذاك وأن تلك المواجهة نوع من الهجوم، الذي يبدأه الإمام بنفسه، وليس الحكومة، ولا حتى الناس.

وكما قلنا: فإن الإمام في إطار هذا العامل عنصر مهاجم، ومعترض، وليس مدافعاً، وعمله نوع من العمل الابتدائي، وليس محض رد فعل سلبي على طلب البيعة، أو رد فعل إيجابي على طلب الدعوة الكوفية له لتشكيل الزعامة.

واستناداً إلى هذا العامل فإن الإمام عنصر معارض ومتمرد ويسريده تغيير

الأوضاع الفاسدة ، سواء أطلبت منه الحكومة البيعة ، أم لم تتطلب .
وسواء كذلك أن يكون أهل الكوفة قد دعوه إليهم ، وأعلنوا نصرتهم له ،
أم لم يفعلوا ذلك .

فإنه رجل المعارضة والتغيير في كل الحالات ، ومن هذه الناحية فهو درسٌ
كبير وغنيٌّ ومفيد للغاية لنا .

وعليه ، فإن هذه العوامل الثلاثة ، تختلف عن بعضها البعض ، وتتفاوت
أهميتها سواء من زاوية تكليف الإمام ، ورد فعله تجاه كل واحدٍ منها ، أو من
زاوية قيمتها ، وصلاحيّة موضوعها للإحياء والتخليد ، أو من زاوية آثارها
التعليمية والتربوية .

وكما سبق وأن ذكرنا مراراً فإن الإمام من زاوية هذا المنطق صاحب ثورة ،
ورسالة ثورية عامة ، وشاملة .

أسئلة حول النهضة الحسينية

١ - هل إنّ الانتفاضة الحسينية نوعٌ من الانفجار العفوي ، أم نوع من
الإرادة الواعية ؟ .

وفي حالة الاحتمال الثاني ، فهل هي ثورة ، وقيام ابتدائيّ مناهض لجهاز
الحكم والسلطة ، أم نوعٌ من الدفاع والمقاومة مقابل جهاز السلطة ؟ .

وإذا كان دفاعاً ، فهل هو دفاعٌ مقابل محاولة الحكم النيل من الإمام
واغتياله ، أم مقابل مطالبتهم إياه بالبيعة ؟ .

وإذا ما كان التحرك عبارة عن ثورة ابتدائية ، فهل كانت الثورة قد حصلت
بسبب دعوة أهل الكوفة للإمام أم إنّ الثورة كانت ستحصل حتى ولو لم تحصل
الدعوة ؟ .

٢ - هل كان الإمام يعلم أنه سيقتل (وهل كان ذلك من علم الإمامة أم
من خلال القرائن الحتمية) ، أم أنه لم يعلم بذلك ولم يتصور أنه سيقتل ؟ .

وفي الحالة الثانية أي إذا كان لا يعلم ، فهل كان سيتصرف بغير ما تصرف به أم أنه كان سيتصرف كما تصرف بالفعل ؟ .

وبالتالي فإنه بعد أن عَلم بأنه سَيُقتل هل نَدِم على ما فعل أم لا ؟ .

٣ - هل إنَّ الإمام الحسين (ع) كان قد قصد كربلاء منذ البداية (وبالتالي نحو مكان قتله بالضرورة) ، أم إنَّه حتى إذا ما افترضنا معرفته الواعية بالذهاب نحو القتل ، فإنه لم يكن يقصد كربلاء بالذات ؟ .

وإذا لم تكن كربلاء وجهته ، فأين كانت وجهته إذن ؟ أم هل كانت وجهته العراق ، ومعسكر المسلمين ، ومركز الشيعة على العموم ، حتى يتخذ منه مقراً عاماً لتحركاته المقبلة ، أم إنَّه لم يكن يقصد نقطة معينة بالذات بقدر ما كان يهدف الخروج من الحجاز ، وربما كان يهدف التوجّه إلى الشام أيضاً ؟ .

وفي كل الأحوال إذا كانت وجهته ليست كربلاء ، فهل كان يعلم بأنه سيستشهد في هذه الرحلة أم لا ؟ .

٤ - هل اقترح الإمام مشروعاً أو خطة للصلح أم لا ؟ .

وإذا كان الجواب بالنفي ، فهل إنَّ الطرف المقابل اقترح الصلح على الإمام ، ولم يقبل به الإمام ؟ .

وإذا ما افترضنا أنه اقترح الصلح ، فعندها ينبغي الاستنتاج بأنه لا فرق بين الحسين (ع) وأخيه الحسن (ع) ، إنَّما الفرق يكمن في الطرف المقابل ، فمعاوية قبل بالصلح ، بينما يزيد رفض صلح الحسين .

وإذا ما كان قد اقترح الصلح بالفعل فلماذا لم يبايع منذ البداية ؟ .

الأستاذ الصالح النجف آبادي يعتقد أنَّ الإمام اقترح الصلح خمس مرّات .

٥ - إذا كان الإمام الحسين (ع) لم يُقدِّم اقتراحاً بالصلح ، ولم يقبل كذلك باقتراح الصلح من الطرف المقابل ، فما هو السبب وراء ذلك ؟ ثم ما هو السبب في قبول الإمام الحسن (ع) للصلح ؟ .

٦ - هل يمكن لعبارة : « إِنَّ اللَّهَ شَاءَ أَنْ يَرَاكَ قَتِيلًا » . أن تكون صحيحة حقاً ؟ .

٧ - لماذا أبدى الإمام الحسين (ع) كل تلك المقاومة تجاه مطالبة السلطات له بالبيعة ، بينما لم تظهر مثل تلك المقاومة من قبل أمير المؤمنين ، والأئمة الآخرين ؟ .

وهل يمكن القول بأن بيعة علي (ع) كانت نوعاً من التسليم للأكثرية ، وإن كانت على خطأ ، بينما كانت بيعة الإمام الحسين ليزيد ستعني التسليم بفكرة ولاية العهد ، وإضفاء الشرعية على الحكم الوراثي ؟ .

٨ - هل هناك فرق بين البيعة والصلح أم لا ؟ .

أي هل يمكن لنا القول بعدم جواز البيعة في ظروف معينة ، لأن البيعة قد تعني هناك إضفاء الشرعية على الحكم ، وتأنيده ، بينما الصلح ممكن وجائز باعتبار أن الصلح عادة ما يحصل بين طرفين متخاصمين ، ولا يحمل معه أي مفهوم بالتأييد ، أو إضفاء الشرعية على الطرف الآخر بل يُفيد معنى التخاصم ؟

وعليه هل يمكن القول بأن الإمام الحسين (ع) لم يكن مستعداً للمبايعة ، بينما أبدى استعداداً للصلح باعتباره رجل المعارضة ، أو الخصم المعارض للسلطة المركزية ؟

٩ - هل توجد قرائن تاريخية تدلّ على أن الإمام الحسين (ع) كان بصدد استلام السلطة ؟ .

أم أنه لم يكن أكثر من رافض لفكرة المبايعة ، أو في أحسن حالاته واحداً من العاملين بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ .

ونحن من جهتنا نعتقد بأن الرد الإيجابي للإمام على دعوة أهل الكوفة وكتبهم خير قرينة على أن الإمام كان بصدد استلام السلطة والزعامة ، ومجيء « مسلم » إلى الكوفة إنما حصل من أجل ذلك .

وتأسيساً على ذلك يطرح السؤال التالي نفسه وهو : هل إن توجه الإمام من

المدينة إلى مكة ، كان لمجرد الامتناع عن البيعة ، أم بسبب وجود إمكانية للعمل والنشاط من أجل الزعامة ؟ .

١٠ - هل إنَّ بيعة السَّجَّاد ليزيد في وقعة « الحرة » قد حصلت عن طريق مسلم بن عقبة ؟ .

١١ - إنَّ أحد الأسئلة المطروحة على الدوام ، هو التساؤل عن سبب تكرار الإمام لاقتراح العودة إلى الحجاز ، بعد اصطدامه بجيش الحرّ ، والمواجهة مع عمر بن سعد ؟ ! .

١٢ - هل إنَّ اقتراح الإمام بالعودة إلى المدينة بعد مواجهته للحرّ ، ولعمر بن سعد ، كان يستهدف توسيع رقعة الثورة ؟ .

١٣ - إذا كان الإمام لا يُريد الانتفاضة والثورة ضد الحكم ، فلماذا إذن يدعو أهل البصرة للقيام ، ويكتب الكتب إليهم ؟ .

وهل قام الإمام بكتابة مثل هذه الكتب إلى أهالي المناطق والولايات الأخرى ، مثل اليمن ، وخراسان ، ومصر ، وغيرها أم لا ؟ .

ربما يكون قد حصل مثل هذا الأمر لكنه ظل طي الكتمان ، والمعروف أنَّ رسائل البصرة قد تمَّ الكشف عنها بواسطة « المنذر بن جارود » .

١٤ - يطرح الأستاذ الغفاري في مقدمة مؤلفه « تحقيق في تاريخ عاشوراء » القضايا التالية على بساط البحث ويقول :

هل إنَّ عمل الحسين بن علي ، وتحركه ، كان نتيجةً لقرار الامتناع عن البيعة ، أم تحركاً استهدف التجاوب مع الدعوة الكوفية ، أم إنَّه كان انتفاضةً ، ونهضةً ، وثورةً ، كما يُعبّر عنها في العصر الحديث ؟ .

وهل كان يعلم بأنَّه سيُقتل أم لا ؟ .

وهل كان يتحرك بناءً على مخطط مدروس سلفاً ، أم أنَّه كان يتخذ القرارات ، والإجراءات ، ساعة بساعة ، وحسب نوع الحدث الآني في كل مرة ؟ .

ولماذا تراه أحياناً يُرخص رفاق دربه ويُخَيِّرهم بين البقاء ، أو الذهاب ،
وأحياناً أخرى تراه يطلبُ المزيد من العناصر للدعم والمساندة ؟ .

فقد اقترح مثلاً على جماعته تركه وحيداً ، والذهاب وشأنهم ، بعد سماعه
نبأ استشهاد مسلم ، لكنه طلب من « عبید الله بن حر الجُعفي » ، و « زهير بن
القين » ، و « الضحاک بن عبد الله المشرقي » أن يلتحقوا به ، ويدعموه ، بل إنّه
تراه يطلب من الضحاک أن يقدّم له الدعم والمساندة ، حتى النهاية ، ثم يذهب .
وفي ليلة العاشر من محرم تراه يُحرّر أنصاره وأهل بيته كافة من عقد البيعة ،
بينما يطلبُ النصرة والاستمداد من قبيلة بني أسد ، عن طريق « حبيب بن
مظاهر » .

ثم إنّ الذي يعلم مدى خطورة مثل ذلك العمل ، الذي أقدم عليه ،
واحتمال مقتله في ذلك الطريق ، كيف يا تُرى يأخذ عياله وأولاده معه إلى تلك
الموقعة ؟ .

البعض تصوّر أنّ ذلك إنّما قد حصل بدون خطة مسبقة ، وكل ما هنالك
أنّه أصبح أمراً واقعاً بالتدريج .

وبرأي هذه الفئة فإن تحرك الإمام قد بدأ في الواقع عند ما رفض البيعة
ليزيد والأمر الذي تطلّب توجهه إلى مكة باعتبارها محلاً آمناً له ، ولأهله ،
وعياله ، وأولاده .

لكن الذي حصل فيما بعد من تطورات لا سيما أمران أجبرا الإمام على
ضرورة مغادرة مكة ، وهما الخوف من اغتياله في مكة وهتك حرمة الكعبة ،
والثاني دعوة أهل الكوفة له بالتوجّه إليهم .

ومع هزيمة مسلم التي تصادفت مع وصول الإمام إلى حدود العراق فإنّ
الإمام قد قرّر العودة من حيث أتى ، لكن الإمام منع من ذلك ، وتورط في
كربلاء ، وقُتل هناك .

البعض قال إنّ الإمام لم يكن يعلم بأنّه سيقتل ، وإلاّ فإنّه لم يكن يُقدم على

مثل ذلك التحرك ، وإنّ الإمام لم يكن يتصور أنّه وهو القريب من رسول الله (ص) سيتعرض للقتل والتصفية .

البعض الآخر قال بالعكس فالإمام كان متيقناً بأنّه سيُقتل في كل الأحوال ، وعليه فإنّه اختار الشهادة بعزّة على القتل ذليلاً .

والأستاذ الغفاري نفسه يرى هنا بأنّ حركة الإمام الحسين ، وأعماله ما هي في الواقع إلّا نهضة ، وانتفاضة ، وانقلاباً ، وثورة .

وإنّ هناك بعض المقدمات التي توافرت في زمن معاوية ، والتي كانت تستوجب من الإمام ، القيام ، والثورة .

ومن زاوية أخرى فإنّ هناك الكثير من القرائن والدلائل التي تُشير إلى أنّ الإمام كان يُعدّ لمثل تلك الأيام ، منذ ذلك الحين .

ونحن بدورنا سنشير إلى تلك الاستعدادات في أوراقنا التي سيأتي ذكرها في فصل « ملاحظات حول النهضة الحسينية » تحت الرقم (٣٨) .

ملاحظات حول النهضة الحسينية

١ - يقول الأستاذ صالح نجف آبادي في مقدمة كتابه^(١) : « في موضوع واقعة كربلاء ، توجد وجهتا نظر : إحداهما إفراطية ، وأخرى تفريطية ، فواحدة تقول بأنّ الانتفاضة الحسينية ما هي في الحقيقة سوى ثورة غير ناضجة ، وانتفاضة ، أو تمرد لم يُحسب له حساب دقيق ، أو قل انقلاب فاشل ، تسبّب في إشاعة الفوضى ، وتخريب النظم العامة للبلاد ، الأمر الذي أجبر الطرف المقابل على قمع ذلك التمرد ، حفاظاً على النظام العام ، والاستعانة بقوة السيف ، والترس ، وسائر الأسلحة بهدف إرجاع سلطته ، وذلك عملاً بتعاليم النبي التي تُفيد بضرورة قمع كل من يُريد إيجاد الفرقة ، بين المسلمين ، وأمة الإسلام .

(١) وهو الكتاب المعروف « بالشهيد الخالد » .

بينما تقول وجهة النظر الثانية : إنَّ الحسين بن علي (ع) ، إنما تحرَّك بتعليقات خاصة موجهة إليه شخصياً من عالم الغيب ، وأودى بنفسه إلى القتل ، تطبيقاً لتلك التعاليم التي لم يطلع عليها أحد .

ونحن نقول : دعونا نفترض أنَّ الثورة الحسينية كانت تحركاً غير ناضج ومُتسرعاً ، كما تدعي الفئة الأولى لكننا لا يجوز هنا أن نبرر للطرف المقابل قمعه لها ، وضربه إياها ، والتعبير عنها ، بمثابة نوعٍ من الإخلال بالنظم العامة ، لأنه في الحالات التي يظهر فيها فساد الحكم ، وتكون الإمكانيات للقيام مفقودة ، فإنَّ ذلك لا يكون دليلاً على شرعية قتل من يتمرد ، أو يقوم على ذلك النظام ، وإنَّ كان الحكم العام هو بعدم القيام .

وثانياً : فإنَّ هناك شقاً ثالثاً في القضية ، وهو أن يكون الإمام الحسين (ع) قد قام ضد الوضع ، عملاً بالتعاليم الكلية للإسلام ، وهي التعاليم التي لا تفرض حتمية توفر النجاح ، وحصول الموفقية التامة ، بل يكفي أن يكون هناك احتمال بتحقيق أهداف القيام ، حتى يصبح ذلك جائزاً ، إضافة إلى أنَّ عدم تحقق نتائج القيام لا يلحق ضرراً بالإسلام ، بل عساه يكون قد دفع بالأوضاع خطوة متقدمة نحو تحقيق أهداف الثورة والإصلاح .

وهذا ما يتبين أيضاً من كلام الإمام نفسه في جوابه إلى الشاعر المعروف « الفرزدق » حينما التقاه في الطريق بعد الخروج من مكة ، إذ قال له : « وإنَّ حال القضاء ، دون الرجاء ، فلن يتعدى من كان الحقُّ نيته ، والتقوى سريره »^(١) .
وأما الشق الرابع ، فإنه ينبغي القول بأنَّ العلم بالقتل لا يعني العلم بعدم تحقق أهداف النهضة والقيام .

لأننا لا نستنتج ذلك من تصور الإمام إلَّا إذا كانت أهداف الثورة منحصرةً بتحقيق زعامة الإمام ، فعندها فقط يكون القتل مساوياً لعقم الثورة ، وفشلها ، وهزيمة أصحابها .

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢١٨ ، وقد جاء فيه « فلم يبعد » مقابل « لن يتعد » .

بينما لو كان الهدف هو إضعاف الحكم الأموي ، وإظهاره بمظهر المخالف للإسلام ، وإحياء سنة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فعندها لا يكون القتل مساوياً لفشل الثورة ، وعدم تحقق أهدافها^(١) .

ولو لم يكن قد حصل مثل هذا القيام الذي تبعه انتفاضات أخرى ، فإنه لم يكن بالإمكان فصل الإسلام ، والأموية عن بعضهما البعض ، مما يعني أنّ زوال الأموية يوماً ، كان سيعني زوال الإسلام أيضاً .

٢ - عندما يُبحث في أسباب النهضة الحسينية ، فإنه يتم البحث حولها ، مرةً من زاوية الأسباب التي دفعت الإمام إلى مثل ذلك القيام ، وأحياناً يمكن النظر إليها من زاوية الأسباب والبواعث ، التي كانت تدفع بالعدو ، للضغط على الحسين بن علي (ع) ؟ والأستاذ الصالح يري أنّ عوامل الضغط ثلاثة :

أ - ترسيخ دعائم الحكم من خلال أخذ البيعة له ، وبيعة الإمام بالذات كانت تعني الكثير بالنسبة ليزيد ، بينما امتناعه عن المبايعة كان يُلحق الضرر البالغ به وبحكومته .

ورفض البيعة من قبل الإمام كان بمثابة الأمر الأكثر إثارةً في ظل سقوط حكم معاوية الديكتاتوري الذي دام لأكثر من عشرين عاماً .

ب - عقدة الحقد التي كانت تُحرّك مشاعر يزيد ، وتوجه تحركاته ، وهي المشاعر التي بدت بوضوح عندما آتوه برأس الإمام من الكوفة ، فإذا به يقرأ الآية الكريمة : ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ... ﴾^(٢) .

ج - حس الانتقام الذي يعود إلى ماضي الصراع بين بني هاشم وبني أمية ،

(١) تماماً كما يحصل في عصرنا الراهن ، عندما يقوم أفراد معنيون بحرق أنفسهم ، أو في الحقيقة يُشعلون بأنفسهم تعلة الثورة ، فيكونون الشرارة الأولى للقيام ! حتى وإن كان مثل هذا العمل غير جائز في الإسلام ، لكنه في الوقت نفسه لا توجد هناك ضرورة بضمان عدم الموت حتى يصبح القيام ضرورياً . وهذا ما فعله قيس بن مُسهر الصيدائي ، وعبد الله بن يقطر - وهما من سفراء الحسين إلى أهل الكوفة - .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦

وما فعله (هند) في أكلها لكبد حمزه بن عبد المطلب ، وردود فعل أبي سفيان المختلفة ، على مر التاريخ ، إلّا خير شاهد على ما نقول .

وقد تركت حرب (بدر) آثارها أيضاً في أعماق بني أمية ، وحفرت الأحقاد في قلوبهم ، ولذلك ترى يزيد بعد مقتل الحسين (ع) يقرأ ذلك الشعر المعروف وهو يتشفى بقتل الحسين فيقول: « ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا . . . »^(١) .

٣ - لا بد من عمل مقارنة بين وضع الإمام الحسين بعد رحيل معاوية ، واستغاثة الناس ، واستمدادهم البيعة منه ، مع وضع أمير المؤمنين علي ، بعد مقتل عثمان ، ومطالبتهم إياه بقبول المبايعة له بالخلافة . . . المقارنة نفسها ينبغي أن تحصل بين الناس ، وحالتهم في العصرين .

٤ - برأي الأستاذ الصالحي لا بد للثورة الابتدائية ، أن يكون فيها احتمال النجاح أكثر من احتمال الفشل ، وإلّا فإنّ الثورة لا تجوز . بينما يرى أنّ مثل هذا الاحتمال مهما كان ضعيفاً في حالة الدفاع ، فإن ذلك أمرٌ مشروع ، وجائز شرعاً .

والصالحي هنا لا يرى القضية إلّا من جانب الاحتمال ، ودرجة الاحتمال ، وإنه لو كان الظن غالباً يجوز التحرك ، وإلّا فالتحرك غير جائز .

بينما يجب رؤية الموضوع من زاوية الأمر المحتمل نفسه ، ففي بعض الحالات التي يكون فيها المحتمل في دائرة فقدان والتصفية فإن درجة الاحتمال هنا حتى لو كانت مرتفعة جداً ، فإنّ التحرك يصبح غير جائز في هذه الحالة .

في حين أنّ بعض الاحتمالات تتطلب القيام والتحرك من أجلها ، حتى لو كانت درجة الاحتمال بالموقفية ، ضعيفة للغاية .

٥ - برأي الأستاذ الصالحي فإنّ تحرك الإمام قد بدأ في الواقع ، من خلال هجوم أجهزة السلطة الحاكمة ضده ، وكان ذا مراحل أربع :

(١) وهو الشق الرابع للقضية ، أو دليل آخر على صحة المطالب الثلاثة الأنفة الذكر ، وهي أنّ العرب الجاهليين ، لا سيما أمثال ابن زياد وزيد ذوو سلوك خشن ، ودموي .

أ - ابتداءً من ذهابه إلى مكة ، إلى أن كان القرار لا يزال هو البقاء في مكة .

ب - ابتداءً من قرار التوجه إلى الكوفة إلى لحظة المواجهة مع جيش الحر .

ج - من لحظة اصطدامه بالحر حتى شروع الحرب .

د - مرحلة الحرب والقتال ، وإن من بين المراحل الأربع ، يمكن اعتبار المراحل الأولى ، والثالثة ، والرابعة ، بمثابة مراحل دفاعية ، بينما تعتبر المرحلة الثانية مرحلة شبه دفاعية - شبه ابتدائية (هجومية - المترجم -)

٦ - يدّعي الأستاذ الصالحي في كتابه^(١) أن الإمام الحسين (ع) ، لم يكن يقصد إعلان معارضته للحكم قبل مطالبة الحكم له بالمبايعة ، وإنه لو لم يطلب الحكم منه ذلك لما قرّر إعلان الثورة ، ولسلك المنهج نفسه الذي سيسلكه أيام خلافة معاوية ، حيث ورد في رسالة له عليه السلام (نقلاً عن رجال الكشي طبع النجف ص ٤٩) وعن « الإمامة والسياسة » الجزء الأول ص ١٨١) أيضاً إذ قال : « وما أريد لك حرباً ، ولا ممالك خلافاً »^(٢) .

وإنه لا فرق بين حكومة كل من يزيد ومعاوية .

وردّنا على هذا الادّعاء هو :

(١) النسخة الخطية ص ٦٤ .

(٢) لكن الأستاذ الغفاري يُشير إلى هذا الموضوع في مقدمة كتابه « تحقيق تاريخ عاشوراء » فيقول إنّ الإمام قد كتب إلى معاوية أيضاً في نفس الرسالة : « واني لأخشي الله في ترك ذلك - أي الحرب - » وفي مكان آخر : « واني والله ما أعرف أفضل من جهادك وإن لم أفعله فأسْتَغْفِر الله لديني . . . » وأقول : أنّ جمع هذين المطليين يعني أن الإمام كان ينتظر الفرصة المناسبة للقيام . كما ورد في نفس الكتاب الصفحة ٧٣ أن معاوية كتب إلى الحسن (ع) وهو خارج من الكوفة إلى المدينة يقول له فيها إنه ينبغي عليه الذهاب أولاً إلى قتال فروة بن نوفل الخارجي قبل التوجه إلى قتاله ، فبرد عليه الحسن (ع) قائلاً : « لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة لبدأت بقتالك فإني تركتك لصالح الأمة وحقن دماؤها » . وبما إن قتال أهل القبلة يكون واجباً بعض الأحيان لذلك نستنتج أن صلح الإمام الحسن كان معاهدة صلح عسكرية . من هنا تُدرك أيضاً وحدة الخط والمنهج الحسيني والحسيني .

أولاً : إن هناك تفاوتاً واضحاً بين ظروف تأسيس كلٍ من الحكومتين
فحكومة يزيد تُعتبر حكومة حديثة العهد ، وأي سكوت مقابل هذا الوليد
الجديد ، كان سيعتبر نوعاً من المداينة ، خلافاً لحكومة معاوية ، التي اختلفت
ظروف تشكيلها ، هذا إضافة إلى الظروف الواقعية لكل من الحكومتين .

فحكومة معاوية كانت حكومة لا دينية ، لكنها عاقلة خلافاً لحكومة يزيد ،
التي كانت بالإضافة إلى مناهضتها للدين ، واقعة تحت تأثير النفوذ المسيحي .

وأما ثانياً : فإنّ هذا الادّعاء يتناقض مع قول الإمام الحسين (ع) نفسه إذ
يقول :

« وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براع مثل يزيد » وهو ما ينقله
الصالحى نفسه في كتابه الصفحة ٣٦ نقلاً عن مقتل الخوارزمي . [والذي
يُستنتج منه أنّ الإمام نفسه قد وضع تفاوتاً بين حكومة كل من يزيد
ومعاوية] .

٧ - وفي كتابه ص ٦٧ أيضاً ، ينقل الصالحى نقلاً عن « مقتل الخوارزمي »
أنه ورد في رد الإمام على محمد بن الحنفية أنه قال : « لولم يكن في الدنيا ملجأ ،
ولا مأوى ، لما بايعت يزيد بن معاوية » .

وهذه العبارة تبين لنا التصميم القاطع للإمام ، على عدم المبايعات ليزيد ،
وهذا يتناقض مع دعوى الصالحى من أنّ الإمام صار مستعداً للبيعة في الأيام
الأخيرة .

٨ - يقارن الصالحى في كتابه الصفحة (٧٠) بين خروج الإمام من المدينة
إلى مكة مع هجرة النبي (ص) السرية من مكة إلى المدينة !

٩ - يُلاحظ في كتاب الأستاذ الصالحى اهتمامه بأمرين :

الأول وهو الاجتناب عن سفك الدماء ، قدر الإمكان ، مع الحفاظ على
الأمن العام .

والثاني وهو : إنّ النجاح والنصر محصورٌ في الواقع في التغيير الفوري
للحكم ، وانتقال الزعامة للإمام .

١٠ - وفي الصفحة (٧٦) من كتابه ينقل أيضاً نقلاً عن « مقتل الخوارزمي » ص ٧٦ أنه ورد أن الإمام في رده على ابن عباس قال : « يا بن عباس ! فما تقول في قومٍ أخرجوا ابن بنت رسول الله من وطنه ، وداره ، وموضع قراره ، ومولده ، وحرم رسولهِ ، ومجاورة قبره ، ومسجده ، وموضع مهاجرته ، وتركوه خائفاً مرعوباً ، لا يستقرّ في قرار ، ولا يأوي إلى وطنٍ ، يُريدون بذلك قتله ، وسفك دمه » .

١١ - وفي الصفحة (٧٩) من كتابه ذكر نقلاً عن « تاريخ اليعقوبي » (ج ٢ ص ٢٣٥) أنه ورد أن ابن عباس ، وفي رسالة له إلى يزيد ، بعد أن شكره الأخير على عدم مبايعته لابن الزبير ، قال له فيها : « وما أنس من الأشياء فلست بناسٍ إطرادك الحسين بن علي من حرم رسول الله إلى حرم الله ، ودسك إليه الرجال ، تغتاله فأشخصته من حرم الله إلى الكوفة » .

وهذا الكلام هنا يأتي مؤيداً لوجهة نظر « الطريحي » التي تقول بأن الإمام الحسين كان مُلاحقاً ومُهدداً بالقتل ، وقد أرسل إليه ناسٌ من ثلاثين شخصاً ، في مهمة لاغتياله ، وهو في مكة ، الأمر الذي اضطره لمغادرتها متوجهاً إلى الكوفة بالرغم من عدم اعتماده ، وثقته بأهل الكوفة .

وهو الأمر الذي يردُّ في (إرشاد المفيد ص ١٩٩) أيضاً حيث جاء في رد الإمام على الفرزدق أنه قال : « لو لم أعجل لأخذت » تعليق الشيخ المفيد على ذلك بقوله : « ولم يتمكن من تمام الحج مخافة أن يُقبض عليه بمكة ، فيُنفذ به إلى يزيد بن معاوية » .

كما ورد أيضاً عن « مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٢٦ » ، أنه عليه السلام في رده على « أبي هرة الأزدي » قال : « إن بني أمية ، أخذوا مالي ، فصبرت ، وشتماوا عرضي ، فصبرت ، وطلبوا دمي فهربت » . والأستاذ الصالح يري في كل هذه الشواهد دليلاً على أن الإمام إنما كان متوجهاً إلى الكوفة ، بهدف تشكيل الحكومة ، ولكن الذي يبدو للعيان أن كل تلك الشواهد ، متعلقة في الواقع ، بامتناع الإمام عن البيعة ، وعدم وجود الأمن في مكة .

١٢ - إن الإمام أراد من تحركه الإمساك بالأوضاع العامة ، ففي رسالته الموجهة إلى أهل الكوفة بيد مسلم كتب فيها يقول : « ولعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق » .

وفي خطبة له أمام الحر وجيشه قال : « ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان » .

كما أنّ خطبة « زهير بن القين » في يوم عاشوراء ، ترى فيها إشارة إلى عدم أهلية الأمويين بالولاية ، مقابل صلاحية الحسين (ع) ، وجدارته ، لمثل هذا المقام .

١٣ - برأي الأستاذ الصالحي ، فإن تكليف الإمام منذ اللحظة التي اصطدم بها بجيش الحر ، قد تغير باتجاه آخر ، وإنه صار مُكلفاً بالمحافظة على نفسه ، وعقد الصلح ، ولهذا فإنه عليه السلام قد قال : « وإن لم تفعلوا ، وكُنتم لمقدمي كارهين ، ولقدومي عليكم باغضين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم » .

وهنا لا بد من طرح الأسئلة التالية :

أولاً : لا بد من التذكير بأن المفروض هو أنّ مكة بالنسبة للإمام ، مثل الكوفة ، وليس له فيها أمان .

وثانياً : فيما لو كان الإمام قد بايع ابن زياد بالفعل حتى وإن كانت البيعة بواسطة الحر ، فهل كانوا سيتعرضون له ؟

أم أنهم كانوا سيتركونه وشأنه ؟ أم أقصى ما هنالك سيُنفذونه إلى يزيد ؟
فلماذا لم يُبايع الإمام في ظل تلك الظروف الصعبة ، وهو الذي كان كل همّه الصلح ، كما يقول الأستاذ الصالحي ؟

عين هذا الموضوع يتم التطرق إليه في (تاريخ الطبري) ، و(إرشاد المفيد) (والأخبار الطوال) ، إذ ينقلون عن الإمام في جوابه إلى عمر بن سعد أنه قال : « فأما إذ كرهتموني فأنا أنصرف عنكم » .

كما أن تعبيراً آخر مشابهاً ورد على لسان الإمام في خطبة عاشوراء حيث يقول : « أيها الناس ، إذ كرهتموني ، فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض » .
والمخاطب في هذه العبارات كما يبدو هم أهل الكوفة فقط ، وليس حكومة يزيد .

كما ينقل الصالحى أيضاً في كتابه (ص ٨٨) عن (ذخائر العقبى ص ٨٨) وعن (تاريخ ابن عساكر الجزء الرابع ص ٣٣٤) وعن (سير النبلاء ص ٢٠٩) أن الإمام قد قال لهم أيضاً : « ألا تقبلون مني ما كان رسول الله يقبل من المشركين ؟ كان إذا جنح أحدهم للسلم قبل منه . قالوا : لا . »

وهذه عبارة مستبعدة من الإمام خاصة ، وإن مفاد عبارة « إن جنحوا للسلم » هنا لا يعني الصلح بالضرورة ، بل إن ظاهرها يفيد معنى الاستسلام ، في حين أن أقوال الإمام الأخرى كلها تشير إلى عدم استعدادة للرضوخ والاستسلام أبداً .

١٤ - في كتابه المذكور في الصفحة (٩٣) نرى أن الأستاذ الصالحى يقبل بوجهة نظر الطبري القائلة بأن الإمام قدّم ثلاثة اقتراحات لحكام الكوفة بالفعل وهي :

أ - عودته إلى الحجاز [هذا بالرغم من أن الحجاز لم يكن مكاناً آمناً بالنسبة إليه . (لو ترك القطا لنام] .

ب - التوجه إلى أحد الثغور .

ج - اللقاء بيزيد .

١٥ - استناداً إلى قراءته لكل من « السيد المرتضى » في كتابه « تنزيه الأنبياء » والشيخ الطوسي في أثره « تلخيص الشافي » فإن الأستاذ الصالحى يدّعي :

أ - بعد اطلاع الإمام على مجريات الأوضاع في الكوفة ، وهزيمة القوات العراقية ، وعدم قدرته على العودة إلى الحجاز ، فإنه أظهر تمائلاً لملاقاة يزيد .

ب - وذلك أملاً في أن لقاء يزيد يمكن أن يجعل الأمور تسير نحو الحل السلمي ، لكن الأستاذ الصالحي لا يوضح هنا هل إن ذلك كان سيحصل بالبيعة أم بدونها ، خاصة وأن الشق الأول لا يقبل به الحسين بينما الشق الثاني يرفضه يزيد ؟ !

ج - إن يزيد كان أكثر تسامحاً مع الإمام من ابن زياد ، وإنه لم يكن في الحقيقة يرغب في قتل الحسين ، وهو لم يأمر بقتل الإمام .

د - كان الإمام متيقناً من أنه لو استسلم لابن زياد ، لكانوا قد قتلوه شر قتلة .

والنتيجة التي يتوصل إليها من كل ما تقدم ، أن الإمام لم يكن لديه أي طريق للفرار ، وهو كان لديه الأمل بالنصر قبل سماع أخبار الكوفة ، وكان الأمل كبيراً ، لكنه بعد فشل برنامج الكوفة ، كان على استعداد للعودة إلى الحجاز ، فمنعوه من ذلك ، ثم كان على استعداد للتوجه نحو يزيد فمنعوه أيضاً . وبالتالي فإنه لم يكن يملك خياراً غير القتل !

كل ما هنالك فإنه كان مُخيراً بأن يقبل بالقتل بذلة على يد ابن زياد ، أو القتل بكرامة في المعركة ، وقد اختار القتل الشريف .

في حين أن مسلم بن عقيل قد خُذع بأمان ابن زياد ، وقد قُتل بطريقة مُذلة !

وعليه لا يبقى مع هذا التحليل أي شأن ، أو مقام ، أو مكان للحماسة الحسينية !! .

ويضيف الأستاذ الصالحي بأنهم لو كانوا قد سمحوا للإمام بالتوجه إلى الشام ، لكان فعل ، وبايع ، وأن مثل تلك البيعة لم تكن تُحسب بيعة مُضرة ، وأن الإمام إنما لم يبايع لأنه كان يتصور أن بإمكانه أن ينتزع الخلافة من يزيد ، لكنه في الوقت الذي رأى فيه عدم إمكانية حصول ذلك صار مُستعداً للمبايعة . كما ويدعي أن السجّاد (ع) قد بايع يزيد فيما بعد بواسطة مسلم بن عقبة . [وهذا مناف لما ورد في الملاحظات رقم (٥) و(٧)] .

١٦ - إنّ كتب أكابر أهل الكوفة إلى الإمام الحسين (ع) ، قد وردت في التواريخ بهذا المضمون :

« أمّا بعدُ : فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد ، الذي انتزى على هذه الأمة ، فابتزها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمّر عليها بغير رضئ منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مالَ الله دُولَةً بين جابرتها وأغنيائها ، فُبُعداً له كما بُعدت ثمودُ ؛ إنه ليس علينا إمامٌ فأقبل ، لعلَّ الله يجمعنا بك على الحقّ » .

وهذا الكتاب قد ورد في تواريخ كل من « الطبري » و« الإمامة والسياسة » ، و« الكامل » لابن الأثير ، « وإرشاد » الشيخ المفيد ، و« مقتل » الخوارزمي ، وغيره .

كما وصل إلى الإمام كتابٌ آخر يشبه في مضمونه هذا الكتاب والذي كان وراءه رجالٌ أمثال سليمان بن صرد الخزاعي ، وحبيب بن مظاهر ، وغيرهم ، والذي يمكن أن يكون هو المُحرَّك للإمام الحسين (ع) .

والخطبة التي وجهها الإمام إلى أصحابه وأصحاب الحُر في « ذو حَسَم » تُشير إلى هذا المعنى المذكور .

١٧ - يذكر الأستاذ الصالحي نقلاً عن « الأخبار الطوال : ص ٢١٠ » ، وعن « إرشاد » المفيد ص (١٨٢) بأن أول رسالة وصلت إلى الإمام ، من أهل الكوفة ، كانت بتاريخ (١٠ شهر رمضان) أي بعد وصول الإمام إلى مكة بحوالي الشهر تقريباً .

١٨ - كما ويذكر الصالحي بأن مسلم قد عزم التوجه إلى الكوفة بتاريخ (١٥ شهر رمضان) وأنه قد وصلها بتاريخ (٥ شوال)^(١) ، وأنه قام بالتحقيق ، ودراسة أوضاع الكوفة لمدة شهر ، وسبعة أيام إلى أن كتب إلى الإمام كتابه المعروف بتاريخ (١٢ ذي القعدة) ، (إرشاد المفيد ص ٢٠١) ، وبالتالي

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦ .

فإن رسالة مسلم حسب القاعدة تكون قد وصلت إلى الإمام بعد مرور (١٤) يوماً تقريباً أي في (٢٧ ذي القعدة) فهل تحرك الإمام في (٨) ذي الحجة ؟

١٩ - وفي الصفحة (١٦١) من كتابه يكتب الصالحى نقلاً عن « تذكرة » السبط و« تاريخ » ابن عساكر ، ما يُشير إلى أن هذه التواريخ قد أوردت ما يُفيد بأن يزيد قد كتب رسالة إلى ابن عباس ، يُستشف منها بأن يزيد على علم تام بالتحركات ، والعلاقات التي كانت جارية بين مكة ، والكوفة ، وأنها تتضمن النصيحة ، من جهة والتنبؤ بالمستقبل من جهة أخرى .

٢٠ - وفي الصفحة (١٧٦) من كتابه ينقل الصالحى عن الإمام قوله :

« فهلاً لكم الولاياتُ تركتمونا ، والسيف مشيمٌ ، والجأش طامئٌ ، والرأي لما يُستحصف » . وإذ يستشف منها بأن الإمام قد توجه إلى الكوفة ، وهو على ثقةٍ من نصرتها له فإنه يذكر أيضاً بأنه لو كان أهل الكوفة ، قد أعلنوا عدم استعدادهم لاستقبال الإمام لما كان الإمام قد اتخذ مثل ذلك القرار ، ولم يتوجه إلى الكوفة أبداً ، وعليه يمكن القول :

١ - إن الإمام لم يكن يقصد التوجه إلى كربلاء ، ولا كذلك كان يقصد القتل (لنفسه) .

٢ - كان الإمام على ثقةٍ من نصره أهل الكوفة له .

٣ - ولو لم يكن مثل هذا الاطمئنان موجوداً لدى الإمام ، لما كان قد توجه إلى الكوفة أبداً ، بل إنه كان قد فعل شيئاً آخر ، كأن يبايع مثلاً ، أو يسلم للحاكم الخليفة !

(ولكن هذه الاستنتاجات خاطئة تماماً، إن مجيء الإمام إلى الكوفة كان أقل الخطرين ، أم أقل الأخطار ، وهذه العبارات تأتي في إطار تكليف أهل الكوفة وليست من باب قرار الإمام) .

٢١ - يذكر الصالحى أيضاً بأن منشأ التصور القائل بأن الإمام إنما كان يقصد كربلاء في الأساس ، وإنه قد توجه مع العلم ، بأنه سيقتل هناك وهذا راجع في الحقيقة إلى الأسباب الخمسة التالية :

أ - المنام الذي يُذكر أنه عليه السلام قد رآه عند قبر النبي (ص) .

ب - حديث : « إِنَّ اللَّهَ شَاءَ أَنْ يِرَاكَ قَتِيلًا » .

ج - خطبة : « خُطَّ الموتُ على ولد آدم . . . » .

د - الخطبة التي وردت فيها عبارة : « لا أرى الموت إلا سعادةً . . . » .

هـ - الحديث المنسوب لأم سلمة ، وقصة التراب والقارورة .

ثم يقول : فأما قصة المنام ، فإنَّ « الخوارزمي » قد نقلها عن « ابن الأعمش الكوفي » وهو سند لا يُعتمد عليه . والآخرين الذين نقلوا تلك القصة أمثال الأماشي (الصدوق) نقلاً عن البحار (ج ١٠) فإنه جاء أيضاً بسند محمد بن عمر البغدادي ، الذي هو الآخر قد وقع تحت تأثير ابن الأعمش الكوفي^(١) وهو ما وقع فيه كل من : « روضة الصفا » ، « وروضة الشهداء » ، « تسلية المجالس » لمحمد بن أبي طالب الحسيني ، و« نفس المهموم » وناسخ التواريخ » ، سواء مباشرة أو بشكل غير مباشر برأي الأستاذ الصالح .

(١) لكننا نقول إنه علاوة على سند ابن الأعمش الكوفي ، والصدوق ، فإنَّ ابن الأثير قد نقل مثل هذه القصة في (المجلد ٣ ص ٢٧٧) من تاريخه حيث يقول ما مضمونه بأنَّ الإمام في جوابه . . . قد ذكر أنه قد رأى مناماً ، وأنه لن يُحدّث به . لكننا كما نعلم فإنَّ روايات الأئمة قد نقلت هذا المنام ، وقد ورد في مقتل أبو مخنف أيضاً : « وذكر عمار في حديثه : إنَّ الحسين (ع) لما خرج من المدينة أتى قبر الرسول (ص) فالتزمه وبكى بكاءً شديداً ، وسلم عليه ، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد خرجت من جوارك كرهاً ، وفرّق بيني وبينك ، وأخذت بالأنف قهراً أن أبايع يزيد بن معاوية شارب الخمر ، وراكب الفجور ، وإن فعلت كفرت ، وإن أبيت قُتلت أنا خارج من جوارك ، على الكره مي ، فعليك مني السلام يا رسول الله ! ثم عنَّ عليه الكرى ساعةً ، فأجزعته أنه رأى رسول الله (ص) في منامه ، وقد وقف به ، وسلم عليه ، وقال : يا بني لقد لحق بي أبوك ، وأمك ، وأخوك ، وهم مجتمعون في دار الحيوان ، ولكننا مشتاقون إليك ، فعجل بالقدوم علينا ، واعلم يا بني إنَّ لك في الجنة درجةً مغطاةً بنور الله ، فلست تنالها إلا بالشهادة ، وما أقرب قدومك علينا . هذا بالإضافة إلى أنَّ المرحوم آيتي في كتاب « دراسة تاريخ عاشوراء » يدعي أيضاً بأنَّ الإمام ، وفي ردّه على عبد الله بن جعفر ، الذي كان قد أتاه برفقة حاكم مكة ، يطلب منه البيعة قد قال : لقد رأيت جدي في المنام ، وعندما سأله ما هو ذلك المنام ؟ قال : ما دمتُ حياً فلن أذكره لأحد .

٢٢ - يدعي الأستاذ الصالحي بأن خطبة : « خُطَّ الموتُ . . فمن كان باذلاً فينا مهجته . . . » بشكلها المعروف وبأنها قد وردت أثناء حركة الإمام من مكة ليس لها سندٌ تاريخي قوي ، وهي لم ترد بهذا الشكل ، وبهذا المضمون ، إلا في كتاب (اللهوف لابن طاووس) ، وأن الخوارزمي الذي ينقلها في مقتله ، فإنه ينقلها مع اختلاف بالألفاظ بالإضافة إلى قوله إنها قد وردت في يوم عاشوراء . وهي تفتقر إلى عبارة : « فمن كان باذلاً فينا مهجته » . ثم ينقل ما ورد من نص الخوارزمي للخطبة المذكورة على الشكل التالي :

« أيها الناس ! خُطَّ الموت على بني آدم ، كمخطَّ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف ، وأن لي مصرعاً أنا لاقيه ، كأني أنظر إلى أوصالي تقطعها وحوشُ الفلوات ، غُبراً ، وعُفراً ، قد ملأت مني أكراشها ، رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبرُ على بلائه ليؤفينا أجور الصابرين ، لن تشدَّ عن رسول الله حُمته وعترته ، ولن تُفارقه أعضاؤه ، وهي مجموعة له ، في حظيرة القدس ، تقرُّبها عينه ، وتَنجِزُ فيهم عِدَّتُهُ » .

٢٣ - ينقل الصالحي عن « إثبات الوصية » للمسعودي (ص ١٣٩) ، الرواية المعروفة لأم سلمة وقصة « القارورة » ، وكيف أن أبا عبد الله قد نقل مشهد كربلاء إلى أم سلمة ، لكنه يستنتج أن مثل هذه القصة تتناقض مع الحياة التقليدية المعروفة للإمام .

٢٤ - ثم ينقل الصالحي في الصفحة (١٩٦) من كتابه ، بعد أن سبق له وأنكر رواية « إثبات الوصية » ، روايات كثيرة ، تتحدث عن أن رسول الله (ص) قد أهدى مقداراً من التراب إلى أم سلمة ، طالباً منها أن تحتفظ به ، كعلامة على شهادة الإمام الحسين (ع) ، ويقبل بها .

٢٥ - إن أحد الأسئلة الهامة التي تبرز هنا هو لماذا يا ترى يستمر الإمام في حركته باتجاه الكوفة ، بعد سماعه نبأ شهادة مسلم في الكوفة ، وهيمنة ابن زياد عليها ؟ لا سيما أنه وبعد أن يستمع إلى نبأ شهادة مسلم ، تراه يقرأ الآية الكريمة التالية : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى

نَجَبُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١﴾ .

السؤال الآخر هو : إنه لو كان الإمام ، حسب ادعاء الأستاذ الصالحي ، يفتش حقاً عن سبيلٍ لعدم إراقة الدماء ، وإنَّ السبب في عدم استسلامه هو : علمه المؤكد بأنَّه كان سيُقتل على يد ابن زياد ، فلماذا لم يقف إذاً ، بوجه مقتل أصحابه ، وأبنائه ، وأهل بيته ؟ وقد جاء الأمان للعباس بن علي وإخوته من طرف ابن زياد ، والآخرين أيضاً من جماعته حسب نص الإمام لا يُريد أحدٌ منهم شيئاً ، فلماذا ترك الإمام جماعته يُقتلون إذاً ؟

كما أن تسليم الإمام لابن زياد كان يعني نجاة مئات الأشخاص من جيش معسكر ابن زياد الذين قُتلوا في المعركة ، وهو نوع من تجنب إراقة الدماء على كل حال !

٢٧ - بعد أن يصل الرسول الخاص من طرف محمد بن الأشعث ، وبوصية من مسلم إلى الحسين (ع) ، ليُخبره بفشل مهمة الدعوة الكوفية ، ترى أنَّ الإمام يجمع أصحابه ، ويخطب فيهم ، وبالتالي فإنَّ عدداً من الحقوا بالإمام في وسط الطريق ، طمعاً في الحصول على المغانم ، يفترقون عنه ، لكنه رغم ذلك يستمر في تحريك القافلة نحو الكوفة عجباً لماذا ؟ .

٢٨ - يرى الأستاذ الصالحي بأنَّ لحظة المواجهة بين الإمام والحر ، إنما أدخلت الإمام في مرحلة جديدة ، لأنَّ الحر كان يحمل مهمة تسليم الحسين إلى ابن زياد ، يدأ بيد ، وهو الأمر الذي يجعل دعم الناس للحسين ونُصرتَه ، غير ممكنين عملياً .

٢٩ - كما يكتب الأستاذ الصالحي نقلاً عن « الأخبار الطوال » ص ٢٢٧ أنه وبعد بلوغ كتاب ابن زياد المعروف إلى عمر بن سعد للإمام والذي يُخبر فيه بين التسليم ، أو القتال - الشهادة - فإنَّ جواب الإمام يكون : « فهل هو إلَّا الموت ؟ فمرحباً به » .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .

٣٠ - كذلك يكتب الأستاذ الصالحي ، بأنه (تقريباً) في اليوم الخامس من شهر محرم ، يصل كتاب ابن زياد القاضي بضرورة مبايعة الحسين ليزيد ، حتى نرى بعد ذلك ماذا نفعل به ، ثم يكون جواب الإمام في آخر ساعات اليوم السادس من شهر محرم تقريباً ، وهو جواب عدم التسليم بالبيعة مطلقاً ، وبالتالي فإن القرار يكون من طرف المعسكر الآخر بقطع الماء عن الحسين ، وذلك بدءاً من الساعات الأخيرة من اليوم السابع من شهر محرم .

٣١ - ألا يمكننا القول هنا بأن اقتراح الإمام - إلى عمر بن سعد - بأن يتركه يعود من حيث أتى ، وهو الذي جاء بنفسه إلى مثل هذا المكان ، هو كون الإمام كان يفكر في تلك اللحظة في طريقة يوسع فيها رقعة الثورة ، ويزيدها تأجيلاً ، بعد أن حوَصِر في الصحراء ؟ .

وهو الأمر الذي استشفه شمر بن ذي الجوشن ، من كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد ، الذي يعرضُ عليه انصراف الحسين ، إذ قال لابن زياد الذي أوشك أن يقبل باقتراح عمر بن سعد : « والله لئن رحل عن بلادك ، ولم يضع يده في يدك ، ليكونن أولى بالقوة ، ولتكونن أولى بالضعف ، والعجز . . . » .

٣٢ - إن إحدى التساؤلات الأخرى في هذا المجال هي :

لماذا كتب الإمام إلى أهل البصرة ، ودعاهم فيه إلى الالتحاق بحركته ؟
وبالتالي ألم تكن هذه الدعوة نوعاً من التحريض على الثورة ضد الحكم المركزي ؟ ونوعاً من التمرد والثورة ؟

وفوق ذلك لماذا أرسل حبيب بن مظاهر في ليلة العاشر من شهر .
بني أسد ، يطلب إليهم المشاركة في القتال إلى جانبه ؟

ولماذا لم يلزم أبناءه ، وإخوانه ، وأعوانه من الخوَص ، بترك . . . ،
والانسحاب ، في ليلة العاشر ، ضماناً لنجاتهم ، ومنعاً لمزيد من سفك الدماء ؟

٣٣ - العجيب في تحليل الأستاذ الصالحي أنه ، وهو الذي يسعى في كل كتابه ، إلى إثبات النهج الدفاعي في تحرك الإمام ، ونفي الطابع الهجومي

-الابتدائي - عن نهضته ، تراه في الصفحة (٢٩٩) من كتابه - القسم الرابع - وبعد أن يُفصّل في شرح أوضاع حكومة يزيد ، وتحليلها لحرام الله ، وتحريمها لحلاله ، وأعمال الظلم ، والاستبداد ، والاستغلال ، التي تمارسها ، تراه فجأةً يُطبّق مضمون خطبة البيعة للإمام على هذه الأوضاع المتردية ويقول : لو لم يخرج نداء للمعارضة ، والنقد في مثل تلك الظروف ، ولو افترضنا جدلاً أنّ الإمام الحسين كان قد استسلم بدون قيد أو شرط ليزيد بن معاوية ، فإنّ الدول الأخرى كانت ستريّ في يزيد الممثل الشرعي للإسلام ، ذلك أنّ العالم الخارجي لا يمكنه إلاّ أن يرى في الخليفة ، ورئيس الدولة الإسلامية ، سوى ممثل الروح الإسلامية ، ما لم تر معارضةً تنازعه على هذا اللقب ، وعندها كانت الأجانب ستقول إنّ بلاد الإسلام هي في الواقع بلاد الظلم ، والاستبداد . . .

ولما كان أفق الحسين بن علي (ع) ، ونظره بعيداً ، وثاقباً خلافاً ، لرؤية الناس العاديين ، لذلك تراه قد وضع الإسلام في الميعار العالمي ، والنظرة الكونية ، وعندما يأتون يطالبونه بالبيعة يقول لهم : « وعلى الإسلام السلام ، إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد »^(١) .

وهذا العرض الذي يُقدّمه الصالحي هنا ، دليلٌ على أنّ هناك من الأمور القيّمة للغاية ، والتي تستأهل سفك دماء المئات من الأفراد في سبيلها ، ولكن لماذا يبقى الأستاذ الصالحي مُصرّاً ، مع ذلك ، على أنّ الإمام لم يكن مُعترضاً ، ولا صاحب خطة هجومية ؟

ثم يضيف الصالحي أيضاً :

ومن هنا ترى الحسين بن علي يُصمّم على المقاومة . . . حتى يعلم العالم الخارجي ، ويدرك أنّ معرفة الإسلام لا تحصل إلاّ من خلال أفكار الحسين بن علي ، وفي إطار وجود ابن النبي ، وليس بقلب يزيد . . . وحتى يدرك العالم الخارجي أيضاً أنّ الإسلام ، قد أخرج من تعاليمه ابناً باراً ، يقف بصلابته ، دفاعاً عن الإنسانية والعدالة ، ويُقدّم الغالي والنفيس في سبيل الحرية ،

(١) مقتل الخوارزمي ج ١ ص ١٨٤ .

والتحرر ، والتقوى ، والفضيلة ، بنفس طيبة خالصة .

وبناءً على ذلك يجب أن نضع مقولة الدفاع عن الموقع العالمي ، والدولي للإسلام ، كجزء لا يتجزأ من الأهداف الشاملة والكلية ، لابن بنت النبي (ص) .

٣٤ - يرى الأستاذ الصالحي أنّ البعض مثل (ماربين) الألماني ، في أثره « السياسة الحسينية » يعتقد بأن الإمام الحسين أراد أن يصنع مشهداً مأساوياً من واقعة كربلاء ، وأنه قد أعدّ مقدمات تلك الشهادة التراجيدية ، إعداداً خاصاً ، ليتمكن من تحريك عواطف الناس ، وتوظيفها حد الإمكان ضد بني أمية ولصالح بني هاشم .

وإن « ماربين » هذا قد قال : « إنّ الحسين (ع) خطط لمقتله على مدى سنوات ، وكان يطمح لتحقيق أهداف سامية للغاية ، من وراء ذلك العمل »^(١) .

كما قال أيضاً : « بما أنّ الحسين بن علي لم يكن يطمح سوى أن يُقتل في تلك الواقعة ، وقد أعدّ هو بنفسه المقدمات الغيبية المقدسة ، لذلك فإنه اختار أفضل وسيلة لإنجاز تلك المهمة ، وهي الظهور بمظهر المظلوم والغريب ، حتى تأخذ الواقعة موقعها المؤثر في القلوب على أحسن وجه »^(٢) .

وقال كذلك : « إنّ الحسين (ع) لم يتوان لحظة في فضح ظلم واستبداد بني أمية ، وإبراز طموحاتهم العدائية ضد بني هاشم ، وأولاد محمد (ص) »^(٣) .

وحول الطفل الرضيع يقول : « بالرغم من كل المصائب ، والمعاناة العميقة ، والاضطراب ، والعطش ، والجراحات الكثيرة ، فإنه - عليه السلام - لم ينس أهدافه العالية (تحريك عواطف الرأي العام) ، ورغم معرفته المسبقة بأنّ بني أمية لن ترحم ابنه الصغير ، لكنه من أجل رفع درجة المصيبة حمل ذلك الطفل

(١) السياسة الحسينية - ماربين ص ٣٣ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٥ .

(٣) نفس المصدر : ص ٢٦ .

على يديه متظاهراً بطلب الماء له ، فجاءه الجواب سهماً قاتلاً ! » .

٣٥ - وفي قسم آخر من كتابه في الصفحة (٣٠٩) يتطرق الأستاذ الصالحى الى موضوع آخر ، ويضيف مغالطة أخرى عندما يقول :

« إننا لن نستطيع تصور معنى صحيح ومقبول ، لعبارة : بمقتل الإمام الحسين تم إحياء الإسلام . ذلك أن إحياء الإسلام إنما يتم بتطبيق أحكامه ، أو بنجاحه في إضافة فتوحات جديدة ، أو بضعف حكومة بني أمية ، أو بجمع صفوف الشيعة ، أو فضح مخططات بني أمية .
[وعليه كيف يمكن القول بأن مقتل قائد المسلمين وحافظ القرآن قد أحياء الإسلام ؟] .

٣٦ - وينقل الصالحى في كتابه أيضاً أن : « عبيد الله كان قد طلب من عمر بن سعد أن يُعطيه الأمر الصادر بقتل الحسين ، لكن عمر لم يُعطه إياه ، بل صار يُلقبى بالمسؤولية على ابن زياد [حصل هذا بعد استشهاد الحسين ، وهو جانب من نزاع حول مسؤولية مقتل الحسين] .

وأن عثمان بن زياد قد قال : « صدق والله لوددت أنه ليس من بني زياد رجلٌ إلّا وفي أنفه خُزامة إلى يوم القيامة ، وأنّ حسيناً لم يُقتل »^(١) .

وأنّ « مرجانة » ، أم ابن زياد قد قالت : « يا خبيث ! قتلت ابن بنت رسول الله ، والله لا ترى الجنة أبداً »^(٢) .

وأنّ يحيى بن الحكم (شقيق مروان بن الحكم) قد قال : « حُجبتُم عن محمد يوم القيامة لن أجامعكم على أمر أبداً »^(٣) ، وأنّ يحيى بن الحكم هذا لما رأى رؤوس القتلى من آل بيت رسول الله قد وضعت أمام يزيد قال :

(١) الطبري : ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٢) تذكرة السط : ص ٢٥٩ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٥٦ .

لَهَا بِجَنبِ الطِّفْلِ أَدْنَى قَرَابَةٍ مِنْ ابْنِ زِيَادِ الْعَبْدِ ذِي الْحَسْبِ الْوُغَلِ
سُمِّيَتْ أُمِّي نَسْلَهَا عَدَدَ الْحَصَى ، وَلَيْسَ لَالَ الْمُصْطَفَى الْيَوْمَ مِنْ نَسْلِ (١)
وَأَنَّ هَنْدَ امْرَأَةَ يَزِيدَ ، عِنْدَمَا سَمِعَتْ بِمَا جَرَى لِلْحُسَيْنِ (ع) ، وَقَدْ أَتَوْا
بِرَأْسِهِ بَيْنَ يَدَيِ يَزِيدَ ، تَقَنَّعَتْ بِثَوْبِهَا ، وَخَرَجَتْ وَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أُرَأْسُ
الْحُسَيْنِ بْنِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ؟

قال : نعم ، فأعولِي عليه وحُدِّي على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وصرِيحَةَ قَرِيشَ ، عَجَّلَ عليه ابن زياد فقتله ، قتله الله !! (٢) .
وبرَأْيِي فَإِنَّ الْأَشَدَّ مِنْ كُلِّ هَذَا هُوَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ يَزِيدَ ، قَدْ خَلَعَ نَفْسَهُ مِنْ
مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ ، وَصَارَ يَلْعَنُ يَزِيدَ وَأَبَاهُ مَعَاوِيَةَ ، وَيُضَعُّ الْحَقَّ بِجَانِبِ
الْحُسَيْنِ (ع) ، وَعَلِي (ع) .

وعليه فَإِنَّ الْأَثَرَ الْكَبِيرَ الَّذِي تَرَكْتَهُ وَاقِعَةُ كَرْبَلَاءَ ، كَوْنُهَا قَدْ رَفَعَتْ السِّتَارَ
عَنْ نِفَاقِ الْأُمَوِيِّينَ ، وَفَصَلَّتْ تَمَاماً بَيْنَ مَقُولَةِ السُّلْطَنَةِ وَالْحُكْمِ ، وَبَيْنَ الدِّينِ .
ولَوْ لَمْ تَكُنْ وَاقِعَةُ كَرْبَلَاءَ لَكَانَ الْأُمَوِيُّونَ قَدْ حَكَمُوا النَّاسَ ، وَتَسَلَّطُوا
عَلَيْهِمْ بِاسْمِ الدِّينِ ، وَصَحِيحٌ أَنَّ الْبَعْضَ كَانَ يَرَى أَنَّ حُكْمَهُمْ بِاسْمِ الدِّينِ كَانَ
سَيُبرِئُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، لَكِنْ كَثِيراً آخَرِينَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَيُؤَدِّي إِلَى
تَلْوِثِ الدِّينِ .

بِاخْتِصَارٍ يَمَكِّنُنَا الْقَوْلَ : إِنَّ الْخُدَّ الْأَدْنَى الَّذِي تَرَكْتَهُ النُّهْضَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ مِنْ
آثَارِ هِيَ أَنَّهُ قَدْ فَصَلَتْ تَمَاماً مَلَفَ الْحُكْمِ وَالْخُلَفَاءِ ، عَنْ مَلَفِ الدِّينِ إِلَى الْأَبَدِ .

وإِنَّ وَاحِدَةً أُخْرَى مِنَ النَّتَائِجِ وَالْآثَارِ الْهَامَةِ لِتِلْكَ النُّهْضَةِ ، أَنَّهُ قَدْ رَفَعَتْ
مِنْ دَرَجَةِ مَحَبَّةِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ (ع) إِلَى أَعْلَى مَرْتَبَةٍ مُمْكِنَةٍ . إِذْ أَصْبَحَ الْإِمَامُ
« شَهِيدُ الْأُمَّةِ » وَ« الْفِدَائِيُّ الْبَطْلُ » فِي عَالَمِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ وَصَارَ بِمِثَابَةِ الْقُوَّةِ
الْمُقَدَّسَةِ ، وَمُصَدِّقاً لِلآيَةِ الشَّرِيفَةِ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ أَمْنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٥٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٥٦ .

سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١﴾ .

وهذا هو الإمام نفسه يقول في يوم عاشوراء إنه : « وأيّم الله إني لأرجو أن يُكرمني الله بهوانكم » (٢) .

٣٧ - برأي الأستاذ الصالحي أنّ امتناع الإمام عن الاستسلام ، ورفضه الرضوخ ، إنما المقصود به هو الرضوخ لابن زياد ، وهذا أمرٌ يختلف عن البيعة مع يزيد .

فالصالحي يرى أنّ الإمام كان على استعداد لمبايعة يزيد ، لكنه لم يكن مستعداً بالمقابل للاستسلام بدون قيد أو شرط لابن زياد .
ذلك أنه كان على يقين أنّ ابن زياد سيقتله شر قتلة لا محالة .

٣٨ - وأمّا الأستاذ الغفاري فإنه بعد أن يطرح سلسلة من التساؤلات في مقدمة كتابه « تحقيق في تاريخ عاشوراء » ، وذلك من قبيل هل كان عمل أبي عبد الله هروباً من المبايعة ليزيد ؟ .

أم استجابة لدعوة أهل الكوفة ؟

أم قياماً ونهضةً وثورةً ؟

تراه يأخذ بالاحتمال الثالث ثم يدعي حصول بعض المقدمات والبواعث ، التي أوجبت على الإمام ضرورة القيام ، وأنّ الدلائل والقرائن التاريخية ، تُثبت أنّ الإمام كان يُخطط للنهضة وللثورة من الأساس .

وأنّ ذلك ما كان ليتم كما تم إلّا بعد وقوع بعض الوقائع والأحداث الهامة في زمن معاوية :

أ - المسألة الأولى والأكثر أهميةً ، مسألة جعل الخلافة وراثيةً ، والتي كانت من أشهر البدع ، وأكبرها على الإسلام ، والتي كانت تعني في الواقع تحقق أمني

(١) سورة مريم : الآية ٩٦ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٤٦ ومقتل الخواري ج ٢ ص ٣٤ .

ورغبات أبي سفيان ، وهو صاحب القول الشهير : « تلقفوها تلقف الكرة أما والذي يُخلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار » .

وبالتالي فإنَّ السكوت على مثل هذه البدعة ليس جائزاً أبداً .

ب - المسألة الأخرى هي تفاقم وضع الشيعة بشكل لا يُطاق ، خلافاً لمعاهدة الصلح التي أبرمت بين الحسن ومعاوية ، والتي كانت تحفظ حقوقهم في البداية .

لكن معاوية سرعان ما نقضها ، وسارع إلى تطبيق سياسة ترمي إلى قلع جذور الشيعة ، وهو ما يلاحظ في تعميم له بهذا الخصوص : « من اتهمتموه بموالة هؤلاء القوم فنكّلوا به ، واهدموا داره » .

كما ورد أيضاً في تعميم آخر له :

« انظروا إلى من قامت عليه البيّنة ، أنه يُحب علياً ، وأهل بيته ، فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه »^(١)

ج - سب علي (ع) ، ولعنه في صلوات الجمعة ، بشكل علني ورسمي .

د - عدم قبول شهادة الشيعة ، وحرمانهم من الحقوق الاجتماعية .

هـ - قتل أكابرهم ، أمثال حجر بن عدي ، ورشيد الهجري ، بتهمة التشيع .

و - ازدياد الحملة الدعائية ، والإعلامية المناوئة لآل البيت من جهة ، والتي تُبلّغ لصالح معاوية من جهة أخرى ، وتضعه في مصاف الصحابة الكبار ، مما كان يحمل معه إمكانية خلق جيل لا يعرف الإسلام ، إلّا بالصورة التي صوّرها له معاوية ، لو كانت الأمور قد استمرت هكذا دون معارضة ، أو قيام مضاد .

وأما بصدد الحديث عن أنّ الإمام الحسين كان يُخطط للثورة ، والقيام من الأساس ، فإنه ينبغي القول أولاً قبل كل شيء ، إنّ نهج أمير المؤمنين علي (ع) ،

(١) ابن أبي الحديد : ج ٣ ص ١٥ ط مصر .

والحسن المجتبي' (ع)، وسيد الشهداء الحسين (ع)، كلهم إنما ينبع في الحقيقة من
استرشادهم ، وتبعيتهم لركن أساسي واحد ، وهو أنهم ، وبالرغم من اعتقادهم
بأحقية الخلافة لهم ، لم يكونوا على استعداد يوماً للتخطيط ، والتدبير ،
لقيام ، أو نهضة ، أو ثورة ، تُعيد لهم هذا الحق المغتصب ، بل إن مثلهم الأعلى
في هذا الخصوص هو العمل بسيرة واحدة مثالها الواضح والصريح ، ما فعله
علي (ع) في زمن خلافة عثمان عندما قال : « والله لأسلمن ما سلمت أمور
المسلمين ، ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصة »^(١) .

تم الانتهاء من القسم الثاني بعون الله



(١) وهنا يرجى مراجعة الملاحظة الخاصة بعنصر الأمر بالمعروف . رقم (٢٣) .

القسم الثالث

الامام الحسين عليه السلام

و

عيسى المسيح عليه السلام

ولادة « سيد الشهداء » (ع)

١ - ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا * شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (١) .

٢ - إِنَّ هُنَاكَ أَوْجَهَ تَشَابُهٍ بَيْنَ مَقَامِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي أُمَّةِ الْمَسِيحِ ، وَمَقَامِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ فِي أُمَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَوْجَهَ تَشَابُهٍ مَقَامِ أُمِّ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ الْمَعْرُوفَةِ « بِسَيِّدَةِ النِّسَاءِ » ، وَفَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ .

والقرآن الكريم يذكر السيدة مريم بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ ! إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ، وَطَهَّرَكِ ، وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

كما جاء في الحديث الشريف أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَقَامِ قَدْ خُصَّتْ بِهِ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَذَلِكَ . وَفِي هَذَا الْخُصُوصِ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

(١) سورة مريم : الآيات ٣٠ - ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

فإنّ مريم أحصنت فرجها وجاءت بعيسى كبدّر الدجى
فقد أحصنت فاطم وجهها وجاءت بسبطي نبي الهدى

كما أنّ صفة الصديقة قد منحها القرآن لمريم أيضاً إذ قال تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . . . ﴾^(١) ، وهي كذلك صفة السيدة الزهراء المعروفة بالصديقة الطاهرة .

هذا بالإضافة إلى اشتراكهما في صفة « العذراء البتول » أيضاً .

٣ - أمّا وجه التشابه الآخر فيتمثل في مدة الحمل :

لقد جاء في الحديث الشريف^(٢) ، بأنّ مدة حمل فاطمة (ع) بسيد الشهداء كانت ستة أشهر فقط ، وأنه ليس هناك ولدٌ حملته أمّه ستة أشهر فقط ، وبقي حياً عدا الحسين ، وعيسى عليهما السلام .

وفي الحديث إنّ الآية الشريفة ، ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَخَمَلَهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ، وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٣) إنما تشير في الواقع إلى ولادة سيد الشهداء .

وهكذا يأتي التعبير عن عيسى : ﴿ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ وبالمقابل يأتي التعبير عن الحسين : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ ، وإنّ عيسى قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، وبالمقابل يأتي التعبير عن الحسين (ع) : ﴿ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وعندما كتب حاكم مكة « عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق » ، كتابه إلى سيد الشهداء ، يُحذّره فيه من عدم المبايعة وكما جاء في التواريخ : « وحذّره

(١) سورة المائدة : الآية ٧٥ .

(٢) نفس المهموم : ص ٦ بحار الأنوار : ج ١٠ باب ١١ .

(٣) سورة الأحقاف : الآية ١٥ .

من النفاق والشقاق » ، فإنه عليه السلام قد ردّ عليه قائلاً : « لم يُشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال : إني من المسلمين » .

وهو بذلك يُشير إلى الآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ : إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١) .

طبعاً هناك من يقول بشأن مدة الحمل بعيسى ابن مريم ، إنها كانت تسعة أيام ، وتسع ساعات ، فقط^(٢) .

بالطبع إذا تأكدت الروايات القائلة بأن سيد الشهداء (ع) قد ولد في (٣) شعبان ، وأن أخاه الحسن قد ولد في (١٥) من شهر رمضان ، فإن القول بفارق ستة أشهر وعشرة أيام ، بين المولودين يصبح أمراً غير ممكن . وهذا الفارق يصبح ممكناً فقط ، إذا ما أخذنا بالرواية القائلة بأن ولادة الحسين (ع) قد حصلت في أواخر شهر ربيع الأول^(٣) .

٤ - وجه الشبه الآخر بين الشخصيتين : هو تلك النظرة التي تشكّلت لدى الناس حيث كان كلُّ منهما قد برز بمثابة الفادي أو المخلص^(٤) لأُمته ، حتى صارت الناس تُفكّر بأنّهما إنما قتلا نفسيهما لأجل تحرير الآخرين من الذنوب ، وإسقاط التكليف الشرعي عنهم .

في حين أنّ قضية مقتل عيسى (ع) لا أساس لها من الصحة ، وأمّا حول مقتل الحسين (ع) ، فإن فلسفة استشهاده شيء آخر تماماً .

(١) سورة فصلت : الآية ٣٣ .

(٢) كما يمكن الإضافة في هذا السياق ، بأن طريقة الحمل ، والوضع ، كانتا في الحالتين تحملان صفة : كُرهاً وفي حالة مريم فإنه قد حصل ذلك بسبب ظهور الملائكة عليها إذ قالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴾ كما قالت : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ ؛ وبالمقابل فإن الحالة بالنسبة لفاطمة الزهراء (ع) إنما جاءت بسبب إخبار الرسول (ص) لها بأن ولدها سيُقتل . لكنها سرعان ما رَضِيت بقدر الله ورضيت به ، بعد أن أضاف (ص) بأنّ الأئمة والأوصياء سيكونون من ذُرِّية الحسين (ع) .

(٣) راجع نفس المهموم .

(٤) ورد في « المنجد » : « الفادي لقب سيدنا يسوع المسيح الذي افتدانا بدمه الكريم » .

وأما وجه التشابه الآخر فهو انطباق صفة الزكي والمبارك على كليهما . أي
إن وجود كل واحد منهما ، كان بحد ذاته سبباً للبركة الكثيرة والوافرة^(١) .

والبركة عبارة عن كثرة الخير ونموه ، وهو ما تُفيد به تفسيرات (مجمع
البيان) و(الصافي) وغيرها .

وقد جاء في مفردات الراغب :

« ولَمَّا كَانَ الْخَيْرُ الْإِلَهِيُّ يَصْدُرُ مِنْ حَيْثُ لَا يُحْسُ ، وَعَلَى وَجْهِ لَا يُحْصَى وَلَا
يُحْصَرُ ، قِيلَ لِكُلِّ مَا يُشَاهَدُ مِنْهُ : زِيَادَةٌ غَيْرُ مُحْسُوسَةٍ ، هُوَ : مَبَارَكٌ وَفِيهِ بَرَكَةٌ » .
وهو ما ينطبق على الأرض المباركة أيضاً كأرض فلسطين : وباركنا
حوله ...

يُقال إن إسرائيل تستثمر فاكهة الأرض المحتلة في فلسطين ، وتُدخل فائضاً
من الربح في دورتها الاقتصادية ، بمقدار أرباح النفط الإيراني ، وهو ما يرد ذكره
أيضاً حول المياه المباركة كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُبَارَكًا ﴾^(٢) .

كما يمكن الحديث عن بعض الحيوانات المباركة مثل الأغنام ، أو أن يكون
وجود بعض الإنسان ، وجوداً « مباركاً حقاً » كما أن هناك أرضاً مباركة تُعطي
محاصيل كثيرة كل عام ، ومناخاً مباركاً دائم المطر .

وقصة الملك (فطرُس) وكيفية توُسِّل شفاء أجنحته المتكسّرة بوجود الحسين
المبارك ، في الحقيقة ما هي إلا تعبير آخر من تعابير بركة الوجود الحسيني^(٣) .
ولو أن الأفراد والشعوب يتبعون المنهج الحسيني حقاً ، ويتوسلون بفكره ،

(١) جاء في تحف العقول إن الله سبحانه وتعالى ، وفي سياق مناجاته مع عيسى (ع) قال : « يا عيسى
أوصيك وصية المتحنن عليك بالرحمة حتى حَقَّتْ لَكَ الْوَلَايَةُ بِتَحْرِيكِ مَنِي الْمَسِيرَةِ ، فَبُورِكَتْ
كَبِيرًا ، وَبُورِكَتْ صَغِيرًا حَيْثُمَا كُنْتُ » .

(٢) سورة ق : الآية ٩ .

(٣) كذلك الأمر في عبارة : « جعل الشفاء في تربته والإجابة تحت قُبته والأئمة من ذُرِّيَّتِهِ » . [راجع
الملاحظة رقم ٩] .

وبركة نوره ، لتحققت آمالهم في الحرية والتحرر ، وإن كانوا في أقصى نقاط الأرض بُعداً .

مما لا شك فيه أن المدرسة الحسينية هي الطريق لنجاة الأمة وخلاصها ، ذلك أن منبر الحسين ، هو منبر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وكما يُستنبط من « سورة الشعراء » فإن ظهور الأنبياء ما كان يحصل إلا بسبب ظهور المفسد وشيوعها في الأرض .

أما اليوم ، وبحمد الله ، فنحن نرى أن الوجود الحسيني ، ومدرسته الحية الدائمة تمثل ظهوراً دائماً ، ومستمراً ، لمدرسة الأنبياء في العصور كافة ، أي إنه ما من عام يمر ويأتي شهر مُحَرَّم الحرام ، إلا ويظهر علينا الحسين (ع) ، وهو بشكل ذلك المصلح الكبير الذي يُنادينا بأعلى صوته : « ألا ترون أن الحق لا يعمل به . . . » أو « الموت أولى من ركوب العار . . . » .

نعم ، إنه يُنسب إلى الإمام الحسين (ع) قوله :

سبقت العالمين إلى المعالي ، بِحُسْنِ خَلِيقَةٍ ، وَعُلُوِّ هِمَّةٍ
ولاح بحكمتي نور الهدى في دِياجٍ من لِبَالٍ مُذْهَمَةٍ
يُريد الجاحدون لِيُطفئوه ، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّه

هـ - الوجه الآخر للتشابه يمكن أن يكون في أن المسلمين كما المسيحيين يُكرّمون يومي ولادة ووفاة الحسين (ع) وعيسى المسيح (ع) ، مع فارق أن المسيحيين إنما يكرمون هاتين الليلتين ، ويحيونها بالرقص ، والدبكة ، وشرب الخمر (١) .

بينما لا يخرج المسلمون عن طورهم في كلا الحالتين ، بل تراهم يُقيمون الاحتفالات الأكثر وقاراً بمناسبة ولادة الحسين (ع) ، ذلك أن الإسلام لا يسمح بخفة السلوك ، وضياع الشخصية ، بالنسبة لأتباعه ، وأما بمناسبة الوفاة فنحن

(١) بالطبع توجد لدى المسيحيين بعض الشعائر الدينية التي يؤديونها أيضاً ليلة ولادة المسيح يوم ٢٤ ديسمبر .

نبكي ، ونسكب الدمع على رحيل سيدنا الحسين (ع) .

في حين أنهم يُقيمون الأفراح بمناسبة عروجه إلى السماء أي ثلاثة أيام بعد مقتله كما يتصورون^(١) .

وربما يوجد شبه آخر بين سيد الشهداء وعيسى عليهما السلام ، وذلك من حيث عدم وجود سابقة في اسميهما ، لكن ذلك قد يكون بين الحسين ، ويحيى عليهما السلام ، وليس عيسى (ع) ، وعندها نقول بأن الحسين ويحيى (ع) يتشابهان في أمر آخر أيضاً هو كون أن شهادة كليهما قد حصلت على يد رجلٍ فاسدٍ للغاية ، وأنها ذهباً بالتالي ضحية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : « وإن من هوان الدنيا ، أن رأس يحيى أهدى إلى بغيا بني إسرائيل » .

٦ - وجه التشابه الآخر يمكن أن يكون في جماعة كلٍ منهما وحوارييهما : ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ . . . ^(٢) وهو ما فعله الحسين (ع) عندما جمع أصحابه وحوارييه ، في ليلة العاشر من شهر محرم ، وجعل يُخاطبهم .

« وفي وصية موسى بن جعفر عليهما السلام لهشام قال :

وقال الحسين بن علي عليهما السلام : إن جميع ما طلعت عليه الشمس في مشارق الأرض ، ومغاربها ، بحرها ، وبرها ، وسهلها ، وجبلها ، عند وليٍّ من أولياء الله ، وأهل المعرفة بحق الله ، كفيء الظلال . ثم قال (ع) : ألا حُرِّ يدُع هذه اللَّمَاطَةَ لأهلها ! ليس لأنفسكم ثمنٌ إلا الجنة ، فلا تبيعوها بغيرها ، فإنه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخنيس » ^(٣) .

وقد ذكر الشاعر الكبير (مولوي) قصة ظهور روح القدس على مريم عليها السلام في أثره « المثنوي » بأسلوب رفيع ، وسلسلة فائقة .

باختصار يمكن تلخيص أوجه التشابه كالتالي :

(١) راجع الملاحظات رقم (٧) و(٨) .

(٢) سورة الصف : الآية ١٤ .

(٣) الأنوار البهية للقمي : ص ٤٥ .

من ناحية الأم ، فإن كلاً من فاطمة الزهراء ومريم عليهما السلام ، تطلّق عليهما مواصفات سيدة النساء ، والصدّيقة ، والعذراء ، والبتول ، كما أنّ كليهما قد خاطبها الملائكة ، إضافةً إلى اشتراكهما في مدة الحمل ، وكراهة الحمل .

وأما من ناحية الإمام الحسين ، وعيسى عليهما السلام ، فإنّ كلاهما ذُكرا بأنهما برا بوالديهما ، كما أنّ أحدهما ورد ذكره في المقدسات بعبارة «إني عبد الله» ، والآخر «إني من المسلمين» هذا إضافةً إلى اعتقاد الناس فيهما بمثابة الرمز الفادي لهم .

وإلى جانب ذلك يشتركان أيضاً في كونهما رمزين مباركين ، تُقام لهما الأفراح ، والاحتفالات ، والأعياد ، في الولادة ، والوفاة ، ولا يوجد من سبقهما في هذا الاسم ، ولا يوجد أمثال حواريهما ، وكذلك الطريقة التي استشهد فيها الحسين من جهة ، ويحيى من جهة أخرى .

٧ - قلنا في الملاحظة رقم (٥) : إنّنا نحن والمسيحيين نشترك في كوننا نقيم الاحتفالات لكل من سيد الشهداء والمسيح عيسى ابن مريم مع فارق ، أنّ المسيحيين يحتفلون ويفرحون في كلتا المناسبتين ، الولادة والوفاة ، بينما نحن لا نحتفل إلاّ بولادة الحسين (ع) في حين أنّنا نقيم المآتم بمناسبة وفاته واستشهاده .

بينما المسيحيون بالمقابل كما ذكرنا يعلنون فرحهم ، ويظهرون سرورهم ، في اليوم الذي تم فيه العروج المسيحي إلى السماء (وذلك بعد مقتله بثلاثة أيام كما جاء في عقيدتهم) .

أضف إلى ذلك أنّ احتفالاتهم بهذه المناسبات الدينية أشبه ما تكون بالاحتفالات الوطنية والقومية ، الفارغة من أية معنوية ، أوروحانية ، أو أخلاق ، ذلك أنها عبارة عن رقصٍ ، وشراب ، وسكر ، وعربدة ، وفسق ، وفجور .

بينما بالمقابل ترى حفل ولادة الحسين (ع) غالباً ما يقترن بمظاهر العظمة المعنوية ، وتشكيل مجالس الوعظ ، والإرشاد ، والخطبة ، وسكب دموع الشوق ، وطلب التقرب لله ، واستمداد التربية والتعليم منه .

إنني أتذكر الآن كتاباً قد قرأته في أيام إقامتي في مدينة « قم » لمؤلفه « محمد مسعود » الذي بدا أنه مهتم بوضع مقارنة بين الطريقة التي يحیی بها المسيحيون ذكرى مقتل عيسى - بزعمهم طبعاً بينما نعتقد نحن المسلمين كما أعلمنا القرآن : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ، وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾^(١) - والطريقة التي نحیی فيها نحن المسلمين شهادة أبي عبد الله الحسين (ع) .

وقد استنتج في ذلك الكتاب أن طريقة المسيحيين هي الأفضل باعتبارهم يرون في استشهاد قائدهم ومعلمهم نصراً ، بينما نحن نراه فشلاً وهزيمة .
ولذا تراهم يفرحون بتلك المناسبة بينما نحن نبكي .

هذا بالإضافة إلى أنني سمعت مثل هذا الاعتراض من أفراد آخرين أيضاً ، مع اعتقاد ذلك البعض بأن أحد أسباب تقدم المسيحيين وتأخرنا نحن المسلمين ، إنما يكمن في هذه النظرة .

لكنني أقول لهؤلاء جميعاً :

إنكم تغفلون عن نقطة هامة للغاية أثناء تعرضكم لهذا الموضوع ألا وهي :
إن لا أحد يُنكر ما تقولون لو أن القضية كان لها بعد واحد ، وهو البعد الشخصي ، والأخلاقي الفردي !

وهي قضية مؤكدة ومنطقية في منطق الإسلام نفسه ، فالشهادة من هذه الناحية نصر وفوز ، وليست هزيمة وفشلاً .
فهذا علي (ع) كان يتمنى الشهادة ويُحبذها لنفسه ويقول :

« لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش »^(٢) .

وهو القائل أيضاً : « والله لابن أبي طالب آنسٌ بالموت من الطفل بثدي أمّه »^(٣) .

(١) سورة النساء : الآية ٥٧ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٢١ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٥ .

ثم أليس هو القاتل بعد نزول ضربة ابن ملجم على رأسه : « فُزْتُ وربَّ الكعبة »^(١) ؟

وهو القاتل أيضاً على فراش الموت : « وما كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وطالب وجدٍ »^(٢) .

ثم ها هو سيد الشهداء الحسين (ع) يقول أيضاً : « وما أولهني إلى أسلافي ، اشتياق يعقوب إلى يوسف »^(٣) .

كما أنه القاتل كذلك : « لا أرى الموت إلّا سعادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً »^(٤) .

لكننا نقول : إن هذه القضية لا بد وأن يُنظر إليها ، من زاوية أخرى ، وبمقياس آخر هو المقياس الاجتماعي .

فإنك ربما لن تجد في تعليقات السيد المسيح كافة برنامجاً اجتماعياً واحداً^(٥) .

بينما تجد الإسلام قد وضع سلسلة من التعليقات الاجتماعية في برنامجه العام ، وبالتالي فإن الإسلام قد طرح عدداً من التصورات الخاصة بمفاهيم الحب والبغض المنطقية .

وعليه فإن تعليقات الأئمة الأطهار عليهم السلام ، بشأن إقامة العزاء الحسيني - كما سبق وأن تطرقتُ إلى ذلك في محاضرات عاشوراء من العام (١٣٨٢ هـ) ، والتي أوردتها تحت عنوان « الخطابة والمنبر »^(٦) ، وأعود فأكرر هنا - ليست من أجل مواساة السيدة الزهراء (ع) . مثلاً فالسيدة الزهراء أجلُّ شأنًا ، وأرفع مقاماً من هذا ، إنها تعليقات من أجل إحياء نوايا وأهداف

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج ٣ ص ٣١٢ .

(٢) نهج البلاغة الرسالة ٢٣ .

(٣) اللهوف ص ٢٥ .

(٤) تحف العقول ص ٢٤٥ .

(٥) عدا ما ورد في أواخر « تحف العقول » بعض من تعليقات السيد المسيح (ع) حول مسألة الظلم .

(٦) لقد تم طبع هذه المحاضرات للشهيد المطهري تحت عنوان (عشرة مقالات) .

سيد الشهداء ، والسيدة الزهراء عليهما السلام .

من هنا يأتي تأثيرنا على وقوع مثل تلك المأساة ، والحادثة التاريخية ، وهو تأثر يهدف التصريح بقلقنا ، وخوفنا من إمكانية تكرار مثل تلك الفاجعة .

ولهذا فنحن نشجذ أنفسنا بالتأثر حتى 'نشوق إلى النضال ، ونقوي روح الكفاح في صفوفنا ، وبالطبع هذا لا يُنافي كون الاحتفال بيوم استشهاد الحسين (ع) ، وإذا ما تم بأخذه أشكالاً معنوية ، وأخلاقية عالية ، وليس كما هو متبع عند المسيحيين ، في ذكرى السيد المسيح ، ربما يكون وسيلةً للتشويق والحض على الجهاد والنضال ، لكن التشجيع على الجهاد لا نعتبره أمراً كافياً ، إذ إننا نرى ضرورة اندماج الحب والبغض (الكراهية) حتى 'تولد روح النضال لدى الأشخاص' (١) .

إن إحياء روح النضال والكفاح لا يحصل إلا بعرض مظاهر الظلم والكفر ، وبلورة أشكالها أمام الناس ، حتى تحصل اللعنة عليها ، وتُشجذ النفوس بالرغبات الشديدة لرؤيتها ، وقد نُحيت من الوجود ، ولم تُعد تتكرر ، تماماً كما يحصل في فعل رمي الجمرات في الحج ، حيث إننا نتصور الشيطان ونبلوره أمامنا ، ثم نرميه بالحصى .

فليس صحيحاً أن نُلْقن الناس وأنفسنا بالرغبة والاشتياق إلى الموت ، فالطموح إلى نيل مرتبة الموت وحدها ليس أمراً جيداً ، والهدف هو الوصول إلى درجة الشهادة ، وأمنية الشهادة ، لا تتحقق إلا عندما يرى الإنسان نفسه أمام صف الأعداء ، وقد بدأت مشاريعهم تتحقق ، وخططهم تأخذ مجراها العملي في المجتمع ، وبالتالي فإنه يحزن ويتأثر لذلك ، مع ما يرافق ذلك من رغبة في سكب

(١) بعبارة أخرى نقول إن مدرسة العزاء الحسيني ، ليست مدرسة محض حزينة ، إنها مدرسة تمرد وثورة . فقد كانت واقعة كربلاء على مر التاريخ الإسلامي سبباً ومنشأً لحدوث الثورات ، وانهدام قصور الظلمة والطواغيت ، وقد لعب عامل شجذ النفوس بالبغض والحزن المنطقي ، والاجتماعي ، دوراً كبيراً في تلك الحوادث ، وهي مرشحة لتلعب مثل هذا الدور في المستقبل أيضاً .

الدمع. على الأختيار من سبقوه ، والمثل الإنسانية العليا التي كانوا يُدافعون عنها ،
وَيُمثلونها ، فيمتزج هذا الشعور مع شعور الغضب ، والبغض ، والكراهية ، ضد
مظاهر الكفر والظلم .

وإنني بصدد التطرق في أبحاثي المستقبلية إلى مثل هذه المواضيع ، تحت
عنوان « التعليقات الاجتماعية »^(١) ، والتي سأتناول فيها موضوعات الحب
والكراهية في السياق المنطقي ، إلى جانب الحب والكراهية في السياق العاطفي إن
شاء الله .

إذاً، نقول : إنَّ الشهادة إذا ما قيسَت بمقياس فردي ، فإنها علامة موفقية
ونجاح ، ولا بد أن يُحتفل لها ، ويُفرح من أجلها .

لكننا إذا ما وضعناها في المعيار الاجتماعي العام فلا بد أن نرى فيها علامة
للهزيمة والفشل ، لذلك المجتمع الفاسد ، والمُنحط ، الذي يقول عنه سيد
الشهداء نفسه : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد »^(٢) ،
إلى غير ذلك من أمثال هذه المقولات الخالدة في تاريخنا لذلك نقول : إنه ومن
أجل المصالح الاجتماعية تلك ، ومن أجل تجديد وإحياء روح النضال والكفاح
على طريق الحق ، لا بد من إيجاد مدرسة الحزن والبكاء ، لأنها المدرسة الأكثر
نفعاً ، والأعم فائدة في هذا المضمار .

وقد تطرقتُ إلى مثل هذه الموضوعات في شرح حديث : « العدلُ أفضلُ أم
الجودُ » في محاضرة (١٩ من شهر رمضان من العام (١٣٨١ هـ))^(٣) .

٨ - عودة إلى النقطة الخامسة نقول :

إن ولادة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام لدى المسيحيين تصادف
يوم (٢٥ كانون الأول) أي خمسة أيام قبل عيد رأس السنة الذي يصادف الأول
من كانون الثاني .

(١) سيتم نشر هذه الموضوعات تحت عنوان : أوراق وملاحظات للأستاذ الشهيد المطهري .

(٢) مقتل المرقم ص ١٤٦ .

(٣) تم طبع هذه المحاضرة في كتاب « عشرون مقالة » .

وقد جرت العادة أن يوجه البابا في هذه المناسبة رسالة إلى الرأي العام العالمي يدعوا فيها إلى المحبة والسلام ، ثم يقرأ بعض الدعاء ، وقيل إنه يصعد أحياناً على عرش ذهبي ، ويوجه منه رسالة ، ودعوة عامة للاهتمام بالفقراء !!! .

ويمكن ملاحظة أمرين يتكرران على الدوام في أعياد الميلاد من كل عام :

الأول : حتمية حضور شجر الصنوبر في كل بيت مسيحي بهذه المناسبة ، وإذا لم تحضر الشجرة كلها فلا بد من غصن على الأقل ، ويكون سوق هذا النوع من الأشجار في أوجه في مثل هذه الأيام ، وعندما تدخل هذه الشجرة إلى البيوت فإنها تُزَيَّن بالألوان المزركشة ، وتُحاط بالألوان البراقة ، وتُشعشع الأنوار حولها ما استطاع المواطن في ذلك .

وأما الأمر الثاني : فهو ظهور بابا (نويل) الذي يأتي ليزور الأطفال في ليلة العيد ، كما جرت العادة ، حاملاً معه هدايا إلى الأطفال وقد أتى بها من السماء ، فيدسّسها في جيوبهم ، أو في أحذيتهم وهم نائمون .

وقد قرأت مرة في صحيفة إطلاعات إعلاناً بهذه المناسبة ، يُفيد بأن كثيراً من المراكز العامة ، والنوادي ، والفنادق ، قد أعدت برامج خاصة للأطفال للاحتفال بهذه المناسبة .

نستنتج من كل ذلك أنّ ليلة عيد الميلاد تشمل في الواقع مجموعة من العقائد ، والأفكار الخرافية ، إضافة إلى أعمال الفسق والفجور .

بينما نحن في المقابل لا وجود لمثل هذه العقائد الخرافية ، ولا مجال لأشكال الفسق والفجور ، في مناسباتنا ، وأعيادنا الدينية .

٩ - عودة إلى النقطة الرابعة نقول ونؤكد :

إنّ المدرسة الحسينية لا شك هي الطريق لخلاص الأمة ونجاتها ، ذلك أن العلة المبقية للدين ، والتي هي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتي تشمل بالمعنى الواسع للكلمة أنواع الأعمال المُشجّعة للمعروف ، وأنوع الكفاح ضد

المنكرات ، هذه العلة قد ارتبطت في الحقيقة ارتباطاً عضوياً بالحسين (ع) حتى قيل : « إنَّ الإسلام نبوي الحدث ، وحسيني البقاء » .

١٠ - عودة إلى النقطة الخامسة نقول :

إنَّ واقعة الإمام الحسين في الواقع موضوع وعنوان تبليغي هام للعالم الإسلامي ، وهي نوع من الإحياء الدائم لمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وشكل من أشكال الظهور السنوي لسيد الشهداء في مظهر الخطباء ، والقراء الحسينيين ، أو في مظهر المصلحين ، والثوريين الصالحاء .

١١ - عودة إلى النقطة الثامنة : أرى أن نقرأ سوية ما ورد في صحيفة (كيهان) من العام (١٩٦٣ م) بمناسبة أعياد الميلاد . إذ كتبت الصحيفة تقول :

« منذ أسبوعين تقريباً ، وأشجار الصنوبر المرصوفة بجوار جدران سفارة الاتحاد السوفياتي ، والسفارة الإنجليزية ، وسائر شوارع (طهران) الشالية ، تُنبئُ باقتراب موعد الاحتفال الكبير للمسيحيين في (طهران) .

فالمسيحيون هنا من خلال اهتمامهم بهذا النوع من الأشجار ، وتزيينه ، والسهر إلى جانبه ، في ليلة عيد الميلاد ، إنما يحتفلون بهذه الطريقة بميلاد نبيهم .

ففي ليلة أمس وقبل موعد ساعة الميلاد التي تصادف حسب عقيدة المسيحيين ، الساعة الثانية عشرة ليلاً ، من يوم (٢٥ / ٢٤ كانون الأول) توجه المواطنون المسيحيون إلى كنائسهم ، وأدوا فرائض الدعاء ، والعبادة ، ثم توجهوا إلى بيوتهم لتناول طعام خاص أعد لهذه المناسبة .

إنَّ المسيحيين الكاثوليك الذين يعتقدون أنَّ السيد المسيح قد وُلد تحت شجرة الصنوبر ، - علماً بأنَّ القرآن يُصرِّح بتولده تحت النخلة - ، تراهم يُقدِّسون هذه الشجرة ، لا سيما في ليلة الميلاد ، ويُزينونها بأحسن وجه ممكن ثم يحافظون عليها ، هكذا تُشعشع وتنور بيوت الكاثوليكين ، حتى نهاية أعياد كانون الثاني القادم .

وأما باپا (نويل) فإنه ، واستناداً إلى حكايات الأطفال ، فهو سيركيب

العربة الذهبية منتصف الليلة الماضية ، ويتوجه إليهم ، انطلاقاً من الأراضي المغطاة بالثلوج ، حاملاً معه الهدايا الخاصة بالأطفال .

فالأطفال المسيحيون كانوا قد وضعوا جواربهم منذ الليلة الماضية تحت دواخين البيوت ، حتى تتلقف هدايا بابا (نويل) ، التي فرحوا بها هذا الصباح ، وهي الهدايا التي عادةً ما يضعها الآباء والأمهات ، لهم ، وكما يبدو فإن هذه القصة الخرافية تعود في الواقع إلى فكرة ألوهية السيد المسيح لدى المسيحيين الذين يحاولون تلقين أطفالهم بها بهذه الطريقة .

إنّ مقامي (طهران) ، وملاهيها ، ونواديها الليلية ، كانت قد امتلأت بالأمس ، بأولئك الذين يقضون ليلتهم الاحتفالية في مثل هذه الأماكن ، وعادةً ما يحضر الكثير من أهل (طهران) غير المسيحيين إلى هذه الأماكن إنّ بدعوة من أصدقائهم المسيحيين ، أو بدون دعوةٍ ، ليُمضوا هذه الليلة هناك » .

في الختام لا بأس من تلخيص أوجه التشابه الواقعية الموجودة بين هذين الوجودين الطاهرين ، من زاوية الشخصية الواقعية لهما ، والتي هي عبارة عن :

أ - من ناحية الأم :

حيث إنّها كلاهما من أم يُطلق عليها سيدة النساء ، وصديقة وعذراء وتبول وقد خاطبها الملائكة .

ب - اشتراكهما في مدة الحمل .

ج - اشتراكهما في كراهة الحمل .

د - اعتبار كل من عيسى والحسين شخصيتين مباركتين : [فعيسى (ع) ورد بشأنه : ﴿ وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا ﴾ . والإمام الحسين (ع) : وجعل الشفاء في تربته ، والإجابة تحت قبته ، والأئمة في ذريته .

لولا صوارثهم وقطع نبأهم لم تسمع الأذان صوت مُكبرٍ

هذا بالإضافة إلى عددٍ آخر من أوجه التشابه المتعلقة بالنظرة الخاطئة للناس

حول كل من الوجودين الطاهرين ، وهي الصور المُضَلَّلة عنها وهو مصداق :
﴿ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَيُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ﴾ .

وهنا يرجى مراجعة (الميزان في تفسير القرآن - المجلد ٣ ص ٣٢) حيث
ورد بهذا الخصوص : « المسيحُ من الشفعاء عند الله ، وليس بفادٍ » .



القسم الرابع ملاحظات حول عامل الأمر بالمعروف في النهضة الحسينية

مدخل إلى الملاحظات

١ - أولاً : ما معنى المعروف وما معنى المنكر؟ وما معنى الأمر بالمعروف؟ وما معنى النهي عن المنكر؟ .

إنّ كلمة « المعروف » تشمل في الواقع كل الأهداف والمفاهيم الإسلامية الإيجابية ، وبالمقابل فإنّ كلمة « المنكر » تشمل كل المفاهيم السلبية من وجهة نظر الإسلام .

ولهذا نرى أنّ التعبير عن تلك المفاهيم العامة قد ورد هنا باستخدام مصطلح عام ، وعنوان عريض .

وأما الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فرغم أنها قد وردا من خلال مفهومي الأمر ، والنهي ، إلّا أنّ النص الفقهي ، ونص الحديث ، واستناداً إلى التاريخ الإسلامي المؤكد ، فإنّ المفهوم هنا يشمل كل وسيلة مشروعة يمكن الاستفادة منها في تحقيق هذه الأهداف ، والحفاظ على الجسم الإسلامي العام ، وتوسيع رقعته .

٢ - ما هي القيمة الواقعية ، والثبوتية ، للأمر بالمعروف ، من وجهة نظر الإسلام؟

وما هو مدى الأهمية والقيمة التي يضعها القرآن والسنة النبوية لمثل هذا الأمر ؟

(إن آيات القرآن الكريم الواردة بشأن هذا الموضوع ، كثيرة وهامة للغاية ، وكذلك الأحاديث والروايات الواردة بهذا الشأن ، فإنها من الأحاديث العجيبة والملفتة) ، من ذلك نستنتج بأن هذا الأصل له قيمة أصيلة في غاية الأصالة في المتون الإسلامية ، وفي مقام الثبوت ، وأنه بالتالي من أركان التعليقات الإسلامية .

٣ - إن العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية ثلاثة ، وهذه النهضة تأخذ مدلولها وأهميتها وقيمتها الخاصة حسب كل عامل من هذه العوامل .

٤ - إن قبول هذه المسؤولية بحاجة إلى تحمل شروط خطيرة وهامة ، سواء من ناحية المعلومات والمعرفة اللازمة ، أو من ناحية القوة التنفيذية .

ومشكلتنا نحن لم تكن حتى الآن بعدم اهتمامنا الكافي بهذا الأصل ؛ بل المشكلة الأكبر كانت في عدم استعدادنا للقيام بمثل هذه المهمة الخطيرة ، التي اسمها المسؤولية الاجتماعية العامة^(١) ، والمطلوبة لأجل تحقق الأهداف الإسلامية .

فمعرفتنا لم تكن كاملة ، وكذلك حالة قدراتنا التنفيذية .

ولهذا أقول : إن الضرر الذي لحق بنا نتيجة تطبيقنا الساذج ، والجاهل ، لهذا المبدأ ، كان أكثر من الضرر الذي لحق بنا نتيجة لتركنا هذا الواجب .

إن مظاهر نشاطنا في هذا المجال ، قد أثبتت مدى القدرات التي نمتلكها في هذا الخصوص ، وبعبارة أخرى إن سجلنا في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، سجل أسود ، وسبىء للغاية ، وهو يُظهر لنا جيداً مقدار المعرفة التي

(١) عبارة أخرى مسؤولية التضامن التام ، وعلامة كماله في العمل بقول رسول الله (ص) : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، المسلمون متكافؤاً دماؤهم . . . » باختصار نقول إنه لا بد من التضامن فيما بيننا نحن المسلمين ، وجمع القوى ، واستعادة الذات ، والهوية ، والشخصية المستقلة .

نمتلكها بهذا الخصوص ، إلى جانب مقدار القوة والقدرات الذاتية .

وهنا لا بد من التأكيد بأنّ مشكلتنا كانت على الدوام في النقص الظاهر في معرفتنا ، أكثر مما هي في النقص الموجود في قدراتنا^(١) ، وكلاهما بالطبع شرطاً وجود لا شرطاً وجوب ، كما هو مصطلح ، أي إنهما من الشروط التي لا بد من اكتسابها والحصول عليها .

ومثال ذلك نجده ونلمسه في مقدار تحسّسنا للأمر والقضايا المحيطة بنا ، فنظرة سريعة على نوع الكتب التي نشرها ، ومدى مطابقتها للأهداف الإسلامية المطلوب متابعتها ، والأموال التي تُنفقها ، والدعاية والإعلانات التي نقوم بترويجها ، والأفكار التي تشغل بالنا ، وتأخذ من وقتنا أكثر من غيرها ، كلها مسائل نستطيع من خلالها فهم وإدراك مدى الأهمية التي نضعها لهذا المبدأ .

٥ - وهنا نسأل عن سجّل أعمالنا مع هذا الركن ؟ ولأسف ينبغي القول إنّنا لا نملك سجلاً ناصعاً بهذا الخصوص ، وإنّ أعمالنا التي تندرج عادةً تحت هذا العنوان ، بدلاً من أن تكون أعمالاً من نوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تراها نوعاً من أعمال المنكر .

ونظرة سريعة على نشاطاتنا في هذا المجال سواء التبليغية منها ، أو الإعلامية ، والطبعية ، أو الوفود المتجولة في الخارج ، أو إنفاق الأموال ، أو نوع المؤسسات ، وما شابه ، تثبت لنا أنها بمستوى الصفر ، أو أقل من الصفر .

٦ - إنّ لكلٍ من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مراتب وأقساماً : فهناك القسم اللفظي ، والعملي ، والمباشر ، وغير المباشر ، والفردية ، والاجتماعية . . .

٧ - وأخيراً فإننا بعد أن عرفنا قيمة هذا الأصل ، من وجهة نظر الإسلام ،

(١) وذلك من زاوية أننا لسنا مُحيطين بأوضاع زماننا ، ولا يتوقف الأمر عند عدم إدراكنا لاتجاهات الحركة الاجتماعية المستترة في بطن الأحداث ، وبالتالي عدم نمونا وتقدمنا ، بل إنّنا نعجز حتى عن رؤية الظواهر السطحية جداً .

وفي مقام الثبوت ، وبعد أن عرفنا أيضاً أنَّ أهمية النهضة الحسينية إنما تأتي في الواقع من زاوية هذا العامل في الغالب^(١) ، وبعد أن عرفنا كيف أنَّ النهضة الحسينية من خلال تقديمها العالي والنفيس ، من عرض ، ومال ، وأهل ، وأصحاب ، وكل شيء ، في سبيل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد رفعت ودعمت من أهمية ومقام ومدلول هذا الأصل الإسلامي^(٢) .

وإنه في الوقت الذي توقف فيه الآخرون لدى تطبيقهم لهذا الأصل عند حدود منع الضرر الشخصي ، وبذلك يكونون قد حطّوا من قيمة هذا الأصل وأهميته ، فإن النهضة الحسينية لم تعرف حدوداً لتطبيق هذا الأصل .

بعد هذا لا بد لنا أن نتساءل عما يجب علينا عمله حتى نرتفع إلى مستوى المسؤولية ، ونرفع من مقامنا لدى الله تعالى ، ولدى نبيه الكريم (ص) ومن ثم الحفاظ على ماء وجه أمتنا الإسلامية لدى سائر الأمم ، والشعوب ، في العالم ، وكسب بعض الأهمية ، والاحترام ، والتقدير العالمي ، لشعوبنا ، ماذا ينبغي علينا عمله حتى نرفع من قيمة عزاء الحسين ودرجة أهميته ؟ وهل أن المطلوب منا انتخاب وإحياء الشعارات الحسينية الحية ، أم تكرار شعارات العجائز الخاوية أمثال : أين شباب علي الأكبر ، والوداع ، الوداع يا زينب المضطرة ؟!

إنَّ الجواب على ذلك ، قد ورد في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ كُتِّمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^(٣) .

نعم بالتعاون والتعاضد الاجتماعي ، وبالتضامن والإحساس بالمسؤولية ،

(١) هذا العامل المؤثر في توسيع رقعة الثورة بأي شكل ، وبكل ثم كان ، حتى وإن سالت الدماء الزكية الطاهرة من خلال مزيد من تقدم التباب إلى ساحة الوغى ، والوقوف أمام حد السيوف ، وهو العامل الذي يدفع إلى اتساع حجم المعارضة ، والتمرد ، والنقد ، وتسمية المعتدي ، ٠٠ فع نداء العدالة بالدم الذي لا يمكن محو أثره على مر العصور ، ذلك أنَّ أي نداء للعدالة والإنسانية ، يكتب بهذا الخبر التمين والنفيس ، لا يمكن أن يُمحى أثره أبد الدهر .

(٢) المقصود أنَّ النهضة الحسينية قد رفعت من قيمة مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في عيوننا ، وفي تصورنا ، وليس أساس مبدأ الأمر بالمعروف و . . فهو أساس ثابت في الأصل .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

أمام المجتمع الإسلامي ، نكون خير أمة أُخرجت للناس .

فعلينا أن نتحين الفرص ، وندرس الواقع ، ونُدرك المرحلة التي نمر بها ،
وينبغي علينا أن نعرف كما ورد في قول « للسيد شرف الدين » - ما مضمونه - :
« لا يُقضى على الباطل إلا من حيثُ جاء » .

قلنا إننا لسنا فقط عاجزين عن إدراك سبر الأحداث المستترة ومدلولاتها ،
بل حتى أبسط الظواهر الواضحة نعجز عن إدراكها .

وقلنا أيضاً إنَّ مشكلتنا في نقص معرفتنا ، أكثر مما هي في نقص قوتنا ،
فمن المستحيل التصور بأن (٧٠٠ مليون مسلم)^(١) مسلم لا وزن لهم في العالم .

فهذا مثال واضح لكلا المسألتين ، يُثبت لنا مدى جهلنا من جهة ، ومدى
توفر إمكانية القوة عندنا من جهة أخرى ، ومثالي هو تلك القصة الحزينة ، لكنها
المُحرّكة ، والتي تهز الضمير في الوقت نفسه ، ألا وهي قصة تعاملنا مع القضية
الفلسطينية في السنوات الثلاثين السابقة .

فهل تعرفون سابقة اليهود في فلسطين ؟

إنهم لم يُشكّلوا دولةً في حياتهم إلا في زمن داوود وسليمان ، وبعد ذلك لم
يكن لهم دولة تُذكر في أي مكان ، ولم تكن حتى في زمن فتح المسلمين
لفلسطين . . . (٢) .

(١) طبقاً لأحصائيات ذلك العام .

(٢) هكذا ورد في النسخة الخطية للأستاذ الشهيد .

ملاحظات عامة

- ١ - لماذا بعث الإمام بكتبه إلى البصرة يدعوهم فيها إلى التحرك ؟
ألم يكن هذا نوعاً من أنواع العمل باتجاه توسيع رقعة الثورة والدم ؟
وأكثر من ذلك ، لماذا أرسل في ليلة العاشر من محرم « حبيب بن مظاهر »
إلى بني أسد ، يطلب منهم التحرك والقدوم إلى ساحة الوغى ؟
ولماذا أخيراً لم يُلزم أصحابه ، وأهل بيته ، وعياله ، بعدم تعريض أنفسهم
للموت ؟
إنَّ الإمام قد تحمل كل هذا من أجل أن يُسجَّل اعتراضه وتمرده ، ويكتب
نداء العدالة والحق بدمه الذي لا يمكن محوه أبداً ، وترى الإمام قد أورد معظم
خُطبه الحماسية ، بعد اصطدامه بجيش الحر ، وبعد أن أطبقت عليه الجيوش من
كل جانب^(١) .
- ٢ - إنَّ ما بيَّناه في الملاحظة السابقة يأتي تأكيداً على أن الإمام الذي بنى

(١) راجع الملاحظة السابقة رقم (٣) .

تحركه على مبدأ الأمر بالمعروف ، إنما يكون قد اختار منطق الشهيد والشهادة ،
والذي هو ما فوق المنطق النفعي العقلاني .

هذا الاختيار الذي يعني أنّ كل شيء يهون أمام تحقق أهداف التحرك ، في
حين أن عاملي البيعة ، والدعوة الكوفية لتشكيل الحكومة ، لا يمكن أن يصل
تأثيرهما إلى حدود توسيع رقعة الثورة والانتفاضة .

٣ - عطفاً على الملاحظة الأولى نقول :

إنّ كثيراً من السلاطين كانت لديهم الرغبة في تخليد أسمائهم ،
وخطاباتهم ، وأقوالهم ، وإن كانوا فارغين في التاريخ ، ولذلك تراهم كانوا
يسعون إلى كتابة آثارهم تلك فوق الصخور ، واللوحات الصخرية ، ونحت
أسمائهم ، وأسماء سلالاتهم الحاكمة . (وهو ما نجده في آثار النحت على
الصخور وأمثال ذلك) إلى غير ذلك من الترهّات ، التي لا يبقى منها شيء في
القلوب أبداً ، بل سرعان ما تذهب مع ذهابهم تحت الأنقاض .

بينما استطاع الإمام الحسين (ع) ، من دون أن ينحت اسمه ، أو عمله ،
على لوحة فلزية ، أو صخرية ، وبالرغم من أنه قد أرسل نداءه إلى أعالي
السماء ، وسجّل أعماله فوق لوحة الهواء المهتزة ، لكن قصته ، وحكايته ، طبعت
في القلوب ، وخلّدت في الصدور ، وبقيت حيّة إلى الأبد ، في قلوب أولياء الله ،
كأنها خطوط الوحي النورانية الأبدية .

وهكذا : ف « إنّ للحُسين محبةً مكنونةً في قلوب المؤمنين » .

واسم الحسين قد طُبع في الواقع في أرقى مقام ، وأرفع مركز حسبي ممكن
للروح ، بحيث إنّ ذكر اسمه لوحده ، يكفي لأن تسيل الدموع من أجله .

لماذا ؟ ذلك أنّ نهضته ، وقيامه لم يكن شخصياً ، بل لله ، وهدفه ،
ومقصده ، وغايته ، إنسانية رفيعة ، تسمو إلى تحقيق العدالة ، وإشاعة التقوى .

٤ - عندما يهيمن حكم الفساد ، والفسق ، والفجور ، على رقاب الناس ،
وتشيع الفاحشة والمنكر ، وينتشر الظلم ، والفساد ، والاستبداد ، ولا يخرج أي

صوت يعترض على تلك الحالة ، بحجة الحفاظ على النفس والكرامة ، فإنَّ حكم الناس البعيد عن ذلك المجتمع ، زماناً ، أو مكاناً ، سيكون بلا شك القول برضا أفراد المجتمع ، وقبولهم لمجريات الأحداث في زمانهم ، وقد يذهبون أبعد من ذلك ، ويعتبرونه نوعاً من الإعراض عن الإسلام ، أو الثورة المضادة له .

٥ - إنَّ ردود فعل الأمويين أنفسهم ، التي سبق أن أوردناها^(١) ، والتي جاءت على لسان كل من عثمان بن زياد ، ومرجانة ويحيى ابن الحكم ، وهند زوجة يزيد ، ومعاوية بن يزيد ، تشير كلها إلى الأثر العظيم الذي تركته واقعة شهادة أبي عبد الله (ع) على نفوس الرأي العام ؛ وكيف أنَّ هذه الحادثة قد مزّقت ستار النفاق من حول الأمويين ، وكشفت عن حقيقة باطنهم ، وفصلت إلى الأبد بين ملف الإسلام وملف الأمويين .

وهذا بحد ذاته دليل ساطع على أحقية الإمام الحسين (ع) في اختياره منطق الشهيد والشهادة .

٦ - إنَّ قول الإمام الذي ورد عنه في يوم عاشوراء : «إني لأرجو أن يُكرّمني الله بهوانكم» ، يأتي تأكيداً آخر على أنَّ الإمام كان مطمئناً إلى حُسن الأثر الذي ستركه شهادته ، وأنها ستكون الوسيلة التي بها تتراجع أهداف الأمويين ، وتنكسر شوكتهم ، ويذهب ماء وجههم ، بينما تُشرق صفحة أعماله ، وتزداد ضياءً بها ، وهذا دليل آخر على ما ورد في الملاحظة السابقة .

٧ - إنَّ العوامل الخاصة المؤثرة في حدوث قيام الأمر بالمعروف هي التالية :

أ - جعل الخلافة والحكم وراثياً ، وبالتالي تحقيق أمنية أبي سفيان التاريخية .

ب - نقض اتفاقية الصلح المعقودة بين الإمام الحسن ومعاوية من قبل الأمويين ، والظروف التي لم تُعد تطاق بالنسبة للشيعة ، والتي كان الأمويون قد فرضوها على أنصار علي (ع) ، من خلال التعميمات الحكومية ، التي أصدرت في

(١) فصل ملاحظات حول الهبة الحسينية . رقم (٣)

زمن معاوية ، والتي كان يؤخذ فيها الشيعي بالتهمة والظنة ، ويُخرج فيها محبّو علي من الديوان الحكومي ، ويُحرم فيها من يثبت ولاؤه لعلي (ع) ، من كل شروط الحياة الاجتماعية ، من حقوق ، وقضاء ، وشهادة ، وإمامة جمعة وجماعة ، هذا إضافة إلى قتل أكابر الشيعة ورجالها ، من أمثال حجر بن عدي ، وعمر بن الحمق الخزاعي ، وغيرهما .

ج - سبّ علي (ع) على المنابر .

د - اتساع حملة الدعاية ، والترويج لصالح الأمويين ، ولا سيما معاوية بالذات ، ووضعه في مقام كبار الصحابة .

٨ - عطفاً على الملاحظة السابقة نقول :

إنّ سياسة الأمويين بشكل عام ، كانت تقوم على قاعدة المحافظة على الإسلام في الظاهر والشكل ، مع العمل على تفريغه من الجوهر ، والعمق الداخلي .

وبعبارة أخرى فإنّ سياستهم كانت تعبيراً عن تحقق نبوءة النبي الأكرم (ص) ، التي أفادت بقدوم يوم ، يكون الناس فيه لا يزالون يُقبلون على الإسلام ، في حين يأتي من يُبعدم عنه .

القسم الخامس

ملاحظات حول التحريفات الحاصلة

في

واقعة عاشوراء التاريخية

التحريف في واقعة عاشوراء

١ - تأتي كلمة - تحريف - من جذر - حرف - بمعنى حرّ - الشيء ، والدفع به نحو الاعوجاج ، وإخراجه من مسيره الأصلي .

والتحريف على نوعين : لفظي أو هيكلي ، ومعنوي أو روحي ، وهو أشبه بعمل المغالطة الذي هو الآخر على نوعين ، لفظي ومعنوي .

إنّ للتحريف وللمغالطة سابقة تاريخية طويلة . والقرآن الكريم يُحدّثنا عن التحريف بحق الكتب السماوية ، وهو ما سجّله من خلال مطالعاتي في أوراقٍ تحت عنوان « تحريف الكلمة »^(١) .

كما أنّ التحريف من زاوية نوعه يشتمل على قسمين : لفظي ومعنوي ، فإنّ التحريف من زاوية العامل المُحرّف ، يشتمل على قسمين أيضاً : فهناك تحريف الأصدقاء إلى جانب تحريف الأعداء .

بعبارة أخرى إمّا أن يكون منشأ التحريف جهل الصديق ، أو عداوة العدو .

(١) سيتم نشر موضوع هذه الأوراق في سلسلة مذكرات وأوراق الشهيد .

كما أن الموضوع المُحرّف يمكن أن يشتمل على أقسام عديدة :

فمرةً يكون الموضوع المُحرّف عبارة عن أمرٍ فردي لا أهميه له ، كالتحريف في رسالة شخصية ، أو ما شابه ، وقد يكون مرةً الإساءة والتلاعب بأحد الآثار القيّمة ، سواء الأدبية ، أو الاجتماعية ، أو التاريخية ، أو الوثائقية ، كما في اختلاق حرق كتب الإسكندرية ، أو التلاعب الذي يحصل في كثيرٍ من الوثائق الأخلاقية ، والتربوية ، أو الاجتماعية .

٢ - يقول المرحوم (آيتي) في محاضرته الخامسة المنشورة في كتاب « تحليل تاريخ عاشوراء » بأنّ أسر أهل بيت الإمام ، شكّل عاملاً مهماً في انتقال وقائع عاشوراء الحقيقية إلى الناس ، ومنع تحريفها وقلبها .

ثم يضيف إلى ذلك في محاضرته السادسة الواردة في نفس الكتاب (ص ١٥١) القول :

« ينبغي الملاحظة بأنّ تاريخ أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، يُعتبر نسبةً إلى كثير من التواريخ الأخرى ، تاريخاً محفوظاً من التحريف ، ومُصاناً منه » ، لا سيما وأنّ خصوصية الفاجعة ، والحالة المأساوية ، التي صاحبها ، إضافة إلى عظمة الحادثة ، وجلال وهيبة أهل بيت النبي (ص) ، أمران قد ساعدا أولئك الذين درسوا هذه الواقعة من هاتين الزاويتين ، أن يحرصوا وبشكل دقيق ، واهتمام بالغ ، على درج التفاصيل الجزئية والدقيقة للواقعة .

فترى أن جزئيات الواقعة ، ودقائق أحداثها ، قد وردت بأسانيد متواترة ، ومحكمة ، في عدة تواريخ أمثال (الطبري) ، و(ابن الواضح اليعقوبي) ، و(الشيخ المفيد) و(أبو الفرج الإصفهاني) ، الذين عاشوا في القرون الثاني ، والثالث ، والرابع ، للهجرة ، وقد نقل جميع هؤلاء وقائع عاشوراء على لسان رواة موثقين ، لا يرقى إليهم الشك .

إنّ المرحوم آيتي يؤكد كذلك في « ص ١٦٨ » من كتابه ، بأنّ اهتمام نساء أهل البيت ، بالخطبة والخطابة ، في المناسبات المختلفة ، التي كانت تتاح لهنّ بالتكلّم ، على الرغم من وجود الإمام علي بن الحسين (ع) معهنّ ، ما هو في

الحقيقة إلا محاولةً منهم لمنع وقوع ، وحصول ، أي نوع من أنواع التحريف في الواقعة ، (سواء أكان تحريفاً لفظياً ، أو معنوياً) .

نعم من أجل أن لا تقلب الحوادث ، فقد حرصن على القيام بتلك المهمة ، وشرح تفاصيلها ، وأهداف الإمام من وراء ذلك التحرك ، على شكل خطابات عامة .

٣ - في بداية محاضرته التاسعة (ص ١٧٥) ، وضمن إشارته إلى أهمية خطب وأقوال أهل بيت الإمام يقول المرحوم (آيتي) :

« إننا إذ نستطيع اليوم الاطلاع الدقيق على جزئيات واقعة عاشوراء ، فإنما نطلع عليها من خلال خطب الإمام ، وأهل بيته ، في مكة ، أو في الطريق بين الحجاز والعراق ، وفي كربلاء ، وفي الكوفة ، والشام ، والمدينة .

ومن خلال أقواله التي وردت في ردوده على أسئلة الآخرين ، أو من خلال الرجز الذي رده الإمام وأصحابه في يوم عاشوراء في مواجهة الأعداء ، أو من خلال أقوالهم المثبتة في الأسانيد المعتبرة ، والموثقة ، أو من خلال الرسائل المتبادلة بين الإمام وأهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وكذلك من خلال الرسائل التي تبودلت بين يزيد وابن زياد ، وابن زياد وعمر بن سعد ، أو رسالة ابن زياد إلى حاكم المدينة ، وغيرها من الرسائل ، والتي سجلتها جميعاً التواريخ المعتبرة ، والتي ستصل حتماً إلى أسماع وعقول الناس في المستقبل ، وتبقى محفوظة رغم تبدل الظروف ، والتي من خلالها يمكننا ذكرنا قراءة الوقائع والجزئيات الدقيقة لأحداث عاشوراء ، دون التفتيش عن مزيد من المصادر في هذا الباب » .

٤ - من جملة الأمور التي حرّفها العدو القول الذي ورد في التواريخ من أنّ يزيداً قد كتب إلى ابن زياد (بعد وصول أخبار ورود مسلم إلى الكوفة إليه) يقول له - في الأمر الذي وجهه إليه في تولية الكوفة - :

« إنه كتب إليّ شيعتي (أي جواسيسي) من أهل الكوفة ، يخبروني أنّ ابن عقيل بالكوفة ، يجمع الجموع لشق عصا المسلمين . . . » .

وهو ما ورد على لسان ابن زياد نفسه ، وهو يخاطب مسلم بن عقيل بعد

القبض عليه : « إيه يا بن عقيل ! أتيت الناس ، وأمرهم جميع ، وكلمتهم واحدة ، لُتُشْتَتهم ، وتُفَرَّق كلمتهم ، وتحمل بعضهم على بعض . . . » .

لكن هذا التحريف قد ردّ عليه مسلم في الحال عندما قال لابن زياد :

« كَلَّا لَسْتُ أَتَيْتُ ، ولكن أهل مصر زعموا أنّ أباك قتل خيارهم ، وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأَتَيْنَاهُمْ لنأمر بالعدل ، وندعو إلى حكم الكتاب » .

على أية حال ، فإنّ مثل هذا التحريف لم يخدع أحداً من المؤرخين في الدنيا ، عدا واحدٍ فقط كتب شيئاً من هذا هو القاضي ابن العربي

٥ - وأمّا التحريفات التي لحقت بواقعة عاشوراء فهي على نوعين (قسمين) لفظية ومعنوية :

التحريفات اللفظية^(١)

أ - قصة الأسد وفُضّة^(١) ، والتي وردت حتى في كتاب « الكافي » للأسف الشديد .

(١) ما هي الدوافع التي تقف وراء مثل هذه التحريفات اللفظية ؟ نقول إنه وبشكل عام ، هناك تقليد لدى عوام الناس بصناعة الأساطير حول الشخصيات العظام في العالم ، والأمة التي تصنع الأساطير حول ابن سينا ورستم وسهراب وتحيط حياتهم بالخرافات ليس هناك عجبٌ بعد ذلك أن خلقت مثل تلك الأساطير حول شخصيات مثل علي بن أبي طالب والحسين بن علي (ع) : فتراهم يحدّثونك عن ضربة علي بالسيف التي نزلت بحق علي رأس ابن عبد ودّ ، لكنها أحيطت على الفور بحرقة جرح أصاب جبرائيل أثناء المعركة ، حتى لا تنشق الأرض من شدة ضربة علي ، إلى جانب المبالغة في أرقام جيش العدو في عاشوراء فيقولون إنه (٧٠٠) ألف ، وإن يوم عاشوراء كان بطول (٧٢) ساعة ، وإنّ حربة سنان بن أنس كانت ذات ستين شقاً ، وعندما تجادلهم يقولون إنها أرسلت له من الجنة ١١ بالطبع هناك عامل آخر خاص هو موضوع البكاء على الحسين الذي سأتناوله بالبحث في مكان آخر .

(٢) وردت القصة في (منتخب الطريحي) وفي كتاب « أسرار الشهادة » للدربندي ، كما نُقلت على لسان رجل أسدي وفحواها : أنّ رجلاً كان يأتي فُضّة على شكل أسد في الليالي ، وقد تبين فيما بعد أنه علي بن أبي طالب (ع) - العياذ بالله - .

ب - قصة عرس القاسم ، والتي كما يبدو أنها من الخرافات الحديثة العهد منذ زمن السلسلة القاجارية (من زمن الملاً حسين الكاشفي) .

ج - قصة فاطمة الصغرى في المدينة ، وإبلاغ الطير الأخبار لها .

د - قصة الفتاة اليهودية التي كانت مصابة بالفلج - الشلل - وكيف أنها قد شُفيت ، بعد أن تم تزريق نقطة دمٍ من دماء أبي عبد الله الحسين (ع) في بدنِها بواسطة الطير .

هـ - قصة حضور ليلي في كربلاء ، والادّعاء بأن الحسين (ع) قد أمرها ، أن ترجع إلى إحدى الخيم ، وتنشر شعرها ، بعد أن خرجت من المخيم ، والشعر المختلق بهذا الخصوص على لسانها :

نذرٌ عليّ لئِنْ عادوا وإن رجعوا لأزرَعَنَّ طريقَ الطفِّ ریحاناً
وغيرها الكثير .

و - قصة الطفل الذي كان لأبي عبد الله (ع) في الشام ، وكيف أنه أراد رؤية أبيه فجأؤوه برأس الحسين ، ومات هناك^(١) .

ز - قصة زيارة الأسراء لقبر الحسين (ع) في كربلاء ، في يوم الأربعاء ، وملاقاة السجّاد (ع) لجابر ، وذلك بعد أن وصل الأسرى إلى مفترق طريق ، بين المدينة والعراق ، والاستعانة بالنعمان بن البشير ، لمعرفة طريق كربلاء ! في حين أنّ حقيقة الزيارة المعروفة هي زيارة جابر وعطيّة العوفي لقبر الحسين لا غير .

ح - خرافات من قبيل كون جيش عمر بن سعد كان يبلغ (٨٠٠) ألف نفر أو حتى (مليون و٦٠٠ ألف) نفر ، وأنّ يوم عاشوراء كانت ساعاته (٧٢) ساعة ، وأنّ الواحد من أصحاب الحسين كان يقتل (عشرة آلاف) رجل بضربة واحدة ، إلى حكايات كون حربة هاشم المرقال تحتوي على (١٨) شقاً ، وكذلك حربة قاتل القاسم ، في حين أنّ حربة سنان (٦٠) شقاً . . . الخ .

(١) راجع نفس المضمون .

ط - بعض القراءات ، أو العبارات التي ترد في المآتم ، والتي تظهر أهل البيت ، أو أصحاب الحسين يلبسون شربة الماء ، بكل ذل من الأعداء .
ى - قصة الطفل الأسير الذي سحله أحد الفرسان بواسطة الخيل ، حتى خنق ومات .

التحريفات المعنوية

أ - إن أول تحريف يتبادر إلى الذهن بهذا الخصوص هو الادعاء بأن نهوض الحسين وقيامه ، كان حالة استثنائية ، وبأمر خاص سري اختص به من قبل الله سبحانه وتعالى .

وأن الإمام الحسين (ع) بعمله هذا ، قد افتدى ذنوب الأمة جميعاً ! وهذا الادعاء من دون شك نوع من التأثير المسيحي على أفكارنا ، وهي نظرة تمسح فكر الحسين (ع) ، وتجعله متراساً لذنوب الآخرين ، ودرعاً لجرائم المجرمين ، وكفارة أعمال السوء الصادرة من الآخرين :

فالإمام الحسين بنظر هؤلاء المحرّفين قد قُتل حتى يضمن خلاص العصاة والمذنبين من عذاب يوم القيامة ! وحتى يكون شفيعاً لهم لغفران معاصيهم^(١) .
(قيل لأحد الأشخاص : ترى لماذا لا تُصلي ، ولا تصوم ، وتشرب الشراب ؟)

قال : أنا ؟ ألا تروني ليلة الجمعة ، وقد استهزت بالضرب ، واللطم على الصدر ، وهل هناك أحد يجهلي ؟ ! ثم ، أبعد ذلك تطلب مني أكثر من هذا ؟ !

هذه هي حالة هؤلاء القوم وقد حاول (البروجدي) أن يُقنع أهل قم بالامتناع عن القيام بأعمال الشبيهة المليئة بالخرافات والأساطير . . . لكنه فشل في

(١) ألم أقل لكم . إن الحسين (ع) قد استشهد ثلاث مرات مرة جسيماً ، ومرة استشهد اسمه ، ومرة استشهدت أهدافه ! .

ذلك إذ أجابته رؤوس القوم : إنهم يُقلّدونه طوال العام عدا ذلك اليوم !

فرّقنا الوحيد عن المسيحيين ، بهذا الخصوص ، هو أننا نقول بضرورة نزول ، ولو دمعة واحدة على الحسين ، فإننا تكفي لغفران ذنوبنا كافة ، من كذب ، وخيانة ، وشرب للخمر ، وتعامل بالربا ، وقتل وظلم !

فيالأسف كيف تحوّلت مدرسة الإمام الحسين (ع) ، وتبدّلت ! فعوضاً عن أن تكون مدرسة : « أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة ، وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر » . وكما يقول هو عليه السلام : « أريد أن أمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر » ، صارت مدرسةً لصناعة الرجال من أمثال يزيد ، وابن زياد .

وعلى أساس مثل هذه الأرضية قامت الأساطير والخرافات ، وصارت تُروى الحكايات الخرافية ، فقليل مثلاً .

إنّ رجلاً من قطاع الطرق المعروفين ، والمشتهرين بالسرقة ، والنصب ، والاحتيال وقتل المؤمنين ، والإغارة على أموال الناس ، صادف أن كمن يوماً لقافلة من المؤمنين ، ممن كانوا يقصدون زيارة الحسين ، وأخذته الغفوة فمرت القافلة من جانبه ، دون أن يتنبه ، ولما أفاق ، كانت قد ابتعدت عنه القافلة كثيراً ، وإذا به يُحدّث أنه رأى في المنام ، أنّ يوم القيامة قد حان ، وإنه لما أخذ بيده إلى النار نتيجة الأعمال الكبيرة التي ارتكبها طوال حياته ، وليأخذ جزاءه المنصوص عليه في القرآن الكريم : ﴿ وَإِنَّا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... أَن يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾^(١) رفضت النار استقباله ، وجاء الأمر بإرجاعه ، ذلك أنه قد أصابه من غبار زوار الحسين شيء ، وهو في تلك الغفوة !! وهكذا نظموا :

فإن شئت النجاة ، فزُرُ حسيناً	لكي تلقى الإله قريراً عِين
فإن النار ليس تمسّ جسماً	عليه غُبار زوّار الحسين

(١) سورة المائدة : الآية ٣٣

وإذا كان غبار زوار الحسين كافياً لأن يُنجي القاتل ، والمجرم من عذاب يوم الآخرة ، ويُنقذه من نار جهنم ، فما بالك بجزء زوار الحسين أنفسهم ! حتماً سيكونون أرفع مقاماً من إبراهيم الخليل^(١) .

٦ - لقد قلنا سابقاً إنّ دوافع التحريف شيثان . والآن نقول : بل هي أشياء :

أ - أغراض الجهات المعادية الساعية على الدوام إلى قلب الحقائق وتحريفها ، وهو ما سبقت الإشارة إليها في الملاحظة رقم (٤) .

ب - الدافع الثاني هو : عادة صناعة الأساطير ، وخلق الخرافات والأبطال ، لدى عامة البشر ، والذي سبق لنا الإشارة إليه ، وهو ما تفضل وبيّنه على أحسن وجه الأستاذ الدكتور شريعتي ، في خطبة عيد الغدير .

وقد قلنا إنّ هذه الخلفية هي التي دفعت الناس لخلق أسطورة الضربة الخرافية التي ألقى بها علي بن أبي طالب (ع) على رأس « مرحب » ، وقصة تدخل جبرائيل لتخفيف حدة تلك الضربة على الكرة الأرضية ، الأمر الذي أدى إلى حصول جراح شديدة في جناحه ، الأمر الذي تطلّب منه الاستراحة أربعين يوماً للشفاء منها !!

ج - وأمّا بالنسبة لواقعة عاشوراء بالذات فإنّ هناك دافعاً خاصاً آخر ينبغي إضافته إلى العاملين السابقين ، والذي يقوم على الفلسفة الخاصة التي خصّ بها أولياؤنا وأئمتنا هذه الواقعة المأساوية ، وتوصيتهم إيانا بإحيائها وذكرها بالبكاء باستمرار .

وفلسفة التذكير والإبكاء هذه . إنّما تهدف إلى إحياء هذه الذكرى العظيمة ، وفلسفة الإحياء بدورها تهدف إلى تخليد هذه النهضة على مر العصور والدهور ، وهذا يعني أنّ الحسين (ع) سيظهر على الناس في كل عام ، وهو ينادي السراي العام ويصبح بالعامّة :

(١) [تم ينقل الأستاذ الشهيد المطهري هنا أعداداً كثيرة من أبيات الشعر بالعارسية تدور كلها في إطار غفران الدوب مهما كانت كبيرة مقابل البكاء على الحسين !!] .

« ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه » .

وسيكون نداؤه الذي يُسمع في الآفاق :

« لا أرى الموت إلّا سعادةً ، والحياة مع الظالمين إلّا برماً » .

نعم إنه الشيد الحماسي الألحان ، والتاريخ المكتوب بالدم .

ولكن للأسف ينبغي القول بأنّ الهدف من البكاء والإبكاء قد وضع جانباً مع الزمن ، وصار البكاء نفسه هدفاً بحد ذاته لدى البعض ، بل إنه صار فناً خاصاً لا يجيده إلّا الخواص ، بحيث إنّ العادة قد غلبت على أهل المنبر وقراء التعزية الحسينية أن يركزوا على الحاشية والتعليقات ، أو الحكايات التي تُثير البكاء لدى المستمعين ، أكثر من اهتمامهم بأصل الموضوع الحسيني .

وكما يبدو فإنّ الهدف المُعلن هو الحصول على مزيد من الثواب بواسطة البكاء والإبكاء ، حتى وإن كان هذا الأجر والثواب ، يأتي من طريق التعزية الكاذبة والقصص المختلفة .

ولما كان الناس عندنا قد أصبحوا أشبه بشارب الشاي الذي اعتاد على الشاي الغليظ ، ولم يُعد يستأنس بالشاي الرقيق ، فإنهم اعتادوا كما يبدو على التعازي الحماسية ، والمليئة بالقصص الخيالية ، الأمر الذي شجّع بدوره عدداً من أهل المنبر على اختلاق عددٍ من التعازي الكاذبة ، والقصص الخيالية المختلفة وإذا أردنا استخدام تعبير محترم نقول الروايات الضعيفة لإبكاء الناس وإرضائهم .

وسأورد لكم هنا مثالين بهذا الخصوص :

يُحكى أنّ أحد علماء (آذربايجان) كان ينزعج كثيراً من سماع التعازي المليئة بهذه القصص الخيالية التي لا أساس لها ، وكان يعترض على الدوام على أهل المنبر ، ويقول لهم بلغته الخاصة :

ما هذه التعازي التي تقرأونها للناس ، كأنها سُم الأفعى ، أو قمل الشعوذات المنبرية ؟!

لكن أحداً لم يسمع له ، أو يصغي إلى نصائحه ، ولكن صادم أنه قرر أن

يُقيم في إحدى السنين مجلساً حسينياً في مسجده الخاص ، فدعا إليه أحد الوُعَاظ ، وطلب منه أن يتعهد بقراءة المأتم الحسيني في مجلسه ، بشرط أن تكون قراءته خاليةً من تلك الشعوذات المنبرية .

فوافق القارئ الحسيني على مضمض ، مع تأكيده للعالم المذكور بأنّ أحداً لن يبكي في مجلسك هذا .

وجاء اليوم المقرر بالفعل ، وصعد القارئ إلى المنبر ، والعالم جالسٌ في محرابه أمام القارئ ، وبدأ يخاطب الناس ، وهو يُحدّثهم عن أهداف الثورة الحسينية ، وكلّما أراد العالم أن يسمع صوت البكاء ، أو النحيب ، لم يصل أسماعه شيء ، فالمجلس كالثلج ، وليس فيه جنس الحماس ، وربما صار يُفكّر في تلك اللحظة بأنّ أتباعه سوف يُغادرون المجلس ، ولن يعودوا إليه في الأيام القادمة ، بل ويُشكّكون في نوايا العالم ، وإخلاصه لأبي عبد الله حتى صار مجلسه هكذا !!

فما كان من العالم إلّا أن نظر إلى القارئ الحسيني وأشار عليه بخلط بعض السموم ، أو الشعوذات المنبرية في الحديث ، حتى يسخن المجلس ، ويدخل الحماس إليه ، ويبكي الناس ! .

وأما القصة الثانية فإنّي قد سمعتها بنفسي وهي تدور حول حكاية إحدى النساء المُحبّات لآل البيت اللاتي استطعن اختراق الحصار الذي كان مفروضاً على زيارة قبر أبي عبد الله (ع) ، في زمن المتوكل العباسي ، حيث كانت السلطات تُطارّد كل من تُسوّل له نفسه زيارة قبر الحسين .

وهي قصة مفصلة على كل حال تنتهي بإلقاء تلك المرأة بالبحر عقاباً على عملها ذلك وهناك تُنادي يا أبا الفضل العباس ! .

فيظهر فارس من بعيد ، ويقترب منها ، ويقول لها تمسكي بركابي حتى أنقذك من الغرق .

فتقول له ولكن لماذا لا تمّد يدك إليّ وتنقذني ؟ فيقول لها بأنّ يديّ مقطوعتان !

من هنا يتضح أنَّ الناس أنفسهم كانوا عاملاً مساعداً ، أو مُشجّعاً لمثل هذه الخرافات ، والتحريفات .

إذ ترى كثيراً منهم هو الذي يخلق مثل هذه القصص أحياناً .

فتصور مثلاً أنَّ الحسين (ع) يجلس ليندب حظه ، ويطلب من أرض كربلاء أن تؤنسه ، وتُسعفه ، وتلعب دور الأم بالنسبة إليه ، لأنه قد فقد أمه عليه السلام ، وهو بحاجة إليها في تلك اللحظة ! كما ورد في بعض الأشعار . ماذا يعني هذا ؟!

إنَّ مثل هذه الكلمات ، والعبارات لا تخرج من أبي عبد الله ، ولا هي من شأن الإمام والإمامة ، ولا من شأن مطلق أحد .

فرجل يبلغ من العمر (٥٧) عاماً حتى لو افترضنا أنه أراد التعبير عن معاناة الوحدة ، والغربة ، والوحشة ، فهو لا يُطالب بحضور أمه .

فالطفل الذي لا يزال بحاجة إلى حضن أمه يُنادي أمه وليس الرجل البالغ !!

وفي هذا المجال لا بد لي من ذكر كتاب « اللؤلؤ والمرجان » الذي يُعتبر كتاباً فريداً ، ولا مثيل له في هذا الباب كما أنَّ مؤلفه المرحوم يُعتبر من المتبحرين في دراسة شؤون آل البيت ، وقد قسّم كتابه المذكور إلى موضوعين رئيسين هما : الإخلاص ، والصدق ، وتناولهما بجدارة الباحث المسؤول حقاً وحقيقةً .

فقد ابتدأ مبحثه حول الصدق في الصفحة (٨٢) من الكتاب وذلك بالإشارة إلى بعض الآيات القرآنية التي تُحذّر من الافتراء والكذب ، حيث وردت الآية الشريفة : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِيَسْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١) إلى غير ذلك من الآيات الخاصة بهذا الموضوع .

(١) سورة البقرة : الآية ٧٩ .

٧ - وأما في الصفحة (٩٢) من الكتاب فإنه يتطرق إلى بعض المقاطع من القراءات الحسينية المحرفة والكاذبة من قبيل :

أ - دعوى أنّ الإمام قد أمر « ليلي » أمّ علي الأكبر ، أن تتوجه إلى إحدى الخيم المنفردة ، والدعاء لابنها أن يعود سالماً من الميدان ، وذلك لأنه عليه السلام قد سمع من جده بأنّ دعاء الأم مستجاب بحق ابنها !

ب - دعوى قدوم السيدة زينب ، ووقوعها على جسد أبي عبد الله ، وهو يحتضر وقيل :

« فرمّتها بطرفه ، وقال لها أخوها : ارجعي إلى الخيمة ، فقد كسرت قلبي ، وزدت كربى ! » .

ج - دعوى أنّ الإمام قد حمل على الأعداء عدة مرات ، وكان يقتل في كل مرة (عشرة آلاف) نفرٍ منهم !!

٨ - ثم يُعرّج الكتاب المذكور في الصفحة (١٤٢) منه على آراء الشيخ المفيد ، فيذكر خطأ الشيخ المفيد الذي يقول بعدم جرح الإمام علي (ع) ، ثم يورد في الصفحة (١٤٩) قصة عبور الأسرى من أرض كربلاء ، وهم عائدون من الشام إلى المدينة ، وهو ما تفرّد فيه كتاب « اللهوف » لابن طاووس ، ولم ينقلها من بعده أحد سوى « ابن غما » في كتابه « مشير الأحزان » . وقد تم تأليف هذا الكتاب بعد وفاة السيد ابن طاووس بأربعة وعشرين عاماً .

٩ - وأما في الصفحة (١٦٣) من الكتاب فينقل هذه المرة بعض الأقاويص والحكايات المزيفة ، والأسماء المختلقة ، الواردة في كتاب « محرق القلوب » لمؤلفه الملام مهدي النراقي ، والذي كما يبدو أنّه قد نقلها بدوره عن « روضة الشهداء » للكاشفي .

وأنقل لكم هنا مقطعاً قصيراً منها للاطلاع : « يقول الراوي : لما سقط الكثير من أصحابه عليه السلام ، صرعى في الميدان ، وإذا بفارس ضخم الجثة ، مسلّح بكل أنواع السلاح ، وقد أطلّ كالطود الشامخ ، من وسط الصحراء وكشف عن درعه المستدير ، وسيفه المرصّع بالجواهر اليمانية ، والذي انفلقت

مقدمته إلى ثمانية عشر فلقة ، وانطلق إلى جيش الأعداء مهاجماً كالبرق اللامع ،
والبدر الساطع ، وبعد طراد وجولان ، بدأ يرتجز ويقول : من لم يعرفني بعدُ فأنا
هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن عم عمر بن سعد ، ثم أدار وجهه نحو الإمام
الحسين وقال : السلامُ عليك يا أبا عبد الله . . . إذا كان ابن عمي عمر بن
سعد . . . » .

١٠ - وأما في الصفحة (١٦٦) من الكتاب المذكور ، فيشير الكاتب إلى
الأكاذيب الواردة في كتب . . . القزويني . .

١١ - وأما في الصفحة (١٦٧) فيقول :

« في أيام مجاورتي للعبات المقدسة في كربلاء ، كنت أحضر دروس
العلامة ، علامة عصره ، الشيخ عبد الحسين الطهراني ، وإذا برجل دين سيد
من عرب الحلة ، يأتي إلى العالم المذكور ، ويعرض عليه مجموعة من أجزاء
مؤلف ، وجده بين كتب أبيه ، ولم يكن في الكتاب أي أثر يُشير إلى عنوانه ، أو
اسم مؤلفه ، أو أي شيء آخر ، ولكن الشيخ العلامة بعد مطالعته لتلك
الأوراق ، ورغم أنه قرأ في أحد حواشي الكتاب ، بأن مؤلفه إنما هو العالم
الفلاي ، من علماء جبل عامل ، وهو تلميذ صاحب المعالم . . . الخ ، إلا أنه
رحمة الله عليه رفض أن يعترف بصحة نسبة ذلك الكتاب إلى ذلك العالم من أهل
جبل عامل ، لأنه بعد التحقيق لم يجد ما يثبت وجود (مقتل) من آثار ذلك العالم .
إضافةً إلى أن محتويات الأوراق كانت مليئة بالأكاذيب ، والقصص
المختلفة ، التي لا يمكن معها نسبة ذلك الكتاب إلى ذلك العالم الجليل من جبل
عامل .

ولذلك أمر الطهراني رضوان الله عليه ذلك السيد بعدم نشر تلك الأوراق
مطلقاً .

ولكن كما يبدو فإن هذه الأجزاء قد وقعت بيد المرحوم الدربندي ، فنقلها
جميعاً في مؤلفه « أسرار الشهادة »^(١) ، وبذلك يكون قد زاد في الأكاذيب ،

(١) قبل حلول مناسبة المحرم بيومين أو ثلاثة أيام من هذا العام (١٣٨٩ هـ . ق) طلبت بواسطة =

والحكايات المزورة الواردة في كتابه ، ذلك الكتاب الذي يشتهر في أخباره الواهية ،
والضعيفة الإسناد ، والمختلقة تماماً ، كأن يذكر عدد أنفار جيش الكوفة الذي
خرج لحرب الحسين (ع) بـ (مليون و ٦٠٠ ألف) نفر بين فارس وراجل .

١٢ - وأما في الصفحة (١٦٨) (من كتاب اللؤلؤ والمرجان) فيذكر

الكاتب :

بأن المرحوم الدربندي نقل مرةً كلاماً قال إنه كان يسمعه في الأيام الغابرة من
عمره ، لكنه لم يكن يُصدِّقه ، ومفاد الحديث هو أنّ يوم عاشوراء قد بلغ عدد
ساعاته (٧٠) ساعة ، وأنه أي الدربندي كان يستغرب مثل هذا الأمر ، لكنه
وبعد التأمل في وقائع يوم عاشوراء أصبح متيقناً ومطمئناً بأن مثل تلك الوقائع لا
يمكن أن تحصل إلاً بذلك المقدار من الزمان .

١٣ - وفي الصفحة (١٦٩) يروي حكاية أخرى فيقول :

ذهب أحد الأشخاص من أهل كرمانشاه ، لزيارة العالم الكامل ، الجامع ،
الفريد ، السيد محمد علي ، صاحب « المقامع » ، وغيره ، قدّس الله روحه ،
وحدّثه قائلاً :

« رأيتُ في المنام إنني أقطع بلحم الجسد الطاهر لسيد الشهداء (ع) فما هو
تعبير هذا المنام ؟ وكان العالم لا يعرف هذا الشخص ، لكنه بعد أن أطرق هنيئةً
وفكر قليلاً ، رفع رأسه وقال : ربما يكون شغلك قراءة المأتم الحسيني ؟ فأجابه
الرجل بالإيجاب ، فقال له العالم : إمّا أن تترك هذه المهنة ، أو تعتمد على الكتب
المعتبرة والموثقة .

= الهاتف من مدير مؤسسة الكتاب (صدوق) السيد علي أكبر غفاري ، أن يؤمن لي أشهر الكتب
بالكذب بشأن المقتل الحسيني وذلك بمناسبة إلقائي المحاضرات المتعلقة بالحديث عن التحريفات
الحاصلة في واقعة عاشوراء التاريخية . وقد وافقني الرأي بأن أشهر الكتب هو كتاب « أسرار
الشهادة » ، لكنه وبعد أن وعدني بإحضار هذا الكتاب من إحدى المكتبات العامة ، عاد واعتذر لي
عن عدم تمكنه من الحصول عليه بعد بحث دام أكثر من ثلاثة أيام . والسبب كما قال لي هو فقدانه
من المكتبات حيث الإقبال الشديد عليه من قبل المهتمين وأغلبهم من أهل المنبر الحسيني !!

١٤ - في الصفحة (١٧٠) يُسجّل الكاتب مقدمة عن مسنا بني إسرائيل ، والتلمود ، الذي وصل إلى اليهود ، عن طريق الصدور ، بهدف الإشارة إلى أكاذيب أهل المنبر ، لكنه يقول بأنّ هذا الكتاب قد نقل حقاً بواسطة صدور الواعظين ، ولسان الذاكرين .

١٥ - وفي الصفحة (١٧٤) يعود الكاتب ويُعرّج على الموضوع السابق ، من خلال بعض العبارات فيقول :

« لكن مسنا اليهود عبارة عن كتاب مُعيّن ، ومعهود ، وهو قد ظل مصوناً من الزيادة أو النقصان ، بواسطة تفسير (شروح المسنا) .

بينما روايات مسنا أمتنا عبارة عن كيان نباتي قوي ، تراه يتنقل من مجموعة إلى أخرى ، فيزداد ، وينمو ، ويكبر ، وبمحض وصوله إلى مسامع أهل المنبر ، أو أيديهم ، يتحول إلى قوة حيوانية ، فيكتسب جناحاً ، وريشاً ، ويصبح كالطير التي تُحلّق ، وتطير بكل اتجاه .

ونحن هنا ننقل لكم بعض تلك الأكاذيب على سبيل المثال » .

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا سبق أن نقلنا عن لسانه ثلاثة أمثلة :

أ - ب - ج .

١٦ - في الصفحة (١٧٥) من الكتاب : يتم نقل اسطورة خيالية عن وضع

أمير المؤمنين (ع) بعد الضربة .

هـ - خرافة أحد القاصدين من الكوفة ، وهو يحمل رسالة للإمام الحسين (ع) ، يريد جواباً عليها ، حيث يطلب منه الحسين الانتظار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث يكون الإمام قد عزم على السفر ، فيأتي ذلك الشخص ليُشاهد حركة قافلة شاه الحجاز ! بجلالها وهيبتها ! وأنه يأتي ويرى كيف يجلس الإمام على ذلك المقعد المُجلّل ، وقد أحاط به بنو هاشم من كل جانب ، وهم محاطون بدورهم بالرجال والحراس والأحصنة المزينة ، المحملة بالأمّعة ، وأنواع الديباج ، والحرير . . . انتهاءً بيوم عاشوراء ، وكيف أمر عمر بن سعد ، عصر ذلك اليوم ، بإعداد الجمال العارية من الأسرّة لنقل أسراء أهل البيت . . .

و- وفي الصفحة (١٧٧) ينقل : دعوى كُف أن السيدة زينب (ع) كانت قلقة ومضطربة ليلة العاشر من مُحَرَّم ، وهي تسير من خيمة إلى خيمة ، تستخبر أحوال الأقارب ، والأنصار ، والأصحاب ، فتقترب من خيمة « حبيب بن مظاهر » ، فتراه وقد جمع الأصحاب في خيمته ، وهو يُحلفهم على أن لا يسمحوا غداً لأحدٍ من بني هاشم بالتقدم إلى الميدان قبل أن يتوجه هو أولاً . . . حيث تُسرَّ المخدرة زينب من هذه الأخبار ، فتواصل سيرها إلى خيمة أبي الفضل العباس ، فتراه هو الآخر قد جمع بني هاشم ، يُحلفهم أن لا يسمحوا لأحدٍ من الأنصار بالتقدم إلى ميدان الوغى قبل خروج العباس ، فتزداد سروراً ، وتنطلق على الفور ، إلى أبي عبد الله مُتبسمةً ، فيستقبلها الحسين مُتعبجاً ، سائلاً عن سبب تبسُّمها (في مثل تلك الظروف) ، فتشرح له ما رأت وسمعت . . .

ز- دعوى تعريج الإمام على ابنه الإمام السَّجَّاد ، علي بن الحسين عليهما السلام ، بعد استشهاد أهل بيته ، وأصحابه ، والقول بأنَّ السَّجَّاد صار يسأل الإمام عن الحالة التي وصلت إليها القافلة مع العدو ، وردَّ الإمام بأنَّ الأمر قد تطوَّر إلى الحرب ، ومن ثمَّ سأل السَّجَّاد عن الأصحاب واحداً بعد الآخر ، وجواب الإمام بأنه « قُتِل ، و . . . قُتِل . . . » ، إلى أن انتقل الحديث إلى علي الأكبر ، وأبي الفضل العباس ، وانتهى بقول الإمام بأنه لم يبق أحد من الرجال غيري وغيرك . . . - مما يعطي الانطباع بأنَّ السَّجَّاد ، لم يكن واعياً لما كان يجري طوال تلك المدة لشدة مرضه ! - . وهو ما يُفصِّله الكتاب في الصفحة (١٧٨) .

ح- كما يتعرض الكتاب لدعوى عدم وجود أحدٍ من أصحاب الإمام ، كي يُساعدوه في إحضار راحلته ، أو فرسه لدى عزمه على الخروج إلى البراز ، الأمر الذي دفع بزينب (ع) للقيام بهذه المهمة !

وهنا يتوسع ذهن أهل المنبر ويتسع خيالهم في سرد الحوادث الطويلة ، التي يُقال إنها قد دارت بين الأخ وأخته ، في تلك اللحظات ، مما يُعطي الموقع حالة حماسية ، ورونقاً مسرحياً خاصاً .

وكما يبدو في الظاهر فإن من جملة الأمور التي تُطرح على المنابر في هذه اللحظات ، هو تذكُّر زينب (ع) أثناء وداعها لأخيها ، لوصية قيل إنها سمعتها من أمها ، وهي تقول لها : يا زينب قبلي حسيناً باسمي في عنقه .

كما تنقل هنا حكاية عدم انطلاق الفرس مع الحسين ، إلا بعد وصول أحد أطفال أهل البيت ، ولقائه للحسين . . . (وفي هذا المجال توجد هناك أشعار كثيرة باللغة العربية ، وبالفارسية ، تتحدث كلها عن هذه الحالة ، لا سيما أشعار صفي عليشاه التي يشرح فيها قوتي الجذب العقلية والعاطفية ، لدى زينب عليها السلام . . .) ولا بأس هنا من التذكير بأنَّ عمر العقيلة زينب لم يكن يتجاوز الخمس سنين لدى وفاة أمها الزهراء عليها السلام .

ط - وفي الصفحة (١٧٩) من الكتاب يذكر المؤلف : دعوى قدوم زينب إلى جانب أبي عبد الله الحسين (ع) ، وهو صريع على أرض المعركة : « ورأته يجودُ بنفسه ، ورمت بنفسها عليه وهي تقول : أنت أخي ، أنت رجائنا ، أنت كهفنا ، أنت جمانا » .

ي - وفي الصفحة (١٧٩) أيضاً تتم الإشارة إلى الخرافة المنسوبة إلى « أبو حمزة الثمالي » ودعوى أنه قديم يوماً لزيارة السجّاد (ع) ، ودق باب بيته ، ففتحت له إحدى الإماء ، وعندما عرفت بأنه أبو حمزة حمّدت الله وشكرته ، بقدوم من يُسلّي الإمام المضطرب ، والغائب عن الوعي ، ثم إنَّ أبا حمزة قد دخل على السجّاد ، وأخذ يواسي الإمام ، ويُذكره بأنَّ الشهادة إنما هي وراثه في آل بيت الرسول (ص) ، ويحييه السجّاد لكن الأسر ليس وراثه عندنا ، ثم يُطلعه على حال الأسرى من النساء ، والأطفال ، والأهل ! .

أو تلك الحكاية التي تُنقل على لسان « هشام بن الحكم » وخلاصتها : قول ابن الحكم إنّه ، في الأيام التي قضّاها الإمام جعفر الصادق (ع) في بغداد ، كنت أزوره يوماً . وإنه صادف أن دعاني أحدهم مرةً لحضور أحد مجالس العزاء ، فاعتذرت له بأنني ملتزم بزيارة الإمام ، لكن الرجل ألحَّ عليّ قائلاً : دعنا نسأل الإمام ! فقلتُ له : لا يمكننا ذكر هذا الموضوع أمام الإمام ، لأن حاله ستقلب ، وبعد إلحاح شديد أخذني الرجل بالقوة .

وفي اليوم التالي عندما زرت الإمام ، واستفسر عن سبب غيابي ، وبعد تردد قصير أفصحت له عن السبب فقال لي الإمام :

وهل تعتقد أنني لم أكن حاضراً في ذلك المجلس ، أو أنني لا أحضر مثل تلك المجالس ؟ .

فقلتُ له ولكنني لم أرك هناك .

قال : عندما خرجت من الحجرة ألم تر شيئاً قرب نعالِكَ وقد وقع على الأرض ؟

قُلْتُ بلى رداءً لم أعرف سبب وجوده هناك فقال :

إنها عباءتي وقد وقعت عن كتفي أثناء خروجي !

إلى آخر تلك الخرافات المشابهة مثل قولهم عن اشتراك السجّاد (ع) في أحد مجالس التعازي ، وأنهم لما أطفأوا النور لقراءة المأتم الحسيني ومن ثم أشعلوه ، وإذا بهم يرون أحذية الناس ، وقد رُتبت أحسن ترتيب من قبله عليه السلام) !

١٧ - وفي الصفحة (١٨٣) يقول الكاتب : « هناك سببان وراء تجرؤ هذه الجماعة على تلفيق مثل هذه القصص والحكايات الخرافية ، أو نسج الأكاذيب ، وتزوير الروايات وخلقها :

وهو أن الأخبار والروايات التي وردت في مدح الإبكاء ، لم تُفصّل ، ولا بيّنت طريقة الإبكاء المطلوبة ، ولا الموضوع الخاص ، والجزء المعين الذي به يتم الإبكاء ، وعليه فإن الجماعة تستنتج بأنّ أية وسيلة توفّرت للإبكاء ، وإسكاب الدمع ، ستكون بالضرورة مستحسنة وممدوحة . وأنّ أخبار منع الكذب أو تحرّيمه قد وردت في غير مقام التعزية .

وبهذا البيان يمكن إباحة كثير من المعاصي الكبيرة ، بل وحتى جعلها من الأمور المستحبة ، كأن نجعل الأخبار الواردة في فضيلة إدخال السرور على قلب المؤمن ، سبباً ووسيلة لقول الغيبة ، أو تقبيل النساء الغربيات ، أو عمل اللواط أو أي عمل آخر .

١٨ - وفي الصفحة (١٨٦) يقول « ينقل لي أحد الثقات ، من أهل العلم من مدينة (يزد) ، أنه عندما توجّه مشياً على الأقدام من (يزد) إلى مدينة (مشهد) عبر تلك الطريق الصحراوية الشاقة ، صادف أن عرّج على إحدى القرى القريبة من خراسان ، بالقرب من مدينة (نيشابور) ، ودخل المسجد لأداء فريضة الصلاة .

وبعد أن انتهى إمام الجماعة من إداء صلاة المغرب والعشاء، بجمع من أهل القرية ، صعد إلى المنبر ليحدثهم ، وإذا بخادم المجلس يأتي بإناء كبير مليء بالحصي ، ويضعه إلى جانب القاريء ، فعجبت لأمر هذه الحصى وهذا القاريء ؟ !

وإذا بالشيخ يبدأ بقراءة التعزية ، وما أن مرّ وقت قصير حتى نهض الخادم ، وأطفأ النور ، فتعجبت أكثر !

وإذا بي أسمع أصوات رمي الحصى من على المنبر والحاضرون من أهل القرية ، كلٌ يصيح من جانب ، ويكي ، ويولول .
وبعد هنيهة أشعلت الأنوار من جديد بسبب نفاد الحصى ، وإذا بالقاريء يقرأ الدعاء ، ويختم التعزية .

ورأيت الناس تخرج من الجامع ، والدم يسيل من وجوههم ، والدموع تنسكب من عيونهم .

يقول صاحبي الغريب ، فذهبت إلى إمام الجماعة أسأله عن سبب ما جرى وعن حقيقة الأمر فقال :

إن هذه الجماعة التي رأيته من أهل هذه القرية لا يكون بأي شكل قرأت لهم التعزية الحسينية ، فرأيت أنها الوسيلة الوحيدة لإبكتهم ! (طبعاً من أجل أن يحصلوا على ثواب وأجر البكاء على أبي عبد الله (ع)) .

١٩ - وفي الصفحة (١٨٧) يقول بأنّ السبب الثاني وراء انتشار مثل هذه الخرافات : « هو في استقرار سيرة العلماء في مؤلفاتهم على نقل الأخبار والروايات

الضعيفة ، بل وتسجيل الروايات غير الصحيحة ، في أبواب الفضائل ،
والقصص ، والمصائب ، وتساحهم في مثل هذه المقامات لا سيما الموضوع
الأخير ، وهو الأمر المحسوس ، والملموس لدينا .

ثم ينتقل المرحوم الحاج لمناقشة موضوع التسامح في الأدلة ، والرد على مثل
هذه الأحاديث ، ويقول بأن هناك فرقاً بين الحديث الضعيف ، والموهون
- الواهي - وإذا كان مسموحاً بنقل الأحاديث الضعيفة ، فإنه من غير المسموح به
نقل الأحاديث الواهية .

٢٠ - وفي الصفحة (١٩٣) يقول : « فمثلاً ترى قصة عرس القاسم ، قد
طُرحت في (منتخب الطريحي) مثلاً ، وهو المنتخب الذي يحوي بالمناسبة على
حكايات واهية من قبيل قصة دفن حضرة السيد عبد العظيم حياً مثلاً ! » .

٢١ - وفي الصفحة (١٩٤) يقول أيضاً : « إن قصة عرس القاسم أول ما
طُرحت في أثر الكاشفي ، ولم تظهر في أي كتاب آخر قبله . وأما قصة زبيدة ،
وشهر بانو ، والقاسم الثاني في أرض ري ، وأطرافها وهي القصة المنتشرة على ألسنة
العوام ، فإنها من تلك الخيالات الواهية . . . وإن علماء الأنساب كافة مُتفقون
على أن القاسم بن الحسن لم يُخلف ذريةً من بعده (بل إنه مات ولم يبلغ بعد) .

٢٢ - وفي الصفحة (١٩٥) يقول : « إن المسعودي وهو المؤرخ الشيعي
المعاصر للكليني كتب في « إثبات الوصية » بأن عدد المقتولين على يد الإمام
الحسين قد بلغوا (١٨٠٠) قتل حيث جاء : « ورُوي أنه قتل بيده ذلك اليوم ألفاً
وثمائنة » ، وأما محمد بن أبي طالب فقد ذكر أنهم (١٩٥٠) نفرًا . لكن مؤلفا
يأتي بعد ألف عام على ذلك التاريخ ، ويدون عدد المقتولين بثلاثمائة ألف إلى
جانب خمسة وعشرين ألفاً على يد العباس (٢٥) ألفاً آخرين على يد سائر
الأصحاب (أسرار الشهادة للدربندي) (فلو فرضنا أن الإمام كان يحتاج في قتل
كل واحد إلى ثانية واحدة من الزمن ، فهذا يعني أن ذلك العدد من القتلى بحاجة
إلى (٨٣) ساعة و (٢٠) دقيقة ، وهذا الحساب لا يُلائم حتى تلك الأكذوبة التي
تقول بأن عدد ساعات يوم عاشوراء قد بلغت (٧٢) ساعة .

أضف إلى ذلك الخمسين ألفاً الآخرين ، والذين هم بحاجة إلى ما يُدعى .
الـ (١٤) ساعة أخرى !

ثم كيف يتسع ميدان المعركة ذاك للمليون وستمئة ألف مقاتل ! من جيش عمر بن سعد ، ومن أين جاؤوا لهم بالتجهيزات القتالية ؟ وتصوّروا أنه حبيب من أهل الكوفة ، إذ ليس بينهم جندي واحد من أهل الشام ، أو الحجاز^(١) .
سبحان واهب العقول !

٢٣ - في الصفحة (٢٠٢) يُشير الكتاب إلى خرافات أخرى منها :

أ - القول بأنه حصل ذات مرة وفي أثناء خطبة للإمام علي (ع) أن طلب سيد الشهداء عليه السلام قليلاً من الماء ، فأمر علي خادمه قنبر بأن يأتي للحسين بالماء ، ولكن في هذه الأثناء سمع العباس ، وكان طفلاً صغيراً في ذلك اليوم نداء أخيه الحسين ، فذهب إلى أمه ، وعاد ، وهو يحمل إناءً من الماء فوق رأسه ، ودخل المسجد قاصداً الحسين فوقعت عيننا علي (ع) على العباس ، فبكى وصار يُحدّث الحاضرين عن يوم عاشوراء ، وماذا سيحصل من أحداث . . .

بالطبع لا بد وأن تكون مثل هذه القصة - الحكاية - قد وقعت في الكوفة ، لأن الحديث يدور عن المنبر والخطابة (أي في زمن حكم علي (ع)) ، وهذا يعني أن الحسين كان له من العمر حوالي (٣٣) عاماً آنذاك ، فهل يُعقل أن يطلب من مثله الماء ، وسط ذلك الجمع المحتشد لسماع خطبة أبيه ؟! هذا إضافة إلى عدم وجود أي سند تاريخي ، بخصوص هذه الحكاية .

ب - القول بأن أبا الفضل العباس قد قتل في حرب صفين ثمانين نفراً من جيش معاوية ، وأنه قد قام بشقهم إلى نصفين ، وهم لا يزالون في الهواء ، وقبل أن تصل أية جثة منهم إلى الأرض . . .

(١) هذه الخرافات تدّكرها تلك 'الحكاية' - الخرافة - المتعلّقة بمالعة أحدهم بكر مدينة هرات في حدود الأرمغان ولمّا أراد أن يشرح طلبه : تصوّروا أنه في مدينة هرات وحدهم ثلاث عسك - عسك - وعشرون ألف أحمد من العوران الطباخين ! وهي خرافات تكررت بشأن تعداد بني سريش وتعداد بني دعين^(٢) .

ج - « اختلاق بنات من الذرية الطاهرة ، لا سيما لأبي عبد الله (ع) ومنهن من قالوا إنها قد بقيت في المدينة ، وأخرى زوّجوها في كربلاء ، وثالثة أماتوها من العطش تصديقاً لكلام جبرائيل . . . صغيرهم يُمَيِّتُهُم العطش . . . وأخرى قُتلت في ساحة الوغى مثل عبد الله بن الحسن . . . » .

٢٤ - وفي الصفحة (٢٠٨) : وفي الخاتمة أرى من الضروري الإشارة إلى الآيات القرآنية الواردة في ذم المنافقين واليهود ، وتبيان الصفات القبيحة والخبيثة لهم ، وهي من الآيات التي يمكن أن تصدق في ذم من يستمع إلى الأخبار الكاذبة ، والحكايات ، والقصص المزوّرة ، بشأن مجالس العزاء الحسيني ، يقول تعالى : ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ ﴾ (١) .

وأما في وصفه لأهل الجنة فيقول : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ، وَلَا كِذَابًا ﴾ (٢) .

وأما حول من اعتاد قول الكذب في هذا العالم ، ولم يقبل العودة عن هذه الأعمال ، فحسابه في يوم الآخرة : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) .

وأيضاً : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٤) .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَسُبُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ * أنظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴿ (٥) .

وأيضاً : ﴿ وَاجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٦) .

(١) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٢) سورة النبأ : الآية ٣٥ .

(٣) سورة الروم : الآية ٥٥ .

(٤) سورة المجادلة : الآية ١٨ .

(٥) سورة الأنعام : الآيتان ٢٣ و٢٤ .

(٦) سورة الحج : الآية ٣٠ .

وكذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ (١) !

٢٥ - وفي الصفحة (٢١٣) ورد :

كما أن استقراء أغلبية المعاصي الخارجة عن اللسان كأغلب أنواع الكذب ، مثل الغيبة ، والغناء ، والسب ، والبهتان ، والاستهزاء ، وغيرها ، تدل أيضاً على قبح وذم سماع مثل تلك الخرافات والحكايات المختلفة بشأن المنبر الحسيني ، إذ إنه كما أن الغيبة حرام ، فإن سماعها حرام أيضاً ، وكما أن الغناء حرام ، فإن سماعه حرام أيضاً ، وكما أن سب أولياء الله ، أو المؤمنين ، كفر ، فإن سماع ذلك حرام أيضاً .

قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ : أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ... ﴾ (٢) .

٢٦ - وعليه يُستحسن في هذه الحالة أن يُقدم القائمون على مهمة العلم ، والتعليم ، والتربية الحسينية ، على جميع ، وتبويب ، وتنظيم ، مجالس المصائب الجديدة ، والأضرار التي لحقت بأبي عبد الله (ع) من زواره ، ومجاوريه ، وخدمه ، وحاملي علومه ، والمتعبدين ، والناسكين ، والمتصدين لهذا الأمر من الأنواع والأقسام كافة ، والعمل ليل نهار على إعداد كل ذلك ، ووضعه في متناول من يعز عليهم دينهم ، حتى يقرأوها على أسماع أهل التقوى ، والدين ، والإيمان ، وأهل الغيرة والالتزام ، حتى يبكوا على الحسين حق البكاء ، ويطلبوا من الله تعالى ، أن يُعجل فرج ظهور سلطان الزمان ، وناشر العدل والأمان ، وباسط الفضل والإحسان ، وقامع الكفر والنفاق ، والعدوان ، (المهدي) صاحب الزمان .

٢٧ - يتم تبیان هذا المبحث وشرحه وتفسيره في أربعة صور وأقسام :

أ - معنى التحريف ، وأنواع التحريفات الموجودة ، والقول بأن واقعة

(١) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

عاشوراء قد لحق بها أنواع عديدة من التحريفات .

ب - أسباب التحريف بشكل عام ، وأسبابه بشكل خاص في واقعة عاشوراء ، وبعبارة أخرى البحث عن مسؤولية التحريف في الوقائع التاريخية بشكل عام ، ومسؤولية ذلك في واقعة عاشوراء بشكل خاص .

ج - شرح وتوضيح التحريفات الواقعة لفظاً أو معنىً ، شكلاً أو روحاً ، في واقعة عاشوراء ، والفلسفة الحسينية للنهضة .

د - واجب علماء الأمة تجاه التحريفات بشكل عام ، وواجبهم تجاه واقعة عاشوراء بشكل خاص :

« إذا ظهرت البدع ، فعلي العالم أن يُظهر عِلْمَهُ ، وإلا فعليه لعنة الله »^(١) .

وكذلك : « وإن لنا في كُلِّ خلفٍ عدولاً ، ينفون عنا تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين »^(٢) .

وإن واجب الأمة الإسلامية في هذا المجال بشكل عام ، ولا سيما ما يخص واقعة عاشوراء ، هو حرمة الاشتراك في الاستماع لمثل هذه الخرافات ، والنضال العملي ضدها ، والعمل بواجب النهي عن المنكر .

٢٨ - معنى التحريف : ورد في « المفردات » للراغب قوله : « حَرَفَ الشَّيْءَ طَرَفُهُ . . . وتحريف الشيء إمالتُهُ كتحرريف القلم ، وتحريف الكلام : أن تجعله على حرف من الاحتمال ، يُمكن على الوجهتين . قال عز وجل : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . . . ﴾ ومن بعد مواضعه . . .

كما ورد في تفسير الرازي (ج ٣ ، ص ١٣٤) ذيل الآية (٧٥) هـ سورة البقرة قوله : قال القفال : التحريفُ : التغيير والتبديل ، وأصله من الانحراف

(١) أصول الكافي : ج ١ ص ٥٤

(٢) أصول الكافي ج ١ ص ٣٢ وجاء فيه (ينفون عنه) .

عن الشيء ، والتحريف عنه ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ .

والتحريف هو إمالة الشيء عن حقه ، يُقال : فلمُ مُحَرَّفٌ ، إذا كان رأسه قط مائلاً غير مستقيم .

قال القاضي : إنَّ التحريف إما أن يكون في اللفظ أو في المعنى ، وحمل التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى » .

قال القاضي : « إنَّ التحريف إمَّا أن يكون في اللفظ أو في المعنى ، وحملُ التحريف على تغيير اللفظ أولى من حمله على تغيير المعنى » .

والتحريف اللفظي هو زيادة شيء على اللفظ ، أو التنقيص منه ، أو التلاعب بالكلمة ، أو الجملة ، أو العبارة ، بتقديم أو بتأخير ، وهو بكل الأحوال يُساهم في تغيير المعنى زيادةً أو نقصاناً ، لكن الخطر الأكبر في الحقيقة هو في التحريفات التي تُغيّر من المعنى .

ومثل هذه التحريفات كثيرة في الكتب والكتابات ، سواء النثرية أو الشعرية منها ، لا سيما من قبل أولئك الذين يتعهدون بأمر التصحيح والتعليق .

والتحريف المعنوي يمكن أيضاً بثلاثة أمثلة :

أ - يا عمّار تقتلك الفئة الباغية .

ب - لا حُكم إلّا لله .

ج - إذا عرفت فاعمل ما شئت .

والمثال الأول هو ما وقع موضع استغلال معاوية .

بينما وقع المثال الثاني موضع استغلال الخوارج .

وأما الثالث فهو ما وقع موضع استغلال الشيعة لحديث الإمام الصادق (ع) ، مع العلم أنَّ الصادق قد وضّحه أحسن توضيح .

في القرآن الكريم لم يقع تحريف من النوع اللفظي إذ ظل القرآن محفوظاً

من هذه الزاوية ، لكن آياته كانت موضع تحريف معنوي دائم من سوء تفسير ، وتلاعب في التأويل والتحليل .

قال المنطقيون في باب المغالطة : إنها إما لفظية ، أو معنوية وقد ذكروا أقساماً لها ، وهي مفيدة لما نحن فيه خصوصاً من زاوية البحث عن أمثلة ، سواء بالعربية أو بالفارسية .

يتعرض القرآن الكريم لموضوع تحريف « الكلمة » في آيات كثيرة وينهى عن مثل هذا العمل ، ولكن كما أنّ « الكلمة » في اصطلاح القرآن لها أكثر من معنى الكلمة التقليدي ، فهي الجملة ، والشخصية التاريخية ، والواقعة ، فإن التحريف بالطبع سيأخذ أشكالاً ، وأبواباً متعددة : فهناك التحريف بالعبارات ، والتحريف بالوقائع ، والتحريف بالتأريخ ، والتحريف بالشخصيات . (ولفهم القسم الثالث يرجى العودة إلى محاضرة السيد مرتضى الجزائري بهذا الخصوص) .

٢٩- وبحثنا هنا يدور حول القسم الثاني : أي التحريف الذي تتعرض إليه الوقائع ، والذي يمكن أن يكون من النوع اللفظي ، أو أن يكون من النوع المعنوي ، كأن تُنقل عبارة ما ، مع نقصان في الكلمات ، أو زيادة فيها ، فيكون لفظياً .

وقد يكون التحريف لروح القضية من خلال التلاعب بالعوامل ، والدوافع ، والأهداف ، والغايات ، فيحصل نوع من المسخ للواقعة .

من هنا يتضح لنا أنّ أهمية التحريف مرتبطة بأهمية الموضوع المُحرّف نفسه ، كأن يكون موضوعاً إنشائياً عادياً ، أو واقعة ، أو حدثاً عادياً ، أو شخصية من شخصيات المجتمع العادية ، أو أن يكون التحريف قد نال من قول ، أو حادثة ، أو شخصية ، يدور حولها بحث تاريخي ، وأخلاقية ، وتربوي ، وديني هام ، وأساسي ، يتعلق عليه مصير المجتمع .

ولهذا ورد في التشريع أنّ الكذب على الله والرسول ، من أشنع أقسام الكذب ، وعملٌ مُبطلٌ للصيام .

كما أن تحريف وتزوير وجعل الوثائق ، والسندات الرسمية ، يُعتبر جناية من الناحية القانونية ، وليس جُنحة .

٣٠ - إن الوقائع التاريخية الأخلاقية ، والحركات الإلهية الكبرى هي فعلاً آية من الآيات الإلهية في كتاب التكوين المقدس للكون .

وإن الشعب مُكلّف شرعاً برعاية هذه الظواهر ، وصيانتها ، وحفظها بكل دقة ممكنة ، لأنه في غير ذلك سينطبق علينا جميعاً مفهوم حكم : « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعْ مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ »^(١) ، أو مفهوم الآية الشريفة : ﴿ فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾^(٢) .

وكذلك : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣) .

٣١ - فيما يخص واقعة عاشوراء ، حصل الكثير من التحريف اللفظي ، ودخل على الحادثة كثير من الإضافات ، أو النقائص ، التي لا تُعد ولا تُحصى ، فما أكثر الأصحاب ، والأصدقاء ، والأعداء ، والأولاد ، والعبارات ، والأعمال ، والأقوال ، التي نُسبت إلى الإمام الحسين (ع) ، والتي إن سمع بها الإمام نفسه ، فسوف لن يتمكن من تشخيص صاحبها .

هذا مع العلم أن واقعة كربلاء ، وخلافاً لتصورات البعض ، هي الواقعة الأكثر وضوحاً ، وخلوّاً من الغموض والإبهام بين الوقائع التاريخية ، وهي الحادثة التي يندر أن نجد مثلها من زاوية الأسناد الصحيحة ، التي تؤيد وتثبت وقائعها ، وذلك لأهمية الحادثة ؛ لا سيما وأن أهل البيت قد كشفوا جزئياتها ودقائقها فيما بعد^(٤) .

(١) تفسير الصافي - المقدمة الخامسة - .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٧٩ .

(٤) إن المسألة المهمة هنا هي كون كل تلك التحريفات إنما تسعى في الواقع إلى التقليل من شأن ، ومقام =

٣٢- دوافع التحريف

لقد سبق وقلنا : إنّ عوامل التحريف تنقسم بشكل عام إلى قسمين : عامل العداوة والحقد الشخصي ، والآخر عامل الخرافة وحب صناعة الأساطير . وهنا لا بد من إضافة عامل ثالث مؤثر ، وهو : عامل المحبة والميل الشخصي .

وقد قلنا إنّ المثال على عامل الأغراض الشخصية يتمثل في تحريف المسيحيين لشخصية الرسول الأكرم محمد (ص) ، والتحريفات الصادرة من الأمويين بشأن أمير المؤمنين علي (ع) ، وأمّا مثال عامل المحبة والميل الشخصي فهي الأكاذيب كافة ، التي عادة ما يؤلفها الأفراد ، والأقوام ، بشأن الأخيار من أمّتهم .

كما ويمكن الإشارة إلى مثال تحريف الأعداء لفلسفة قيام الإمام الحسين (ع) من خلال اتهامه بالفرقة والتمرد على سلطة الإسلام ، وهو ما سبق ذكره في الكتاب .

وأما حول « صناعة الأسطورة » فإنه في الواقع حسٌ بشري أصيل لدى الأجيال المتعاقبة ، وهو ما أشرنا إليه أيضاً ، وذكرنا أمثلة كثيرة عليه مثل :

جرح جبرائيل في معركة خيبر ، وخرافة انشطار جسم « مرحب » إلى شطرين متساويين تماماً من دون أن يشعر هو بضربة سيف علي .

إضافة إلى خرافة قتل العباس لثمانين شخصاً في لحظة واحدة وشرط أجسامهم جميعاً إلى نصفين قبل أن يسقط أحدهم على الأرض !

إلى جانب خرافة المليون والستمئة ألف مقاتل ، والزعم بأن عدد ساعات يوم عاشوراء قد بلغت (٧٢) ساعة ! .

= سيد الشهداء (ع) ، وتحويل الإمام إلى رجل عادي وبسيط ، بل وساذج - والعياد بالله - بحيث إنه يطلب الماء ، ولا يتحمل العطش ، وهو في سن تزيد على الثلاثين ، وفي أثناء خطبة أمير المؤمنين علي (ع) أو تشويه صورة أصحابه وأنصاره من أهل بيته ، كفضية عرس القاسم مثلاً !

وأما فيما يتعلق بالعامل الخاص بحادثة عاشوراء بالذات ، فقد قلنا أيضاً بأن أئمتنا ، وأولياء ديننا ، قد أوصونا بضرورة إقامة العزاء ، وإحياء المجلس الحسيني كل عام ، وزيارة قبر الحسين (ع) ، وتخليده بطلاً ، وفدائياً ثائراً على مر العصور .

لكن هذه الخصوصية بالذات شكلت حافزاً لدى البعض من قراء التعزية ، والمرثيات الحسينية ، ممن تخصصوا في هذا المجال ، ودافعاً لهم باتجاه تحويل المنبر الحسيني إلى حرفة ، وفنٍ ، ووسيلة للعيش ، وهو الأمر الذي ساعد ويُساعد من جهةٍ أخرى على نمو فكرة الاستفادة من كل الطرق ، والوسائل ، حتى غير المشروعة منها ، بهدف إيكاء الناس على الحسين (ع) ، وذلك تأسيساً على قاعدة « الغاية تبرر الوسيلة » وهو أمرٌ خاطيء وخطير بالطبع . إذ إنه صار باباً واسعاً لدى البعض لحياكة الكذب ، والحكايات المختلقة ، والجعل ، والتزوير .

وكما يقول الحاج (نوري)^(١) : فإنه لو كان الأمر كذلك لأصبحت الغيبة ، وتقويل من تُريد من النساء ، وسائر المُحرّمات الأخرى ، حلالاً علينا ، استناداً إلى قاعدة أنّ إدخال السرور إلى قلب المؤمن ، أمرٌ مُستحب ومحمود .

والعجيب في الأمر أنّ هذه الترهات والأباطيل ، ظهرت فجأة قبل خمسة قرون تقريباً عندما ظهر إلى الوجود رجلٌ متلون ، لم يُعرف عنه هل هو شيعي أم سُني ، وكان يُطلق عليه اسم مُلا حسين الكاشفي ، وكتب في حينه كتاباً تحت عنوان « روضة الشهداء » .

وهذا الرجل كان من الوعّاظ ولما كان يسكن بين أهالي (سبزوار) (والبهق) وهم من الشيعة ، فقد كان يقرأ عليهم التعزية الحسينية .

وقد قام هذا الرجل بخلق ما يشاء من القصص ، والحكايات الخيالية ، واختلاق عددٍ من الأسماء والشخصيات التي لا يمكن أن تكون إلّا من إفرازات خياله المحض .

(١) صاحب كتاب (اللؤلؤ والمرجان) الذي سبق ذكره .

ثم لما كان هذا الكتاب باللغة الفارسية ، فإنه قد وقع بيد قُرّاء المراثية الحسينية ، وأصبح شيئاً فشيئاً مصدرهم وسندهم في المنبر الحسيني ، ولما كانوا يقرأونه قراءةً من على المنبر كما هو ، لذا صار يُطلق على قُرّاء التعزية عندنا بـ قُرّاء الروضة « روضة خوان » .

وهكذا صار هذا الكتاب الكاذب أصلاً ومصدراً ، لكل أنواع المراثي . والتعازي ، بدلاً من كل تلك المصادر الصحيحة ، الموجودة في تاريخنا .

وكما يبدو فإنّ هذا الكتاب قد كُتب في أوائل القرن العاشر ، أو أواخر القرن التاسع الهجري ، ذلك أنّ الملا حسين الكاشفي ، قد توفي في العام (٩١٠ هـ . ق) .

ولكن ما أن نصل إلى أواخر القرن الثالث عشر ، أو أوائل القرن الرابع عشر ، حتّى يظهر علينا كتاب آخر غطى على كتاب « روضة الشهداء » بالكذب ، والاختلاق وهو كتاب « أسرار الشهادة » ، وتصل الأمور إلى ما وصلت إليه .

وبالطبع هناك كتب أخرى ليست بعيدة التأثير في هذا الاتجاه مثل « مُحرق القلوب » الذي لعب دوره كذلك في إذكاء عالم التحريف والتزوير .

وهنا يمكن لنا أن نُعيد عليكم فهرست التحريفات اللفظية الأساسية التي لحقت بواقعة عاشوراء ، فنذكر قصة ليلى وعلي الأكبر ، وعرس القاسم ، وقصة جلب الماء للحسين (ع) أثناء خطبة أمير المؤمنين ، ومجيء زينب قرب جسد الحسين ، وهو في حالة الاحتضار ، وعبور الأسرى من كربلاء وهم متوجهون من الشام إلى المدينة ، والمبالغة في عدد قتلى الواقعة ، وشخصية هاشم بن عتبة مع سيفه ذي الثمان عشرة شعبة ، وعدد ساعات يوم عاشوراء ، وخروج قافلة الإمام بديباج الملوك ولباس الأباطرة ، وعدم اطلاع السجّاد على ما دار من وقائع في كربلاء ، وخرافة تحضير زينب لراحلة أبي عبد الله في يوم عاشوراء ، وتقبيلها إياه في عنقه ، نيابة عن الزهراء (ع) ، وغيبوبة الإمام السجّاد (ع) ، وقصة حضور الإمام الصادق (ع) كلّ المجالس الحسينية .

وهي تحريفات منها ما يتعلق بحوادث ، وقعت قبل واقعة عاشوراء ، ومنها ما يتعلق بيوم الواقعة نفسها ، وأخرى ما يتعلق بوقائع أعقبت الواقعة نفسها .

٣٣ - وأما التحريف المعنوي

التحريف المعنوي : يعني حرف روح ومعنى الشيء ، أو العبارة ، أو الواقعة .

ولما كان البحث يدور هنا حول حرف الواقعة ، يصبح عندها الحديث عن التحريف المعنوي للواقعة يساوي الحديث عن التحريف في العلل والدوافع ، وكذلك الأهداف والغايات الموضوعة لتلك الواقعة ، من عنديات المحرّفين .

مثال ذلك :

إنّك تذهب لعند شخص ما بهدف زيارته والاطمئنان عليه ، ولكن يأتي شخص ويقول : وهل تعرفون سبب زيارة فلان لفلان ؟ إنه يُريد تزويج ابنه من ابنة ذلك الرجل مثلاً !

بشأن التحريف المعنوي للجمل والعبارات هناك ثلاثة أمثلة تاريخية معروفة سبقت الإشارة إليها .

إنّ كثيراً من وقائع التاريخ العالمي تمّ تحريف أهدافها وغاياتها عمداً ، أو جهلاً ، لكننا هنا لسنا بصدد تناولها .

لكن واقعة عاشوراء العظيمة والخطيرة ، فإنها ناهيك عمّا أصابها من تحريف في اللفظ والشكل العام ، قد وقعت في الحقيقة موضع سلسلة من التحريفات الأكثر خطراً ، وهي تحريفات الروح ، والمعنى ، والتفسير ، والتحليل .

فنحن نعرف بأن نهضة الإمام الحسين (ع) ، إنما تقوم في الواقع على ثلاثة أعمدة عظيمة هي :

أ - إنها نهضة مقدّسة ، وبعيدة عن أي نفع شخصي ، بل في منتهى الإنسانية المتلازمة مع الفداء ، والتضحية ، والتخلي عن المصالح الفردية ، ولهذا

ترى البشرية تعتبر مثل هذه الرموز التاريخية جزءاً لا يتجزأ منها ، وهي نفسها منهم ، وترى فيهم ذلك الفدائي الذي يضحي بكل شيء من أجل الأمة ومصالحها .

ب - إن قائد تلك النهضة ذو بصيرة ثاقبة ، ونظر حاد ، وصاحب نبوءة مستقبلية ، أي إنه كان يرى ما لا يراه الآخرون ، ويقرأ ما يعجز الآخرون عن قراءته ، وبعبارة أخرى كان قد خلق متقدماً على زمانه .

ج - إنه نور هائل مقابل الظلام الدامس الذي كان سائداً في عصره ، وهو ما تم شرحه سابقاً .

من جهة أخرى نحن نعرف أيضاً ، بأن الأولياء والأئمة قد أوصونا بقوة ، بضرورة إحياء هذه الذكرى ، وإقامة مجالس العزاء الدائمة لها ، وزيارة قبر رائدها وقائدها ، حتى تبقى الحادثة خالدة، أبداً ما بقيت الدنيا .

لكن الذي حصل هو أن تحريفاً أساسياً أصاب هذه الواقعة ، كما سبق وأشرنا إلى ذلك ، وهو القول بأن الإمام الحسين (ع) قد قتل نفسه بواسطة هذه الواقعة ، بمثابة الكفارة التي دُفعت عن ذنوب الأمة ، وبالتالي صار الحسين متراس العصاة ، ودرع المذنبين ، وحصنهم ، وضمانهم !!

وأما التحريف الثاني فهو : زعمنا بأن هذه الحادثة كان لها طابع خاص وفردى ، أي إننا رفعناها إلى السماء ، وبهذا نكون قد جعلناها غير قابلة للاستفادة على الأرض ، وبالتالي نكون قد أخرجناها من دائرة كونها مدرسة تربية وتعليمية ، مما يعني أننا لم نضعها في متناول الأحوال والأوضاع التي نمر بها في العصر الراهن من جهة ، ونفينا علاقتها الوثيقة بالتعاليم الإسلامية الخاصة في هذا المجال من جهة أخرى ، حيث لم تُعد مدرسة ، ولا عبوة ، ولا تجربة ، نستلهم منها الدروس والعبر .

أي إننا همّشناها ، وحجّمناها مرتين : مرةً عندما أخرجناها من دائرة التجربة البشرية التاريخية ، والدروس التي لا بد أن تستقيها الأمة منها من خلال فرض الخصوصية على طابعها .

ومرةً من خلال تشويهها ، ومسحها ، بقولنا ، وزعمنا ، أنها الكفارة التي دفعتها الأمة باستشهاد الحسين (ع) ، أي إننا حولنا المدرسة الحسينية إلى مدرسة لصناعة الذنوب والمعاصي .

التحريف الآخر الذي وقع هو بشأن التعليقات الخاصة بفلسفة إقامة مجالس العزاء .

وهنا ترانا مرةً نقول بأنها قد وضعت من أجل مواساة الزهراء (ع) التي هي بحاجة إلى من يُصبرها لهول الفاجعة ، وما نحن إلّا وسيلةً لهذه المواساة من خلال بُكائنا ونحيبنا وبالتالي فإن الهدف هو تقديم خدمة خاصة للزهراء ، أو مرةً قلنا بأنّ الهدف من وراء هذا البكاء هو الحُزن على الحسين (ع) نفسه ، والتأثر لما وقع له ، ولأهل بيته ، من فاجعة في عاشوراء ، حيث أزهقت روحه ، وأهرق دمه بيد الظلمة ، وهو البريء ، دون نتيجة تُذكر ، ناسين أنّ الوحيد الذي لم يذهب دمه هدرًا هو الحسين (ع) ، وأنه قد دفع أثمن المبالغ ، وأعلى الأثمان ، على كل قطرة أريقت من دمه الطاهر الشريف ، فكيف يكون دمّ مثل دم الحسين ، وهو الدم الذي كان سبباً في زلزلة العروش والقصور ، ولم يزل ، وسيكون ، واسم مثل اسم الحسين الذي كان ، ولم يزل ، وسيظل عنواناً للحرية ، والعدالة ، والمساواة ، والتوحيد ، والربوبية ، ومحاربة عبادة الذات ، أن يكون مثل هذا الدم ، قد ذهب هكذا هدرًا ، أي دمًا ضائعًا ؟! نحن الذين نُضيع أعمارنا في الذل والهوان والحياة المنكوبة !

إنّ أهداف نهضة الإمام قديّنها الإمام نفسه أفضل من أي شخص آخر، إنّ أهدافه هي أهداف النبي (ص) ، وخطب الإمام خير ما يشرح أهداف النبي . إنّ الإمام كان قد وضع نصب عينيه هدفًا مركزيًا ، وهو إصلاح وضع الأمة الإسلامية ، وقد صرّح بذلك بكل وضوح ، وهو أراد بذلك أن يُعلّم الأجيال الدروس الإسلامية الأساسية ، ويُفهم العالم أجمع بأنّ أهل بيت النبوة وهم أقرب الناس إلى النبي أكثر الناس التزامًا بتعليماته ، وهذا بحد ذاته دليل قوي على حقّانية رسالته .

وأما لماذا يطلب منا أئمتنا وأوليائونا، إقامة العزاء الحسيني ؟ فإننا نقول :

إنه ليس هناك في الدنيا مشهد ولا لوحة للعطاء أرقى ، وأرفع ، وأفضل ،
وأسمى من لوحة كربلاء ، وذلك :

أولاً : لأنها درسٌ فريد من نوعه في تعليم التوحيد ، والإيمان الكامل بعالم
الغيب ، ومظهر رائع للنفس المطمئنة ، وبالتالي فإن روحها روح التوحيد الحق .
ثانياً : إن كل المدارس التربوية والتجارب البشرية كافة تهدف في الواقع إلى
منح الروح البشرية حالة من المقاومة والثبات أمام حوادث الزمان .

وها هو الحسين (ع) وقد تقطّع جسده بالسيوف والنبال ، وذهب كل ماله
ومُلّكه ، وتوزّع أهله وعياله ، بين قتيل ، وأسير ، لكن روحه ظلت ثابتة مُحكمة
اليقين .

ثالثاً : هناك فرق كبير بين الادعاء والعمل ، فمدّعوا الحرية ، والتحرر ،
وحقوق الإنسان ، والعدالة ، كثيرون في العالم ، لكن الرجال الربّانيين مثل
الإمام الحسين (ع) ، وأنصاره ، وأصحابه ، أثبتوا بالفعل والعمل ، أنهم قادرون
على الوقوف إلى جانب الحق والحقيقة ، مهما كان الثمن المطلوب دفعه مقابل
ذلك ، سواء أكان مائلاً ، وثروة ، أو أهلاً وعيلاً ، أو النفس بذاتها ، وإن كان
المطلوب تقطيعها قطعةً قطعةً .

هذا في الوقت الذي كانت فيه علائم انكسار العدو شاخصةً على الرغم
من كل ذلك ، وهذه بعض علائم الانكسار تلك :

أ - فرار العدو من أسلوب المواجهة الفردية .

ب - الاحتماء واللجوء إلى أسلوب الرمي بالنبال ؛ ، والحجارة من بعيد .

ج - تعليقات ابن سعد إلى جنده ، بعدم مواجهة الحسين بن علي (ع) بقوله
الشهير : « هذا ابن قتال العرب ، والله نفس أبيه بين جنبيه » .

د - تعليقات ابن سعد إلى جنده ، باستخدام أسلوب التشويش على خطب
الإمام الحسين (ع) ، لأنه كان يعرف تماماً عدم استطاعة جيشه الصمود أمام كلام
الإمام وخطبه .

بينما في المقابل نرى العلامات المعاكسة لهذه الروح المنهزمة وقد ظهرت من قبل الإمام :

أ - شجاعة بدنية فائقة .

ب - قوة قلب وروح عالية .

ج - الإيمان بالحق ، وبالقيامة ، والشوق المتزايد للقاء الله ، ساعة بعد ساعة .

د - الصبر والتحمل الرائع .

هـ - الرضا والتسليم لله .

و - طمأنينة للنفس نادرة ، واستقرار روحي فريد ، وعدم بروز أي مظهر من مظاهر الغضب ، أو العصبية ، أو الانهزامية من طرفه .

ز - الروح الحماسية التي كانت سبباً وأرضية لتلك الخطب المعروفة .

وأما ما كان يُعطي الثقة ويقرّ عين الإمام فهما عاملان :

أ - أهل بيته .

ب - أصحابه : « هَهُنَا مُنَاخُ رُكَّابٍ ، وَمَصَارِعُ عُشَّاقٍ » .

ولا بد من التأكيد هنا على أنّ أهل بيت الإمام وأصحابه كانوا بالفعل قد أثبتوا أنهم من عُشَّاق العمل الخالص لله ، وبالتالي فإنه لا بد لنا أن نستخلص من كل ذلك :

إن فرادة ذلك المشهد التاريخي ، ومضمونه التربوي العميق ، كان العلة الأساسية ، والفلسفة الحقيقية ، من وراء تعاليم إقامة مجالس العزاء الحسيني .

٣٤ - مسؤولياتنا

والمسؤولية هنا على قسمين :

مسؤولية العلماء ، ومسؤولية العامة ، وهي المسؤولية التي لا بد من القيام بها من الطرفين بلغة هذا العصر ، ولأجل جمهور هذا العصر . أي رسالة العلماء (الخواص) ، ورسالة الجماهير (العوام) .

ومعروف هنا أنّ العلماء يُلقون باللائمة بهذا الخصوص على عامة الناس ، ويعتبرون جهل العامة وتقصيرهم ، هو الأساس .

وفي المقابل فإن العوام يُلقون باللائمة على العلماء ويقولون : « إنّ السمك إنما يفسد من رأسه وليس من ذيله » .

لكن الحقيقة هنا هي أنّ الطرفين مسؤولان عَمَّا وصلنا إليه ، فهذه السمكة فاسدة من الرأس ومن الذنب أيضاً .

وقبل أن نُشَخِّص واجب الخواص ومسؤوليتهم ، وواجب العوام ومسؤوليتهم ، لا بد من تعيين المُقَصِّر والمُذنب الذي تقع عليه مسؤولية الحالة المرضية الراهنة .

لأن الحديث عن مسؤوليتنا الراهنة شيء ، وعن السبب الذي أوصلنا لما نحن فيه شيء آخر .

وبعد أن أكّدنا المسؤولية المشتركة في إيصال الحالة إلى ما نحن عليه الآن ، فإننا سنبيّن أيضاً مسؤولية الطرفين تجاه الواقع ، فنقول :

إنّ كلا الطرفين مسؤول ، وعليه واجب وتكليف القيام والنهوض بالوضع الراهن ، وإصلاحه ، وبالتالي فإنّ الذنب مشترك كما أنّ المسؤولية مشتركة .

وقبل أن نُبيّن الواجب والمسؤولية المُلقاة على عاتقنا جميعاً ، وحتى ندرك أهمية هذه المسؤولية لا بد من شرح الأخطار المتعلقة بالتحريف :

بشكل عام نقول : إنّ كل شيء توجد إلى جانبه آفته من جماد ، ونبات . أو حيوان ، أو إنسان .

فالكتاب، مثلاً آفته العث ، كما هو حال الخشب .

والزراع آفته الجراد .

وأما الحيوان والإنسان فتشكّل الميكروبات عدواً لهما .

والدين بدوره توجد إلى جانبه آفته وها هو رسول الله (ص) يقول : « آفة الدين ثلاثة : فقيه فاجر ، وإمام جائر ، ومُجتهد جاهل » .

بديهي أنّ آفة كل شيء تكون متناسبة مع ذلك الشيء : فالدودة لن تكون يوماً آفة الدين ، ولا الجراد سيأكل الدين يوماً ، كما أنّ السرطان لن يكون هو المرض الذي يهدّد الدين .

التحريف وقلب الحقائق والبدعة هي الآفة الكبرى للدين^(١) . فالتحريف يُبدّل الصورة ويعكسها ، ويأتي بالضلالة بدل الهداية ، ويقضي على الهوية الأصلية للشيء ، ويحوّل الشيء من عامل مشوّق ومشجّع للعمل الصالح ، إلى عامل يدفع إلى المعصية وارتكاب الذنوب .

والتحريف كضربة الخنجر من الظهر ، إنه الضربة غير المباشرة والتي هي أخطر من الضربة المباشرة .

واليهود الذين هم أبطال التحريف في التاريخ ، كانوا يُسدّدون ضرباتهم على الدوام بطريقة غير مباشرة .

وعلي (ع) يمكن تشويه صورته عن طريق المُحيين ، ومن باب المحبة ، أكثر مما يمكن تشويهه بواسطة الأعداء .

وبالتأكيد فإنّ الضربات التي تلقّاها علي (ع) من قبل أصدقائه الجُهلة ، كانت أقوى وأمضى من ضربات أعدائه .

التحريف كفاح ضد الشيء من دون بروز ردّ الفعل ، لكونه يستغل طاقات الموضوع نفسه .

(١) وخير مثال على كيفية لعب التحريف دوراً مُخرباً للدين ، وإعطاء النتيجة المعكوسة من وراء التعاليم الدينية هو قصة الحديث « إذا عرفت فاعمل ما تشئت » . [وهذه القصة تم شرحها بالتفصيل في كتاب « الحق والباطل » للأستاذ الشهيد في قسم « إحياء التفكير الإسلامي »] .

التحريف يُبدّل صورة الشيء ، ويقلب صورة الإنسان ، وسياءه ويُغيّرهما كلياً ، فعليّ مثلاً يتحول إلى هيئة بطل مهيب الجانب ، مرقّوع ، ضخّم الجثة والهيكّل ، صاحب عضلات ، وشوارب ، أشبه ما تكون بتصوراتنا عن أشقياء الحي ، حتّى أنّنا لا نستطيع أبداً أن نتصور عليّاً (ع) الحقيقي ، وهو عليّ المحراب ، والخطابة ، والحكمة ، والقضاء ، والزهد ، والتقوى ، والخوف من الله .

والتحريف هو الذي صوّر لنا الإمام السّجّاد بصورة الرجل المريض والعليل ، ولم يُعرف عن السّجّاد مثل تلك الصّفة إلّا في وسط الناطقين باللغة الفارسية ، بحيث صار الواحد منّا عندما يُريد اتهام شخص بالعجز . والضعف يقول له : ما بالك وقد أصبحت مثل الإمام زين العابدين ، عليّاً ومريضاً ! في حين أنّه عليه السلام لم يُعرف عنه أنّه مريض يوماً ، إلّا أيام وقائع عاشوراء ، وليس كما يُصوره البعض ، وكأنّما كان دائم المرض ومُقيماً على الفراش دائماً !

يقول المرحوم آيتي في محاضراته التي ألّقاها في الجمعية الدينية الشهرية بعنوان « منهج التبليغ » ، والتي نشرت في مجلة الجمعية (الجزء الثاني ص ١٦٠) : « قرأت نقداً نُشر لأحد الأشخاص في صحيفة (اطلاعات) ، مَوْجَّهاً إلى وضع الحكومة ، وأجهزة السلطة ، يعرض فيه لموظفي الدولة بأنّ أغلبهم إمّا يفتقد إلى الكفاءة ، أو خائن ، وغير نظيف ، في الوقت الذي نحن بحاجة إلى أفراد سالمين وأكفاء في العمل .

وقد عرض الموضوع بهذا الشكل في الصحيفة : « إنّ أكثر رجالنا وموظفينا إمّا من نوع الشمر ، أو من نوع الإمام زين العابدين العليل ، في حين أنّ بلدنا اليوم هو بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى رجال من نوع العباس . أي رجال أكفاء وسالمين في الوقت نفسه » .

وهذا يوحي للقارئ بأنّ الشمر كان رجلاً كفوّاً وحاذقاً ، لكنه سافل ، بينما زين العابدين الطاهر والنظيف ، يفتقر إلى الكفاءة والجدارة . والعبّاس هو المطلوب لأنّه نشط وفَعّال وطاهر كذلك .

وهنا تبدو أهمية معرفة الإمام : « أي عارفاً بحقه . . » كما جاء في الخبر بمعنى ' أننا مطالبون بمعرفة فلسفة الإمامة أولاً ، حتى نستطيع أن نجعلهم أئمتنا ، وطليعتنا ، ومثلنا الأعلى ، في كل شيء ، لا أن نُعبّر عن أئمتنا تلك التعبيرات الهزيلة .

إنّ الإمام إنسان وبشر يسبحُ في العلى ، وليس بكائن ما فوق الإنسان ، ولهذا يُمكن أن يكون مثلنا الأعلى ، لأنه لو كان كائناً فوق الكائنات ، لما كان بإمكانه أن يصبح مثلاً أعلى يُتخذُ به .

ولهذا نقول إننا بمقدار ما نمنح صفة الإعجاز لشخصياتنا ووقائعنا التاريخية ، بمقدار ما نُخرجها من دائرة العبرة ، والتجربة ، والقيادة العملية .

وحتى ' نتمكن من الاستفادة من تاريخنا ، وجعله مثلاً أعلى لنا سواء في شخصياته أم في وقائعه ، لا بد من حيازة المعلومات الصحيحة عن ذلك التاريخ .

بينما المعلومات الخاطئة والمُحرّفة ، لا يمكن لها إلا أن تترك الأثر المعكوس على حياتنا .

ولن نستطيع أن تكون ملهمةً لعمل الخير ، ومُحرّكةً للتاريخ باتجاه الفعل الصحيح ، إنها ستكون فاقدة لأية قوة مُحرّكة .

ونعت الإمام زين العابدين بالعليل لا يأتي علينا إلا بقاعدة أنّ كل من يثنُّ أكثر ، ويقعدُ في الفراش أكثر ، كلما كان أقرب إلى الإمام زين العابدين ، وكلما زاد تقديس الناس له !

إلى هنا اتضح لنا خطر التحريف .

والآن دعونا نبحث عن المسؤول ؟ نقول :

إن الخواص ، أي العلماء ، كما العوام ، أي الناس العاديون ، كلاهما مُقصرٌ ومسؤول .

فالعلماء مسؤولون لأنهم يدورون في فلك الشريعة الخاتمية ، والتي تتطلب

منهم مواجهة التحريف ، ورفعته ، وإزالته ، ومنع حصوله كما جاء في الحديث .
« إذا ظهرت البدع ، فعلى العالم أن يظهر علمه ، وإلا فعليه لعنة الله » .
وكما ورد في (الكافي) أيضاً : « وإن لنا في كل خلف عدوياً ، ينفون عنا
تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين » .

إن الواجب الأول ، والمهمة الأولى للعلماء هي في محاربة نقاط الضعف
لدى الناس ، وليس استغلالها . ففي قضية مثل قضية عاشوراء ، وكيفية التعامل
معها نرى أن الناس لديها تصوّر خاطئ عنها . إذ إن الغالبية تريد لمجلس العزاء
الحسيني أن يكون حاشداً وغاصاً بالجمهور أولاً ، وأن يكون تراجيدياً ، ومُحزناً ،
ومأساوياً ، قدر الإمكان ثانياً .

وهنا نرى الخطيب أمام مفترق طرق :

فهل ينبغي عليه أن ينجر لهذا التصور ، ويجعل مهمته الأولى حشد الناس
حول مجلسه ، وعرض القضية بالشكل المأساوي والفجيع ؟
أم أن يجعل مهمته قول الحقيقة والواقع ، حتى وإن خسر الحشد ، وافتقر
مجلسه إلى العرض المأساوي والفجيع .

إن من واجب العلماء النضال ضد عوامل ظهور التحريفات ، والوقوف
بوجه دعاية الأعداء وإعلامهم ، وقطع يدهم عنا ، وإعلان الحرب ضد فكرة
صناعة الأساطير والخرافات .

وهذا كتاب « اللؤلؤ والمرجان » للحاج نوري مثل أعلى في هذا السبيل ،
وهو نوع من النهوض بهذه المسؤولية بأحسن شكلٍ قام بها ذلك الرجل العظيم ،
وها نحن نستثمر من هذا النهوض النتيجة الطيبة .

إن على العلماء واجب فضح أولئك الكذابين ، والدجالين ، وسرّورين
للتاريخ . (ولهذا قيل إن من الموارد التي تجوز فيها الغيبة هي جرح الراوي - رواة
الحديث -) .

يجب على العلماء أن يضعوا المتون الواقعية للحديث المُسند بيد الناس ،

ويعرضوا على الجمهور الوجه الحقيقي للشخصيات الكبرى في التاريخ ، ويُسلطوا الأضواء على المتون الواقعية لحوادث التاريخ ، ويكشفوا الكذب ، ويُصِّرحوا عنه ، بكل وضوح .

إنَّ نظرة سريعة لأحوالنا الراهنة ، تُبين لنا مدى التحريف الذي لحق بشخصياتنا التاريخية ، وبرجالنا العظام .

صحيح أنَّ البعض قد وقى حق تلك الشخصيات ، وعرضها على أحسن وجه كما عمِلَ « إقبال اللاهوري » في أشعاره ، و« حجة الإسلام التبريزي » كذلك ، لكن البعض منهم قد أساء إليها ، وحرفها ، ومثال ذلك من نظم ذلك البيت من الشعر الذي يُقرأ على المنابر ومضمونه ، « أسفاً لفقداني لأمي أين هي . . . فيا أرض كربلاء مثلي الدور والعبي . . . » .

إنَّ هذا ليس فقط لا يمكن أن يكون لسان حال الإمام الحسين (ع) في كربلاء ، وهو ذلك الرجل العظيم ، وتلك الشخصية الفريدة .

إنه لا يمكن أن يكون لسان حال أي إنسان آخر ، وهو في سن السابعة والخمسين ، ففي تلك السن تكون الأم هي التي تأوى إلى ابنها .

نعم الإمام الحسين (ع) تذكر أمه في كربلاء وذكرها ، ولكن بصورة حماسية ، وبأسلة حيث قال : « أنا ابن علي الطُّهر من آل هاشم . . . وفاطمُ أُمِّي . . . ، ويأبى الله ذلك لنا ، ورسوله وحجور طابت وطُهرت ، ونفوسُ أبيَّة ، وأنوفُ حمية » ومثال ذلك . . .

مسؤولية العوام وواجباتهم

أولاً : أريد أن أذكر هنا مبدأ عاماً سبقني للإشارة إليه الحاج نوري في كتابه « اللؤلؤ والمرجان » وهو :

إن الموضوع الذي يكون قوله حراماً (على العموم أو في الغالب) فإن الاستماع إليه يكون حراماً أيضاً ، مثل الغيبة ، والسب ، واللعن ، وقول

السوء ، حول المؤمن ، أو الإساءة بالقول إلى أولياء الحق ، أو الغناء الباطل ، أو الاستهزاء .

وعليه فإنه إذا كان قول الكذب في مجالس العزاء الحسيني حراماً ، فإن سماعه ، والإصغاء إليه حرام أيضاً .

وثانياً : فإنه ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ^(١) .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ ^(٢) .

﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ ، سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ ^(٣) .

﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ ، أَكَّالُونَ لِلْسُّحْرِ ﴾ ^(٤) .

وأيضاً : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ : أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ ^(٥) .

بشكل عام نقول :

إنَّ العامة هم الطرف المستهلك لهذه الأقوال والحكايات المحرّفة ، وواجبهم أن يتجنبوا الاستماع إلى مثل هذه الخرافات ، ويرفضوها ، وعند ذلك سترى الذي يعرض مثل هذه البضاعة مضطراً للتراجع عنها .

لكن المشكلة هي أنَّ العامة يُشجعون مثل هذه الأمور ، وترى جمهور العامة بدلاً من محاربتهم لمثل هذه الظواهر ، ينهض بقوة لحمايتها ، والدفاع عنها ، فمثلاً تراه يواجهك بالسؤال :

وما المانع في أن يكون عرس القاسم صحيحاً ؟ عندما تنهاه عن تصديق

(١) سورة الحج الآية ٣٠ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٢ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

مثل هذا الأمر ، بل تراه يُصرّ على ذلك حتى عندما تقول له :

إنّ مثل هذا الأمر أولاً لا يمكن أن يقبل به أي عقل .

وثانياً لا وجود لمثل هذا الخبر في أي مصدر من المصادر التاريخية القديمة ، ولم يأتوا على ذكره ، لا بسند موثق ، ولا شبه موثق .

ويقول لك : حتى وإن افترضنا عدم وجود سند تاريخي بشأنه ، فما المانع من أن يكون مثل هذا الأمر قد حصل ؟ !

ولكن إذا جاء أحدهم وقال : وما المانع أن يكون أهل البيت قد بدأوا يومهم في العاشر من مُحَرَّم بالترفيه عن أنفسهم بإحدى الألعاب المعروفة للأطفال مثلاً ؟

نقول إنّ المسألة أنّ مثل هذا لم يحصل ، وهذا هو الأساس والمعيار .

وهنا لا بد من البحث والحديث حول موضوع الرشد الاجتماعي للأفراد ، بل الأفضل أن يكون البحث حول رشد المجتمعات نفسها ، فرشد المجتمعات مثل رشد الأفراد ، ولكن أولاً دعونا نُفسّر الرشد ، فما معنى الرشد ؟ .

والرشد هو بلوغ الإنسان في ناحية من نواحي الحياة - مثلاً في أمر الزواج (الرشد المعترف في الزواج) - إلى الحد الكافي من العقل والفكر بحيث يتمكن فيه من اختيار الشريك المناسب له في إدارة الحياة الزوجية ، وإدراك مصالحه في ذلك الاختيار .

وبعبارة أخرى إدراك القيم اللازمة لأمر الزواج: أي إدراك ما تتطلبه الحياة العائلية من أشياء ، وما ترفضه الحياة العائلية من أمور ، وأي الأشياء مهمٌّ وأيّها ليس مهمّاً ، وما هي الأشياء التي لها طابع الدرجة الأولى من الأهمية ، وما هي تلك التي لها طابع الدرجة الثانية أو الثالثة ؟ أي أن يتمكن من إدراك نفعه وضرره ، وتشخيص عوامل النفع والضرر ، إذ لا يمكن للرشد الجسمي (البدني) والجنسي ، أن يكونا كافيين لتشكيل الوحدة الاجتماعية المعروفة بالعائلة .

وعندما يكون الحديث عن الرشد الاقتصادي فنقول : إنه البلوغ المطلوب من الإنسان أن يصله ، بحيث يستطيع فيه المحافظة على مصالحه ، وتشخيص العوامل اللازمة والمطلوبة للحفاظ على ثرواته ، بل وزيادتها ، وإلا فإنه ليس برشيد حتى وإن كان قد بلغ سن الرشد من ناحية العمر ، فهو إن لم يستوفِ شروط الرشد نسّمه سفيهاً .

ولكن الطفل غير المستوفي لشروط الرشد ، لا يُدعى بالسفيه طبعاً ، لأنه تحت سن الرشد ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَئُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (١) .

إذن الرشيد في أية ناحية : هو ذلك الشخص الذي يُدرك النفع والضرر المتعلقين به في تلك الناحية ، إضافةً إلى إدراكه للقيم المتعلقة بذلك الموضوع .

فما لم يتم إدراك القيم ، لن تكون هناك قدرة على المحافظة على الموضوعات ، والأشياء ، ولا يؤدي الواجب بالتمام .

والرشيد في أمر الزواج مثلاً ، فتى كان أم فتاة ، هو من أدرك القيم المطلوبة لتشكيل العائلة .

أما الفتى الذي يُريد الزواج من الفتاة الفلانية ، لشفاهاها الجذابة فقط ، أو لمشيئها ، أو بسبب قدها وقامتها ، وأمثال ذلك ، فهو ليس بالفتى الرشيد .

فهو في هذه الحالة لا يعرف بعد أن العوامل اللازمة والمطلوب توفرها ، لسعادة العائلة ، هي بالمثل ، والتي ليس من بينها الشفاها الجذابة للفتاة .

وبالتالي يكون لم يُدرك قيمة عوامل السعادة الزوجية بعد .

وكذلك هي الحال مع من لم يُدرك قيمة العوامل المؤثرة في المحافظة على الثروة ، فهو لا يستطيع ممارسة العمل التجاري .

ومن لا يُشخص الفرد الخائن عن المخلص ، ومن من الأشخاص ينبغي

(١) سورة النساء : الآية ٦ .

تقريبه ، وعن أيّ منهم ينبغي الابتعاد ، مثل هذا الفرد لا يكون رشيداً أيضاً .

الرشد الاجتماعي

وكما أسلفنا فإنّ الأفضل هو أن نبحث في رشد المجتمعات ، لكون البحث في الرشد الاجتماعي مسألة مرتبطة بحدود الفرد ، وإطار الفرد في المجتمع .

وكما الفرد فإن المجتمع أيضاً، قد يكون رشيداً أحياناً ، وقد يكون سفيهاً ، أو غير ناضج في أحيان أخرى .

والمجتمعات التي لا تُدرك كُنْه وجودها كوحدة متكاملة ، ولا تعرف قيمة ثرواتها المتمثلة في الشخصيات التاريخية ، والوقائع التاريخية ، هي مجتمعات غير رشيدة قطعاً .

ومن بين تلك الثروات شخصيات التاريخ الغابر ، ومن بينها كذلك الآثار الفنية ، والعلمية ، والصناعية ، والأدبية الماضية ، إلى جانب التاريخ التليد .

وأي تاريخ يماثل التاريخ المملوء بالتجارب ، والخبرات ، والسعادة ، والفخر ، وما حوادث التاريخ الغابر إلّا وثائق أخلاقية ، وتربوية ، لأجيال المستقبل .

وقد تظهر آثار فنية وصناعية لدى أمة من الأمم ، لكن أفراد تلك الأمة لا يدركون قيمة تلك الآثار بل ويخربونها ، وما أكثر ما يحصل أن تقع مخطوطة نفيسة بيد أحد البقالين ، فيستخدمها ورقاً لمبيع لوازمه ، وقد تقع بعض الآثار الفنية ، والصناعية كاللوحات ، أو القطع الصخرية ، أو البلورية ، أو ما شابه ، بيد أناس غير صالحين ، فتراها تصبح لعباً بيد الأطفال ، يرمونها هنا وهناك .

وهكذا هو حال التاريخ ، فقد تمر على بعض الأمم منعطفات تاريخية مليئة بالحماسة ، والفخر ، والتجارب الغنية ، والجمال ، والعظمة ، والقصص ، والدروس الملهمة ، لكنّ حالها كحال لوحة فنية نفيسة وقعت بيد الأطفال ، فراحوا يلعبون بها فأتلفوها ! .

كذلك حال التاريخ الذي يُلحقون به ما شاءت إرادتهم من الأساطير والخرافات ، حتى يعدموا قيمته وقدره ، من العظمة ، والجمال ، والحماسة ، والإلهام ، والغنى ، والفخر كُلياً ، ويتحول من مادةٍ ملهمةٍ للعظمة ، والحماسة ، والشجاعة ، وروح النضال ، والكفاح ، إلى مادةٍ توحى بالعجز ، والشقاء ، والاستسلام مقابل الحوادث .

وما واقعة كربلاء التاريخية إلا واحدة من تلك الحوادث التي مُسخت ، وبُذِل مفعولها ، بسبب فقدان الرشد الاجتماعي المطلوب لدى الأمة ، فُنُسيت عظمتها ، وعُضّ النظر عن جمالها ، وقُضي على صور الشجاعة ، والحماسة ، والفخر فيها ، واستبدل كل ذلك بالعجز ، والضعف ، والجهل والهوان .

وهذه علامة من علائم تخلف الأمة ، وفقدانها للرشد اللازم في سبيل الحفاظ على تاريخها المليء بالفخر ، والعظمة .

هذا من ناحية مسؤولية المجتمع على العموم ، وأما مسؤولية جمهور العامة على الخصوص ، فينبغي القول : إن مسؤولية حفظ وصيانة التاريخ ، والماضي التليد ، ليس أمراً مختصاً بالعلماء وحدهم ، بل إن كل فردٍ من أفراد المجتمع ، ينبغي أن يتحمل هذه المسؤولية على عاتقه .

فكما إصاق الكذب والتزوير ، بهذه الحوادث ، أمرٌ حرام كقول الكذب ، فإن سماعها ، والاستماع إليها من قبل العامة حرام أيضاً .

قال تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾^(١) وقال كذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾^(٢) .

وجاء في تفسير الكشاف تعليقاً على الآية الأولى : « وُجِعَ الشرك وقول الزور في قرآنٍ واحدٍ ، وذلك أنَّ الشرك من باب الزور ، لأنَّ المُشْرِك زاعِمٌ أنَّ الوثنَ تحقُّ له العبادة ، فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور » . ثم يضيف : « الزُّور من الزور ، والازورار ، وهو : الانحراف » .

(١) سورة الحج : الآية ٣٠

(٢) سورة الفرقان : الآية ٧٢ .

وأما في التعليق على الآية فقد ورد : « يحتمل أنهم ينفرون عن مجالس الكذابين ، ومجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها ، ولا يقربونها ، تنزّهاً عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانةً لدينهم عمّا يثلمه ، لأنّ مشاهد الباطل شيركهُ فيه .

ولذلك قيل في النظارة إلى كلّ ما لم تُسوِّغه الشريعة : هم شركاء فاعليه في الإثم . لأنّ حضورهم ، ونظرهم ، دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، لأنّ الذي سلّط على فعله ، هو استحسان النظّارة ورغبتهم في النظر إليه وفي مواضع عيسى (ع) : إياكم ومجالسة الخطّائين » .

وعليه تكون دعوة الآية الأولى موجهةً في الأساس إلى اجتناب قول الزور ، سواء حصل ذلك قولاً ، أو استماعاً ، والقول هنا هو أظهر المصدقين .

لكن الآية الثانية تدعونا صراحةً إلى عدم الحضور في مجالس الباطل ، سواء أكان الحضور بهدف السماع ، أو بهدف الرؤية ، والمشاهدة ، وهي آية تنهانا في الواقع عن إعانة الإثم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ (١) .

وفي تفسير الصافي : « عن الصادق (ع) :

وفرض الله على السمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله ، وأن يُعرض عمّا لا يحلّ له مما نهى الله عنه ، والإصغاء إلى ما أسخط الله ، فقال في ذلك : وقد نزل عليكم . . . » .

كما ورد في الصافي أيضاً : « القمي : آيات الله هم : الأئمة عليهم السلام » .

والظاهر أنّ المقصود من الآيات هو : المفهوم الأعم للآية من آيات تدوينية ، وآيات تكوينية إلهية ، سواء أكانت الشخصيات التاريخية مثل الأئمة

(١) سورة النساء : الآية ١٤٠ .

عليهم السلام ، أو حوادث التاريخ التي هي الأخرى من الآيات الإلهية التكوينية .

والوقائع التاريخية التي تُبين مجرى ومظهر جلاء الروح الإيمانية هي الأخرى يمكن اعتبارها من آيات الله .

وقد ورد في تفسير الصافي تعليقا على الآية :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ، فأعرض عنهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾^(١) . قوله : العياشي ، عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : الكلام في الله ، والجدال في القرآن . قال : منه القصص .

وعن الصافي تعليقا على ما سبق أيضاً :

« في العلل ، عن السجاد (ع) : ليس لك أن تقعد مع من شئت ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : وإذا رأيت الذين يخوضون » .

وخلاصة البحث في مسؤولية العامة هو :

أ - هناك مبحث أخلاقي وإسلامي يدور حول أن ما يكون قوله حراماً فإن سماعه حرام أيضاً ، فالأذن واللسان من زاوية معينة يشتركان في وظيفة واحدة ، ذلك أن الأذن هي الأداة المستهلكة لبضاعة اللسان ، ولو تخلت الأذن عن الاستهلاك لما كان بوسع اللسان أن يستمر في الإنتاج ، وإذا ما قرّر أهل الأذن وأصحابها ، الانصراف عن استهلاك الأكاذيب ، والتزوير ، والغيبة ، والنميمة ، واللعن ، وأقوال السوء ، فإن بضاعة أهل اللسان ستبور فيسكتون ، تماماً كما العين ، والقراءة ، من أدوات استهلاك الكتاب ، ومُخرجي الأفلام ، وامتناع أولئك عن الاستهلاك ، يعني انقطاع هؤلاء عن الإنتاج .

ب - الآيات القرآنية الواردة في هذا المجال وقد مرّ ذكرها .

ج - جانب البحث الاجتماعي : وخلاصته هي كما أنّ هناك فرداً رشيداً ، وآخر غير رشيد ، وأن شرط الزواج ، أو حيازة الثروة ، كون شروط الرشيد قد

(١) سورة الأعمام : الآية ٦٨ .

تحققت عند الفرد ، فإنَّ حال المجتمعات أيضاً كذلك فهناك مجتمع رشيد ، وآخر سفيه .

ومعنى الرشد هو : إدراك القيم ، والثروات ، وطريقة الاستفادة منها ، واستغلالها بالشكل الصحيح .

والرشد في أمر الزواج هو : معرفة الشخص في للأسس اللازمة لإقامة الحياة العائلية ، وقيمة كل واحدة من تلك الأسس ، كأن تتم معرفة الفتاة ، والبحث عن أصولها ، ومدى مناسبتها للزواج .

كذلك الأمر بالنسبة لرشد الفرد في حالة منحه اختيار التصرف في الثروات .

وأما رشد المجتمع : فإنه يقوم أولاً على ضرورة إدراك المجتمع لنفسه كوحدة متكاملة ، ثم ضرورة إدراكه لأهمية القيم والثروات العامة ، التي هي بمثابة تراث وثروة وطنية وعامة للجميع ، ثم ضرورة السعي للحفاظ على تلك الثروات وصيانتها .

وهذه الثروات يمكن أن تكون شخصيات تاريخية عظيمة ، أو آثاراً علمية ، وفلسفية ، وفنية ، وصناعية ، وأدبية ، أو من نوع التواريخ والوقائع التاريخية الحماسية ، التي توحى بالفخر والاعتزاز .

إنَّ مجتمعاً يملك تاريخاً مثل تاريخ الحسين بن علي ، وهو تاريخ مليء بالمفاخر وآيات الحماس ، والعظمة ، والجمال ، والتجارب الغنية والمُلهمة ، فيُبدلُه بتاريخ مليء بالحكايات ، والخرافات الوهمية ، من جعبة « روضة الشهداء » و« أسرار الشهادة » ، هو مجتمع سفيه حقاً ، وليس رشيداً . ونحن اليوم مطالبون بالحفاظ على تاريخنا ، كما نقوم بصيانة آثارنا التاريخية والوطنية .

ملاحظات

١ - التحريف في القرآن ، في تفسيره وتأويله - كتفسير الصافي وعلي بن إبراهيم .

٢ - التحريف في شخصية الإمام علي (ع) ، كقصة الأسد الذي كان يظهر في كربلاء ، ثم تبين أنه الإمام علي !

٣ - التحريف في تاريخ الإسلام : كالقول بأن الإسلام قد انتشر وتقدم بثروة خديجة وسيف علي !

٤ - التحريف في الشخصيات المعادية والشقية ، والذي يمنع أخذ العبرة من سلوكهم ، من خلال تصويرهم في الغالب بأنهم من أولاد الزنى الذين يملكون سبعة أئداء . . . وبالتالي يصبح من الصعب على الناس أخذ العبرة من معاوية ، قبل أربعة عشر قرناً ، فمثلاً فقد اشتهر قوهم عن الشمر بأنه يملك سبعة أئداء مثل الكلب ، أو كما قال بعضهم عنه بأن اسمه عبد الله . . .



القسم السادس نقد كتاب « الحسين وارث آدم »

« الحسين وارث آدم »

هذا الكتاب هو من تأليف الدكتور علي شريعتي . في إحدى سفرائي إلى مشهد - في العام (١٩٧٣ م) - قدمته لي (انتشارات طوس) فقرأته ، وأنا في طريقي إلى طهران ، وإنّ ما استخلصته من هذا الكرّاس الذي عرض فيه كاتبة أفكاره بشكل مُبطن وبتعبيره هو كما ورد في الكرّاس بأنه : « إنّما أردتُ أن أقول كل عُقدي وعقائدي في هذا الكرّاس هو التالي :

١ - إنّ هذا الكرّاس ما هو إلّا شكل من أشكال التفسير المادي الماركسي للتاريخ ، بل نوع من التعزية الماركسية التي تُقرأ على الإمام الحسين ، وهي تعزية مستحدثة .

[واستناداً إلى هذا الكرّاس] فإنّ بداية التاريخ البشري ، كانت مع الاشتراكية والمساواة .

ثم بدأت اللامساواة ، وصراع الحقّ والباطل ، يغزوان البشرية ، وظهرت الملكية ، والتي قسمت بدورها المجتمع البشري إلى قسمين ، تماماً كما هو حال نهري دجلة والفرات اللذين ينبعان من منبع واحد ، ثم يتشعبان إلى رافدين منفصلين .

وانقسام الإنسان إلى قسمين يعني إلى طبقتين : طبقة مستغلة ومستثمرة ،
وطبقة محرومة ومستغلة .

والطبقة الحاكمة والمستغلة ذات ثلاثة وجوه : سياسية واقتصادية ودينية
(مذهبية) ، أو أصحاب الذهب والقوة والتزوير (الخداع) .

وإن مهمة الفئة الأولى (أي الحكام) هي : صناعة العبيد .

والفئة الثانية (أي الاقتصاديون) هي النهب .

والفئة الثالثة (أي رجال الدين والمذهب) هي الخداع والتضليل .

وهكذا يكون القصر والدكان والمعبد عبارة عن ثلاثة شعب أو فروع لمكتب
واحد .

وإن السيف والذهب والمسبحة يؤديان نفس الوظيفة .

وقد كانت هذه هي السمة الملازمة للنظام الحاكم في التاريخ على الدوام .

وأى شيء آخر غير ذلك كان عبارة عن حركات ، وثورات مُدانة
ومقموعة .

نعم لقد قامت ثورات ، ونهضات ، وحركات صميمية ومُخلصة ، ولكنها
يائسة ، لأن النظام التحقي نظام فاسد .

ولهذا ترى أنّ كل تلك الحركات والثورات التي وقعت على يد إبراهيم ،
وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وعلي ، والحسين ، قد ولدت آثاراً معاكسة .

وما كان يُنتظر منه أن يكون إدام خبز البشرية ، تحوّل إلى بلاء ومعاناة
مضاعفة ، وقيد جديد أُضيف إلى القيود السابقة .

نعم فحرية القبيلة ، والعشيرة الأولى ، لم تدم طويلاً (ص ٢٢) . ونداء
الإمام الحسين قد أطفئ بيننا ظل رنين ناقوس العجل السامري يُدوي عالياً على
الدوام (ص ٢٤) ، وما المصير المحتوم لورثاء آدم كافة ، سوى الأسر والمعاناة
(ص ٢٨) .

وما إرث الحرية ، والعدالة ، والنهوض سوى الثورات المدانة في التاريخ أبداً .

وما إرث العبودية ، والظلم ، ودين النوم ، سوى النظام الحاكم في التاريخ (ص ٣٩) .

والإمام الحسين مظهر لانكسار آدم وهزيمته (ص٤٧) .

والكاتب يُصوّر ، في كراسه هذا ، الأرض بين النهرين بمشابة التعبير الرمزي لكل الأرض وأضحى تاريخها مظهراً لتاريخ الأرض كلها .

وإن دجلة والفرات تعبير عن الجناحين المتضادين للمجتمع البشري اللذين انشعبا بعد خروجهما من منبع واحد ، وأوحيا باتصالهما وتلاقيهما الوهمي والكاذب قرب بغداد ، وهو أشبه بتلك الوحدة الكاذبة بين جناحي البشرية في دورة الخلافة الإسلامية ، حيث ظهرت تلك الوحدة الكاذبة أيضاً^(١) ، لكنها سرعان ما تكررت الجناية والمأساة بشكل أكثر فجاعةً مرة أخرى .

إنّ كل جُناة العالم يظهرون ويبرزون في كل واحد من تلك الوجوه الثلاثية للخلافة الإسلامية ، وهكذا يبدأ سقاء العالم ، وهو الشقاء الذي لم يسبق له مثيل^(٢) .

إنّ مصير دجلة والفرات النهائي هو أن يصبّا في البحر ، ويستقرّا هناك .

ومصير البشرية ، كخاتمة التاريخ البشري هو في الاشتراكية ، وهناك فقط تنجو البشرية من بلاء الملكية والنظام الطبقي ، ويتم تهديم البناء التحتي ، ويحل محله بناء تحتيّ واقعيّ جديد ، قوامه العدل والقسط الواقعيّان .

إنّ جهود الثوريين في التاريخ ، ونضالاتهم ضد البناء التحتي الفاسد ، كانت مُخلصة وصميّة على الدوام لكنها يائسة ، وغير مثمرة باستمرار .

ولا يمكن الوصول إلى السعادة الواقعية للمجتمع البشري إلّا بزوال

(١) الصفحات : ٣٩، ٢٩، ٩ .

(٢) الصفحات . ٣٥، ٢٨، ٢٧، ١٥ .

الطبقات ، ومحو النظام الطبقي^(١) ، ألا بالاشتراكية تطمئن القلوب !
فالإمام الحسين ، يتقدم بتسارع نحو الموت ، وحيداً يائساً^(٢) - بنظر
الكاتب - وإنه مظهر هزيمة آدم وانكساره ، والتزامه غير المثمر^(٣) .

استنتاج

في هذا الكرّاس يُلاحظ المرء أنّ كلمة آدم ، أو الإنسان ، ما هي إلا رمز
للإنسان الاشتراكي ، وتوحيد العالم ما هو إلا تبرير وتفسير ، لتوحيد ووحدة
المجتمع .

كما أن الشرك العقيدي أو الاعتقادي ، ما هو إلا ظل من الشرك أو مشنوية
الحياة .

وبهذه البيانات ، يتجلى مرة أخرى الطابع الماركسي للكرّاس ، حيث يتم
تفسير وجدان الإنسان على أنه انعكاس ونتاج للوضع الاجتماعي للإنسان ، وهو
ما يمكن أن يكون تعبيراً عن وجهة نظر (دوركهايم) وليس (كارل ماركس) .

شيء واحد لا تقع عليه العين في هذا الكرّاس ، هو شخصية الإمام
الحسين ، وآثار نهضته .

إنّ أساس فكر هذا الكرّاس مبني على قاعدة أنّ كل الجهود في المجتمع
الطبقي ، تبقى دون نتيجة ، وإنّ ثوار التاريخ ، وهم ورثة آدم أي الإنسان
الاشتراكي ، وقيامهم هو من أجل الحق ، والحق يعني العدالة والمساواة ، وهذا
يعني : الاشتراكية .

إنّ الإمام الحسين في هذا الكرّاس هو نفسه الإمام الحسين المدان ،
والمظلوم ، من قبل قُرّاء التعزية الحسينية التقليديين ، والذين يرون في الحسين

(١) ص ٩ .

(٢) ص ٢٣ .

(٣) ص ٤٧ .

رجلاً لا دور له في التاريخ ، مع فارق أن الإمام الحسين عند أولئك الوعّاظ ،
وقراء التعزية الحسينية ، قد فرّش سُفرته للبكاء عليه ، حتى يحصل البكاؤون على
نصيبهم منها في الآخرة .

بينما الإمام الحسين في هذا الكرّاس - بواسطة التعازي ومجالس البكاء -
وسيلة بيد الجناح الحاكم ، لاستثمار واستغلال الطبقة المحكومة ، والمحرومة .

وفي هذا الكرّاس فإنّ المعبد كان دائماً إلى جانب القصر والدكان ،
والروحاني ظل دائماً إلى جانب الحاكم وصاحب رأس المال .

وبالطبع فإنّ الذي يقع في الحاشية ، أو على الأطراف هو المعبد - لاحظ هنا
المعبد بشكل عام ، وليس الكنيسة ، أو الدير ، أو الصومعة ، أو محل عبادة
الأوثان - والذي يشمل بدوره المسجد أيضاً . وبالطبع فإن سياق موقع
الروحاني - رجل الدين - صار واضحاً أيضاً .



القسم السابع ملاحظات حول الحماسة الحسينية

الحماسة الحسينية

١ - من أجل تبيان مفهوم الكلمة أعلاه ، وتوضيح المقصود منها ، وتفسير معناها نعود إلى « نهاية » ابن الأثير (ج ١) حيث ورد قوله :

« الحُمُسُ جمعُ الأحس ، وهُم قُرَيْش ، وَمَنْ وَلِدَتْ قُرَيْش ، وكنانة ، وجديلة قيس .

سُمُوا حُمَسًا ، لأنهم تحَمَّسُوا في دينهم : أي تشدَّدوا .

والحماسة : الشجاعة ، كانوا يقفون بمُزدلفة ، ولا يقفون بعرفة ، ويقولون : نحن أهل الله ، فلا نخرج من الحرم ، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها ، وهم مُحَرَّمُونَ » .

وجاء في القاموس :

« حَمَسَ - كَفَرِحَ : اشتدَّ وَصَلَبَ في السِّدين ، والقتال ، فهو حَمِسٌ وأَحَمَسُ . . . »

وقد اصطلح على بعض الأشعار بـ « الحماسية » . كما تم تأليف بعض الكتب ، وسُميت بالحماسية ، لأنها تضمنت أشعاراً حماسية ،

والمنظومات الشعرية المختلفة عادةً ما يتم تقسيمها إلى منظومات حماسية ، وغنائية ، ورثائية ، ومنظومات المديح ، والوعظ ، والحكمة ، وهكذا سائر الأقسام الأخرى .

والشعر الحماسي هو : ذلك الشعر الذي يثير في النفوس الغيرة ، والشجاعة ، والقوة ، وروح المقاومة ، سواء أكان الشعر نفسه حماسياً ، أو شرح حياة بطل من الأبطال الحماسيين بالذات ، والبشر على العموم يعشقون البطل والبطولة بل ويعبدون البطل أحياناً ويُقدسونه .

وهناك الكثير من أمثلة الشعر الحماسي ، والقصص الحماسية ، التي يمتلئ بها تاريخنا سواء منه الوطني والقومي ، ومنها المعروف بالأساطير والخرافات في التاريخ الإيراني القديم ، أو تلك التي تعود إلى التاريخ الواقعي الإسلامي ، مثل قصة المبارزة بين علي (ع) وعمرو بن ود العامري ، أو قصة جلال الدين الخوارزمشاهي .

وأما الشعر الغنائي ، فيكفي المرور على أشعار حافظ وسعدي ، لنجدها مليئة بأنواع الشعر الغنائي .

وحول الرثاء يمكن الإشارة إلى قصيدة الرثاء التي نظمت بحق السلطان (محمود الغزنوي) في التاريخ الإيراني ، أو القصائد المتعددة والتي نظمت للتعريف بمصائب أهل بيت النبي (ص) .

وأما شعر المديح فالتاريخ القديم والحديث مليء به إلى ما شاء الله من الأمثلة ، وهكذا في الموعظة والتزلف إلى الحكام وغير ذلك .

وهذه التقسيمات لا تقتصر على الشعر ، بل هي كذلك تنطبق على النثر أيضاً كقول علي (ع) : « قد استطعموكم القتال . . . »^(١) ، كما يمكن سارة إلى خطبة طارق بن زياد في هذا المجال ، والقرآن الكريم بدوره أيضاً يحتوي على آيات حماسية : « والعاديات ضبحاً . . . » ، والحوادث والوقائع التاريخية هي

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥١ .

الأخرى يمكن أن تُقسّم إلى حماسية و ، وتاريخ الإسلام بشكل عام تاريخ مليء بالحماسة ومثال ذلك قصة أشعار أبي ذر الغفاري في مكة . كما يمكن الإشارة إلى القصص الغنائية ، أو قصص الموعظة ، والحكمة ، في هذا المجال أيضاً ، وهناك بعض الشخصيات التاريخية نفسها يمكن إطلاق صفة الشخصية الحماسية عليها^(١) .

والآن دعونا نبحث في الشخصية الحسينية ، وواقعة كربلاء التاريخية ، والشعارات الحسينية .

فالحسين شخصية حماسية فريدة بلا شك ، وواقعة كربلاء واقعة حماسية ، والشعارات الحسينية شعارات حماسية .

٢ - خلاصة خطاب للمؤلف الشهيد بعنوان (الحماسة الحسينية)^(٢) .

قلنا إنه كما المنظومات الشعرية تنقسم إلى حماسية ، أو غنائية ، أو رثائية ، أو منظومات وعظ ، وحكمة ، وغير ذلك ، فإن النثر بدوره أيضاً يمكن تقسيمه بالنحو ذاته ، بل إنّ الوقائع والتواريخ البشرية تراها متعددة الطابع ، وحتى الشخصيات ، وروحية كل واحد منهم ، وكذلك حال الشعارات أيضاً .

ثم قلنا : دعونا نطالع واقعة كربلاء حتى نرى ما هو الطابع العام لهذه الحادثة : هل هو غنائي ، أم رثائي ، أم حماسي ، أم موعظي ، أم ماذا ؟

ثم قلنا : إنّ هذه الواقعة تُبلور صفحتين في التاريخ ، صفحة سوداء ومظلمة ، ومن هذه الزاوية تكون حادثة كربلاء عبارة عن قصة جنائية ، ورثائية ، وهي نوع من التراجيديا الفريدة من نوعها (على الأقل في أرض

(١) لقد قرأت مذكرات نشرت عن « سوكارنو » في صحيفة (إطلاعات) ذكر فيها أنه عاشق كبير ، وذكر فيها قصص عشقه التي يفخر بها . وبالتالي يمكننا القول بأنّ (سوكارنو) شخصية غنائية ، وليس شخصية سياسية

(٢) الخطاب ألقى في حسينية (إرشاد) ليلة ١٣ محرم ١٣٨٨ هـ . ق .

المشرق ، بينما حصل أشنع منها في أرض المغرب ، ومثال ذلك الحروب الصليبية ، وحرب الأندلس) ، وأبطال هذه الرواية الجنائية هم جُناة ومجرمون ، أمثال يزيد بن معاوية ، وابن زياد ، وعمر بن سعد ، وغيرهم .

وأما الصفحة الأخرى ، أو الوجه الآخر فهي رواية حماسية ، وأبطال الرواية من هذه الزاوية يتغيرون ، فهم هذه المرة الحسين (ع) ، وزينب ، والعباس (ع) ، وعلي بن الحسين (ع) والقاسم بن الحسن ، ومسلم بن عقيل ، وزهير بن القين ، وبرير بن خضير ، وهلال بن نافع ، وحبيب بن مظاهر عليهم السلام .

ولأنها من هذه الزاوية معرض ومشهد من مشاهد الجريمة البشرية ، وعلامة من علامات خذلانها ، ومصدق للآية الشريفة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ .

وأما من الناحية الثانية ، فهي مصداق للآية الشريفة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . وكذلك مصداق : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وقلنا أيضاً : إننا حتى الآن لم نطالع إلا صفحة واحدة من هذه الرواية ، أي إننا لم نطالع إلا ذلك الجانب الجنائي منها ، وإننا الآن نريد أن نطالع الجانب الآخر .

وقلنا إنَّ البعض أمثال « محمد مسعود » زعموا بأنَّ الطريقة المسيحية في إجلالها لشهادة المسيح ، وفدائيته ، بواسطة احتفالهم بمثل ذلك اليوم ، أفضل من طريقتنا نحن المسلمين الذين نُقيم العزاء في يوم استشهاد الحسين (ع) ، والقول بأنهم يرون في شهادة عيسى نجاحاً ، بينما نرى في شهادة الحسين (ع) انكساراً .

ثم دحضنا هذه النظرة عندما قلنا بأنَّ المسيحيين لم يروا في الواقع إلا الجانب الفردي والشخصي من عملية الاستشهاد ، بينما وضعناها نحن في المعيار

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠

الاجتماعي العام فتصبح خسارة كبرى عليهم ، ونجاحاً عظيماً لنا .

وإننا نرى فيها انتصاراً كذلك حين النظر إليها من الجانب الشخصي للإمام الحسين (ع) ، ثم إنَّ المسيحيين إنما يحتفلون باستشهاد المسيح لأنهم يرون فيه الفادي لذنوبهم ومعاصيهم ! بينما نجد ذلك من غير الممكن قبوله لدى المسلم الواقعي .

وأخيراً كيف نرى في شخصية الحسين (ع) شخصيةً حماسية ، وكيف كانت كلماته وأقواله حماسية أيضاً ، وكيف تكون واقعة كربلاء واقعةً حماسية ؟

أولاً : لابد من الإشارة هنا بأنَّ هذه الواقعة المليئة بالتحمل ، والصلابة ، والصمود ، والغيرة ، والدفاع عن المثل العليا ، والتضحية ، والفداء ، والشهادة ، إنما تختلف عن سائر الروايات الحماسية الأخرى . لأنها حماسة مقدسة ومُطلقة ، مطلقة لأنها لم تأت من أجل قوم ، أو شعب ، أو أمة معينة ، بل كانت من أجل الإنسانية ، بل وأسمى من ذلك في سبيل الله ، وهذا يعني أنها جاءت متطابقة مع الأهداف الكلية للخليفة ، أي في سبيل رضا الله سبحانه وتعالى .

وهذا هو المفهوم الحقيقي لرضا الله لأنه سبحانه وتعالى ليس بحاجة ذاتية إلى الرضا أو عدم الرضا .

وهي كما أسلفنا أيضاً مقدسة ، أي إنها لم تحمل في داخلها أي بواعث ، أو دوافع فردية ، وشخصية كالجاه ، أو المصلحة ، أو الرئاسة ، أو هوى النفس لأنها حركة من أجل المقدسات الكونية ، وفي سبيل التوحيد ، وعلى طريق النضال ، ضد عبادة العباد ، وتحقيق العدل والحرية ، ومن أجل حماية المظلومين والمضطهدين .

وهي لذلك حماسة إلهية وعالمية وإنسانية .

إنَّ البطل القومي الذي يعمل من أجل قومه وشعبه فقط ، قد يكون مجرماً كبيراً من قبل الشعوب الأخرى :

فالإسكندر بطل قومي كبير بأعين اليونانيين ، لكنه أحد جُناة التاريخ من وجهة نظر الشعوب المضطهدة .

لكن هذا لا ينطبق على ذلك الرمز الذي يرفع أهدافاً سامية كالحق ،
والحقيقة ، والعدالة ، والحرية ، والله .

بينما حتى ذلك الرمز الذي يرفع أهدافاً مثل استرداد الحقوق المادية
المهضومة ، وإقامة المساواة الاقتصادية ، وتكون فلسفته وخلفيته التي تُحرّك
نضالاته هي المادية ، والفكر الاقتصادي ، باعتباره العامل الأساس ، وبالتالي
ستكون المصالح الفردية والشخصية المادية هي المُحرّكة ، وعندها لا يمكن اعتبار
حركته حركة مقدّسة .

٣ - سبق وأن بيّنا بأنّ النهضات المقدّسة والرجال العظام إنّما يتميزون
بأربعة خصال :

أولاً : العمومية والإطلاق . وفي هذه الخصلة تشترك بعض الحركات
الاجتماعية ذات الطابع المادي أيضاً .

ثانياً : القدسية . أي أن تكون الحركة مُنزهة عن الخصوصيات ، أو
الجوانب الشخصية ، والفردية ، والذاتية ، فرجال مثل الإسكندر ، ونابوليون ،
ونادر شاه ، وشاه إسماعيل الصفوي ، وأمثالهم هم رجال عظام ولكنهم ليسوا
مقدّسين

ثالثاً : أن يكونوا عبارة عن شعلة وهّاجة في وسط الظلام ، وحركة وسط
السكون ، والسكوت المطلق المميت . ولهذا السبب تراهم لا يكونون موضع
قبول عقلاء القوم . . .

رابعاً : البصيرة القويّة والثّابة .

٤ - وأما أقوال الحسين بن علي (ع) ، فإنها رمز للغيرة الإلهية ، ومفتاح
شخصيته الحقيقية يكمن فيها :

أ - يسألونه عن حديث سمعهُ هو من النبي فينقل لهم : « إنّ الله يُحبُّ
معالي الأمور ، ويُبغض سفاسفها . . . » .

ب - عن « الأنوار الإلهية » ص ٤٥ . . . عن الحسين (ع) : « إن جميع ما طلعت عليه الشمس ، في مشارق الأرض ومغاربها ، بحرها وبرها ، سهلها وجبلها ، عند ولي من أولياء الله ، وأهل المعرفة بحق الله ، كفيء الظلال ، ثم قال : ألا حُر يدع هذه اللماظة لأهلها ! ليس لأنفسكم ثمنٌ إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها ، فإن من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخييس . . . » .

ج - الناس عبيد الدنيا والدين لَعقُّ على ألسنتهم يدورون . . .

د - موت في عزٍ ، خيرٌ من حياةٍ في ذُلٍّ .

هـ - وفي خطاب له موجه إلى أبي ذر الغفاري : « فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدين والكرم .

و - الصدقُ عزٌّ ، والكذبُ عجزٌ ، والشحُّ فقرٌ ، والسخاءُ غنىٌ .

ز - سَبَقَتْ العالمين إلى المعالي . . .

كانت هذه بعض الأقوال المأثورة ، التي سجّلها التاريخ على لسان الحسين (ع) ، قبل واقعة عاشوراء ، وهي ما سمحت به الرقابة - رقابة الحكم ، والسلطة ، وأعداء الدين - وأمّا أقواله المعروفة في سياق واقعة عاشوراء ، فيمكن الإشارة إليها بشكل رؤوس نقاط على الشكل التالي :

ح - سأمضي وما في الموت عارٌ على الفتى

ط - ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به . . . إني لا أرى الموت إلا سعادة . . .
وأما في يوم عاشوراء نفسها فكانت أقواله :

ي - الموتُ أولى من ركوب العار . . .

ك - إن لم يكن لكم دينٌ

ل - ألا وإنّ الدعي ابن الدعي . . .

م - لا أُعطيكُم بيدي إعطاء الذليل . . .

٥ - لقد كانت الحرب في عاشوراء ، حرب عقيدة وأفكار ، وليست حرب أشخاص .

٦ - إنَّ حماسة الحق هي في تقديسه : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يُضرك . . . » وبالتالي لا بد من الامتناع عن الحيلة ، والخداع ، والاستناد إلى كرامة النفس .

٧ - إنَّ ما يبقى ويدوم هو تلك الجاذبية الواقعية للنهضة الحسينية في قلوب الناس ، وكل ما يُبدل في هذا المجال ناتج عن تلك الجاذبية . . .
» إنَّ لقتل الحسين حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً «^(١) .

٨ - إنَّ المدرسة الحسينية يجب أن تكون مدرسة إحياء الإسلام ، وتجديد الحياة فيه . وبالتالي لا بد من حذف شعارات الحسين المظلوم ، والغريب ، واليتيم !

٩ - لا بد من التعمق في دراسة مسألة الشهيد والشهادة ، وقيمة دم الشهيد . إذ إنَّ كل استشهاد ما هو إلا نورانية جديدة ، تُضاف إلى المجتمع .

١٠ - البحث في مفتاح الشخصية .

١١ - لم يشكَّ الحسين من الدهر أبداً .

١٢ - إنَّ إحدى مبادئ التربية ، هي نفخ روح الحماسة في وجود الأفراد . ولكن المطلوب طبعاً أن تكون تلك الحماسة ، هي الحماسة الإلهية ، وليست القومية ، أو العرقية ، أي حماسة الخير ، والإحسان ، والتحمس تجاه العمل بسنن المجتمع السالمة ، والشهيد بشكل عام ، عامل يُثير الحماسة في المجتمعات . (وإنَّ كان ألا فليكن تعصبكم في محامد الخصال)^(٢) .

١٣ - إنَّ المجتمع الذي يستطيع الاعتماد على ذاته ، هو ذلك المجتمع الذي

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) في نهج البلاغة الخطبة ١٩٠ (القاصعة) وردت الجملة هكذا : « فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال » .

نُفخت في روح أفرادها الحماسة ، والإحساس بالشخصية ، وذلك المجتمع هو ذلك الكيان ، صاحب الفلسفة المستقلة في الحياة ، التي يؤمن بها أفرادها ، ويستندون إليها في نشاطاتهم كافة .

١٤ - إنَّ لازمة المكر والحيلة ، لدى الإنسان ، والحيوان ، هي الضعف والعجز ، بينما لازمة كرامة النفس ، هي القوة ، والاقتدار .

١٥ - ينبغي حذف تلك الشعارات التي توحى بالذل والمسكنة والتي تتباين مع روح المقاومة الحسينية ، والشعارات الأصلية للنهضة ، وبالتالي تتخلل عن القول : يا مظلوم ، يا غريب ، يا يتيماً !!!

١٦ - إنَّ الخطبة الحماسية ، والواقعة الحماسية ، والشخصية الحماسية^(١) ، إنما تكون حماسية عندما تحرك روح الغيرة ، والحمية ، والشجاعة ، والكفاح في النفوس ، وتجعل الدماء تغلي في عروق الأبدان من جهة أخرى ، أي أن تبعث الحركة ، والعزم ، والحزم ، والحرارة ، والإصرار ، في بدن الإنسان وروحه ، وبعبارة أخرى أن تمنح حياة جديدة في جسم الإنسان ، أي أن توجد روحية الثورة ، والتمرد ، في النفوس ، وتخلق حسَّ المقاومة والدفاع بوجه الظلم ، والاستبداد ، والظالم ، والمستبد .

١٧ - يُعتبر الإمام الحسين (ع) رمزاً فريداً يمكن له أن يلعب دوراً حساساً للغاية في تجديد الحياة الأخلاقية ، والاجتماعية في الإسلام ، وفي سبيل إثارة الأحاسيس الثورية والحماسية ، وإيجاد ، وخلق الشخصية ، والكيان المستقل .

١٨ - وإنَّ إحدى فوائد وسِمات حضور الحماسة الروحية الاجتماعية ، هي إيجاد نوع من الحصانة ، سواء عند الأفراد ، أو لدى المجتمع بشكل عام ، حصانة تمنعنا من الذوبان في الشخصية الأخرى الفردية ، أو المجتمعية ، وذلك بسبب تكون وتبلور الشخصية المستقلة الخاصة بنا .

(١) سنوضح فيما بعد كيف أن شخصية الحسين (ع) ، وواقعة الحسين ، كانتا حماسيتين ، أي إنهما نفختا في روح الناس الغيرة ، والحمية ، والرجولة ، والحرية ، والتحرر ، فيها طردتا في الوقت نفسه العبودية ، والخوف ، منهم ، وأشعلت الحماس في دماء أفراد الأمة .

١٩ - إنَّ أيَّ شيء ينهار ، أو ينهدم ، في أمة من الأمم ، يمكن التعويض عنه ، أو إصلاحه ، ما عدا شعلة الحماس الوطني ، وروح المقاومة الوطنية ، لأنَّ محورها وانهارها يعني انهيار الأمة . والإمام الحسين (ع) أوقد شعلة الحماس الإسلامي ، وأحيا روح الإسلام في الأمة من جديد .

يقولون إنَّ الإمام الحسين قد أحيا الإسلام ، وجدد الحياة فيه ، وسقى شجرة الإسلام بدمه . وهذا صحيح ، ولكن كيف وبأية طريقة ؟

نقول : بواسطة إحياء حماسة الإسلام ، بواسطة منح النفوس شخصيتها ، وحريتها ، وغيرتها ، ومثلها كما في جعل الدماء تغلي في العروق ، وتحريك الأرواح . بيت النشاط والعزم ، فيها لتنهض ، وتقاتل الكفر ، والظلم ، والاستبداد .

٢٠ - إنَّ دعوة الإسلام قد بدأت بنداء « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . ودعوة الإسلام كان لها حُسن طالع عجيب حقاً .

فهذه العبارة ورغم قصرها ، لكنها بسبب شمولها واحتوائها لمعاني حرية الإنسان ، وتحرره من أي معبود سوى الخالق ، وتحقير أي معبود مقابل الإنسان ، فإنها في الواقع قد أشعلت روح الحماس في الناس ، ومنحت حسب الشخصية والاستقلال للإنسان :

فإنَّ الإنسان لن يركع بعد اليوم لصنم ، ولا لبشر ، ولا لجرم سماوي ، ولا لأي كائن من الكائنات كلها أبداً ، إلا لرب العباد ، وخالق الكائنات جميعاً .

بالتأكيد استطاع الإسلام أن يهب العرب شخصية كيانية سامية للغاية ، لا تنحصر في شخصيتهم القومية والعربية ، بل أرفع وأسمى من ذلك بكثير إنها الشخصية التوحيدية والإنسانية .

فهو قد حجّم كل شيء في الكون من منظار العبادة والطاعة بينما رفع الله الواحد القهّار وجعله المثل الأعلى .

٢١ - لا بد من دراسة الفرق بين صاحب الشخصية ، وصاحب العلم .

٢٢ - لا بأس من البحث في مسألة المروءة ، فهي من شروط العدالة .

٢٣ - لا بد من استذكار البحوث والنقاشات ، حول استقلال الشخصية الوطنية لشعوب المنطقة ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة في هذا المجال ، في بحوثنا الماضية ، منها قضية زواج المرأة البيضاء من الرجل الأسود في إنجلترا ، والضجة التي أثارت حول هذه القضية ، ثم قضايا أخرى متعددة كقضية تغيير الخط الإيراني إلى الخط اللاتيني ، وتقليد الغرب في عاداته وتقاليده ، وضياح الهوية الإيرانية ، والاغتراب الثقافي ، والروحي ، والاجتماعي ، لشباب العصر الراهن ، مقابل هجمة الاستعمار الثقافي الغربي .

٢٤ - إنّ الاستقلال الفكري يعني حياة أمتنا ، وامتلاكها لمبادئ وأصول ثابتة ، وفلسفة مستقلة في الحياة ، ينبغي احترامها من قبل أفراد الأمة كافة والاعتماد عليها في نهضة البلاد وتقدمها .

وفوق ذلك خلق نوع من العصبية والحساس ، وهو ما يمكن وصفه بالغرور الوطني والاجتماعي تجاهها .

وهذا يتطلب منا أن نكون مستقلين في اختيار نوع اللباس ، ونوع الطعام ، ونوع العُرف الاجتماعي الخاص بنا ، ولا نقع ضحية التقليد والتبعية للآخرين ، في الاسم ، والخط ، والطعام ، والملبس . . . الخ لأنّ قبولنا شعارات الأجانب ، وبرامجهم ، يعني تخليتنا عن روح الحماسة والاستقلال الروحي ، والمعنوي .

وكما يقول (إقبال اللاهوري) : لا بد أن نكون حديدًا أو كالحديد حتى نحصل على الخبز . في حين أنّ فلسفة الغرب تستند إلى قول (موسوليني) الذي يقول : لا بد أن نحصل على الحديد حتى نحصل على الخبز .

إذن (إقبال) يدعونا إلى الحماسة ، والصلابة ، بينما يدعونا (موسوليني) إلى امتلاك القوة .

٢٥ - إنّ امتلاك الحماسة ، والاستقلال الفكري أمرٌ لا يتناقض مع فكرة

اقتباس الأمور الجيدة ، من علوم ، وفنون ، وصناعة ، من الغير ، شرط أن نستوعب كل تلك الأمور ، ونذوّبها في شخصيتنا ، لا أن نذوب نحن في شخصية من نقتبس منهم .

٢٦ - عينا نحن الإيرانيين أننا نستسلم بسرعة لشعارات الأجانب الواهية . ففي الوقت الذي لا نحمل فيه أيّ تعصب تجاه حقائق الدنيا ، لكننا نستسلم بسرعة لشعارات الأجانب الواهية .

فالهندو مثلاً ترى عالمهم الذي يُعدّ من الطراز الأول ، يظلّ متمسكاً بزيه ، ولباسه الهندي (راجع تاريخ العلوم لبيير روسو) .

و« نهر » ، وهو رجل السياسة الهندية ، تراه ظلّ محافظاً على لبس الهندام الهندي ، ليقول للعالم بأنه هندي ، وسيظلّ هندياً ، ولن يقبل بذوبان الهندي في هاضمة العالم الأوروبي .

لكننا في المقابل بمجرد أن رأينا الفرنجة ، قد ربطت على بطونها الزنار ، ترانا ربطنا أبداننا بزنانين ، بدلاً من الواحد .

وهذا يعني بعبارة أخرى أن لدينا استعداداً كاملاً للاستعمار الفكري .

والاستعمار الفكري أعلى درجات الاستعمار ، لأنّ الشخص في هذا الاستعمار لا يحسّ بأنه مُستعمر من حيث إنّهُ صار يُفكر مثل العدو ، ويحسّ إحساسه .

لدينا درجة واحدة فوق الاستعمار الفكري ، وهي الاستسباع الفكري أي عندما يصبح الفرد لاهئاً وراء الحيوان السبع الذي يُريد أن ينهشه .

٢٧ - إنّ قيمة الاستقلال الفكري ، والاعتقاد على الفلسفة الخاصة في الحياة ، واحترام السنن والأعراف ، والنظم الذاتية أئمن وأغلى من العلم .

فالأمة العالمة يمكن أن تذوب في أمة أخرى ، لكن الأمة التي تملك الإرادة المستقلة ، وحس الشخصية ، والكيانية الخاصة ، والاستقلال الذاتي ، لا يمكن أن تذوب في الأمم الأخرى .

وعندما نرى الجزائريين ، والفيتكونغ ، يحاربون الاستعمار الفرنسي والأمريكي ، فإنهم لا يحاربونه لأنهم أمم عالمة ، بل لكونهم يملكون حماسة روحية عالية ، متأصلة في أعماقهم .

٢٨ - استناداً إلى آراء (إقبال اللاهوري) فإنّ هناك عدة عوامل :- هـ - ثبّت الأمم ذات الشخصية الوطنية عن الأمم الفاقدة لتلك الشخصية .

والعوامل التي تقوي تلك الشخصية هي :

أ - العشق والمثل (طبعاً المقصود هنا عشق المبادئ الإنسانية السامية ، وليس العشق الفردي ، والعرقى) .

ب - الفقر (بمعنى الاستغناء) « استغن عمن شئت تكن أميره . . . » .

ج - الغيرة .

د - التحمل والمثابرة والصمود .

هـ - الكسب الحلال .

و - الاشتراك في النشاطات الخلاقية .

وأما العوامل التي تضعف الشخصية فهي :

أ - الخوف .

ب - التسؤل والاستجداء (الطفيلية بأي شكل كانت) فأى توفيق ونجاح ، يحصل دون جهد ، وسعي ، سيكون بالتالي قد تأتى بواسطة نوع من الاستجداء ، والشحاذة .

ج - العبودية والذل بأي شكل أو صورة ، سواء أكان اجتماعياً ، أو سياسياً ، أو اقتصادياً ، أو أخلاقياً .

د - الغرور العرقى أو التفاخر بالأنساب والأعراق ، الأمر الذي يوجد الفواصل ، والثغرات ، بين أفراد البشر وبالتالي يُفقد الإنسان قيمته الذاتية .

٢٩ - هناك قول لإقبال بهذا الخصوص لا بأس من استذكره هنا ومضمونه : « إنَّ أيَّ مجتمع يسعى لتحقيق الاستقرار والسعادة لنفسه ، لا بد له من تنمية الذاتية الجماعية ، والاجتماعية ، بين صفوفه ، والمُضيّ بذلك حتى درجة الكمال ، وهذا لا يحصل إلّا في ظل الحفاظ على العادات والتقاليد وصيانتها » .

وإذا أردنا ملاحظة أهمية الدور الذي لعبته العادات ، والتقاليد ، والأعراف في حياة الجماعات البشرية ، فلا بد لنا من العودة إلى دراسة التاريخ اليهودي .

إنَّ هذه الجماعة الصغيرة قد عاشت طوال القرون ، والعصور الماضية في بلدان العالم كافة وهي تعاني من الضغط والاضطهاد ، من قبل الآخرين ، وقد مرّت بمراحل كادت أن تقضي على أساس وجودها .

لكن هذه الجماعة من قوم يهود استطاعت رغم ذلك أن تخرج سالمة من كل تلك الأعاصير ، وتحافظ على نفسها ، والسبب في ذلك يعود في الواقع إلى أنَّ هؤلاء القوم كانوا أوفياء إلى عاداتهم ، وأعرافهم ، وتقاليدهم ، طوال تلك الأيام العvisية والمحنة التي مروا بها .

إنَّ كل فرقة وجماعة من البشر لا بد وأن تكون لنفسها في مراحل نجاحها وصعودها ، نوعاً من التقاليد والأعراف السليمة ، وإنَّ طريق خلاصها ، وخروجها من مرحلة تكالب الظروف العvisية ، إنما يتمثل في الحقيقة ، في الاستمسك بتلك التقاليد والأعراف ، بانتظار ساعة الانفراج .

إنَّ تعظيم الشعائر الدينية ، والوطنية ، شرط من شروط الحفاظ على الشخصية الوطنية .

وأنَّ شعار « حتمية التحوّل جسماً ، وروحاً ظاهراً ، وباطناً نحو الغرب » والذي يبدو أنَّ البعض يرفعه - ما هو سوى فتوى بفناء الأمة ، وضمحلها ، وذوبانها في هاضمة الأجنبي .

إنَّ هدف الاستعمار هو محو الشخصية والاستقلال الروحي والفكري

لأمتنا ، وليس تركنا جُهلاء ، أو دون أبنية عالية ، أو كهرباء ، أو غير ذلك من وسائل التكنولوجيا .

إنَّ الخسارة الكبرى التي تلحق بالأمم ، هي خسارة الشخصية ، وبأسفٍّ على أمةٍ تكون من مفاخرها أن تتكلم بلغة الأجانب ، وتتأدب بآداب الأجانب . .

٣٠ - هناك قول مشهور للألمان بعد الحرب الثانية وهو القول بأنهم قد خسروا كل شيء في هذه الحرب عدا شخصيتهم .

الخلاصة

لقد قلنا إنَّ الإمام الحسين (ع) استطاع بنهوضه وكفاحه ، أن يُحطِّم قصور الظلم ، ويُجَدِّد الحياة في الإسلام ، ويسقي شجرة الدين ، ولكن بأي نحو؟ من خلال استنهاضه للشخصية المعنوية للمسلمين ، وإحيائه لها ، وبث روح الحماسة في أجسامهم الميتة .

ثم عرجنا في البحث على موضوع الشخصية والفلسفة المستقلة ، لحياة كل أمة ، وضرورة تعظيم الشعائر الوطنية والدينية ، والتي هي ثروة كبيرة لا تُقدَّر بثمن ، وكونها أغلى من العلم .

ثم قلنا إنَّ النبي (ص) قد منح العرب كياناً وشخصية^(١) عالية . كيف ؟

من خلال الدعوة إلى الإيمان بمبادئ الإسلام التي تصنع الشخصية .

إنَّ خسران الشخصية أعلى مراتب الخسران ، وما الخوف ، والعجز ، والعبودية ، والتملق ، والنفاق ، والذل ، والهوان ، وغير ذلك من صفات الوهن ، والانحطاط ، إلا المولود الطبيعي ، لفقدان الشخصية ، وخسارها .

(١) إن ميزة الشخصية تتمثل في عدم ذوبان صاحبها في الآخرين ، وكل نقص قابل للإصلاح والتعويض ، عدا فقدان الشخصية .

إنَّ حركة الإمام الحسين (ع) خلقت الحماسة والغيرة في أمة الإسلام ، وأوجدت الحمية ، والشجاعة ، وروح الكفاح ، في نفوس أفرادها ، وجعلت الدم يغلي في العروق ، ولم تكن شهادة الإمام يوماً سبباً في إيجاد الرعب والوحشة في قلوب الناس ، بل على العكس من ذلك .

والحماسة الحسينية هي صاحبة الفضل في تقوية عوامل ترسيخ الشخصية عند الأمة ، مثل الاستغناء ، والتحمل ، والصبر ، والصمود ، والغيرة ، كما هي صاحبة الفضل في إضعاف عوامل اضمحلال الشخصية ، مثل الخوف ، والرعب ، والعبودية ، والذل ، والاستجداء ، والطفيلية ، والغرور العرقي ، والقومي .



حماسة « سيد الشهداء »

١ - في ورقة البحث « كرامة النفس ، محور الأخلاق الإسلامية » قلنا إنه يوجد مصطلح في عصرنا الراهن يقول : بأن البعض يفتقر إلى روح الحماس ، بينما البعض الآخر يملك تلك الروح الحماسية .

وقلنا إن الحماسة عبارة عن نوع من الإحساس بالشخصية مقابل الآخرين .

هناك أشخاص في هذه الدنيا يفتقرون إلى روح الحماسة تماماً ، وتراهم يحسّون بالحقارة ، والتبعية ، والانكسار ، ولا يحملون في أعماقهم أي فكر ، أو عقيدة ، تستحق الدفاع .

وإذا ما فكروا بالدفاع عن شيء فإنهم يُدافعون عن أموالهم وأنفسهم لا غير ، وكل شيء آخر غير ذلك سواء أكان وطناً ، أو قومية ، أو لغةً ، أو ديناً ، أو مبدأً معيناً ، أو حرية ، أو كرامةً ذاتية ، لا يعتبرونه يستأهل الدفاع ، أو حتى التعلّق والارتباط به .

ولا يمكنك أن تجد في مثل هؤلاء الأشخاص أيّ تبلور للشخصية ، فهم أشبه ما يكونون ، بالحيوان الذي تعلّم النطق .

ولكن في مقابل أولئك ترى البعض الآخر ممن يملك إحساساً بالشخصية في نفسه ، وترى نوعاً من الحماس في روحه .

فمثلاً كانت الأمة الألمانية تحمل حماسة « الألمان فوق الجميع » ، وكذلك كان حال العرب حيث كانوا يحملون حماسة تفوق العرب على غير العرب ، وهي الفكرة التي حاربها الإسلام .

وبشكل أو بآخر هناك نوع من الحماسة لدى كل قوم ، أو ملة .

بالطبع من وجهة نظر الإسلام ، فإن الحماسة القومية هي حماسة مذمومة ، لكن هناك نوع آخر من الحماسة ، هو الحماسة الإنسانية ، وإذا ما تعصب لها الإنسان ، فإن التعصب هنا يكون تعصباً ممدوحاً ، وهذه الحماسة هي حس الكرامة ، والتحرر ، وعزة النفس ، وعدم الرضوخ للعار ، ورفضه .

٢ - هل هناك آيات قرآنية تشير إلى الحماسة ؟

نعم فهناك الآية : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) والآية الكريمة : ﴿ وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾^(٢) .

إن الحماسة بشكل عام ، نوع من التوجه نحو الكيفية المعنوية للحياة ، لكن بعض هذه الكيفيات ، كصفات موهومة ، وفاقدة للأساس المنطقي ، مثل القول « بأن الألمان إما أن يُعدموا من الوجود ، أو يسودوا على العالم » .

وكذلك حال سائر الشعارات الحماسية المعبرة عن الأفضلية العرقية ، أو حب السيادة والسيطرة ، غير أن ذلك لا يمنع من وجود كيفيات واقعية تدعو إلى عدم خضوع مصائر الأفراد والجماعات إلى الآخرين ، بل أن يصبح الفرد الإنساني حراً كما خلقه الله : « وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ خَلَقَكَ اللَّهُ حُرًّا »^(٣) . وأن لا يُلَوَّث الإنسان نفسه بالكذب ، والغيبة ، وخيانة الآخرين .

(١) سورة المنافقون : الآية ٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤١ .

(٣) نهج البلاغة الرسالة ٣١ . من رسالة الإمام علي (ع) إلى ابنه الحسن .

٣ - وقد ورد في « نفس المهموم » (ص ١٨٧) بيت شعر يُنسب إلى الإمام الحسين سيد الشهداء (ع) جاء فيه :

وإن تَكُنْ الدُّنْيَا تُعَدُّ نَفِيسَةً فدارُ ثوابِ الله أعلى وأنبلُ



القسم الثامن

ملاحظات حول عامل التبليغ

في النهضة الحسينية

عامل التبليغ في النهضة الحسينية

١ - إن النهضة الحسينية نهضة متشابهة^(١)، وذات وجوه عميقة ، ولها عدة جوانب وأبعاد ، وإنّ أحد وجوهها وأبعادها هو عنصر التبليغ .

فهي امتناع وتمرد وعصيان ورفض (من ناحية رفض المبايعة ليزيد) ، وهي جهاد ، وهي أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، وهي إتمام للحجة (من ناحية الدعوة الكوفية) ، وهي تبليغ أي إبلاغ نداء الإسلام ، ورسالته إلى العالم والعالمين .

٢ - توجد مشاكل في طريق إيصال رسالة الإسلام في العصر الحديث حيث آلاف الرسائل والدعوات الموجهة من آلاف المراكز والنواحي - الجنسية ، والشهوانية ، والاقتصادية ، إلى المراكز الفكرية والسياسية - والمحيطية بالناس من كل جانب .

(١) قلنا « متشابهة » استناداً إلى ما حققه السيد الطباطبائي ، والمتعلق بشكل أساسي بمعاني الطول ، والبطون ، كالقول بأن القرآن عبارات ، وإشارات ، ولطائف ، وحقائق ، العبارات للعوام والإشارات للخواص واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن النهضة الحسينية في الواقع نهضة عامة شاملة - جامعة - وكلما هي الكلمات بعضها جامع ، وبعضها غير جامع ، كما قال الرسول الكريم (ص) « أوتيت جوامع الكلم » فإنّ النهضات أيضاً ، والحركات ، بعضها له عدة معانٍ ، وبعضها الآخر ذو معنى واحد .

٣ - إنّ الحرب الدعائية اليوم بحاجة إلى تنسيق للقوى ، ومهارة عالية ، وتكتيك ، ومجابهة منظمة ، وقيادة ، وانضباط .

٤ - ولأنّ الدعاية اليوم تأخذ طابع الحرب فإنّ مبدأ ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ينبغي أن يكون هو الحاكم .

لكن من الطبيعي أن يكون التبليغ بين الناس بشكل مُحَبَّب وجذاب ، بينما العمل في صفوف الأعداء ، وفي مواجهة الدعاية المضادة ، هو الذي يأخذ طابع الحرب .

٥ - هناك أربعة شروط لنجاح أية رسالة :

أ - غنى واقتدار مضمون الرسالة (الغنى المنطقي ، والعاطفي ، والعملي) وبعبارة أخرى احتواء الرسالة على قوة الجذب الكافية للعقل ، وللقلب ، وقدرتها على حل المشاكل ، والقضايا المستعصية في الحياة .

وهنا بالذات ينبغي العثور على السر الأساسي وراء تقدم الإسلام بالرغم من عدم امتلاكه لجهاز الدعاية والتبليغ مقابل المسيحية ، والأقليات المذهبية ، مثل اليهودية ، وفرقة البهائيين الجوفاء .

ب - حيازة الإمكانيات اللازمة ، من وسائل ، وأدوات ، ووسائل الدعاية الحضارية ، مع الأخذ بعين الاعتبار ، الشروط ، والظروف الاجتماعية المحيطة ، دون تردد .

ج - استخدام منهج التبليغ مقابل منهج التحقيق ، ومنهج التعليم (تعليم المسائل والقضايا العلمية ، بينما التبليغ يقتصر على الأهداف الاجتماعية ، والمعنوية) والتعلّم ، واستغلال الأدمغة المفكّرة ، والذكىة ، بالإضافة إلى امتلاك مواهب الإدارة ، وعلم المكتبات ، والأرشفة ، وغيره .

د - توفر الصلاحية الفنية ، والأخلاقية ، لحامل الرسالة .

٦ - إنّ العامل الأساسي في نجاح التبليغ في القضية الحسينية ، هو في عدم اعتبار عامل امتناع الحسين عن المبايعة ليزيد ، باعتباره العامل الوحيد ، بل

ينبغي دمج هذا العامل مع العاملين الآخرين ، وهما : إجابته عليه السلام للدعوة الكوفية بهدف السعي لامتلاك زمام الأمور ، ومن ثم عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وبالطبع فإن فترة ما بعد سقوط الكوفة ينبغي التركيز ، عند الإشارة إليها ، على عامل الأمر بالمعروف أثناء التبليغ .

إنّ قرار خروج الإمام من المدينة نحو مكة ، والإقامة في الحرم الإلهي في أشهر شعبان ، ورمضان ، حتى ذي الحجة ، والتي تقع فيها أيام العمرة ، وثم الحج ، لا يبدو أنه جاء نتيجة تصوّر الإمام بحصول الأمن ، واحترام العدو لهذا الأمن الإلهي ، بقدر ما يكون السبب في عوامل أخرى هي :

أولاً : اعتبار نفس عملية الهجرة ذات قيمة تبليغية عالية ، تهز النفوس ، مما شكّل منها فرصة سانحة لإيصال نداء الإمام ورسالته ، وهذا أول عرض ، وإبراز ، لمخالفة الإمام ، وامتناعه عن البيعة .

وثانياً : كانت مكة في تلك الأشهر ، تُشكّل مجالاً واسعاً للاتصال ، واللقاء ، بأكبر عدد من الأفراد والجماعات ، من نواحي البلاد الإسلامية المختلفة .

وثالثاً : إن اختيار مكة نفسه ، كان يعني فقدان الأمن بالنسبة للإمام ، وبالتالي سيوحي بعدم وجود الأمن له حتى في مكة نفسها .

٧ - ثم إنّ خروج الإمام من مكة في يوم التروية أي في الثامن من ذي الحجة ، وهو اليوم الذي ينطلق فيه الحجاج نحو منى وعرفات ، كان له أثر تبليغي هام وعنيف ، أقوى حتى من الإقامة في مكة .

ثم إنّ إدارة ظهر الإمام للكعبة المُسَخَّرة ، بيد الأمويين ، والحج الذي تُديره الأجهزة اليزيدية - وهو الحج الإسلامي ظاهراً ، والجاهلي روحاً - أثبتت كعملية تبليغية رائعة ، بأنّ الإسلام الحقيقي ، هو ليس ذلك الإسلام المعروض آنذاك ، لإسلام الجمود ، والاعتكاف ، والركود ، بل هو ذلك الإسلام المعنى والحقيقة ، والذي قد أصبح في خطر ، ولا بد من القيام أجله .

٨ - العرض التبليغي الثالث الذي قدّمه الإمام (ع)، بل قل التكتيك التبليغي، هو حملهُ لأهله، وعياله، وأولاده، في القافلة الحسينية، وبهذه الطريقة يكون قد استخدم العدو استخداماً غير مباشر، من خلال فرض هؤلاء الناس، كحرية تبليغية، ورُسُل دعاية للإسلام الحسيني، ضد يزيد والإسلام اليزيدي، وهذا العمل واحد من أهم العناصر التبليغية في حركة الإمام (ع).

٩ - التكتيك التبليغي الرابع للإمام كان في تعامله بكل مروءة، وإنسانية، وروح مترفعة، طوال مدة المواجهة بين الجيشين - وذلك من لحظة المواجهة الأولى إلى يوم العاشر من محرّم - وخير مثال على ذلك سقي جيش العدو بالماء، وعدم الشروع بالحرب ضدهم.

١٠ - التكتيك الخامس للإمام، كان في خلقه وإيجاده لمشاهد أكثر مساعدة، لإيصال رسالته التبليغية، وذلك من خلال صبغ المشاهد الحساسة للمعركة بلون الدم القاني، كرميه دم الرضيع نحو السماء، وقوله عليه السلام: «عند الله احتسبه». ومن ثم تخضيب وجهه ورأسه بذلك الدم، وقوله بأنّه يُريد لقاء الله بتلك الحالة.

وإلى جانب ذلك يمكن ذكر مشاهد عناق الإمام للقاسم، ولحبيب بن مظاهر، وكيفية تشابه هذه الحركة التبليغية بالآثار المترتبة على الإيقاعات الفنية، للآيات القرآنية.

١١ - إنّ ما يُلهمنا في مسيرة النهضة اليوم، ليست أقلام أولئك الذين شرحوا تعاليم الإسلام على الورق، بل هي أقلام أولئك الذين كتبوا لنا بواسطة دمائهم الخطوط البارزة للإسلام على جباههم، وأبدانهم، ورؤوسهم (وقُتل في محرابه لشدة عدله)، وسجّلوا لنا تلك التعاليم على كل شعرة من بدنهم المقدس، وفوق صدورهم، وقلوبهم، وعلى جباههم المتكسرة، وأسنانهم المتناثرة، وعروق رقبتهم النازفة.

وكم هو خطأ كبير أن نقوم بالتقليل من أهمية، وقيمة الشهيد والشهادة، من خلال الاستناد إلى عبارة «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء».

نعم ، فالتاريخ المُلهم لنا اليوم ، ليس تاريخ تلك الأفلام ، إنه تاريخ تلك التضحيات العظيمة ، وتلك الدماء المُرَاقَة ، والوقائع والآثار التاريخية النورانية .

فرسالة الإسلام لم يسمعها العالم إلا من خلال مسيرات الجهاد ، والهجرة ، والتضحية ، والفداء ، والعطاء .

١٢ - الظاهر أن أبا عبد الله (ع) ، كان قد تعمّد إبراز دموية المشهد الحسيني ، وصبغه باللون الأحمر القاني - وكما يقول المرحوم آيتي - فإنه بسبب كون اللون الأحمر ، اللون الأكثر ثباتاً من سائر الألوان ، أو على الأقل الأكثر رونقاً .

لذلك ترى أن نوعاً من التلوين المتعمد للمشهد الحسيني قد حصل يوم عاشوراء . وإلا كيف نُفسر ارتفاع حرارة الخطابات الحسينية ، بعد فقدان أي أمل بالانتصار تماماً ، وتطور الأمور نحو المواجهة المُحتمة ؟

أو كيف نُفسر عدم السماح لأهله بالعودة من حيث أتوا بل تشويقهم إلى الشهادة ؟

أو كيف نُفسر استنصار الإمام لجيشه ، وطلب مزيدٍ من المتطوعين للشهادة ، من خلال قبوله لنزول الحرّ إلى الميدان ، وإرساله لحبيب بن مظاهر إلى بني أسد ، بهدف تعزيز القوات الحسينية ؟

١٣ - قيام الإمام ببعض الحركات العجيبة المؤدية إلى صبغ الأحداث بالدم مثل :

أ - في (إِبصار العين الصفحة ١٥) : وبعد استغاثة النساء ، وبُكائهم ، وتوجهه إليهم لإسكاتهم : « وأخذ طفلاً له من يد أخته زينب ، فرماه حرملة ، أو عُقبة بسهم ، فوقع في نحره (نحر الطفل) فتلقى الدم بكفّه ، ورمى به نحو السماء ، وقال : هُوَ عليّ ما نزل بي ، أنه بعين الله » .

ب - ص ١٥ : « ثُمَّ جَرَّد سيفه ، فجعل يَنْقُفُ الهام ، ويُوطِئُ الأجسام ؛ ورماه رجل من بني دارم بسهم ، فأثبته في حنكه الشريف ،

فانتزعه ، وبسط يديه تحت حنكه ، فلما امتلأتا دماً ، رمى به نحو السماء ، وقال : « اللهم إني أشكو إليك ، ما يُفعل بابن بنت نبيك ! » .
ج - ص ١٦ : « وَجَعَلَ يَنْوُءُ بِرَقَبَتِهِ (بِرَكْبَتِهِ) ، وَيَكْبُو ، فَطَعَنَهُ سِنَانٌ فِي تَرْقُوَتِهِ ، ثُمَّ انْتَزَعَ السِّنَانَ ، فَطَعَنَهُ فِي بَوَاقِي صَدْرِهِ ، وَرَمَاهُ سِنَانٌ^(١) ، أَيْضاً بِسَهْمٍ ، فَوَقَعَ فِي نَحْرِهِ ، فَجَلَسَ قَاعِداً وَنَزَعَ السَّهْمَ ، وَقَرْنَ كَفَيْهِ جَمِيعاً حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ دِمَائِهِ ، فَخَضَبَ بِهَا رَأْسَهُ وَلَحِيَّتَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : هَكَذَا أَلْقَى اللَّهُ مُحَضَّباً بَدْمِي ، مَغْضُوباً عَلَى حَقِّي ! » .

١٤ - لقد قلنا إنه كما القرآن الكريم ليس بالشعر ، لكنه يحتمل الإيقاعات الموسيقية ، وبألحان مختلفة ، وذلك بشكل يتناسب فيه كل لحن مع آية من الآيات ، ومع معاني تلك الآيات - وهو ما بينه طه حسين في « مرآة الإسلام » - فإن واقعة كربلاء هي الأخرى ، تحتمل الإيقاعات المسرحية ، أي إنها تحمل في داخلها استعداداً للتحوُّل إلى مسرحية ، فهي وبالرغم من كونها واقعة طبيعية وواقعية - حقيقية - لكنها بتسلسل وقائعها على الطبيعة ، تُعطي الانطباع ، وكأنها إنما أُعدَّت لتمثَّل بشكل مسرحية .

أما الآن فإننا نضيف القول بأن هذا الانطباع المتكون عن حادثة كربلاء إنما سببه في الواقع ناتج عن شيء آخر ، وهو أنه كما يبدو ، فإن المطروح في حادثة كربلاء هو إظهار الإسلام وإبرازه بأبعاده وجوانبه كافة .

وبعبارة أخرى فإن المقصود هو تجسيم الإسلام وبلورته عملاً وواقعاً ، أي تطبيقه على أرض الواقع - وليس ظاهرياً ومن أجل العرض المسرحي - .

نعم فمسألة تجسيم الفكر وتجسيده تُعبّر أحياناً عن محض دور ، يُلعب في هذا الاتجاه ، وشكل وصورة يتم عرضهما ليس أكثر ، أي تجسيد من دون روح وذلك باستخدام الخيال أداةً للتجسيد ؛ ومثال ذلك ما ينقله لنا السيد راشد من خلال رؤيته لأحد التعابير في أحد المتاحف الغربية المتمثِّل بعرض تمثالين متجاورين ، أحدهما لفتاة جميلة فوق العادة وهي نائمة على السرير ، وإلى جانبها

(١) لا يستبعد أن يكون « سنان » هنا قد ورد خطأ وأن المقصود هو « دارمي » .

شاب يبدو وكأنه قد نزل لتوّه من على السريّر ، وقد ألقى بنفسه بعيداً عن تلك الفتاة ، وهو بحالة نفور منها .

ويبدو أنّ المراد عرضه من خلال التمثالين هو : فكر أفلاطون ، الذي يقول بتحوّل العشق ، أيّ عشق ، إلى اشمئزاز وتنفر ، بعد حصول الوصال بين العاشق والمعشوق .

نعم مثل هذا التجسيد للفكرة يُقال له تجسيد من دون روح ، أي تجسيد ميّت وجامد .

بينما التجسيد الحاصل في الإسلام ، للأفكار والمبادئ ، إنّما هو ذلك التجسيد الحي والواقعي .

وما حادثة كربلاء إلّا تجسيد للإسلام بكل أبعاده وجوانبه كافة لكنه تجسيد مفعّم بالحيوية ، والروحية المتعالية .

إنّ واقعة الإمام الحسين (ع) ، يبدو أنها جاءت لتعبّر عن عرضٍ مسرحي ، حماسي ، ونهضوي ، ومأساوي ، ووعظي ، وتبلور للعشق الإلهي ، والمساواة الإسلامية ، والعواطف الإنسانية ، وكل ذلك في أعلى أوج ممكن ، وبواسطة مختلف صور الأبطال : الشيخ والشاب ، المرأة والرجل ، الحر والعبد ، الراشد والطفل الرضيع ، مع تصوير لكل أبعاد الإسلام .

فهي واقعة أرادت التعبير عن التوحيد ، كما عن العرفان والعشق الإلهي ، والتسليم والرضا ، والتضحية في سبيل الله ، أملاً بنيل الحق ، في نفس الوقت الذي حملت فيه جانب الاعتراض والتمرد العنيف ، ومساندة المحرومين ، بالإضافة إلى التعبير عن حماسة أخلاقية ، وإنسانية ، وشجاعة ، وحكمة ، ووعظ ، ومساواة إسلامية ، وتجلٍ رفيع وسامٍ ، للعواطف الأخلاقية والإسلامية .

فمثلاً يمكن رؤية الإيثار في قصة تضحيات أبي الفضل العباس (ع) ، واندفاعه المنقطع النظير في الفداء ، والعطاء ، وهكذا سائر الأمثلة الكثيرة .

وهذا هو المعنى المقصود من شمولية النهضة الحسينية وجامعيتها .
فهي نهضة جامعة وشاملة لتعاليم الإسلام الأساسية كافة من ناحية
الأهداف ، والغايات المرفوعة .
وهي ثانياً جامعة وشاملة لكل الأدوار الممكنة من ناحية أبطال الواقعة
ورؤاها .

بالطبع هناك الكثير من الشعراء والكتاب ، أو المفكرين الإسلاميين الذين
قاموا بعرض جوانب مختلفة للنهضة الحسينية ، ونحن بدورنا لا يجوز أن ننفي
الجوانب التي ركّز عليها البعض أحياناً ، كالجانب المأساوي والحزين ، أو
عرضهم لجانب المظلومية في الحركة الحسينية ، لكننا نقول إنّ كل ذلك صحيح
شرط أن يُنظر إليه في سياق الشمولية والجامعة ، التي تطبع حركة النهضة
الحسينية ككل ، مما يجعلها حركة توحيدية كاملة ، جامعة لكل الدرجات
والمراتب .

مثال البُعد التوحيدي والعرفاني

« رضا الله رضانا أهل البيت رضاً بقضائك وتسليماً لأمرك ، لا معبود
سواك ، يا غياث المستغيثين » .

وهو إشراق مُنير لوجه أبي عبد الله في اللحظات الأخيرة من عمره
الشريف .

إلى جانب حديث الإمام السّجاد عليه السلام وهو يصف بعض
الأصحاب .

وكذلك الروحانية الخاصة في ليلة عاشوراء أو ما اصطلح على تسميته
بالمعراج الحسيني .

وأيضاً صلاة يوم عاشوراء - عند الظهر - وقوله عليه السلام عند اشتداد
المصائب : « عند الله أحْتَسَبُ . . . » .

مثال التمرّد

« ألا وإنّ الدعي ابن الدعي . . . » .

مثال البُعد الحماسي ، ومظاهر المروءة ، والشرف

« الموت أولى من ركوب العار » و« هيهات منا الذلة » وكما يقول ابن أبي الحديد : « سيّد أهل الإباء ، أباة الضيم » . أو « لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أفرّ فرار العبيد » . و« ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين ، فكُونُوا أحراراً في دُنياكم » . و« لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برماً » . . . الخ .

مثال البُعد الأخلاقي

أ - المروءة ، ومثالها البارز في تقديم الماء لجنود العدو ولخيله ، ثم قبول توبة الحر ، إضافةً إلى عدم استعداده لأن يكون البادىء برمي السهام . وعدم رميهم السهم نحو شمر بن ذي الجوشن ، بالرغم من معرفتهم بنيته ، لكنه عليه السلام أراد أن يفعل كما فعل أبوه علي (ع) مع ابن ملجم . . .

ب - الإيثار : قصة الأنفار الثلاثة ، أو العشرة في حرب مؤتة . ومقابلها قصة إيثار أهل البيت ، وسورة الدهر ، وإيثار أبي الفضل العباس (ع) .

ج - الصداقة والصراحة في التعامل .

د - الوفاء : ومثال ذلك قول عمر بن قرظة ، وهو في طور الاستشهاد لإمامة الحسين (ع) : « أَوْفَيْتُ ؟ »^(١) .

(١) نفس المهموم ص ١٤٠

مثال بُعد الموعظة

وهو البُعد الذي يظهر من خلال أمثلة كثيرة ، من جملتها : حُطِبَ أبي عبد الله نفسه كقوله : « الناسُ عبيد الدنيا ، والدين لَعَنُ على ألسنتهم . . . » إلى جانب أقواله ، وتوجيهاته ، وردوده المختلفة . هذا بالإضافة إلى مواعظ (رُهير بن القين) و (حنظلة الشامي) وغيرهما .

مثال المبادئ الاجتماعية ، والمساواة الإسلامية

ويمكن الاكتفاء هنا بذكر قصة (جَوْن) مولى أبي ذر الغفاري ، البليغة :
« فوقف عليه الحسين عليه السلام وقال : اللهم بَيِّضْ وجهه ، وطَيِّبْ رِيحَه ، واحشُرْهُ مع الأبرار ، وعَرِّفْ بينه وبين محمد وآله »^(١) . بالإضافة إلى قصة الغلام التركي^(٢) .

١٥ - أرضية التبليغ التي برزت بعد استشهاد الإمام ، والأصحاب ، والأنصار ، وبعد وقوع الفاجعة ، وتراجع أحاسيس العداوة ، والحقْد الأعمى ، والطمع ، وظهور إحساسات العطف ، والترحم محلها ، وبروز جانب المظلومية ، مما ساعد على نشوء ظروف مستحدثة أمكن استغلالها جيداً ، للتبليغ ضد الطرف المعتدي من جهة وإبراز جانب الحقيقة ، وتمزيق ستائر الظلمات والنفاق ، والدعاية المضادة ، والمُزَوَّرَة ، للطرف المقابل من جهة أخرى ، وهو ما جرى على أهل بيت أبي عبد الله (ع) بعد استشهادِهِ .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « إِنَّ الفتن إذا أقبلت شَبَّهَتْ ، وإذا أدْبَرَتْ نَبَّهَتْ »^(٣) .

نعم فالإنسان الذي يعيش وسط الفتنة ، وفي خضم أحداثها ، لا يستطيع

(١) نفس المهموم ص ١٥٥ .

(٢) نفس المهموم ص ١٥٦ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٩٢ .

أن يرى خطوطها جيداً ، ولا يتمكن بالتالي من كشفها ، وتبيان أخطارها على أحسن وجه .

في حين أنّ المشاهد والمراقب لها عن قُرب ، يستطيع كشف حُجبها ، أفضل وأحسن ، لا سيما بعد انتهاء فصولها .

وهكذا نرى إنّ أرضية كشف تلك الحُجب ، وتنوير الأذهان المشوشة ، تصبح أفضل من وقت وقوع الفتنة ، وبالتالي فإن الدور الأساسي في الدعاية والتبليغ ، تراه يقع على عاتق أهل البيت ، والأسرى ، بعد الواقعة .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرين :

أ - انطلاقاً من إيماننا بصحة الروايات المتواترة عن أئمتنا ، وتأسيساً على عقيدتنا الخاصة بوجود الارتباط والاتصال الروحاني بين الإمام ، وبين عالم الغيب الحقي ، فإننا نعتقد بعصمة الإمام ، وأنه لا بد لكل عمل يقوم به عليه السلام ، من حساب ، ومن كتاب ، فهو إذاً لا يخطيء ، ولا يترك الأمور ، للصدفة والاتفاق .

من هنا نعتقد بأنّ أخذه عليه السلام الأهل ، والعيال ، والأطفال معه ، في تلك الرحلة المليئة بالمخاطر ، وفي نفس الوقت الذي كان عقلاء القوم ينصحونه بعدم الانطلاق بتلك الرحلة ، حفاظاً على نفسه ، وحياته ، وحياة أهل بيته ، بل وإصراره على الاستمرار بالرحلة ، حتى بعد سماعه لخبر مقتل مسلم بن عقيل .

وحتمية وقوع المواجهة بينه وبين الأعداء .

وعدم تفكيره بإعادة أهل البيت إلى المدينة ، ما دامت الأمور قد وصلت إلى تلك النقطة الحرجة .

كلها أمورٌ محسوبة ومدروسة جيداً من قبل الإمام .

وقد ورد في الروايات أيضاً بأنّ النبي (ص) قال للحسين (ع) : « إنّ الله شاء أن يراك قتيلاً ، وإنّ الله شاء أن يراهنّ سبايا » .

وبالطبع فإن المعنى الذي كان يُستنبط من هذا الكلام آنذاك ، هو الإرادة التشريعية ، وليس الإرادة التكوينية .

فالمقصود من الإرادة التكوينية هو القضاء والقدر الإلهيان .

بينما المقصود من الإرادة التشريعية رضا الله ومصالحته ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾^(١) .

وبالتالي فإن حمل أهل البيت ، والعيال ، والأطفال ، حسب منطق الروايات ، كان أمراً يقوم على المصلحة الإلهية ، وهو أمر لا يمكن لأمثال ابن عباس أن يدركوه .

ب - الأمر الثاني : وهو قضية دور المرأة في التاريخ ، والأدوار الثلاثة التي لعبتها ، أو كان بإمكانها أن تلعبها فيه .

فمرةً كان يمكن لها أن تكون بمثابة الشيء الثمين ، وبالتالي فهي وجود سلبي محض ، وفي عداد القاصرين الذين لا دور لهم في الحياة ، ومثلهم مثل الأشياء الثمينة الكثيرة في هذه الدنيا .

وهذا المنطق يمكن أن يكون هو منطق أولئك الذين يُريدون للمرأة أن تُحجز في البيت ، ويقتصر دورها على الولادة والرضاعة ، وخدمة الرجل ، من دون أن تأخذ مداها في الرشد ، والنمو الطبيعي لإمكاناتها ، واستعداداتها الروحية .

ومن دون أن تتقدم على صعيد التعليم ، والتربية الواقعية ، ومن دون أن تُنمي شخصيتها وكيانيتها الخاصة .

وطبقاً لهذا المنطق فإن المرأة الأفضل ، والأثمن هي المرأة الأكثر ابتعاداً عن العلم ، والفن ، والمعرفة ، والإرادة الحرة ، وهي أفضل وأثمن أكثر كلما كانت أكثر إسارةً ، وتبعيةً ، وافتقاراً لأي نوع من أنواع الإبداع والخلاقية .

أي أنها كلما كانت تفتقر أكثر من غيرها إلى تلك العناصر الأساسية في

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

شكيل الشخصية الإنسانية : وهي المعرفة ، والحرية ، والإبداع ، كلما كانت أفضل وأثمن .

ولكن في هذه الحالة تكون المرأة ليست أكثر من لعبة وأداة ترفهية للرجل الفرد ، لكنها ليست لعبة ترفهية للمجتمع طبعاً^(١) ؟!! .

ولكن الدور الثاني الذي يمكن أن يوضع للمرأة هو : في النظر إليها من دون وضع أي تفاوت ، أو تمايز بينها وبين الرجل ، أي مع الأخذ بعين الاعتبار الحرمة الخاصة للمرأة التي تُميّزها عن الرجل فلا نضعها وسط المجتمع ، ونستغل وجودها أشد الاستغلال ، كعنصر مساوٍ للرجل تماماً .

وهذا يعني رفع الحرمة تماماً ما بينها وبين الرجل . وفي هذه الحالة تكون المرأة قد عوملت معاملة شخص لا شيء ، وقد أدّت دوراً في التاريخ حقاً .

لكنها تصبح عند ذلك بمثابة شخص غير ثمين (رخيص) ، قام بلعب دور مفسدٍ في التاريخ .

بعبارة أخرى ربما تكون المرأة في الحالة الأولى قد لعبت دوراً عزيزاً ، ومحبوياً ، وثمانياً ، لكنها أصبحت بالمقابل عنصراً ضعيفاً ، وهزياً ، وبالتالي أشبه بالشيء الثمين .

وأما في الحالة الثانية فصحيح أنها أصبحت « شخصاً » ، ولكنها شخص لا قيمة له .

وأما الدور الثالث ، أو المدرسة الثالثة ، فإن المطلوب هنا هو أن تصبح المرأة «شخصاً ثميناً» . وهذا يحصل من خلال التزامها بشيئين أو بأمرين :

أولاً : من خلال سعيها الدائم لتنمية استعداداتها ، وإبداعاتها الخاصة الإنسانية ، أي علمها ، وإرادتها ، وقدراتها ، وخلاقيتها ، وإبداعاتها الفنية والأخلاقية .

(١) في كل دولة غير إسلامية يجب أن تكون المرأة كذلك لإعطائها كل الفرص الممكنة لإنشاء الأجيال اللاحقة أداة التغيير من الظلم إلى العدالة .

وثانياً : من خلال ابتعادها عن الابتذال ، واجتنابها لدور البضاعة الاستهلاكية والاستغلالية ، لدى الرجل والمجتمع .

إذاً، من خلال تنمية الاستعدادات ، وحفظ الحرمة الخاصة ، وفي هذه المدرسة ، تكون القاعدة في عمل المرأة هي حفظ الحرمة ، والابتعاد عن العزلة والحبس ، كما عن الاختلاط والابتذال .

من هنا يمكن أن يكون التاريخ مرةً عبارة عن تاريخ المذكر - الرجل المحض وأخرى قد يكون تعبيراً عن تاريخ اختلاط الجنسين ، ولكنه اختلاط فاسد ومنحط .

إلا إنه يمكن أن يكون مرةً ثلاثة تاريخاً للمذكر والمؤنث معاً ، وسوياً ، ولكن بالشكل الذي يبقى فيه الرجل ضمن دائرته ومحيطه ، وتبقى المرأة فيها ضمن دائرتها ومحيطها .

إذن قد تكون المرأة أحياناً عاملاً غير مؤثر في التاريخ ، وأحياناً أخرى قد تكون عنصراً مؤثراً ، ولكن مختلطاً مع الرجل ، أو بالأحرى لعبة بيد الرجل . ولكن يمكنها أن تكون ثلاثة عاملاً مؤثراً ومفيداً ، ولكن ضمن إطارها ، ومدار عملها المقدس .

إن المرأة في التاريخ الديني ، حسبنا نفهمه ونستنبطه من القرآن الكريم ، تُشكّل عاملاً مؤثراً في التاريخ .

أي إن التاريخ الديني القرآني تاريخ مذكر مؤنث - بالأحرى إنساني - بمعنى الحفاظ على مدار كل من الرجل والمرأة - وذلك يمكن أن نسميه تاريخ - المذنث - أو الزوج .

ولقد تعرضت لهذا الموضوع بالتفصيل في كتابات لي بعنوان « المراه في القرآن »^(١) ، .

(١) سيتم نشر هذه الأفكار ضمن سلسلة الأوراق والمذكرات العامة التي ستنتشر للأستاذ الشهيد .

وإن واقعة كربلاء في الواقع عبارة عن تاريخ « إنساني » أي تاريخ الزوج وليس تاريخ الفرد . أي « مذنت » لا مذكر لوحده ولا مؤنث لوحده ، بل لعب المذكر والمؤنث دورهما معاً وسوياً .

ونحن نعتقد أنه من غير الممكن للمرأة أن تلعب دوراً مستقلاً ومؤثراً في التاريخ إذا ما ظلت عبارة عن وسيلة ، أو بضاعة ، أو سلعة جميلة تُباع وتُشترى ، وتُبدل في سبيلها كل أدوات التجميل ، ووسائل المتعة ، من أجل عرضها للرجل ، ولا سيما للعموم .

وهنا لا بد من التذكير بأننا لا نريد إنكار دور المرأة غير المباشر في صناعة التاريخ ، من خلال تربيتها للرجل ، وإعدادها لجيل الرجال ، سواء الابن أو الزوج ، والذين هم بدورهم مُساهمون في صناعة التاريخ ، فهذا أمر متفق عليه لكننا نبحث هنا في دور المرأة المباشر .

إن القرآن الكريم وهو يذكر الرجال الصادقين والقديسين ، في آياته الكريمة ، تراه يذكر إلى جانبهم النساء الصديقات والقديسات ، بل وأحياناً تراه يمنحهن دوراً ، وصفة ملكوتية ، أكثر من الرجل .

ومثال ذلك العجب الذي يُصيب زكريا تجاه مقام مريم وهكذا موقع كل من حواء وسارة ، وهاجر وآسية ، وأم موسى وأخته ، ومريم والسيدة الزهراء فاطمة ، وهي كثرة النساء الصديقات في القرآن الكريم ، إضافة إلى خديجة التي هي بمثابة قديسة تاريخ الإسلام .

والقرآن الكريم تراه يُكرر في أماكن متعددة ذكره للعنصرين بقوله : المؤمنين والمؤمنات ، المهاجرين والمهاجرات ، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصالحين والصالحات . . .

في بعض المذاهب والتعاليم القديمة ، تظهر المرأة ، وتُبرز على أنها عنصر ضال ومضلل . وأن ابتداء ضلال الإنسان ، وانحرافه ، إنما يبدأ من خلال إغواء الشيطان لحواء ، التي تقوم هي بدورها في إغواء آدم .

لكن القرآن الكريم يدحض هذه النظرية بكل صراحة ووضوح ، ولا يقبلها مُطلقاً .

١٦ - في خطبة زينب عليها السلام ، نجدُ في المجموع عدداً من الموضوعات المطروقة هي :

أ - العتاب :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل ، والغدر ، والخذل ! ألا فلا رَقَاتِ العبرة ، ولا هدأت الزفرة ، إنما مثلكم . . . هل فيكم إلا الصلف والعجبُ . . . ؟ » .

ب - تنبيههم إلى أخطائهم :

« فابكوا فإنكم أحرىء بالبكاء ، فقد بليتُم بعارها ، ومنيتُم بشنارها ، ولن ترحضوها أبداً ، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، وملاذ حربكم ، ومعاذ حزبكم ، ومقر سلمكم ، وآسى لحلمكم ، ومفزع نازلتكم ، والمرجع إليه عند مُقاتلتكم ، ومُدرة حُججكم ، ومنار محجتكم » .

ج - تحريك عواطف المعسكر الآخر إزاء ما فعلوه مع النبي :

« ويلكم ! أتدرون أيّ كبدٍ لرسول الله فريتُم ، وأيّ عهدٍ نكتُم ، وأيّ كريمةٍ له أبرزتم ، وأيّ حُرمةٍ له هتكتُم ، وأيّ دمٍ لهُ سفكتُم » .

وما لهذا العمل المُفجع من أثر عظيم :

« لقد جئتم شيئاً إداً ، تكادُ السموات يتفطرن منه . . . » .

د - النعمة الإلهية المتوقعة :

« فلا يستخفّكم المهل ، فإنه عزّ وجل لا يحقره البدار ، ولا يُخشى عليه فوت الثار ، كلاً إن ربك لنا ولهم بالمرصاد » .

١٧ - عند حديثنا عن شروط نجاح أية رسالة في التبليغ ، قلنا : إنه لا بد

من أن تكون الرسالة غنية المحتوى ، ولا بد أيضاً من أن تستخدم الوسائل المشروعة ، واجتنابها لاستخدام الوسائل المضادة .
ولا بد من استخدام المنهج والطريقة الصحيحين ، وأخيراً لا بد من جدارة الشخصية الحاملة للرسالة .

وأما الآن فيأني أريد البحث والتعليق حول موضوعين :

أولهما : الإشارة بشكل عام إلى الشروط اللازم توفرها في حامل الرسالة .

وثانيهما يتعلق بالبحث الخاص حول تأثير شخصية عيال الحسين (ع) في التبليغ ، وهو التبليغ الذي حمل دورين ، دور التعريف بالإسلام ، ودور إعلام الناس ، ووضعهم بالصورة الصحيحة عما كان يجري من أحداث .

وحول هذا القسم الثاني من دور أهل البيت لا بد أولاً من الاطلاع على الأرضية التي كان قد أعد لها الأعداء ، والحُجُب التي وضعوها أمام أعين الناس ، والانطباع المعين الذي أرادوا للناس أن تخرج به عن مجريات الأمور .

وكيف تمكن أهل البيت بالتالي من تمزيق حُجُب النفاق تلك ؟

فهذا ابن زياد مثلاً يخاطب السيدة زينب عليها السلام في المجلس بقوله :

« الحمد لله الذي قتلكم وفضحكم وأكذب أحدوثتكم » .

ومعلوم تماماً ماذا يُريد ابن زياد قوله بعبارة « وأكذب أحدوثتكم » . فهو يريد القول : أليس ما حصل لكم دليلاً على كوننا مع الحق وأن الحكم في النهاية من مسؤوليتنا وإلا ما جعل الله الغلبة لنا ! وهذا على كل حال هو منطق الذين يرون الحق إلى جانب الواقع المُعاش باستمرار ، ودليل ذلك أنه تعالى لو لم يكن راضياً على ما يجري لما ترك الأمور تحصل كما حصلت !

ولما كانت قد وقعت وهي موجودة فعلاً ، فإنها يجب أن تكون وهي لا بد

صحيحة وجيدة^(١) .

(١) وهذا هو منطق الجريين الذي يرون في حصول العدل، ووجوده في الجبر أيضاً ، وهو منطق المرحئة .

وهو القول الذي يشبه قولهم في الجاهلية : ﴿ أَنْطَعِمَ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾^(١) . أو كما ورد في الآية الكريمة : ﴿ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَسَتُعْلَمَنَّ ﴾^(٢) .

وتفسيرهم لهذا الآيات الكريمة بالطبع ، بذلك الشكل المعروف لا شك مغالطة كبيرة ، لكن زينب (ع) ترد عليه بقولها :

« الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله » . وعندما يرد عليها ابن زياد : « كيف رأيت صنع الله بأخيك » .

« قالت : « كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم ، فانظر لمن يكون الفلج ، هبلك أمك يا بن مرجانة . . . » يقول الراوي : « فغضب ابن زياد واستشاط . . . » .

وعندما يعرض علي بن الحسين (ع) عليه ، يقول له ابن زياد : « من أنت ؟ » .

فقال : أنا علي بن الحسين .

فقال : أليس قد قتل الله علي بن الحسين ؟

فقال له علي : قد كان لي أخ يسمى علياً ، قتله الناس .

فقال له ابن زياد : بل الله قتله .

فقال علي بن الحسين : الله يتوفى الأنفس حين موتها

فغضب ابن زياد فقال : وبك جرأة لجوابي ؟ وفيك بقية للرد علي ! اذهبوا به فاضربوا عنقه . . . » .

ومن مجموع ما نقلناه ، يتضح لنا أنّ ابن زياد إنما أراد أن يبرهن على صحة

(١) سورة يس : الآية ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٦ .

ما فعله ، وذهب إليه ، من خلال الاستناد إلى الفلسفة الجبرية الملازمة للعدل كذلك !

وكل حركة سياسية بالتالي لا بد وأن تستند في أفعالها إلى فلسفة وخلفية فلسفية تُبرر لها أفعالها . وما الحرب الدعائية إلا عبارة عن المواجهة بين الفلسفات المتعارضة أو المتحاربة .

فكان أهم شيء فعله أهل بيت النبي (ص) - وهو من أهم آثار وجودهم - كونهم لم يتركوا مجالاً لفلسفة العدو الإقناعية بأن تأخذ مجالها في التأثير .

العمل الآخر الذي تمكن أهل البيت من إنجازه هو تحقيق الاتصال الجماهيري ، والتحدث إلى الجمهور العام من على منبر العدو نفسه ، في الوقت الذي لم يكن مثل ذلك الأمر ممكناً قبل الحادثة ، أو أثناءها ، لخوف الناس ، وعدم تجربتهم على الاتصال بآل البيت بسهولة .

وبهذا تكون العقيلة زينب وسائر أهل البيت قد نقلوا الحرب إلى داخل بيت العدو .

وبهذه المناسبة أيضاً استطاع أهل البيت استغلال الفرصة المناسبة للتعريف بالشخصية الواقعية والحقيقة ، للإمام وأهل بيته ، الأمر الذي حوّل الكوفة إلى معسكر للثورة ، وصار أهل الكوفة يقولون عن آل البيت: « كهولهم خير الكهول وشبابهم » .

وبشكل عام يمكن القول إنّ الشام والكوفة ، قبل دخول آل البيت إليها ، هي غير الشام والكوفة بعد دخولهم إليها . وقد تطوّرت الأمور في الكوفة إلى الدرجة التي ظهر فيها من عُرفوا فيها بعد بالتّوابين ، بل وإنّ الكوفة هذه نفسها قامت ضد الشام وابن زياد ، وقد قُتل هذا الأخير في الحرب التي أعلنها الكوفيون ضده .

كما أنّ تأثير أهل البيت على وضع الشام والشاميين قد امتدّ حتى وصل إلى المسجد الأموي هناك .

وما يُقال عن تغيير يزيد لأسلوبه في أيامه الأخيرة ، إنّما يُبين علامات الضعف والانزمام التي بدأت تظهر عليه ، وما تعليماته ، التي أصدرها بضرورة السباح لآل البيت بالعودة مُكرّمين مبجلين إلى المدينة المنورة إنّ صحت ، إلّا علامة على هذا الضعف . كما ينبغي تفسير تعليماته للجند بعدم التعرض لعلي بن الحسين في معركة الحرّة التي خاضها يزيد ضد أهل المدينة في هذا الاتجاه أيضاً .



القسم التاسع ملاحظات متفرقة

هل كان الإمام الحسين (ع) يعمل
بتعليمات خصوصية ؟

في مقدمة « تحقيق في تاريخ عاشوراء » يقول - أعتقد أن الأستاذ هنا يقصد
المرحوم آيتي - : هناك حديث صحيح ورد في « الكافي » وبسند موثق ، ومعتبر ،
عن ضريس الكُناسي ، عن أبي جعفر (ع) قال : « إِنَّ مُحْران بن أعين الشيباني ،
قال للإمام الباقر (ع) :

جُعِلت فداك ! أرأيت ما كان من أمر علي ، والحسن ، والحسين ، عليهم
السلام ، وخروجهم ، وقيامهم ، بدين الله عز وجل ، وما أصيبوا من قتل
الطواغيت إياهم ، والظفر بهم ، حتى قُتلوا ، وغُلبوا ؟ .

فقال : أبو جعفر عليه السلام : يا مُحْران ، إِنَّ الله تبارك وتعالى ، قد كان
قَدَّرَ ذلك عليهم وقضاه ، وأمضاه ، وحثمه ، ثم أجراه ، فبتقدم علم ذلك إليهم
من رسول الله (ص) ، قام علي ، والحسن ، والحسين ، ويعلم صَمَتَ من
صَمَتَ مِنَّا » .

ينبغي مراجعة أصل الخبر والرواية لا سيما السطر الأخير منها .

واقعة كربلاء ، أو الرسالة التي كُتبت بالدم

١ - المرحوم آيتي في محاضرته التاسعة (ص ١٧٩) من كتابه « تحقيق في تاريخ عاشوراء » وبعد أن يشرح حول محوري القوة والاقتدار غير القابلين للتسخير واللذين كان يتميز بهما الإمام ، ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن التقرير الكاذب والمخادع ، الذي حاول ابن زياد عرضه على الناس بعد مقتل الإمام الحسين (ع) وذلك بعد أن دعا الناس إلى المسجد الأعظم في الكوفة ، وصعد المنبر ، وخاطبهم قائلاً :

« الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب ، الحسين وشيعته !! » .

ثم يضيف : « إلا أن » عبد الله بن عفيف الأزدي الغامدي « وهو الرجل الأعمى الذي كان حاضراً المجلس نهض لابن زياد وقال له : يا بن مرجانة ! إنك أنت الكذاب ابن الكذاب ، وذلك الذي أرسلك لحكومة العراق » . وهو ما أدى إلى مقتله .

ثم يقول المرحوم آيتي : « إن هذا الرجل الجليل ، قد قدّم نفسه الطاهرة بسبب هذا الكلام إذ سرعان ما قتله ابن زياد ، ولكن بعد أن أشعل صفحة مضيئة في التاريخ ، كما أنه بهذا يكون قد كتب بدمه صفحة من صفحات تاريخ عاشوراء » .

وفي الحقيقة فإنه ينبغي القول : إن العبارات الواردة في تاريخ عاشوراء من قبيل : « ألا ترون أن الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه . . . » . و « أيها الناس ! من رأى سلطاناً جائراً . . . » .

و « ألا وإنّ الدعي ابن الدّعي . . . » و « هيهات منا الذلة . . . » .

و « إن لم يكن لكم دين . . » و « الموت أولى من ركوب العار . . . » و « رضاً بقضائك . . . لا معبود سواك . . . » و « حُطّ الموت على وُلد آدم . . . » .

وأمثالها الكثير ، قد كتبت جميعاً بالدم ، وإنّ لون الدم هذا من أكثر الألوان

ثباتاً وتلاؤاً بين الألوان كلها .

كما أنّ الوقائع ، والدقائق التفصيلية ، لمعركة عاشوراء ، قد كُتبت جميعاً بالدم . وهي أمور أشبه ما تكون بما نسمع أحياناً من اقتراب الموت من أحدهم ، ولما لم يكن بين يديه قلم وورقة يكتب عليها تراه ، يكتب وصيته بالدم . أو ما يُنقل عن كتابة البعض جملة تذكارية عن الثورة بدمهم .

وقد ورد أيضاً أنه كان متعارفاً بين العرب ، ما قبل الإسلام ، أنّ المتحالفين عندما يجتمعون ليُقرّوا حلفاً ، ويعقدوا عهداً ، فيما بينهم ، كانوا يأتون بكأسٍ من الدم ، ثم يغمسون أصابعهم فيها ليثبتوا ذلك التحالف والميثاق بالدم .

إنّ استشهاد عبد الله الرضيع ، وإلقاء دمه نحو السماء هو الآخر نوع من أنواع كتابة التاريخ بالدم .

وكما ورد في الخبر أيضاً فإن أبا عبد الله الحسين (ع) ، وبعد أن يجرّح في جبهته - من خلال ارتطام حجر فيها كما يبدو - تراه يمسحُ يده المملّخة بالدماء بوجهه وهو يقول : « هكذا حتى ألقى جدّي » .

٢ - لماذا يا ترى كتب الإمام إلى أهل البصرة يدعوهم إلى التحرك ؟

ألم يكن ذلك نوعاً من رغبة الإمام في توسيع نطاق الثورة والدم ؟

والأكثر من ذلك لماذا يا ترى قام الإمام بإرسال حبيب بن مظاهر الأسدي في ليلة عاشوراء إلى بني أسد ؟

ألأنهم كان بإمكانهم الصمود والمقاومة ، وتغيير ميزان المعركة ؟

أبداً ليس كذلك .

ثم لماذا لم يُلزم أعوانه وأهل بيته بالخروج من ميدان الوغى وساحة المعركة ؟ .

وأخيراً لماذا قبل طلباتهم التطوعية للقتال ، والاستشهاد ، والقتل ؟

هل كان الإمام يُريد بشكل خاص أن يُسجّل اعتراضه ، وتُمرده ، وعدم رضاه ، ومطالبته بالعدالة والحقيقة (وبالتالي نشر راية الإسلام) بواسطة سيل من الدماء التي تدفقت من بدنه وأبدان أصحابه ، وذلك بأكبر عددٍ ممكن منهم ، وبشكل لا يمكن أن يمحو آثاره تقادم الأيام ؟ .

إنّ الإمام (ع) قد ألقى خطبه الحماسية بعد اصطدامه بجيش الحرّ ، وبعد وصول محادثاته مع عمر بن سعد إلى طريق مسدود .

والتاريخ يُثبت لنا أنّ الخطب والأقوال التي تُسجّل بالدم ، لا يمكن أن تُمحى من الوجود أبداً ، ذلك أنها تعبّر عن خلوص نية ، وعمق إرادة ، وكمال إخلاص ، وصفاء فكر .

وإن منطق الشهيد هو فوق منطق الآخرين جميعاً .

إنّ كثيراً من السلاطين ، كانوا يتمنون أن تبقى أسماؤهم ، وأقوالهم ، ورسالاتهم - وإن كانوا لا يحملون أية رسالة تُذكر ، بل هي مجرد ادّعاءات ذاتية ، وهوى نفس - خالدة في التاريخ ولذا تراهم كانوا يتركون تلك الأقوال والأسماء على لوحات صخرية ، أو فلزية ، وهم يتبخثرون بواسطتها بأنهم مثلاً الملك الفلاني ابن الملك الفلاني . . . !! لكن تلك الكتابات التي تركوها ، لم تترك رغم كل ذلك أي أثر في قلوب الناس ، بل ماتت واندثرت مع ذهابهم .

بينما رسالة الإمام الحسين (ع) وأقواله ، وبالرغم من أنها لم تُنحت على صخرة ، ولم تُحفر في المعادن ، بل كُتبت فوق صفحات الهواء المهتزة ، لكنها رغم ذلك تراها قد نُحتت نحتاً في قلوب الناس ، وتخلّدت مثلها مثل خطوط الوحي النورانية في قلب الأنبياء إلى أبد الأبدين . (إنّ للحُسين محبةً مكنونةً في قلوب المؤمنين)^(١) ، وصار يكفي أن يُذكر اسمه عليه السلام حتى تسيل الدموع من المآقي ، والله وحده يعرف كم هي آلاف الأطنان من الدمع السائل الذي خرج من مآقي المؤمنين ، كماء الورد الذي يُعصر من الورود والأزهار ، لماذا ؟

لأنه قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

(١) ورد تشبيه هذه العبارة في بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٢٧٢ .

الرحمن وُدًّا ﴿١﴾ .

لأنه حامل رسالة الحقيقة ، ولأن رسالته كانت تعبيراً عن القلب البصير
والفطرة الواضحة البينة ، ولأن حديثه لم يكن حديث الأنا ، بل حديث الله
والناس .

« سيد الشهداء » عليه السلام عظمة في الروح ، وعدم استقرار في البدن

١ - يقول « المتنبّي » :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مُرادها الأجسامُ

بشكل عام يمكن القول إنّ الروحية الصغيرة ، والنفس الدنيئة ، ولما كانت
لا تملك هدفاً تسعى إليه ، وليس لها معاناة تعيشها ، بل إنّ كل آلامها وأهدافها
تتلخص في مطالبها الجسدية ، ولا مثل عُلّيا تسعى لتحقيقها ، فإنها لا تُتعَب
الأبدان ، بل وتراها تكتفي بلقمة العيش التي غالباً ما تنالها بالتسوّل
والاستجداء .

أمّا الأنفس الكبيرة في المقابل فإنها تدفع أبدانها نحو الحركة باستمرار ،
وتجلب العناء ، والمعاناة ، وعدم الاستقرار لها ، فتكسر رؤوسها وتشق جباهها .
ولهذا ترى الشهادة بالنسبة لها فخراً واعتزازاً إذ ترى فيها عظمة النفس
وعلوها .

وهؤلاء الأشخاص الذين تتميز أرواحهم بكبرها مقابل أبدانها ، ترى
أبدانهم تتعذب ، وتحمل المشاق باستمرار .

فجسم علي (ع) كان عليه أن يكيف حاله مع روح علي ، ويتحمل طعام

(١) سورة مريم : الآية ٩٦ .

الشعير ، وسهر الليالي العبادية ، وأحياناً تحمّل المعاناة الشديدة المفروضة عليه من قبل علي .

وهكذا جسم الحسين (ع) إذ كان عليه مُسَايرة روح الحسين فقد وجب عليه تحمل العطش الطويل ، ووطء الخيول وتحمّل الجراحات ، وآلامها ، التي كانت تخزّه كما ورد في الروايات كالقنفذ .

فما أسعد ذلك البدن الذي خُلِقَ توأماً مع روح صغيرة ، فإنه سينال بذلك كل رغباته في غاية السهولة ، ويؤمن خبزه اليومي بواسطة الاستجداء والسرقة ، وسيحصل على المقام الذي يُريد بواسطة القتل ، والجناية ، والاجرام .

وبالمقابل ما أشقى ذلك البدن ، الذي خُلِقَ ونشأ مع روح شريفة ، نبيلة ، وعظيمة ، فهذا البدن لن يحصل بعد العناء سوى على لقمة بسيطة من خبز الشعير ، إلى جانب معاناته ، وهو يقضي الليالي الطوال بتنفيذ واجبات العبادة والرهبانية ، ثم يمضي عليه النهار ، وهو يمسك بالدرّة ليراقب النظم الاجتماعية ، أو ماسكاً بالسيف ليقطع به رقاب المُفسدين ، أو يأتي عليه القوم ليدخل الرأس في التنور . . .

٢ - يقول علي عليه السلام بشأن المتقين :

« أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي تَعَبٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُمْ فِي رَاحَةٍ »^(١) : والمراد هنا بالنفس هي النفس الحيوانية ، والتي يكمن استقرارها في حصول الاستقرار للآخرين ، وفي عدم سلب راحتهم .

٣ - إنّ القول المشهور للإمام الحسين (ع) ، عن النبي الأكرم محمد (ص) أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ ، وَيُبْغِضُ سَفَاسِفَهَا »^(٢) ، يدل على أن روح الإمام توافقه إلى المعاني السامية ، وبعيدة عن الغوص في الأمور المادية الحقيرة .

(١) ورد مثل هذه العبارة في نهج البلاغة الخطبة ١٨٤ المعروفة بالمتقين .

(٢) تاريخ يعقوب ج ٢ ص ٢٤٦ .

٤ - أحياناً ترى الروح لدى البعض أسيرة الجسم ، وفي خدمة البدن أي إنَّ العقل والعاطفة يكونان في خدمة الأهداف الجسمية ، والبدنية ، والحيوانية ، لذلك الإنسان ، وبالتالي فإنَّ الروح هنا تتألم إلى حدِّ ما ، وإن كانت الروح الصغيرة ، لا تتألم ، ولا تشعر بالمعاناة ، فهي إن أحست بالألم والمعاناة ، فإنها ليست بصغيرة إذًا ، ولا يمكن لها أن تكون في خدمة البدن .

٥ - هذان البيتان من الشعر :

لَنَقْلُ الصَّخْرَ مِنْ قُلُلِ الْجِبَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَنَنِ الرِّجَالِ
يَقُولُ النَّاسُ لِي فِي الْكَسْبِ عَارٌ فَإِنَّ الْعَارَ فِي ذَلِكَ السُّؤَالِ

يُشْكِلَانِ فِي الْوَاقِعِ تَصَوِيرًا آخَرَ عَنْ مَعَانَاةِ الْبَدَنِ مِنْ أَجْلِ كِبَرِ الرُّوحِ .

٦ - كما أنَّ قوله عليه السلام : أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ . . . وهيهات مِنَّا الذَّلَّةُ . . . يُشْكِلَانِ أَيْضًا نَمُودَجًا آخَرَ مِنْ نَمَازِجِ عَذَابِ الْجِسْمِ ، بسبب عظمة الروح .

٧ - إنَّ العلاقة بين الروح والبدن بالرغم من اتحادهما في شخص الإنسان ، إلَّا أنَّهما يُشْكِلَانِ وجودًا متضادًا لبعضهما البعض أَيْضًا ، فهما أشبه برفيقين يسيران في درب واحد ، ولا يستطيعان الافتراق عن بعضهما ، إلَّا أنَّهما لا يسعيان لتحقيق هدف واحد .

ولهذا ترى أنَّ صغر حجم أحدهما يُشْكِلُ فائدةً للآخر ، بينما كبر أحدهما يُعَرِّضُ الآخر للضرر .

٨ - يقولون إنَّ النوايا عادةً ما يكونون شركاء سيئين في الحياة الزوجية . ودليل ذلك أنَّ أفق أرواحهم ، يصبح ما فوق أفق الآمال ، والأفكار ، والتمنيات ، التي يضعها شريك الحياة .

ولذلك ترى النابغة يشارك رفيق دربه في جسمه . لكن روحه تسبح في عالم آخر ، لكنه إذا ما وجد من يستطيع أن يجمع بين نبوغه وأفقه العالي ، وبين العشرة العادية مع الشريك العادي ، فإنه عند ذلك سيثبت أنه نابغة النوايا .

فربما صادف وحصل لك أن عاشرت أشخاصاً من أصحاب الأفق العادي ، وأنت تسبح في أفق المعالي ، فهل تحسست ذلك العذاب والألم في تلك المعاشرة .

لقد حصل لي أحياناً مثل هذا ، وعندها كنت أشعر بأنني فقدت توازني ، ونسيت كل معلوماتي مرة واحدة .

العظمة ونبل الروح ، وجلالها

٩ - إن كبر الروح يُقاس ويُعرّف ، مقابل صغر الأرواح الأخرى ، وحقارتها . وهو الجانب الكمي في القياس .

نعم فالروح الكبيرة تعني الروح التي تسعى نحو الآمال الكبيرة ، والأفكار الكبيرة ، والأمنيات الواسعة ، وبالتالي فهي صاحبة إرادة كبيرة ، ومطالب كبرى ومن ثم فإن لها همّة كبيرة في العمل والنشاط ، فمن يُريد أن يكون الأول في كسب المال - عندما يكون ذلك مقروناً بالعمل والنشاط الفعلي - يقال له بأنه صاحب روح كبيرة .

والروح الكبيرة لا تقبل بالقليل ، ولا تقنع بالسيط واليسير ، وصاحب هذه الروح تراه صاحب مهاجرة وسفر ، ورحل وارتحال ، بين هنا وهناك ، بحثاً عن الكنز ، والإمكانات ، والفرص ، فهو لا يقنع بالماء ، والتراب المحدود في بيته ، وبلاده ، بل إنه يسعى للوصول إلى أقاصي البلاد ، ويطوي البراري ، ويغوص في البحار ، ويصعد الجبال ، ويشيب بسرعة قبل الأوان ، وأحياناً يُصاب بانفراط القلب . وهناك قول لموسوليني في هذا المجال ورد فيه : « أفضل أن أعيش سنة كالأسد ، على أن أعيش مئة عام كالخروف » .

والإنسان الكبير ، لا يهاب عيش السجون ، فهو على استعداد لتحمل قضاء عشر ، بل عشرين سنة ، في السجون من أجل أن يسعى ولو لعامين من عمره بسعادة ونجاح .

١٠ - إن أرواح كل من (الإسكندر) و (خشايار شاه) و (نادر شاه)

و(نابليون) هي في الواقع كبيرة ، وغير مستقرة ، لكنها تُعبّر عن روح توسعية تبحث عن الهيمنة ، وتُحرّكها مشاعر الحسد ، والمنافسة ، والشهوة الكبرى ، والعظمة ، والفخفة .

وهذه الأرواح بالمقارنة مع الأرواح الصغيرة ، يمكن اعتبارها أرواحاً عظيمة ، وذات أهمية كبرى .

وهذه الأرواح وإن ذهبت إلى جهنم ، لكنها تذهب إلى جهنم وهي كبيرة ! فهي روح تتبلور فيها نزعة حب الذات بشكل كبير ، والنمو الذي يحصل في هذه الروح إنما يحصل في شهواتها ، وحبها للسلطة ، وحقدتها ، وحسدها .

ولكن هناك أمراً آخر في الروح وهو النبل ، والنبل هو غير الكبر في الكمية ، فنبل الروح لا يُقابله صغر الروح ، بل دناءة الروح وحقارتها .

فما معنى هذه الحقارة ؟

وهذه مسألة في الحقيقة من مسائل ما وراء الطبيعة ، وهي تقع في نطاق المنطق المضاد للمادية ، لأنّ مثل هذه الأمور لا يمكن لمسها بالوسائل المادية ، إذ كيف يمكن لمس معاني الدليل ، والحقير ، أو بالعكس ، العزيز ، والفاخر ، وغير ذلك من معاني الروح .

نعم إنه النبل الروحي الذي من الصعب لمسه ، وهو يُعبّر عن نفسه في قول علي عليه السلام : « إنّ الحياة في موتكم قاهرين ، والموت في حياتكم مقهورين »^(١) .

١١ - كما أننا نرى كبر روح الإمام ، ونبلها ، في جمل وعبارات مثل : « أشهد أنّك قد أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة ، وأمّرت بالمعروف . . . » .

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥١ .

كلمات الحسين بن علي (ع) ، أو شعارات حياة الإمام

١ - يذكر « اليعقوبي » في تاريخه أنه طُلب من الإمام الحسين (ع) مرةً أن ينقل حديثاً سمعه بنفسه عن رسول الله (ص) فقال :

سمعت رسول الله (ص) يقول : « إنَّ الله يحب معالي الأمور ، ويبغض سفاسفها » وهذا القول ورد عن رسول الله (ص) في سفينة البحار أيضاً .

في « المنجد » ورد عن كلمة سفساف : « السفساف : الرديء من كل شيء . يقال : فلان سفساف الكلام أي ليس لكلامه معنى . الأمر الحقيق » .

٢ - ورد عن الإمام (ع) أيضاً أنه قال : « الناسُ عبيد الدنيا ، والدين لَعَقٌ على ألسنتهم ، فإذا محَّصوا بالبلاء ، قلَّ الديَّانون »^(١) .

وجاء في « المنجد » : « اللعقة : ما تأخذه في الملعقة ، أو بإصبعك . القليل مما يُلَعَق .

إنَّ هذه العبارة ولا سيما كلمة « العبيد » إنما أراد الإمام من خلال استخدامها هنا أن يُبرز أهمية عزة النفس من جهة ، ويُحَقِّر الاستعباد ، وعبيد الدنيا بالذات ، من جهة أخرى .

٣ - وقد ورد نظير هذه العبارة ، قول معروف له عليه السلام ، وهو ما نُقل في « الأنوار البهية » ص ٤٥ : « وفي وصية موسى بن جعفر عليها السلام لهشام قال :

وقال الحسين بن علي عليها السلام : إنَّ جميع ما طلعت عليه الشمس ، في مشارق الأرض ، ومغاربها ، بحرها وبرها ، وسهلها وجبلها ، عند ولي من أولياء الله ، وأهل المعرفة بحق الله ، كفيء الظلال . ثم قال : ألا حُرِّدُ هذه اللَّمَازة^(٢) لأهلها (أي الدنيا) ليس لأنفسكم ثمنٌ إلَّا الجنة فلا تتبعوها بغيرها .

(١) « تحف العقول » : ص ٢٤٥ .

(٢) اللَّمَازة كلمة وهو ما يتبقى من الطعام في زوايا الفم (الأنوار البهية) .

فإنه من رضي من الله بالدنيا ، فقد رضي بالخييس » .

من هذه الأقوال الثلاثة نستنتج

أولاً : بأن روح الحسين روح خاصة لا تقبل بالدنيء ، ولا ترضى النزول عند صفائر الأمور ، وهي طالبة المعالي (كما ورد في المثال الأول) .

ويتضح ثانياً : بأن كل هدف مادي ودنيوي ، لا يتصل في النهاية برضا الله ، أي الهدف الكلي من الخلقة ، أو يريد الانفصال عن هدف الخلقة الكلي ، يكون هدفاً حقيراً ودنياً .

ولهذا فمنطق (نابوليون) الذي يقول : إن فرنسا بالنسبة لي صغيرة ، وأريد أن أضمر روسية إليها ، يصبح منطقاً مرفوضاً .

وكذلك منطق (الإسكندر) الذي يقول : إن اليونان بالنسبة لي صغيرة ، فأنا أريد ضم إيران إليها .

كما يتضح لنا أن كل من تعلق بالمقام الدنيوي ، أو بثروات الحياة ، أو بكلا الأمرين ، فإنه يكون قد حقر نفسه ، وصار دنياً ، وساقطاً بعين الحسين (ع) .

ومن هنا يتضح لنا أن مفتاح الشخصية الحسينية هي الحماسة الحسينية (والتي ورد تفصيلها في قسم : الملاحظات حول الحماسة الحسينية) .

٤ - بلاغة الحسين : دراسة العلم لإقناع المعرفة ، وطول التجارب زيادة في العقل .

- لو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب .

- لا يأمن إلا من خاف الله .

- القدرة تذهب الحفيظة .

- من البلاء على هذه الأمة أنا إذا دعوناهم لم يُحيبونا ، وإذا تركناهم لم يهتدوا بغيرنا .

تأثير الأفكار المسيحية في واقعة كربلاء

يقول السيد صالح^(١) نقلاً عن « إرشاد المفيد : ص ١٨٥ » بأن يزيد قد اختار ابن زياد لمحاربة أبي عبد الله الحسين (ع) ، بعد التشاور مع « سرجون » الرومي .

كما ورد أيضاً في « الكامل لابن الأثير الجزء الثالث ص ٢٦٨) :

« فلمّا اجتمعت الكتب (كُتب أتباع يزيد بالكوفة) عند يزيد ، دعا سرجون مولى معاوية ، فأقرأه الكتب ، واستشاره فيمن يوليه الكوفة ، وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد ، فقال له سرجون :

أرأيت لو نشر لك معاوية كنت تأخذ برأيه ؟

قال : نعم . فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة » .

ولكن السؤال هو كيف حصل أن يكون عهد عبيد الله عند سرجون !؟

أليس هذا بحد ذاته دليلاً على نوع من التخطيط الماهر والحاذق .

« فقال : هذا رأي معاوية ومات وقد أمر بهذا الكتاب ، فأخذ برأيه ، وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله ، وكتب إليه ، وسيّر إليه مع مسلم بن عمرو الباهلي ، والد قتيبة فأمره بطلب مسلم بن عقيل ، ويقتله ، أو نفيه . . . » .

في المقدمة التي كتبها الأستاذ الغفاري لكتاب « تحقيق في تاريخ عاشوراء » كتب يقول :

إن يزيد قد قضى أغلب سني عمره في أديرة النصارى ، والتي كانت تلعب في تلك الأيام دور الطابور الخامس ، إذ كان يمضي الوقت في اللهو ، واللعب على

(١) وهو مؤلف كتاب « الشهيد الخالد » .

الدوام وبالتالي فإنه بالتأكيد كان يتلقى التعليمات ، والتدريبات اللازمة أيضاً من أسياده من أرباب الدير .

والعجيب في هذا الأمر كيف أن مراكز العبادة ، والخلوات الرهبانية هذه ، قد صارت سبباً في ترويج الفحشاء والشراب في عالم الإسلام .

ولأن الشراب ، والاختلاء بالنسوة ، لم يكن ممنوعاً ، والحجاب ليس من تعاليمهم أيضاً ، فإن الأمر الطبيعي أن تتحول مراكز العبادة هذه إلى مراكز للفساد .

إن إحدى القرائن التي تؤكد أن يزيد كان واقعاً تحت تأثير الأفكار المسيحية ، هي هذه الأبيات الشعرية التي تنسب إليه :

شُميسَةُ كَرَمٍ ، بُرْجُهَا قَعْرُدُنْهَا وَمَشْرِقُهَا السَّاقِي ، وَمَغْرِبُهَا فَمِي
إذا نزلت من دنها في زجاجةٍ ، حكّت نقرأ بين الحطيم ، وزمزم
فإن حُرِّمَتْ يوماً على دين أحمدٍ ، فحُذِّمَتْ على دين المسيح بن مريم

وفي نفس الكتاب أيضاً ينقل الأستاذ الغفاري عن اليعقوبي ، وغيره تلك القصة المعروفة عن يزيد التي قالت :

إن معاوية قد أرسله ذات مرة ، على رأس جيش ، لفتح بلاد الروم ، وإنه نزل في « غد قذونة » أو « الفرقدونة » كما ورد اسمها في كتاب (أبو الشهداء للعقاد) ، في دير اسمه (ديرمران) .

ولما كان الجيش قد حطّ الرحال هناك ، فإن يزيد التزم الدير مع عشيقته له اسمها أم كلثوم .

وإنه على الرغم من سوء الأحوال والظروف التي حلّت بالقوات ، وموت الكثير منهم ، وانتشار الأمراض ، والأوبئة ، في وسطهم إلا أنه رفض الانتقال من ذلك الموقع ، رغم إصرار المستشارين ، والأعوان ، ولكن كما يبدو من نقل صاحب كتاب أبو الشهداء ، فإن ابتلاء الجند بالأمراض ، والأوبئة ، قد حصل

في مكان آخر ، وأنه كلما طلب من يزيد ، أن ينتقل من الدير إلى حيث تُعسكر القوات ، ليطلع على أمرهم ، كان يرفض مغادرة الدير ، وأنه صار ينشدهم :

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالقدقذونة ، من هُمى ومن مُوم
إذا اتكأت على الأنماط في عُرفٍ ، بدير مُرّانٍ ، عندي أم كلثوم

المرثيات الحسينية - رثاء الجن

في « القمقام » الصفحات (٥٠٩ - ٥١٣) تم نقل قسم كبير من مرثيات الجن بصورة الشعر ، ولا يُستبعد أن تكون هذه الأبيات الشعرية قد نُظِمت من قبل المُحِبِّين والشيعة ، خاصةً وأنها تُعبّر عن حنين ، وعمق في الإحساس ، والعواطف .

ولكن لما كان الوضع لا يحتمل التصريح بتلك العلاقة ، في زمن الحكومات ، التي كانت تُطارِد الشيعة ، والمُحِبِّين لآل البيت ، فإن أصحابها كانوا ينشرونها على أنها من أشعار الجن ، وبهذا كانوا يُخفون على النظام من جهة الجهات الحقيقية النازمة لها ، ويجعلون الناس تحفظها ، وترددها بسهولة أكثر ، من جهة أخرى .

وهناك شعر معروف لدعبل الخزاعي نظمته في الحسين (ع) :

زُرْ خَيْرَ قَبْرِ فِي الْعِرَاقِ يُزَارُ ، واعصر الحمار فمن نَهاك جِمارُ
لَمْ لَا أَزُورُكَ يَا حُسَيْنَ لَكَ الْفِدا قُومِي وَمَنْ عَطَفْتَ عَلَيْهِ نِزارُ
وَلَكَ الْمُوَدَّةُ فِي قُلُوبِ ذَوِي النَّهْيِ ، وعلى عدوك مقتة ، وذمارُ
يَا بَنَ الشَّهِيدِ ، وَيَا شَهِيدَ أَعْمَةٍ خير العمومة ، جعفر الطيار

وهذه الأبيات الشعرية تُنشر آنذاك باسم أشعار الجن أيضاً (القمقام ص ٥١٢) .

الإمام الحسين (ع) - والأصحاب - أبو الفضل العباس عليه السلام

ورد في الحديث : أن أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بأرض كربلاء في أيام صفين فشتم تربتها وقال : « واهاً لك أيتها التربة ، ليحشرن منك أقوام ، يدخلون الجنة بغير حساب »^(١) .

كما ورد في الحديث أيضاً^(٢) . أن رسول الله (ص) قد قال عن الإمام الحسين (ع) :

« كأي به وقد استجار بحرمي ، وقبري ، فلا يُجار ، ويُرتحل إلى أرض مقتله ومصرعه ، أرض كرب وبلاء ، وتنصره عصابة من المسلمين ، أولئك سادة شهداء أمتي يوم القيامة » .
وفي مكان آخر ورد أيضاً^(٣) :

« خرج علي عليه السلام يسير بالناس ، حتى إذا كان بكربلاء ، على ميلين أو ميل ، تقدّم بين أيديهم حتى طاف بمكان ، يُقال له المقدفان ، فقال : قُتل فيها مئتا نبي ، ومئتا سبط نبي كلهم شهداء ! ههنا مناخ ركاب ، ومصارع عشاق ، شهداء لا يسبقهم من قبلهم ، ولا يلحقهم من بعدهم » .

فإذا كان مقام الشهيد في الأساس ، كما ذكرنا سابقاً ، في أعلى عليين ، فكيف إذا تصوّرون موقع ومقام أبي الفضل العباس والذي ورد بحقه : « إن له عند الله درجة ، يَغِيْطُه بها جميع الشهداء »^(٤) .

وعليه يمكننا تلخيص ما سبق كالآتي :

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٥٥ .

(٢) نفس المهموم : ص ٣٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٠ .

(٤) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ .

أ - إن مقام الشهيد هو فوق سائر الناس ، والصالحين ، والمُبرّزين ، من بني البشر .

ب - إن مقام شهداء كربلاء ، فوق مقام سائر الشهداء .

ج - إن لأبي الفضل العباس ، موقعاً خاصاً ، بين شهداء كربلاء .

شعارات كربلاء التاريخية

لقد نقل المؤرخون عباراتٍ ، وأقوالاً تاريخية عظيمة ، وكثيرة ، من كربلاء ، وهي تبين جميعها عن إنسانية كاملة ، وإيمان خارقٍ للعادة ، كما تحكي لنا في الحقيقة عن حماسةٍ منقطعة النظير .

ولما كانت قد كُتبت وسُجلت بالدم ، فإنها تأخذ قيمة أخرى ما فوق قيمتها السابقة ، حيث منها نتمكن فهم واستيعاب الروح الحسينية ، وماهية النهضة الحسينية ، ومن هذه العبارات والأقوال :

١ - أقوال أبي عبد الله الحسين (ع) : - « ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ . . . - « هيهات منّ الذلة . . . - « الموت أولى من ركوب العار . . . - « ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به . . ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً . - « الناسُ عيد الدنيا والدين لَعقُ على ألسنتهم . . . - « لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرُّ إقراراً أو (أفر فرار) العبيد . . . وغيرها الكثير .

٢ - قول علي الأكبر المشهور : « إذا والله لا بُالي . الحربُ قد بانت لها الحقائق . . . ويا أبتاه هذا جدي رسول الله . . .

٣ - قول القاسم بن الحسن : « الموتُ أحلى عندي من العسل .

٤ - قول أبي الفضل العباس (ع) :

يا نفس من بعد الحسين هوني ، هذا حُسين شاربُ المنون . .

٥ - أقوال مسلم بن عوسجة ، وسعيد بن عبد الله الخنفي ، وبشر بن عمرو

الحضرمي - يتم مراجعة مؤلف « تحقيق في واقعة عاشوراء » وقد ورد بشأنها بحث شيق هناك .

الرسالة الحسينية

إنّ الذين ينهضون من أجل سلسلة من الأصول والمبادئ لديهم رسالة ونداء يودون توجيهه إلى العالم أجمع ، وهو ما يصطلح عليه أحياناً بالوصية .
وأبناء المستقبل والأجيال المتوالية ينبغي أن تعرف ما هي رسالة النهضة الحسينية .

والحسين بن علي (ع) لديه كلام بهذا الخصوص إذ يقول : « إني لم أخرج أشيراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله ، أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهي عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي » .

دور المرأة في واقعة كربلاء

لقد كُتِبَ الكثير عن دور النساء في واقعة كربلاء ، ولا سيما في كتاب تحقيق في « واقعة عاشوراء » ، والذي يُمْكِن من القول بأنهن قد لعبن دوراً مُفيداً وفاعلاً في الواقعة ، إضافة إلى العقيلة زينب (ع) وهنّ نساءً من قبيل : زوجة زهير بن القين ، وزوجة عبد الله بن عمير الكلبي « أم وهب » ، ورباب بنت امرئ القيس (زوجة الإمام) وامرأة من قبيلة بكر بن وائل .

« سيد الشهداء » وكرامة النفس

وقد اشتهر عليه السلام كما ورد ذكر ذلك من قبل بكرامة للنفس ، وسمو ، وتعالى روحه الطاهرة الشريفة ، وقد كانت حياته في الواقع تبلوراً وتجسيداً مستمراً لهذا الأصل والمبدأ الإسلامي الكبير .

الإمام الحسين ، ثورة دموية

نعم هذه هي حركة الحسين ونهضته وقيامه المقدس ثورة كتبت بالدم ، باللون الأحمر القاني الذي يُعتبر من أكثر الألوان ثباتاً على صفحات التاريخ والمجتمعات البشرية . وعن هذا الموضوع وموضوعات أخرى كثيرة متفرقة يمكن مراجعة الكثير من الكتب الهامة التي كتبت بهذا الشأن ، والتي أجد أنها أمور ضرورية ينبغي على المُبلّغين مطالعتها ، ودراستها ، لأهميتها في المباحث المنبرية .



القسم العاشر حواشٍ نقدية حول كتاب « الشهيد الخالد »

توضيح

إنّ متون الكتاب المنقود ستكون بخط مميّز بينها يكون تعليق الأستاذ الشهيد بخط آخر . وأما صفحات الكتاب المذكورة هنا فإنها تستند إلى نسخة الطبعة الأولى من الكتاب . [هذا مع الإضافة إلى أن الشرح والتقدّم الفصل ورد في الجزء الثاني من الكتاب الحاضر للأستاذ الشهيد] .

ص ٨ : لسنوات طويلة وأنا أرتجف وأنزعج كثيراً كلما سمعت مقالة البعض : « إنّ الإمام الحسين عليه السلام قد توجه إلى العراق حتى يسيل دمه وتؤسر عائلته » . وكنت أقول ببني وبين نفسي : إنّ الإمام الذي يغلي الدم المقدس في عروقه ، فيُعطي المجتمع الإنساني حرارة ، وحركة ، ونوراً ، ودعماً للإسلام والمسلمين ، لماذا كان يُريد الإمام إذاً ، أن يُهدر هذا الدم الطاهر ، والفائر ، هكذا على أرض الصحراء ، ويحرم بالتالي عالم الإنسانية من تلك القيادة العظيمة ؟ !!!

■ إنّها مغالطة .

ص ٩ : إنّ الذين كتبوا حول ثورة الحسين بن علي عليه السلام نراهم

منقسمين في الواقع إلى فئتين متضادتين في النظرة إلى تلك الثورة ، وهم على العموم إما قد أخذوا جانب الإفراط أو التفريط ، وبالتالي فإن الفئتين قد شكّلتا قطبين متضادين تماماً .

■ لم تُذكر الفئة الثالثة هنا .

ص ٣٧ : يتضح مما قلناه منذ القسم الأول حتى الآن ما يلي : إن الأسباب والعوامل التي دفعت يزيد أن يحمل على الحسين بن علي (ع) ثلاثة هي :
١ - تدعيم نظام حكمه . ٢ - عقدة الحقد . ٣ - حس الانتقام . وأما من ناحية الإمام : فإنه ينبغي علينا الآن دراسة عوامل النهضة من ناحية الحسين بن علي (ع) .

■ إن هذا النوع من التحليل ، يدفع بالعدو إلى الاستناد إلى القياس بالمصلحة المقابلة ، والقول بالتالي بأن نفس هذه العوامل هي التي دفعت بالحسين إلى النهوض ضد يزيد ، مع فارق أن الحسين أراد الوصول إلى الحكم بدلاً من تثبيتته لدى الطرف الآخر ، بينما المطلوب هو دراسة متون الواقعة وتحليلها .

ص ٤٢ : رأي الفرزدق : أثناء توجه الإمام الحسين (ع) نحو الكوفة التقى في منزل « صفاح » بالشاعر الفرزدق فسأله عن الأوضاع في الكوفة ، فردّ عليه الفرزدق : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية »^(١) وتوضيح مقالة الفرزدق هنا هو : إن الرأي العام ، والعواطف الشعبية مع حكمك وإنه لو ترك الناس أحراراً ، لنهضوا لمساعدتك بكل إخلاص ، لكن حكم بني أمية يوجّه القوى الشعبية بالضغط والإجبار للتحرك لصالح حكومتهم وضدك في المقابل .

■ إن هذا التحليل لمقالة الفرزدق ليس صحيحاً .

إن الفرزدق لا يريد أن يقول : إن الناس منافقون ، وإنهم بالرغم من إعلان محبتهم لك ، فإنهم يقومون بمساعدة بني أمية بكامل اختيارهم ، إذ كيف

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٩٠ .

يمكن لروح الناس وقلوبهم أن تكون مع الإمام ثم تقوم ضده بكل حرية؟! وإنما يقصد الفرزدق بأن القوى الوطنية تؤمن بك حقيقة وتحبك من صميم قلبها . وإذا ما تركت حراب الحكم الأموي الناس أحراراً ، فإنها ستنهض لمناصرتك بكل شوق . لكن قوى السلطة هي التي تقوم عملياً باستخدام قوى الشعب لصالحها .

■ أي حراب كانت في الكوفة ؟ فقوة القمع اليزيدية في الكوفة لم تأت من الخارج .

ص ٤٣ : وهنا بالذات أحسّ الإمام بمسؤولية أكبر ورأى أن من الضروري التحرك لإحياء الإسلام وتغيير الوضع الراهن آنذاك من خلال تشكيل حكومة - دولة - قوية تخرج الإسلام والمسلمين من مخالب الاستبداد الأسود .

■ القول بأن الإمام قد اطمأن لأهل الكوفة ، لا يعتبر رأياً صحيحاً .

ص ٤٤ - ٤٥ : وحسب الاتجاه الطبيعي للأحداث فإن الاحتمال الأقوى ظناً ، كان يرى بأن إقامة الإمام الحسين (ع) للحكم الإسلامي في العراق كان يعني إضافة إلى وقوف قوات المتطوعين الكوفيين ، إلى جانب الحسين ، فإن جماهير الحجاز ، واليمن ، وخراسان ، وأذربايجان ، وسائر الولايات الأخرى ، ستقف دون تردد إلى جانب الإمام بعدما ذاقته من ويلات على يد حكام بني أمية ، مع ما تذوقته من حلاوة أيام حكومة أمير المؤمنين علي (ع) في المقابل ، وبالتالي فإنها سوف لن تبخل عن تقديم أي شكل من أشكال الدعم للحكم الحسيني الجديد .

■ إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا منعوا الإمام من الحركة ولم يبرز سياسي واحد بينهم يُصادق على رأي الإمام ؟ مما يعني أنّ حركة الإمام لم تكن محكومة بالمنطق الذي اتخذه المؤلف لتفسير الأحداث . بل إنّ منطقاً آخر كان يشكل قاعدة التحرك الحسيني ، وذلك المنطق ليس المهمة الخاصة الموكلة لشخص الإمام بل منطق الشهداء ، والفدائيين .

ص ٥١- ٥٢ : مما سبق يتضح بأن قوة الحسين بن علي (ع) ، وإمكاناته العسكرية ، والجهادية ، أثناء توجهه إلى الكوفة ، ومبادرته الساعية لتشكيل الحكم الإسلامي هناك ، كانت في المجموع العام (بين الكوفة والبصرة كان لديه ما يقارب المئة ألف نصير) ليست بأقل من إمكانات يزيد .

وأما من ناحية القوى المنتظر تشكّلها ، والتحاقها بالإمام فيما بعد ، فإنها كانت أكثر من احتياطي يزيد

وأما من زاوية الكفاءة الشخصية والجدارة والتعاطف الشعبي فإنه لم يكن هناك مجال للمقارنة مع ابن معاوية .

وعليه فإن من حقنا القول : بأن القدرات العسكرية للإمام الحسين (ع) كانت أكثر من قدرات يزيد .

■ يبدو أن المؤلف يعتقد بأن الإمام الحسين كان يُراهن على قوى الكوفة ، أثناء حركته ، وخروجه إليها .

ص ٥٢ : ومن ناحية أخرى فإن القدرة العسكرية كانت موجودة بدرجة كافية وعوامل النصر للإمام كانت متوفرة أيضاً .

■ إن ما يُضعف تحليل المؤلف ، وتقديراته للأمور ، هي هذه النقطة بالذات ، أي هل كانت هناك قوة عسكرية يمكن المراهنة عليها حقاً أم لا ؟ وهل كانت شروط قبول المسؤولية موجودة بالفعل أم لا ؟

ص ٥٤ - ٥٥ : مما عرضنا سابقاً تبين ، بأن إقدام الحسين بن علي (ع) ، بخصوص السيطرة على الطرق وإقامة الحكم ، والدولة الإسلامية فيه ، يشبه إقدام أبيه أمير المؤمنين علي (ع) بخصوص قبوله بالخلافة ، وتشكيل الحكم ، وإقدام جده رسول الله (ص) في فتح مكة ، والسيطرة على جزيرة العرب ، ومن ثم فإنه لا يجوز الفصل بين حركة الحسين (ع) ، وحركة كل من أبيه ، وجده ، واعتبار حركة الإمام هنا حركة استثنائية ، وعملاً خاصاً .

■ لا يبدو أن هناك مجالاً للقياس والمقارنة بين هذه الأحداث من ناحية الظروف المحيطة بكل واحدة منها .

ص ٥٦ - ٥٧ : من خلال هذه الدعوة الصريحة التي وجهها الإمام إلى أهل البصرة للتعاون معه ، وإرجاع الخلافة الإسلامية إلى أهل بيت النبي ، وإحياء سنة رسول الله ، يتضح بشكل جيد بأن الأمل بانتصار الإمام كان موجوداً ، وبأنه كان ممكناً بالتالي إنقاذ الإسلام المضطهد ، من خلال تشكيل حكم إسلامي قوي ، وكذلك إحياء سنة النبي المنسية .

■ ومن يدّعي بعدم وجود مثل هذا الأمل ، ومثل هذه الإمكانية مئة بالمئة لكن المؤلف يُريد هنا القول بأن الظروف المحيطة كانت مساعدة إلى درجة لا تقل عن (٥٠٪) وهذا ما لا يمكن إثباته بهذا الدليل .

ص ٥٨ : من خلال قول الإمام : « فإن نزل القضاء بما نحب ، فنحمد الله على نعمائه » . يتضح لنا جيداً بأن ما كان يهم الإمام بالدرجة الأولى ، هو تشكيل الحكم (إقامة السلطة المركزية) ، وإنقاذ الإسلام ، وهذا الأمل كان موجوداً من خلال دعم جيش الكوفة للإمام ، واستقراره عليه السلام في تلك المدينة ، وإعلانه لحكومة مستقلة ، وإحيائه لسنة النبي من جديد .

■ ليس هناك شك في صحة هذا الأمر ، ولا يوجد أحد يدّعي بأن الإمام لم يكن ليرغب ، ولا أراد أن يقيم حكماً إسلامياً ، أو إنه لم يكن يسعى لذلك وينشط من أجله .

لكننا نقول بأن الأمل والاحتمال بالغلبة لم يكن بالقدر الكافي متوفراً للإمام - ذلك الإمام الذي يرى فيه المؤلف بأنه كان يرى في المحافظة على نفسه ، من أهم الأمور التي تهتم وتهتم الإسلام - حتى يُعرض حياته للخطر .

وثانياً لو فرضنا جدلاً بأن هذا الاحتمال كان سلبياً مئة في المئة فهل كان الإمام سيقعد ويتخلف عن النهوض ؟!

ص ٥٩ : إن رسالة الإمام إلى أهل الكوفة كانت مليئة بالفرح والحبور ،

فرح الإمام من اتفاق أهل الكوفة ورؤسائها على تشكيل حكومة مستقلة بزعامة الإمام ، وإرجاع الخلافة الإسلامية إلى أهل بيت النبي (ص) .

■ وهذا أمرٌ بديهي أيضاً ، فليس هناك من يدّعي بعدم وجود مثل هذا الاحتمال ، أو أن الإمام لم يكن ليفرح من تحقق مثل هذا الأمل .

ص ٦٠ : من البديهي أن لا تكون كتابة مثل هذه الرسالة عقلانية ومنطقية إلا بوجود إمكانية للنصر .

■ إنه لأمرٌ حتمي أن مثل هذا الاحتمال كان وارداً ولو كان ضعيفاً .

ص ٦١ - ٦٢ : من كلام الإمام هذا يتضح بأنه عليه السلام إنما قصد الكوفة التي سبقه إليها مثله الشخصي مسلم بن عقيل ، والذي أعدّ القوى الداعمة والمساندة بهدف تلبية نداء الشعب المضطهد ، وإلهاب تلك القوى المناصرة ، وتحويلها إلى نار تُحرق جذور الاستبداد الأسود ، وتُحطّم قصر الظلم والاستعباد ، وتبني على أنقاض حكم بني أمية الظالم ، حكومة إسلامية مئة بالئة ، تنشر العدل وتعمل بالقسط . وقد اختار ابن النبي (ص) أسلوباً ومنهجاً تمثل في جواب الحجر بالحجر ، والقوة بالقوة ، ومن خلال خطبته النارية عليه السلام يتبين بأن شروط انتصار الحسين على العدو كانت موجودة .

■ إن دعوة أهل الكوفة واستصراخهم لإمام الأمة ، شكّلت من دون شك أحد عوامل النهوض والثورة ، وهي بذلك أوجبت تكليفاً ووظيفة خاصة للإمام . لكن هذا لا يُشكّل دليلاً على أن وضع أهل الكوفة كان مناسباً ، ومُهيأً لنصرة الإمام إلى الدرجة التي كان يمكن المراهنة عليها ، لا سيما وأن نظرة المؤلف عن الإمام بأنه كان يُعطي أهمية بالغة لمسألة المحافظة على الذات ، وكما سبق وقلنا فإنه لا يمكن البرهنة على هذا الموضوع من خلال هذه الأدلة .

ص ٦٢ - ٦٣ : وهنا لا بد من الإشارة إلى أن ابن عباس الذي ساد البصرة حسب رأي أغلب المؤرخين ، في زمان أمير المؤمنين في العام (٤٠ هجري) ذاهباً إلى مكة^(١) ، لم يعد إليها بعد ذلك . ومنذ ذلك الحين حتى

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٠٨ - ١٠٩ .

العام (٦٠ للهجرة) يكون قد مضى على مغادرته للعراق ، عشرون سنة ، مما يعني أنه لم يكن مُطلِعاً عن قرب على أوضاع العراق ، وخاصةً الكوفة منه في الوقت الذي تكون فيه أوضاع العراق الاجتماعية قد تغيّرت تغيّراً كلياً في هذه المدة الطويلة ، كما أنّ جيلاً جديداً قد تشكّل في هذه الأثناء وأصبح يُشكّل غالبية سكان العراق الجديد في هذه الأثناء .

■ لكنه ثبت عملياً بأنّ تحليل ابن عباس كان صحيحاً ، وقد قال الإمام : « لله دُرّ ابن عباس ينظر من ستر رقيق » .

ص ٦٤ : إنه ينبغي القول وبدون أي تعصّب : نظراً لأنّ معلومات ابن عباس ، حول أوضاع الكوفة ، لم تكن ذات قيمة ، بينما كانت معلومات مسلم بن عقيل أكثر دقة ، وأكثر واقعية ، فإنه من الطبيعي في هذه الحالة أن يكون رأي مسلم بن عقيل ، هو الأوزن ، والأكثر صلاحاً .

■ عجباً ! إنّ كل أقوال المعارضين تنتقد تقييم مسلم بن عقيل لأوضاع الكوفة ، وتتهمه بالضعف .

ص ٦٥ : وعلى هذا الأساس ينبغي القول : بأنّ كل الذين حذّروا الإمام من التوجه إلى الكوفة ، عطفاً وإشفافاً عليه ، لم يكونوا في الواقع مُطلّعين على الأسرار العسكرية للإمام ، وعلى وجود ذلك الجيش من المتطوعين ، الذي كان ينتظر وصول الإمام عليه السلام ، وإلاّ لما أبدوا ما أبدوه من اعتراض .

■ إنّ أساس اعتراض المعارضين هو في عدم وجود مثل هذا الجيش .

ص ٦٦ : لكنه يجب أن نعرف بأنّ التنبؤ بالأوضاع السياسية ، وتقييمها شيء ، وبروز الحوادث من خلف الستار ، شيء آخر .

■ إنّ المؤلف يُريد القول بأنّ انقلاب الأوضاع فجأة لغير صالح الحسين كان أمراً غير مترقب ، وغير قابل للتنبؤ ، وما تنبّأت الفرزدق وابن عباس إلّا رمية من غير رام .

ص ٦٧ - ٦٨ : فهل يمكن القول هنا^(١) : بأنّ تنبؤ رسول الله (ص) بخصوص الغلبة على العدو لم يكن دقيقاً ، بينما كانت نبوءة « عبد الله بن أبي » قائد المنافقين أكثر دقة ؟! بالطبع كلا . بل إنّ تنبؤ وتقييم رسول الله (ص) كان دقيقاً وصحيحاً تماماً ، ودليل ذلك هو النصر الذي أصاب المسلمين في البداية ، لكن الحادثة المستترة - غير القابلة للتنبؤ - وهي مخالفة الرُماة لتعليمات النبي ، وتخلفه مواقعهم ، سببت تلك الانتكاسة للمسلمين ، وإصابة النبي بالجراح . وهذه الحادثة غير المترتبة لم يكن بالإمكان التنبؤ بها من خلال مجريات الأمور العادية ، والقنوات الطبيعية ، للتحليل ، كما لم تكن هناك وسيلة يسد رسول الله (ص) ، لاجتناب وقوع مثل تلك الحادثة .

الإمام الحسين (ع) أيضاً قام بدوره بدراسة أوضاع العراق ، وتقييم الحالة فيه ، بل وفي الحجاز ، وفي سائر الأقطار الإسلامية ، بشكل دقيق ، وظل لأكثر من أربعة أشهر (من ٣ شعبان إلى ٨ ذي الحجة) وهو يتابع بدقة ، ويدرس الأوضاع السياسية ، ويُطالعها من كل جوانبها ، إلى أن تأكد لديه من خلال القنوات الطبيعية ، والظروف العادية ، التي كانت سائدة ، بأن إمكانية النصر العسكرية ، كانت موجودة . لكن ابن عباس الذي خالف فكرة خروج الإمام إلى العراق ، لم يكن واقفاً على عمق المتابعة ، والمعاشية السياسية للأحداث ، من قبل الإمام .

■ إنّ هذه المقارنة غير صحيحة . فالمسلمون في أحد كانوا مستعدين للقتال والتضحية ، وكانوا يمتلكون القدرات الكافية لذلك . وما حصل من انكسار سببه خطأ واحداً ارتكبه الرُماة . بينما الحالة في الكوفة واستناداً إلى أقوال الفرزدق ، والآخرين ، التي أفادت بأنّ الناس « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » أي إنّها لم تكن مستعدة للقتال . كل ما هنالك كانت لديها الأحاسيس والعواطف المناصرة للإمام وليس الاستعداد للتضحية والفداء في سبيله .

ص ٦٨ : ولما كان موضوع مخالفة الرُماة لتعليمات رسول الله (ص)

(١) هنا أي في معركة أحد .

الخاصة ، بمعركة أحد ، من الموضوعات المستترة ، فإنه لا يجوز التدخل في حريم التقييم الخاص لرسول الله (ص) وتنبؤاته بانتصار معسكر الإسلام في تلك المعركة . وهكذا أيضاً لا يحق لنا أن نخلط بين الحوادث المستترة التي سببت هيمنة عبيد الله بن زياد فجأة على الكوفة ، وبين تقييم الإمام الحسين (ع) بشأن الأوضاع السياسية للعراق ، إذ إن مثل هذه الحوادث المستترة لا يمكن التنبؤ بها من خلال القنوات العادية للتحليل .

■ إن المؤلف هنا يدعي بأن الإمام كان قد شخّص أوضاع وأحوال العراق بأنها تميل لصالح استلامه السلطة في الكوفة ، ولكن الأحداث أثبتت عدم صحتها .

وقد يسأل سائلٌ هنا : إذا كان الإمام الحسين (ع) ينوي تشكيل الحكم (استلام السلطة) فما الذي يمتاز به الإمام عن عبد الله بن الزبير ، الذي كان بدوره أيضاً يسعى لاستلام السلطة ؟

لكننا نقول بأن مثل هذا السؤال كان يمكن أن يُطرح في زمن رسول الله (ص) ، فنقول وما هو امتياز رسول الله (ص) على أبي سفيان والمشركين ، الذين كانوا يسعون هم الآخرون إلى نيل الغلبة في معركة أحد ، وتحقيق الانتصار على الطرف المقابل ؟

والجواب ، هو : إن رجال الله الذين يُقاتلون في سبيله ، يمتازون على رجال الهوى والدنيا بامتيازات ثلاثة . . .

■ إن مثل هذا السؤال والجواب لا محل له من الإعراب هنا وهو نوع من الجدل اللفظي ، والعبث المحض .

ص ٧٠ : هناك سؤال يطرح نفسه هنا على كل عاقل وهو : إذاً، ماذا حلّ بذلك الجيش من المتطوعين الأقوياء ، الذين أعلنوا استعدادهم لنصرة الحسين ؟ ولماذا لم ينجدوه ويقضوا على حكم يزيد ؟ !

لكن مثل هذا السؤال يتبادر إلى ذهن المرء كذلك بشأن حالة أمير المؤمنين

علي (ع) : وهو ماذا حلّ بجيش الإمام القوي في حرب صفين ؟ ولماذا لم ينهض
بمهمة القضاء على معاوية ، ونصرة علي (ع) ؟!

■ إنه لقياس غير صحيح البتّة

ص ٧١ : إنّ جيش الإمام الحسين القوي ، وبعد انقلاب الحالة في العراق
وإغلاق الطرق ، لم يتمكن من إقامة اتصالاته مع الإمام ، ومع إرسال عبيد الله
ابن زياد لجيش الحر بن يزيد بهدف جلب الإمام ، فإن قيادة الجيش الشعبي قد
سُلبت عملياً من الإمام ، وفي مثل هذه الحالة أصبح النصر العسكري بالنسبة
للإمام أمراً غير ممكن .

■ ولم يكن هؤلاء الجند من غير أهل الكوفة . وأهل الكوفة كلهم كانوا على
هذه الشاكلة ، وإلا كيف استطاع عبيد الله بن زياد بعدد محدود من الأفراد أن
يُسيطر على أوضاع الكوفة ، وينتصر على مسلم بن عقيل ، المقيم والمتحكم
بأوضاع الكوفة ، حتى لحظة وصول ابن زياد ؟

ص ٧١ - ٧٥ : وعليه فإنّ السبب الأساسي في عدم تحقق الانتصار
العسكري للإمام علي (ع) في حرب صفين ، وللإمام الحسين (ع) في نهضته ، هو
انقطاع الصلة وفك الارتباط الحاصل بين موقع القيادة ، وبين الجيش التابع ،
مع فارق أنّ سبب هذا الانفكاك ، والقطع ، في حرب صفين كان في سيطرة
حالة النفاق ، والاختلاف الشديد ، في صفوف جيش الإمام علي (ع) ، بينما
سبب ذلك في حالة الإمام الحسين (ع) هو تحوّل أوضاع الكوفة ، وانقلابها ،
وسيطرة عبيد الله بن زياد ، وإغلاقه للطرق ، وقطعه الإمدادات .

فإضافة إلى خطاب كثير بن شهاب نفسه ، فقد صعد عدد من أصحاب
كثير ورفاقه ، وخطبوا بالناس من على سطح الإمارة ، الأمر الذي ترك أثراً بالغاً
في معنويات أنصار مُسلم وجيشه .

■ وهذا هو دليل عدم استعداد أهل الكوفة للحرب ، واكتفائهم
بالعواطف التي أبرزوها لصالح الإمام . ثم إذا ما تصورنا أنّ مثل هذه الحملة
المضادة ، قد حصلت في صفوف جيش أمير المؤمنين في صفين ، أو أصحاب النبي

في معركة أحد ، مع مُرادفة ذلك بالتهديد أيضاً ، فهل كانوا سيتفرقون أيضاً ؟ لكن الذي كسر جيش أحد هو الخطأ العسكري المعروف ، كما أنَّ الذي كسر اندفاعه علي وأصحابه هو ذلك الجهل والتحجر ، الذي أصاب بعض قياداته وأعوانه ، وليس تهديدات العدو . إنَّ الشعب الذي يتفرق عن قائده بالتهديد والوعيد ، لا يكون مستعداً للثورة والجهاد من الأساس .

ص ٨٣ : إنَّ الاختلافات في وسط أهل الكوفة ، وحالة الانحطاط والتخلف ، لديهم لم تكن أسوأ من حالة قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة ، ومع توفر الشروط التي ذكرناها فإنَّ تشكُّل السلطة والحكم الحسيني ، وقلب الأوضاع ، ودفعها باتجاه المراد الحسيني بدعم قوة أهل الكوفة ، كان أمراً ممكناً جداً .

■ هل صحيح المقارنة بين أهل الكوفة وأهل الأوس والخزرج ؟

ص ٨٥ : في مثل تلك الظروف الإيجابية قرّر الإمام الحسين (ع) العمل على إقامة الحكم الإسلامي ، والبدء بإصلاحاته المرجوة في ظل تلك الحكومة المنتظرة ، وفي تلك الأيام كانت أكثرية أهل الكوفة تُريد الحكم الحسيني من أعماق قلبها ، وليس من باب النفاق .

■ إنَّ القاريء هنا كما أظن يستنتج ما يلي : إذا كان الهدف من النهضة الحسينية هو هذا الذي يُحدِّده المؤلف فقط وإذا كان استعداد أهل الكوفة كما يطرحه المؤلف ، وإذا كان المخطط الموضوع لاستلام السلطة هو بالشكل الذي يطرحه المؤلف أيضاً ، فإنَّ النقص لا بد وأن يكون في التكتيك ، والقيادة ، وإنَّ دفاعات المؤلف ضعيفة أيضاً .

... إنَّ المختار بن أبي عبيدة قد تمكن من تشكيل حكومته بمساعدة أهل الكوفة هؤلاء أنفسهم ، واستطاع أن يسيطر على قسمٍ وسيع من البلاد الإسلامية ، ولا شك بأنَّ محبة أهل الكوفة وإخلاصهم للإمام الحسين (ع) أكثر بمئات المرات من محبتهم وإخلاصهم لسليمان بن صرد والمختار . بل إنَّ إطاعة أهل الكوفة وانصياعهم لسليمان بن صرد والمختار لم يأت في الواقع إلّا بسبب

عشقهم وإخلاصهم للإمام الحسين (ع) .

■ بل إن شهادة الإمام هي التي نبّهت أهل الكوفة ، وأيقظتهم ، وجعلتهم يُخلصون في ثورتهم وقيامهم . وإلا فإنّ حالتهم قبل استشهاد الإمام ، ليست هي كحالتهم وروحيتهم بعد الاستشهاد .

ص ٨٦ : ٣ - إنّ الأقلية المناقضة والمخادعة من أمثال عمرو بن الحجاج^(١) ، والذين يمكن العثور عليهم في أية نهضة ، كما هو حالهم بين أصحاب رسول الله (ص) ، وأصحاب أمير المؤمنين علي (ع) . هم الذين يتوجه إليهم الإمام الحسين (ع) باللوم ، والعتاب ، والتوبيخ ، في يوم عاشوراء ، وليس تلك الأكثرية المخلصة . إذ إنّ تلك الأكثرية المخلصة ، التي كانت موضع علاقة الإمام ومحبته ، قد تلقت رسالة الشكر والتشجيع المعروفة التي أرسلها إليها الإمام ، وهو في الطريق إلى الكوفة كما ورد ذكرها في الصفحة (٥٩) .

■ ليس صحيحاً .

ص ٨٩ : بديهي القول إنّه إذا ما كانت الحكومة الإسلامية القوية ، قد تشكّلت حقاً كما كان يُريدها الإمام الحسين (ع) ، وبالتالي أصبحت زعامة البلاد بيد سبط النبي (ص) ، وبالطبع انتقلها فيما بعد إلى أهل بيت العصمة والنبوة ، الذين كانوا سيديرون تلك البلاد الإسلامية العظيمة ، فإن وحدة سياسية قوية ، ومفيدة ، وعظيمة ، كانت ستنتج من خلال تلك التطورات . ومن ثم فإنّه كان من الطبيعي أن نرى العالم الإسلامي كله وقد أصبح تابعاً لأهل بيت العصمة والبطاهرة ، بعد مُضي أقل من نصف قرنٍ من الزمان ، وهنا بالذات يمكن اكتشاف حقيقة التشيع . ولو كان ذلك قد حصل لما كنا قد رأينا هذا الشقاق والخلاف الضار الموجود بين المسلمين ، والذي يعود في منشئه إلى سقيفة بني ساعدة . ولما بقي شيء اسمه التضاد المعروف بالتضاد الشيعي - والسني ، ولما كان لحق بالإسلام كل هذه الضربات التي لحقت به . وفي الحقيقة يمكن القول بأنّ الإمام الحسين (ع) - بانتصاره في واقعة كربلاء - كان بإمكانه تلافي كل تلك

(١) يدور البحث هنا حول تقسيم مجتمع أهل الكوفة .

الأضرار التي لحقت بالمجتمع الإسلامي من قبل الحكومات السابقة طوال نصف قرن من الزمان ، ولا سيما حكومة ابن أبي سفيان المضادة للإسلام .

وعليه يجب القول : إنَّ حصول الوحدة السياسية ، والقضاء على الاختلافات المسلكية ، والمذهبية ، والتي وجدت تربتها الخصبة في جو الاختلاف على السلطة ، والخلافة ، كان يمكن أن تكون من الآثار المفيدة ، والقيمة للحكومة الحسينية .

■ إنها نظرة مثالية للغاية .

من مجموع التحقيقات التي حصلت حتى الآن يتضح لنا بأنَّ الإمام الحسين (ع) وبعد أن امتنع عن مبايعة يزيد ، فقد هاجر إلى مكة ، وانتظر هناك ، وهو يدرس الأوضاع السياسية ، بكل دقة وعمق ، حتى وصله تقرير مسلم بن عقيل المطمئن ، الذي يُستخلص منه بأنَّ جيش المتطوعين القوي للإمام في الكوفة والبصرة ، يبلغ مئة ألف رجل .

■ جيش المئة ألف رجل !

ص ٩٠ : . . . عندما أرسل الإمام الحسين (ع) مسلماً إلى الكوفة ليستقضي الحقائق فيها ، كان قد أمره بالعودة إلى مكة في حالة رؤية أوضاع الكوفة غير مناسبة ، وغير مُهيأة لانتقال الإمام إليها . وعليه فإنه لو كان مسلم قد عاد إلى مكة ، وقال : بأنَّ أهل الكوفة ليسوا على استعداد لتحمل الواجب ، فإنَّ الإمام ما كان سيخرج إلى الكوفة .

■ إذا كان « مسلم » قد بعث بتقرير سلبي عن أوضاع الكوفة لما كان الإمام قد توجه إليها . (ولكن ماذا كان سيفعل ؟ الجواب ليس واضحاً من قبل المؤلف) .

ص ١٠٩ : . . . مع قراءة هذه الرواية ، قد يتصور البعض بأنَّ الإمام قد انطلق من مكة متجهاً نحو الكوفة ، بهدف أن يقتل هناك . لكن علينا أن نعرف هنا بأنَّ ناقل هذه الرواية هو « سفيان بن وكيع » ، وهو من أهل السنة المتهمين بالكذب ، وهو هنا يلصق كذباً واضحاً بالإمام ذلك أنه يقول : إنَّ الإمام قد

قال : « إن هناك مصرع أصحابي ، لا ينجو منهم إلا ولدي علي (ع) » .
في حين أنه قد بقي عدد لا بأس به من أصحاب الإمام نذكر لكم بعض
أسمائهم هنا . . .
■ الأصحاب غير المرافقين .

ص ١٠٩ و ١١٠ : ثم ما معنى نسبته مثل هذا القول إلى الإمام : « لولا
تقارب الأشياء وهبوط الأجر لقاتلتهم بهؤلاء ؟ ! » هل يعني ذلك أن استعانة
الإمام بالملائكة في مقاتلة العدو ، وقتله له ، وإحيائه للإسلام يعني ضياعاً
لأجره ؟ !!

■ إن المقصود هنا هو أن الملائكة تقتل العدو بتعليمات مني (بإمرتي) .
. . . وكما ترون فإن أهل السنة قد نقلوا هذه الرواية القبيحة ، وغير
اللائقة ، ونسبوها إلى الإمام ، واعتبروها من كرامات الإمام ، ولم يستحوا من
ذلك .

■ بل سفيان بن وكيع .

ص ١١١ : والذي يبعث على العجب أيضاً بأن السيد الجليل المرحوم ابن
طاووس رضوان الله عليه قد نقل هذه الرواية في كتابه اللهوف (ص ٥٤) دون أن
يرى أية نقطة ضعف في الرواية .

■ كيف حصل حتى تحولت تلك اللهجة الشديدة هناك إلى لحن مخفف ؟

ص ١٢٥ : يقول ابن طاووس رحمه الله : « ورويت من أصل لأحمد بن
الحسين بن عمر بن بريدة الثقة ، وعلى الأصل ، أنه كان لمحمد بن داود القمي
بالأسناد عن أبي عبد الله (ع) قال . . .

■ والظاهر أن صيغة الرواية تفيد المجهول ، والمقصود هو أن أحداً نقل لي
هذه الرواية من هذا الكتاب . . . وإذا كان غير ذلك فالرواية مُسندة وواضحة
وعندها يصبح إشكال المؤلف لاغياً .

ص ١٢٦ : من البديهي القول بأن نقل (ابن مخنف) مُرسل أيضاً مثل نقل (اللهوف) ، ذلك أن الناقل - الراوي - الأصلي مجهول . وفي هذه الحالة فإن مُرسل (أبي مخنف) يتعارض مع مُرسل (اللهوف) وبالتالي فإن كليهما يسقط من الاعتبار وكأنه لم ينقل شيئاً لا من قبل (أبي مخنف) ولا من قبل صاحب (اللهوف) والنتيجة ستكون أن نقل اللهوف - نقل أبي مخنف - صفر .

■ المطروح هنا معادلة جمع وليس معادلة طرح .

... « عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : كتب الحسين بن علي من مكة إلى محمد بن علي ، ومن قبله من بني هاشم ، أما بعد ، فإن من لحق بي استشهد ، ومن لم يلحق لم يُدرِك الفتح والسلام » .

■ وهذا بدوره يُدلّ على أن الإمام كان يعلم بشهادته ، بل وكان يعلم حتى مكان استشهاده .

ص ١٢٩ : وإذا ما قال أحدهم : بأن القتل في سبيل الدين ، مطلوب من الله ، فإنّ جوابه هو أن القتل ليس هو المطلوب من قبل الله ، بل المطلوب هو حماية الدين ، والدفاع عنه ، وهو ما يُلازمه أحياناً حصول القتل . إذاً ما أرادته الله ، وما هو مطلوب عند الله الدفاع عن الدين ، وليس القتل .

■ وهو كذلك ، فكما يكتب الكاتب ، يعتقد الجميع أيضاً بأن المقصود ليس عمل القتل الذي يحصل للإمام من حيث أنّه عمل قتل ، وأنّ علينا التوسل بهذا القتل . إنّ المطلوب الأساسي هو حماية الدين الذي يستلزم صرف الأموال ، والجهد ، والوقت ، والأنفس . ولهذا السبب ترى أنّ صرف المال على طريق الجهاد في سبيل الله أمر مطلوب بالرغم من أنّ إتلاف المال أمر غير مطلوب . وصرف الأنفس في المواقع التي يتطلبها أمر الجهاد ينطبق عليها نفس الحكم . ففي (نهج البلاغة) ورد أنّه عندما أبلغ رسول الله (ص) الحسين (ع) بخبر استشهاد الصبر : وكيف صبرك على ذلك ؟ فقال الحسين إنّ هذا من مواطن الشكر ، وليس الصبر . فالشهادة يُشكر لها . وكل المؤمنين أنفسهم بالشهادة من هذا القبيل . وقد ورد في الأدعية « وارزقني قتلاً في سبيلك » .

ص ١٣١ - ١٣٢ : وعليه لا معنى للقول بأن رسول الله (ص) قد أمر الإمام الحسين (ع) : أن اذهب يا حسين ، وعرض نفسك للقتل* ، لأن الله شاء أن يراك قتيلاً . بل إنه لو أراد رسول الله (ص) أن يصدر أمراً للإمام الحسين (ع) ، فإنه لكان قد قال له : اخرج لحماية الإسلام ، لأن الله شاء ، أن يراك حامياً ، ومدافعاً ، عن الإسلام . وهذا بدوره لا يحتاج إلى تعليقات جديدة*** خاصة ، لأن حماية الإسلام واجب مفروض على كل مسلم . وعلى هذا فإنه ما أن توفرت*** شروط الانتصار العسكري للإمام الحسين (ع) ، فإنه ومن أجل إنقاذ الإسلام ، وإقامة السلطة والحكم الإسلامي ، خرج إلى الكوفة بقرار حاسم من دون التوقف عند كلام هذا وذلك .

■ إنه لأمر عجيب جداً ! فمعنى الجملة هو : اخرج إلى الثورة فالله يحب مثل هذه الثورات - ***إنها ليست تعليقات جديدة ، بل الأمر يتعلق بمصداق معين وحالة خاصة . ***لماذا يجب أن تكون شروط الانتصار متوفرة حتماً ؟

ص ١٣٣ : يكتب المؤرخون : بأن الإمام الحسين (ع) مثله مثل سائر الحجاج الآخرين ، كان قد بدأ مراسم الحج بالشروع بالإحرام في اليوم الثامن من ذي الحجة - يوم التروية - ولكنه قبل أن يتوجه إلى عرفات ، أحس فجأةً بخطر يهدده ، فانصرف عن تأدية مراسم الحج العادية ، وأقام العمرة سريعاً ، وخرج من إحرامه ، واتجه صوب الكوفة ، حتى لا يقع بيد عمال يزيد .

■ لا يمكن التصديق بأن الإمام قد قرر خلال ساعات أن يعد نفسه ، وأهله ، للرحيل ، واتخاذ قرار السفر .

ص ١٣٣ - ١٣٤ : إن النتيجة التي يمكن استخراجها من البحث والتمحيص حول حديث : « اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً » هي أن هذا الحديث ليس له لا سند معتبر وموثق ، ولا معنى صحيح ومنطقي .^{٢٠}

■ إن معناه من خلال فهم جملة : إن الله قد شاء . . ليس فيه إشكال أما إذا كان هناك إشكال في الحديث ، فإنه يكون في سنده ، أو مضامينه الأخرى .

ص ١٣٥ : ولكن كيف يكون مقتل الحسين بن علي (ع) سبباً في ترويع الدين ، وتقدم الإسلام؟ إنه المشكل الذي لم نجد له حلاً حتى الآن . فهل أن وجود الإمام الحسين (ع) كان يُشكل مانعاً لتقدم قوات الإسلام حتى إذا قُتل الحسين ، نتج عن ذلك ترويع لصالح الإسلام ؟ . وهل تمكن المسلمون بواسطة مقتل الحسين التقدم أكثر فأكثر في جبهات الشرق والغرب ؟ أم هل كان مقتل ابن النبي (ص) سبباً في تنفيذ أحكام الإسلام ، وتطبيق مقررات الدين أكثر من ذي قبل ؟

■ الكاتب هنا يقوم بعملية مغالطة واضحة .

ص ١٤٠ - ١٤١ : . . . أحرّم استعداداً للحج ، وكان ينوي التوجه إلى عرفات ، لكنه لما أحس بالخطر انصرف عن الحج ، وأدى العمرة ، وخرج من الإحرام ، وتحرك نحو الكوفة .

■ سبق وقلنا بأن مثل هذا الأمر غير ممكن أن يكون قد حصل بهذه الطريقة أي إن قرار التوجه إلى الكوفة ، لا يمكن أن يكون قد أُخذ خلال ساعات ، ذلك اليوم ، وبتلك السرعة ، إلا إذا قلنا بأن الإمام كان قد أعد كل شيء للتوجه نحو الكوفة ، بعد إتمامه لمراسم الحج إلا أنه قام فجأةً بالتعجيل وبالانطلاق ، بسبب الأخطار المستجدة .

ص ١٤١ : وأما نتيجة الكلام ، فإنها ستكون مع الافتراض ، بأن كل هذه الخطبة^(١) قد تم إيرادها في مكان واحد ، ولكن لما كانت جملة « فإني راحل مصباحاً . . » موجودة فيها فإنه ينبغي القول : بأن الإمام لم يُلَق هذه الخطبة في مكة ، ذلك أن الإمام لم يكن ينوي التحرك من مكة في صباح يوم (٨ ذي الحجة) بل كما سبق وأشرنا فإن حركة الإمام في ذلك اليوم ، قد تمت بشكل فجائي ، وبدون سابق تصميم ، ونتيجةً للاضطرار ، والإجبار .

■ إنه لأمر مستبعد جداً جداً .

(١) المقصود هنا خطبة « حُط الموت على وُلد آدم . . . »

ص ١٤٢ : كتب أحد علماء النجف يقول بأن الإمام قد أورد هذه الخطبة وهو في الطريق . فإذا كان هذا النقل موضع ثقة ومُسنداً ، فإنه قد يكون كذلك بالفعل ، وإن مثل ذلك قد حصل أثناء توقف الإمام في أحد المنازل ، ولدى سماعه خبر شهادة مسلم بن عقيل ، حيث أراد عليه السلام المبيت هناك ، والاستمرار في المسير صباح اليوم التالي .

■ إنه فرض جيد ، ولكن هل لهذه الفرضية سند أم لا ؟

ص ١٤٢ - ١٤٣ : ولنفترض الآن بأن الإمام قد أورد هذه الخطبة من أوطأ لآخرها في مكة قبل خروجه منها نحو الكوفة . هنا ينبغي علينا دراسة أوضاع وأحوال المحيط الذي أنشئت فيه هذه الخطبة ، حتى نصل إلى إدراك صحيح لهذه الخطبة :

إنّ تحقيقات الإمام الحسين (ع) التي دامت لعدة أشهر ، ودراسته الدقيقة ، والمعمقة ، لميزان القوى ، بين الحكومة من جهة ، والقوى العسكرية التابعة له من جهة أخرى ، أعطت النتائج التالية : إنّ عوامل الانتصار كانت قد توفرت لحركة الإمام وإنه فيما لو تمت السيطرة على الكوفة بسبب تلك الظروف المساعدة ، وتشكيل الحكم الإسلامي الحسيني ، فإنه يصبح بالإمكان إنقاذ الإسلام في ظل اقتدار الحكومة الوليدة ، كما يمكن أيضاً إحياء سنة النبي (ص) .

لكن من المعلوم أيضاً بأنّ عمال الحكومة لم يكن من المنتظر منهم أن يبقوا جالسين دون حراك منهم إذ إنهم يراقبون الأحداث ، والأوضاع ، فإنّ احتمال وقوع المجابهة العسكرية موجود أيضاً . وعليه ينبغي على الأفراد المؤهلين للكفاح والقتال أن يكونوا مستعدين لتقديم أي نوع من أنواع التضحية والفداء ، بكل جدية وقاطعية ، لا سيما قائد هذه النهضة الذي ينبغي عليه أن يكون على أتم الاستعداد لمثل تلك التضحية .

وفي مثل هذه الظروف فإنّ الإمام الحسين (ع) سيُخاطب بلا شك أصحابه بلهجة مفعمة بأحاسيس التضحية والفداء ويُعلن لهم النفير العام .

■ لكن هذا التحليل لا ينسجم مع لحن الخطبة القاطع .

ص ١٥٤ : الحقيقة هي أن أمير المؤمنين علياً (ع) عندما يعقد العزم على محاربة معاوية ، فإنه يُعَيِّد كل قُواه ، حتى يقضي على معاوية ، ويحوه من على وجه البسيطة ، وبالتالي فإن كل جهده منصب على تحقيق هذا الهدف ، ولا يعمل بالتالي أبداً على الوصول إلى درجة الاستشهاد ، أو ينشط من أجل أن يُقتل هو في المعركة .

■ إن الحديث لا يدور حول العمل ، وبذل الجهد ، من أجل تحقق القتل .

ص ١٥٦ : مما سبق يتضح بأن ما قام به الإمام الحسين (ع) منذ اللحظة التي قرر فيها التوجه نحو الكوفة هو السعي بالدرجة الأولى لمقاومة الحكم ، واستبداله بحكومة إسلامية مئة بالمئة وإحياء سنة النبي ، ولم يكن ، قد بذل أي جهد يذكر من أجل تحقق القتل ، أو أنه إنما تحرك لتحقيق مثل هذا الهدف .

■ إنه لأمر عجيب جداً !

ص ١٥٧ : لكن بعض الأفراد ، وبسبب تقارن زمانهم مع زمان ما بعد وقوع حادثة كربلاء ، فإنهم تراهم يولون جُل اهتمامهم لشهادة الإمام فقط ، دون سائر مجريات الواقعة وبذلك يكون التركيز لديهم على خطبه الخاصة بالشهادة ، دون الاهتمام بخطبه عليه السلام مثلاً بشأن ضرورة إقامة الحكومة الإسلامية ، وضرورة تغيير الحكومة الظالمة ، والقضاء على جذور الاستبداد ، ونصرة المظلوم المنادي بالعدالة والقسط .

■ أليس حدوث عملية الثورة حتى الموت ، إحدى علل هذا التفكير ؟

ص ١٥٨ : هنا لا يريد الصديق يوسف أن يقول : بأن السجن هو رغبتني ومرامي ، وإنني أسعى من أجل ذلك ، فالسجن معاناة ، وألم ، وعذاب ، للجميع بل إنه أراد أن يبرز قبح الفسق والفجور ، من خلال المقارنة ، بين الذهاب إلى السجن ، مع كل ما يرافق ذلك من معاناة ، وآلام ، وبين الفرق ، والتلوُّثِ بآفة الفسق والفجور . وبالتالي إظهار قبح الفجور بأسوأ شكل ممكن .

■ بالضبط كذلك هي قضية الحديث آنف الذكر .

ص ١٦٠ : فمثلاً لو أن عبيد الله بن زياد قد بايع مُسليماً (ابن عقيل)، وكتب مسلم إلى الإمام يشرح له ما آل إليه الوضع بالنسبة إلى ابن زياد ، وكيف أنه قد سلّمه أمر الحكومة هناك ، وأنه وأهل الكوفة ينتظرون مجيئه . فإنّ ذلك كان سيتطلب من الإمام حسب تصوّر أولئك الناس بأن يكتب إلى مسلم يقول : يا مسلم قل لابن زياد بأنني غير راغب في حكم العراق ، ولست كذلك راغباً في القضاء على حكومة يزيد ، بل إنني أود التوجه نحو كربلاء ، حتى أقتل هناك ، وعليه فإنّ المطلوب منك أن تقنع ابن زياد بضرورة الإمساك بالسلطة ، وإرسال الجيش خلفي لمحاصرتي ، وإجباري على النزول بأرض كربلاء . ومن ثم تعزيز تلك القوات بقوات أخرى ، حتى يتمكنوا من قتلي ، وقتل أصحابي وأسر أهل بيتي .

■ إنها مهاترات

ص ١٦١ : أو إنه لو حصل ، وتاب عمر بن سعد صباح يوم العاشر من محرم ، وقرر هو وجيشه الالتحاق بالحسين ، واستخدام ذلك الجيش في السيطرة على الكوفة ، ومن ثم التوجه للقضاء على حكم يزيد ، فإن المطلوب من الإمام الحسين (ع) ، حسب تصوّر ذلك البعض بأن يطلب الإمام من عمر بن سعد سحب توبته ، وأن لا يضع يده وقواته بيد الإمام ، بل استمراره في الحرب ، وإصدار أوامر قتل ابن النبي (ص) ، وإنه إذا ما رفض عمر بن سعد كل ذلك من الإمام فإن برنامج الحسين (ع) - برنامج القتل - عندها يبقى دون تنفيذ ، مما يتطلب منه العودة إلى المدينة ، وفي حال أن وجه أحدهم السؤال له : ولماذا عدت إلى المدينة ؟ فإنّ عليه القول : إنّ خطي كانت أن أقتل على يد عمّال حكومة يزيد ، ولما رفض أولئك العمّال قتلي ، وأسر عائلتي فإنني تراخي قد عدت إلى المدينة مضطراً !!!

■ إنّها (مرة أخرى) مهاترات (لا أكثر) .

ص ١٧١ - ١٧٢ : بعد التأمل التام في الوثائق التاريخية ، يتضح لنا بأن ثورة الإمام قد بدأت بهجوم أجهزة السلطة الحكومية ضده ، وعلى أربعة مراحل :

١ - من الوقت الذي قرر فيه الهجرة من المدينة إلى مكة حتى اللحظة التي كان لا يزال فيها مصمماً على البقاء في مكة .

٢ - من اللحظة التي قرر فيها الخروج إلى العراق ، حتى لحظة المواجهة ، مع جيش الحر بن يزيد الرياحي .

٣ - من لحظة المواجهة مع الحر حتى بدء المعركة .

٤ - مرحلة المعركة .

■ حيث يرى المؤلف أن نهوض الإمام وقيامه لم يكن ابتداءً أي (هجوماً) إلا في المرحلة الثانية .

ص ١٧٤ : فهل من الممكن التصور لشخصية فكرية رفيعة المستوى مثل ابن الإمام علي بن أبي طالب : بأن يقدم على عمل هجومي (ثورة ابتداء) من دون حساب دقيق لتفاصيل ما تحتاجه مثل هذه الثورة من تجهيزات ، ومستلزمات عسكرية ولوجستية ؟! مع العلم أن مثل هذا الإقدام مع عدم توفر القدرات الكاملة ، لا يعني سوى خلق الفوضى والتشنج داخل المجتمع ، وانتهاء ذلك كله بالهزيمة المرة للمهاجرين .

■ لماذا وكيف من دون حساب دقيق ؟

***ثم أي نظم هذا الذي سيفرط عقده ؟! النظم القائم على الظلم والاستبداد ، وخنق الأنفاس في الصدور ؟!

ص ١٧٥ : لقد أثبتت التجربة بأن الشخصيات الدينية العظيمة كانت على الدوام ملاذاً للمحرومين والمظلومين ، وقد استطاعت بتدابيرها العاقلة ، أن تُحدّ إلى حد كبير من انحرافات السلطة الحاكمة ، وذلك هو ما تم لعلّي (ع) مثلاً في زمن الخلفاء ، لا سيما زمن الخليفة الثاني ، حيث تمكن في كثير من الموارد ، تجنب الأمة أضرار الأخطاء السياسية ، والقضائية ، للسلطات الحكومية . لكن الشخصيات الوجيعة والبارزة والمحجوبة إذا ما أقدمت على القيام بالثورة ، من دون امتلاكها للقوة الكاملة ، بل لمجرد اعتمادها على التعاطف الجماهيري العام ،

وسمعتها الوطنية ، فإنها سوف لن تُخلف وراءها سوى المزيد من استبداد الحكومة القائمة ، واستفزازها ، أكثر من ذي قبل لاتخاذ الإجراءات المضادة ضد أفراد المعارضة ، ومن أجل تثبيت مواقع السلطة ، إلى ضرب كل الأفكار الخيرة ، وعدم التردد في ارتكاب أية جريمة تُحقق أهدافها .

وتأسيساً على هذه الحسابات الواضحة ، والحاسمة ، فقد تفضل أمير المؤمنين علي (ع) قائلاً : « وطفقت أرثي بين أن أصول بيد جداء ، أو أصبر على طخية عمياء » .

■ إذا كانت تلك الحسابات واضحة وحاسمة ، فما معنى « وطفقت أرثي » إذاً ، حيث يتضح هنا أن المطلوب أحياناً أن يكون العمل « أن أصول بيد جداء » ولذلك تراه عليه السلام يقول : وشرعت أقلب الأمور وأدرسها من كل جانب .

ص ١٧٦ : فهل من الممكن أن يتصرف الإمام الحسين (ع) بخلاف نهج أبيه ، فيقدم على البدء بالهجوم والحملة الثورية ضد السلطة الحاكمة ، من دون تهيئة القوة العسكرية الكافية ، ومن دون تحرش الحكومة به ؟ !
■ بلى ، إنه ممكن ، فالظروف المحيطة هنا مختلفة من ناحية الآثار التاريخية والنفسية .

ص ١٨٠ : لكنه لا يستطيع إضفاء المشروعية القانونية على حكومة يزيد المفروضة ، والعمل بذلك خلافاً لعقيدته ورأيه ، وخلافاً للواقع خاصة إذا ما توفرت لديه القدرة على الدفاع ، وعدم التسليم ليزيد ، دون قيد أو شرط .

■ أية قدرة ؟ !

ص ١٨٧ : . . . ذلك أن طريق تغيير الظلم ، قد أصبح منحصرأ بإقامة الحكومة القوية ، القدرة على قطع جذور الظلم ، والفساد . . .

■ أبداً لم تكن تلك هي الطريق الوحيدة [بل إن الثورة حتى الشهادة كانت هي الأخرى طريقاً أخرى لقطع جذور الظلم] .

ص ١٨٩ : في خطبة سليمان بن صرد هذه ، هناك جملة تُبين لنا بوضوح ماهية حركة الإمام في المرحلة الأولى وتلك الجملة هي : « وهذا الحسين بن علي قد خالفه ، وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل أبي سفيان » .

■ في هذه العبارة لم تتم الإشارة إلى امتناع الإمام عن المبايعة ، بل تمت الإشارة إلى المخالفة ، أي الإنكار والتمرد .

إنّ سليمان بن صرد ، الذي عاصر حركة الإمام ، والمُطلع على الأوضاع ، والأحوال السياسية لذلك العصر بشكل جيد ، شخّص حركة الإمام من المدينة إلى مكة ، باعتبارها حركة دفاعية ، مقابل هجوم حكومة يزيد . وهذا دليل واضح جداً على أنّ حركة الإمام في المرحلة الأولى ، كانت قبل كل شيء ، تعبيراً عن الدفاع والمقاومة ، اللذين لم يكن بالإمكان اجتنابهما مقابل هجوم السلطات اليزيدية .

■ ذلك ليس دليلاً أبداً . بل إن الجملة المذكورة تدل على التمرد ، ومخالفة الإمام لحكومة الطاغية ، ثم إنّ من الأمور المُلازمة للمخالفة هي الفرار من تعرض العدو ، ولذلك فإنه انتقل عليه السلام إلى مكة ، هروباً من تعرّض الحكومة له .

ص ١٩٠ : وهنا فإنّ الإمام (ع) قد ردّ على ابن عباس ضمن ما ردّ عليه إذ قال : « يا ابن عباس ! فما تقول في قومٍ أخرجوا ابن بنت رسول الله من وطنه ، وداره ، وموضع قراره ، ومولده ، وحرم رسوله ، ومجاورة قبره ، ومسجده ، وموضع مهاجرته ، وتركوه خائفاً ، مرعوباً ، لا يستقر في قرار ، ولا يأوي إلى وطن ، يُريدون بذلك قتله ، وسفك دمه » .

وخطاب الإمام هذا إلى ابن عباس يدلّ بوضوح على أنّه عليه السلام قد غادر المدينة خائفاً مرعوباً ، وتوجه إلى مكة متحصناً فيها ، من أجل المقاومة .

■ ليس هناك شك بأنّ مكة كانت أكثر أمناً للإمام بعد أن امتنع عليه السلام عن البيعة ، ولم يُعد قادراً على البقاء في المدينة ، خاصة وأنّ الحرمة كانت قد سقطت أيضاً .

ص ١٩٢ : ... وشخص عليه السلام بأن الطريق الوحيد لإنقاذ الإسلام والمسلمين صار مُنحصراً بإقامة الحكم الإسلامي .

■ لماذا الطريق الوحيد ؟ [فالثورة حتى الشهادة كانت طريقاً آخر أيضاً لانقاذ الإسلام والمسلمين] .

ص ١٩٦ : يجب أن نعلم أنه بعد اصطدام الإمام (ع) بجيش الحر بن يزيد ، فإن إمكانية الانتصار العسكري ، أصبحت متفتية ، مما يعني أن تكليف إقامة الحكومة الإسلامية أصبح لاغياً بالنسبة للإمام ، إذ إن أي تكليف مشروط بالاستطاعة . وهذا الأمر متفق عليه بين العلماء . وعليه فإن تحرك الإمام من ذلك الحين فصاعداً ، يصبح دفاعاً خالصاً كما أنه كان يجري في إطار المحافظة على الصلح والسلام ، واجتناب الحرب والمجابهة .

■ أي صلح ؟ فالمؤلف نفسه يعترف أن الطرف الآخر مُهاجم . فصلح كهذا يُعتبر استسلاماً محضاً .

ص ١٩٧ - ١٩٨ : وبديهي اعتبار كلام الإمام ، القاضي بالعودة ، من حيث أتى ، في حال رفض أهل الكوفة لاستقباله ، نوع من الكلام الجدي ، وليس تكتيكاً ومراوغة . فالإمام كان مصمماً على العودة بالفعل لو سمحوا له بذلك . لأن العراق كان قد أصبح تحت سيطرة ابن زياد التامة ، وها هو قد بعث جنده لجلب الإمام ، وعليه فإن إمكانية تشكيل وإقامة الحكم الإسلامي من قبل الإمام أصبحت متفتية ، ولما كانت القدرة متفتية ، فالتكليف يصبح لاغياً أيضاً . ومن هنا نرى أن تصميم الإمام في مثل هذه الحالة يصبح في العودة والحفاظ على قواه الاحتياطية متماسكة حتى تحين اللحظة المناسبة من جديد ، وعندها تتخذ الإجراءات الداعمة للإسلام مرة أخرى .

■ في الصفحة (١٩٣) ورد أن الإمام قد قال لأبي هرة الأزدي ولأبى رين غيره بأنهم - أي أجهزة السلطة - إنما يريدون قتلي ، مما يعني أن الإمام كان في خطر . وعليه يكون معنى الجملة هنا شيئاً آخر .

ص ١٩٨ : إن هذا المنهج ، منهج عقلاني للغاية ، وذلك عندما يواجه

المرء تدابير الحكومة الديكتاتورية المستهترة بالمقاومة ، والدفاع الحكيم ، مع ملاحظة اجتناب الفتنة ، وسيل الدماء ، قدر الإمكان .

■ يبدو أن المؤلف يرى بأن الفتنة ملازمة لإراقة الدماء . فإذا توقف سيل الدم ، انقطع دابر الفتنة . ولكن القرآن الكريم يقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ .

ص ١٩٩ : إن هذا الاقتراح الحكيم النابع من روح ابن النبي (ص) الباحثة عن الصلح والسلام ، توضح لنا جيداً ، بأن الإمام وبعدهما أصبح الانتصار العسكري غير ممكن إنما كان يسعى لاجتناب المجابهة ، وتركيز جهده ، ونشاطه ، في هذه المرحلة ، في الدفاع ، والمحافظة على القوى التعبوية ، التابعة لأهل بيت العصمة والنبوّة ، كذخيرة احتياطية يمكن الاستفادة منها ، في مناسبات أخرى ، عندما تحين الساعة المؤاتية لإحياء الإسلام ، وإنقاذه .

■ مرة أخرى يتحدث المؤلف عن الصلح ! والفرصة المناسبة هنا بالنسبة للمؤلف ، تنحصر برأيه في حصول التوازن في ميزان القوى ، أو التفوق المادي لصالح قوى الإمام .

ص ٢٠١ : كما تبين بوضوح أن المرحلة الثالثة للتحرك الحسيني حيث إمكانية إقامة السلطة والحكومة ، صارت مستحيلة ، فإن نظرية الإمام صارت متجهة نحو ترك المخاصمة قدر الإمكان ، وإقامة صلح مُشْرِف لتجنب المواجهة العسكرية ، وإراقة الدماء .

■ أي صلح مُشْرِف هذا ؟!

ص ٢٠١ - ٢٠٢ : إن الإمام كان على يقين بأن استسلامه لعبيد الله بن زياد يعني أنه سيقتل قتلاً ذليلاً . ودليل ذلك أن جواب الإمام إلى قيس بن الأشعث الذي جاء ليعرض عليه الاستسلام لابن زياد ، مع ضمان عدم التعرض لحياته هو التالي : « أنت أخو أخيك ! أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل » . أي إنك تريد أن تتحمل جُرم إراقة دمي مثل أخيك محمد بن الأشعث الذي أتى بالأمان لمسلم ، ولم يتوان ابن زياد عن قتله . وبذلك تكون

مُطالباً بدمي ، وبدم مسلم ، من قبل بني هاشم .

■ وهل يعتقد المؤلف إذاً، أنه لو لم يقم ابن زياد بقتل الحسين (ع) ، فإنّ الحسين كان سيقبل بالعيش الدليل إلى جانب ابن زياد ؟ ! لكنني أرى بأنّ المقصود من هذه العبارة ليس هذا التفسير الذي ذهب إليه المؤلف على كل حال .

ص ٢٠٥ : إنّ الإمام قدّم ثلاثة مقترحات لابن سعد ، وأيّ منها كان سيقبل به الطرف الآخر ، كان بلا شك حافظاً للصالح والسلام .

■ وماذا كانت هذه المقترحات الثلاثة ؟ يبدو أنّ أحدها التسليم بدون قيد أو شرط ، وهو ما ينجل المؤلف من ذكره .

ص ٢٠٨ : لو أنّ معاهدة الصلح قد وقّعت بين الطرفين في المرحلة الثالثة لقيام الإمام ، لكانت قد حملت بعض النتائج القيّمة معها :

١ - لما كان قد قُتل الإمام بتلك الطريقة الوحشية والمُفجعة ، والتي أدّت إلى خسارة الأمة الإسلامية ، لمثل ذلك الوجود الطاهر والمُقدّس ، وهو الذُخر الربّاني العظيم ، وقائد أهل بيت العصمة والرسالة ، ولما كان الإسلام قد تلقى مثل هذه الضربة ، التي لا يمكن تعويضها ، مع ما يعني ذلك من فقدان الأمة ، وحرمانها من بركة ذلك القائد العظيم .

■ إنّ الأمة كانت محرومة من بركة هذا الإمام ، والقائد العظيم ، حتى في زمن حياته .

ص ٢٠٩ : ٣ - وإنّ كان موت يزيد غير قابل للتنبؤ إلّا أنّ من الآثار القطعية المتوقعة للصلح يمكن أن تكون : بعد ثلاث سنوات من واقعة كربلاء مات يزيد وعندما جاء دور ابنه معاوية فقد رفض تولي الخلافة من بعده ، الأمر الذي جعل العائلة الأموية تعيش حالة اضطراب ، وقلق ، وظهور علامات ضعف شديدة ، كان أبرز معالمها مبايعة مروان بن الحكم لعبد الله بن الزبير .

■ كل هذه النتائج من آثار شهادة الحسين (ع) ، وليست بمعزل عن آثار الواقعة التاريخية أبداً .

ص ٢١١ - ٢١٢ : في حين أنه ينبغي القول : إذا كان الإمام الحسن المجتبي (ع) قد أمضى عشر سنوات في حالة صلح مع معاوية ، فإن الإمام الحسين (ع) قد أمضى عشرين سنة من الصلح مع معاوية ، عشرة منها في زمن أخيه الحسن (ع) ، وعشرة أخرى قضاها بعد موت أخيه (ع) حتى نهاية - عهد معاوية - .

■ لا الإمام الحسن (ع) كان في حالة صلح مع معاوية ، إذ سرعان ما نقض معاوية معاهدة الصلح المعروفة ، ولا الإمام الحسين (ع) ، إذ إن عدم القيام بالثورة غير الصلح .

ص ٢١٢ : إن خطأ هذه الفتنة من الناس هو في عدم تشخيصها وإدراكها الصحيح لثورة الإمام الحسين (ع) ، الأمر الذي جعلها تقع بمثل هذا الانحراف . في حين أنهم لو تدارسوا الحوادث التاريخية بدقة أكثر ، لفهموا ، كيف أن الإمام الحسين وبعد أن انهزمت القوى الشعبية العراقية ، قد سعى في الواقع كثيراً من أجل استقرار الصلح والسلام ، ولم يكن أبداً يرغب في محاربة يزيد ، وهو يفتقر إلى وجود القوة الكافية . وعليه نقول إن النهج السياسي للإمام الحسين (ع) ، هو نفس النهج السياسي لأخيه الإمام الحسن (ع) ، مقابل حكومة بني أمية ، ولا يوجد بالتالي أي فارق بينهما ، اللهم إلا إذا كان الفارق هو بين حكومة معاوية ، وحكومة يزيد . نعم فحكومة معاوية كانت راغبة في الصلح بينما عمال يزيد لم يقبلوا الصلح ، وهذا الاختلاف لا يجوز وضعه بحساب الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام .

■ إن الإمام الحسين (ع) لم يُصرّح بالصلح في أيّ موقع أو مكان . وإذا ما افترضنا أنه حاول تجنب المواجهة ، أو المعركة ، فإن ذلك شيء آخر غير الصلح .

وأما عن معاوية ورغبته في الصلح ، فكيف نرى رغبة معاوية في الصلح وهو الذي نقض معاهدة الصلح منذ اليوم الأول .

ص ٢١٣ : الحقيقة إن الإمام المجتبي عليه السلام لم يُعط حقه كما يجب وكما يليق بمقامه الكريم في أوساط المجتمع الشيعي .

■ لكن المؤلف أضاف إلى ذلك بأنّه جعل حق الإمام الحسين (ع) يُفَرِّط به أيضاً .

ص ٢١٥ : وفي الدرجة الثالثة أيّ بعد أن رفض عُمّال السلطة اليزيدية اقتراح الصلح وأصبح الإمام على يقين بأنّ استسلامه للسلطات يعني قتله بطريقة مُدَلَّة فإنه دافع عن نفسه بعد أن بدأه العدو بالهجوم .

■ لماذا إذن ترك شباب أهل البيت وأصحابه يُقتلون ؟

انتهى الجزء الثالث ، وبانتهائه نصل إلى خاتمة الكتاب والحمد لله .



محتويات الجزء الثالث من كتاب الملحمة الحسينية

القسم الأول

٥	الجدور التاريخية لواقعة كربلاء
٥	كيف قتلت أمة النبي ابن النبي ؟!
٧	الحوادث الغامضة في صدر الإسلام
١٥	القاعدة الشعبية لعلي (ع) وأشكال مكافحة معاوية لها
٢٣	الإمام الحسين (ع) وسائر المصلحين العظام
٢٦	قيمة الشهيد والشهادة في المجتمع
٢٦	بين منطق المصلحة ومنطق الحقيقة
٢٧	الهدف المقدس وحسن السموّ والقداسة
٣٠	الثورات المقدسة
٣١	وجود الإدراك المتين في النهضة الحسينية
٣٧	الخلاصة في بحث العوامل المؤثرة في شهادة الإمام
٣٨	علل تقديس الثورات
٤٤	لقب « سيد الشهداء »
٤٦	أصحاب الحسين وأهل بدر ، وأهل صفّين
٤٦	النضال ضدّ الجهل والظلم
٤٧	لماذا خرج الكوفيّون لقتال الحسين (ع)
٤٨	ركنا الفخر والاعتزاز لدى أبي عبد الله

- ٤٩ بيان القرآن حول فلسفة قيام المصلحين الربانيين
- ٥٣ ما معنى الرجل العظيم ؟
- ٥٩ الأساس في وقوع الفاجعة أن الإمام أبي أن يبيع رأيه ومعتقده
- أرض كربلاء مسرح للمعنويات والروحانيات ، وليست معرضاً
- ٦٠ للجنايات البشرية
- ٦٢ لماذا انقلب « الحر » في كربلاء ؟
- ٦٢ لم يلتحق أحد من أصحاب الحسين بالعدو ، والعكس هو ما وقع !
- ٦٣ أكثر الجوانب إيلاًماً في شهادة « سيد الشهداء »
- ٦٥ النهضة الحسينية مدرسة لإلهام المصلحين ، وليست لإفراز المذنبين
- ٦٥ الحسين (ع) يستشهد ثلاث مرات
- ٦٦ سمات السياسة الأموية : إثارة العصبية العرقية ، وترويج الشعر
- ٧١ الرضى والتسليم
- ٧٣ المنطق التقليدي لأهل المنبر : الحديث عن شهادة ومظلومية أبي عبد الله
- ٧٦ هل تلقى الإمام الحسين (ع) أمراً خاصاً بالتحرك ؟
- ٨٠ الفرق بين معاوية ويزيد
- ٨٣ لماذا استشهد الإمام الحسين (ع) ، ووصايا الأئمة (ع) بإحياء الذكرى
- ٨٧ مسألة البكاء على « سيد الشهداء »
- ٨٩ تحريف الكلمة - تحريف واقعة الإمام الحسين
- ٩١ الإمام الحسين (ع) والحد الفاصل بين القيام والتمرد
- ٩١ أثر النهضة الحسينية
- ٩٢ الوجهان البارزان لحادثة كربلاء
- ٩٥ عوامل النهضة الحسينية
- ١١١ الحسين وأصحابه في ليلة عاشوراء
- ١١٣ موضوعات حول النهضة الحسينية

- معاوية ، وقميص عثمان ، واغتصاب الخلافة ١١٣
- أصحاب بني أمية يحاربون دينهم في كربلاء ١١٥
- كرامة آل علي (ع) في استخدامهم لأدوات النصر ١١٥
- تحليل روحية قتلة « سيد الشهداء » ١١٦
- منشأ الخلاف بين آل علي (ع) وآل معاوية ١١٨
- عداء أبي سفيان للإسلام ١١٩
- مقدمات ولاية عهد يزيد ١٢٠
- استقلال الأمويين لفكرة إلغاء العصية في الإسلام ١٢٣
- الحرب الإعلامية لمعاوية ضد العلويين ١٢٣
- قصة زينب بنت إسحق ١٢٤
- التربية الهاشمية والتربية الأموية في الجاهلية ١٢٤
- الخلق الهاشمي والخلق الأموي ١٢٥
- أخلاق معاوية لم تكن من الفضيلة على شيء ١٢٦
- النسب الشريف للإمام الحسين (ع) وأثره في واقعة عاشوراء ١٢٨
- بلاغة الإمام الحسين (ع) في حديثه لأبي ذر الغفاري (رض) ١٢٨
- نشأة يزيد وصفاته الروحية ، وخلفيته التربوية والأخلاقية ١٣١
- « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » ! ١٣٦
- يزيد ومستشاريه ١٣٩
- رفض الحسين لسلوك الطريق الفرعية ١٤٣
- كراهية أبي عبد الله للشروع بالقتال والحرب ١٤٣
- تولي عمر بن سعد المهمة ١٤٤
- كراهة الناس الباطنية للخروج إلى حرب الحسين (ع) ١٤٤
- فلسفة النهضة الحسينية ١٤٧
- المعنويات العالية لأصحاب الإمام الحسين (ع) ١٤٩
- منطق ابن عباس ومنطق الإمام الحسين (ع) ١٥١
- الصفات التي برزت من أبي عبد الله في كربلاء ١٥٢

١٥٣..... فلسفة الحرب بين النور والظلام بين البشر

١٥٥..... روحية أصحاب ابن زياد ومعنوياتهم

١٥٥..... الحبث الباطني لأصحاب عمر بن سعد

١٥٧..... النظام والانضباط لدى أصحاب « سيد الشهداء »

١٥٨..... شجاعة أصحاب أبي عبد الله ، وتراجع جند عمر بن سعد

١٥٩..... قائمة بالأعمال الدنيئة التي صدرت عن جيش عمر بن سعد

١٦٠..... ثلاثة أعمال ليزيد سببت زوال ملك بني أمية

١٦١..... مكافأة « سيد الشهداء » في الدنيا ، وفلسفة تعظيم شعائر عاشوراء

القسم الثاني

١٦٣..... ملاحظات حول ماهية النهضة الحسينية

١٦٨..... كيف تعامل الإمام الحسين (ع) مع عامل البيعة

١٦٩..... كيف تعامل الإمام مع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٧١..... وأما كيفية تعامل الإمام مع موضوع دعوة أهل الكوفة

١٨١..... أسئلة حول النهضة الحسينية

١٨٦..... ملاحظات حول النهضة الحسينية

القسم الثالث

٢٠٩..... الإمام الحسين (ع) وعيسى المسيح (ع)

٢٠٩..... ولادة « سيد الشهداء » (ع)

القسم الرابع

٢٢٥..... ملاحظات حول عامل الأمر بالمعروف في النهضة الحسينية

٢٢٥..... مدخل إلى الملاحظات

٢٣١..... ملاحظات عامة

القسم الخامس

٢٣٥.....	ملاحظات حول التحريفات الحاصلة في واقعة عاشوراء التاريخية
٢٣٥.....	التحريف في واقعة عاشوراء
٢٣٨.....	التحريفات اللفظية
٢٤٠.....	التحريفات المعنوية
٢٦٢.....	دوافع التحريف
٢٦٩.....	مسؤوليتنا
٢٧٥.....	مسؤولية العوام وواجباتهم
٢٧٩.....	الرشد الاجتماعي
٢٨٣.....	ملاحظات

القسم السادس

٢٨٥.....	نقد كتاب « الحسين وارث آدم »
٢٨٥.....	« الحسين وارث آدم »
٢٨٨.....	استنتاج

القسم السابع

٢٩١.....	ملاحظات حول الحماسة الحسينية
٣٠٥.....	الخلاصة
٣٠٧.....	حماسة « سيد الشهداء »

القسم الثامن

٣١١.....	ملاحظات حول عامل التبليغ في النهضة الحسينية
٣١١.....	عامل التبليغ في النهضة الحسينية
٣١٨.....	مثال البعد التوحيدي والعرفاني
٣١٩.....	مثال التمرد
٣١٩.....	مثال البعد الحماسي ، ومظاهر المروءة والشرف
٣١٩.....	مثال البعد الأخلاقي

٣٢٠.....	مثال بعد الموعظة
٣٢٠.....	مثال المبادئ الاجتماعية ، والمساواة الإسلامية

القسم التاسع

٣٣١.....	ملاحظات متفرقة
٣٣١.....	هل كان الإمام الحسين (ع) يعمل بتعليمات خصوصية ؟
٣٣٢.....	واقعة كربلاء ، أو الرسالة التي كتبت بالدم
٣٣٥.....	« سيد الشهداء » عظمة في الروح وعدم استقرار في البدن
٣٣٨.....	العظمة ونبل الروح وجلالها
٣٤٠.....	كلمات الحسين بن علي (ع) أو شعارات الإمام
٣٤١.....	بلاغة الحسين
٣٤٢.....	تأثير الأفكار المسيحية في واقعة كربلاء
٣٤٤.....	المراثيات الحسينية - رثاء الجن
٣٤٥.....	الإمام الحسين (ع) والأصحاب وأبو الفضل العباس (ع)
٣٤٦.....	شعارات كربلاء التاريخية
٣٤٧.....	الرسالة الحسينية
٣٤٧.....	دور المرأة في واقعة كربلاء
.....	« سيد الشهداء » وكرامة النفس

٣٤٧

٣٤٨.....	الإمام الحسين ، ثورة دموية
----------	----------------------------

القسم العاشر

٣٤٩.....	حواشٍ نقدية حول كتاب « الشهيد الخالد »
٣٤٩.....	توضيح
٣٧٧.....	المحتويات





